
الدين .. والدجل
(١٠)
التراث السلفي
تحت المجهر
د. نور الدين أبو لحية

هذا الكتاب

يتناول هذا الكتاب عرضا موجزا للتراث السلفي في أهم مجالاته من علوم القرآن والحديث والعقيدة والفقه والسيرة والتاريخ والعلوم العقلية والعلوم الكونية.

وهو يسلط مجهر النقد على ما تضمنه هذا التراث من انحرافات عن المنهج القرآني في عرض الحقائق والتعامل معها.

وهو يوظف للدلالة على ذلك الكثير من الشواهد والأدلة والأمثلة التي تكفي لبيان ما جره هذا التراث على الأمة من ويلات ونكبات وتخلف وانحراف عن الدين الإلهي الأصيل.

وهو فوق ذلك كله نصيحة لأصحاب هذه المدرسة لمراجعة تراثها وتنقيته وتطهيره من تلك المعارضات التي تضع الحوائل الكثيرة بينها وبين الدين الأصيل الذي دل عليه القرآن الكريم أولا، ودلت عليه السنة المطهرة ثانيا، ودل عليه معهما العقل السليم الذي لا يمكن أن يفهم الدين إلا به.

الدين والحياة

(10)

التراث السلفي تحت المجهر

د. نور الدين أبو لحية

الطبعة الأولى

1436 – 2015

دار الأنوار للنشر والتوزيع

بسم الله الرحمن الرحيم

فهرس المحتويات

المقدمة 6
التراث السلفي .. والقرآن 11
أولا ـ تشويه الحقائق القرآنية. 20
1 ـ تشويه الحقائق العقدية: 24
2 ـ تشويه الحقائق الكونية: 34
ثانيا ـ تشويه القيم القرآنية. 42
التراث السلفي .. والحديث 52
أولا ـ الطائفية في التعامل مع الحديث رواية ودراية: 60
المثال الأول: موقف السلفية من الكوثري: 65
المثال الثاني: موقف السلفية من الغماري: 70
ثانيا ـ الذاتية في قبول الرواة ورفضهم: 73
ثالثا ـ الذاتية في تحديد علل الحديث: 80
رابعا ـ الذاتية في تفسير الأحاديث وتأويلها: 87
خامسا ـ مزاحمة الحديث بالرواية عن السلف: 92
التراث السلفي .. والعقيدة 98
أولا ـ تحريف العقائد الإسلامية: 102
1 ـ التصورات الوثنية لله: 103
2 ـ التصورات الإسرائيلية للنبوة: 124
3 ـ التصورات الخرافية للعوالم الغيبية: 129
ثانيا ـ إضافة عقائد جديدة: 141
1 ـ العقيدة في الصحابة: 141
2 ـ فروع فقهية: 151
التراث السلفي.. والفقه 163
أولا ـ أحكام الجوانب التعبدية: 164
المثال الأول: تحريم السلفية الصلاة مع سائر المسلمين: 169
المثال الثاني: مخالفة السلفية لسائر المسلمين في مواقيت الإفطار: 181
المثال الثالث: تبديعهم لبعض الممارسات التعبدية الجماعية: 183
ثانيا ـ أحكام الجوانب الشخصية: 192
1 ـ أحكام الرجال: 193
2 ـ أحكام النساء: 204
ثالثا ـ أحكام الجوانب الاجتماعية: 221

1 ـ العلاقات الاجتماعية مع المخالفين لهم من المسلمين: 222
2 ـ العلاقات الاجتماعية مع المخالفين لهم من غير المسلمين: 235
رابعا: أحكام الجوانب السياسية: 242
1 ـ الولاء المطلق للسلطة: 244
2 ـ المعارضة المطلقة للسلطة: 255
التراث السلفي.. والسيرة والتاريخ 259
أولا ـ جانب التحقق من الأحداث التاريخية: 261
1 ـ التساهل مع الرواة: 262
2 ـ الكذب على المخالفين: 275
3 ـ تقبل الخرافة: 289
4ـ الولع بالتفاصيل: 304
ثانيا ـ جانب العبرة من الأحداث التاريخية: 307
التراث السلفي.. والعلوم العقلية 317
أولا ـ التراث السلفي والمنطق: 320
ثانيا ـ التراث السلفي والفلسفة: 328
ثالثا ـ التراث السلفي وعلم الكلام: 332
رابعا ـ التراث السلفي والعقلانية: 342
التراث السلفي.. والعلوم الكونية 357
أولا ـ الموقف السلبي من العلوم الكونية: 362
1 ـ موقف المتقدمين من العلوم الكونية: 362
2 ـ موقف المتأخرين من العلوم الكونية: 372
ثانيا ـ المعارف السلفية في العلوم الكونية: 392
هذا الكتاب 416

المقدمة

يـذكر السـلفية بفخـر واعـتزاز الكتب الكثـيرة الـتي تركهـا سلفهم الأول، والتي تشمل أكـثر المعـارف والعلـوم، والـتي لم يزاحمهم فيها أحد من المتقدمين أو المتأخرين.

فقـد كتب سـلفهم في علـوم القـرآن والحـديث والعقيـدة والفقه والسيرة والتاريخ والعلوم العقلية والعلوم الكونية الكتب الكثيرة الـتي لا يمكن عـدها ولا إحصـاؤها من كثرتهـا، وتشـعب المجالات التي بحثت فيها.

وهم يرددون بفخر بأن كل علم من أعلام سـلفهم وخلفهم ترك الكثير من التراث المعرفي في كل المجالات السابقة..

فقد كتب الطبري مثلا في التفسير كتابـه المعـروف الـذي أثنى عليـه ابن تيميـة كثـيرا (جـامع البيـان في تفسـير القـرآن) والذي طُبع في ثلاثين جزءًا، ويعتبر من أكبر التفاسـير القديمـة، بل يذكرون أنه رغب أن يُمليَ على طلابه فيه ثلاثين ألف ورقة، فما قدَرُوا، فلخَّصَه إلى ثلاثة آلاف ليسهل حفظه بنظرته.

وكتب في التاريخ كتابه المعروف (تاريخ الرسل والملوك)، وهو كتاب ضخم أيضا، وبدأ فيه من أخبار آدم عليـه السـلام إلى عصره.

وكتب في (تهذيب الآثار، وتفصيل معاني الثابت عن رسول الله ﷺ من الأخبار)، والذي جمع فيه الكثير من الآثار والأخبار.

وكتب في (اختلاف الفقهــاء) كتابــه المعــروف (اختلاف علمـاء الأمصـار في أحكـام شـرائع الإسـلام)، والـذي ذكـر فيـه المسائل الخلافيـة بين المجتهـدين؛ كالأئمـة الثلاثـة: أبي حنيفـة ومالك والشافعي، وذكر فيه قول الأوزاعي والليث ونحوهم.

وكتب في الأخلاق كتابــه (أدب النفــوس الجيــدة والأخلاق النفيسـة)، والمعنـون أيضـا بــ (أدب النفس الشـريفة والأخلاق الحميدة)

وكتب في (آداب القضــاة)، و(آداب المناســك)، و(بســيط القول في أحكام شرائع الإسلام)، و(التبصير في معالم الـدين)، و(الخفيف في أحكام شرائع الإسلام)..

وغيرهــا من الكتب الكثــيرة حــتى قــال فيــه الخطيب البغدادي: (وكان قد جمع من العلوم ما لم يشاركه فيه أحـد من أهل عصره، وكان حافظا لكتاب اللـه، عارفـا بـالقراءات بصـيرا بالمعـاني، فقيهـا في أحكـام القـرآن، عالمـا بالسـنن وطرقهـا صحيحها وسقيمها وناسخها ومنسوخها، عارفـا بـأقوال الصـحابة والتــابعين، ومن بعــدهم من الخــالفين في الأحكــام، ومســائل الحلال والحـرام، عارفـا بأيـام النـاس وأخبـارهم، ولـه الكتـاب

المشـهور في تـارخ الأمم والملـوك، وكتـاب في التفسـير لم يصنف أحد مثله، وكتاب سماه (تهـذيب الآثـار) لم أر سـواه في معناه إلا أنه لم يتمه، وله في أصول الفقه وفروعه كتب كثيرة، واختيار من أقاويل الفقهاء)(1)

ويحكي عن بعضهم: أن محمد بن جرير مكث أربعين سـنة يكتب في كل يوم منها أربعين ورقـة.. وعن آخـر أنـه لـو سـافر رجل إلى الصين حتى يحصل له كتاب تفسير محمد بن جرير لم يكن ذلك كثيرا، وعن أبي القاسم بن عقيل الوراق، أن أبا جعفر الطبري قـال لأصـحابه: أتنشـطون لتفسـير القـرآن؟ قـالوا: كم يكون قدره؟ فقال: ثلاثون ألـف ورقـة. فقـالوا: هـذا ممـا تفـنى الأعمار قبل تمامه، فاختصره في نحو ثلاثة آلاف ورقة. ثم قال: هل تنشطون لتـاريخ العـالم من آدم إلى وقتنـا هـذا؟ قـالوا: كم قدره؟ فذكر نحوا مما ذكره في التفسـير فأجـابوه بمثـل ذلـك، فقال: إنا لله ماتت الهمم(2).

وهكذا يذكرون بـاعتزاز قـول الـذهبي في ابن تيميـة: (إنـه صار من أكابر العلمـاء في حيـاة شـيوخه... ولعـل تصـانيفه في هذا الوقت تكون أربعةَ آلاف كُرَّاسٍ وأكثر، وفسَّـر كتـاب اللـه -تعالى- مـدة سـنين من صـدره أيـامَ الجُمَـع، وكـان يتوقَّد ذكـاءً، وسماعاته من الحديث كثـيرة، وشـيوخه أكـثر من مـائتي شـيخ، ومعرفتــه بالتفســير إليهــا المنتهى، وحفظــه للحــديث ورجالــه وصحيحه وسقيمه مما لا يُلحق فيه، وأما نقلـه للفقـه ولمـذاهب الصحابة والتابعين، فضلاً عن المذاهب الأربعة، فليس له نظــير، وأما معرفتُه بالملل والنِّحَل، والأصول والكلام، فلا أعلم لـه فيـه مثيلاً، ويدري جملةً صالحة من اللغة، وعربيَّتُـه قويـة جـدًّا، وأمـا معرفته بالتاريخ والسير فعجبٌ عجيب)(3)

ويذكرون قول تلميذه ابن عبدالهادي: (وللشيخ رحمـه اللـه من المصنفات والفتاوى والقواعد والأجوبة والرسائل وغير ذلك من الفوائد ما لا ينضبط، ولا أعلم أحـداً من متقـدمي الأئمـة ولا متأخريها جمع مثل ما جمع، ولا صنّف نحـو مـا صـنّف ولا قريبـاً من ذلك)(4)

هـذه مجـرد أمثلـة ونمـاذج عن اجتهـاد السـلفية سـلفهم وخلفهم في التأليف في كل المجـالات المعرفيـة.. وهـو ممـا لا يمكن أن ينازعهم فيه أحد، فالمكتبـات مليئـة بكتبهم، والمواقـع الإلكترونية المختصة بكتب الـتراث لا تكـاد تعـرف غـير آثـارهم، ومثــل ذلــك الكتب الحديثــة، فهي من الكــثرة بحيث لا يمكن

1() تاريخ بغداد (2/ 548)
2() تاريخ بغداد (2/ 548)
3() انظر: الأعلام العلية في مناقب ابن تيمية ص 26.
4() العقود الدرّية في بعض مناقب ابن تيمية، ص37..

إحصاؤها أو التقليل من شأنها.
ولكن المشكلة التي نريد طرحها في كتابنا هذه ليست في الكم، وإنما في الكيف.. فهل هذه الكتب أو هذا التراث العريض الذي يفخرون به، والذي يزعمون ارتباطه بالكتب والسنة، بل يزعمون أنه لا يمكن أن يفهم الكتاب والسنة إلا من خلاله، ينتسب حقا للكتاب والسنة، وأنه شرح لهما، وتفصيل لمجملهما، وكشف لغامضهما، أم أنه ليس سوى اجتهادات بشرية أثرت فيها البيئة والثقافة والعادات والتقاليد، وأنه بذلك أصبح خليطا من المقدس والمدنس والهوى والحقيقة؟
والتساؤل الذي يأتي بعد هذا عن علاقة هذا التراث بالعقل، وخاصة العقل الحديث الذي كشفت له الكثير من المعارف والعلوم التي لم يكن يتسنى للسلف الأول الاطلاع عليها، وهل يستطيع التراث السلفي ـ وخاصة وهو يقحم أنفه في كل شيء ـ أن يصمد أمام هذا الواقع العلمي، أم أنه سينهار، كما انهارت نظريات بطليموس أمام علم الفلك الحديث؟
والتساؤل الذي يأتي بعد هذا .. وهو من أهم التساؤلات .. هو عن نوع الشخصية التي يشكلها من يتقوت من هذا التراث.. وهل هي شخصية علمية عقلانية قرآنية ممتلئة بالأدب والتواضع، أم أنها شخصة مشحونة بالأحقاد، تخلط التدين بكل الأمراض النفسية والعقد العصبية، ولا تستطيع أن تنسجم مع واقعها، ولا تستطيع أن تتعايش معه؟
هذه هي التساؤلات الكبرى التي يحاول هذا الكتاب أن يجيب عليها، كما تحاول هذه السلسلة جميعا [الدين .. والدجل] أن تجيب عليها.
وقد قسمنا الكتاب بحسب أقسام التراث السلفي إلى سبعة أقسام، كل قسم يتناول صنفا من أصناف العلوم الكبرى التي اهتم بها السلفية وصنفوا فيها.
ونحب في هذه المقدمة أن نجيب باختصار على شبهة قد تعرض لمن يقرأ هذا الكتاب، وخاصة لمن يطلع على سعة التراث السلفي، فيتعجب عن كيفية عرض هذا التراث ونقده في هذه الصفحات المحدودة.. والجواب على ذلك من وجوه:
أولها: أن التراث السلفي مع كثرته وسعته ممتلئ بالتكرار.. فكل سلفي يكرر سلفه ويعيد إحياءه من جديد، إما بهيئته التي ظهر بها أول مرة، أو ببعض النفخ فيه ليتحول إلى شخص مقدس، بعد أن كان شخصا عاديا.. فابن خزيمة مثلا كان في عصره عالما كسائر العلماء، ومحدثا كسائر المحدثين.. لكن من بعده حوله إلى إمام..ومن بعده حوله إلى إمام الأئمة..

فصار الآن يعرف بإمام الأئمة.

وهكذا ابن تيمية وابن القيم والـذهبي .. وغـيرهم.. والـذين تحولوا جميعا إلى أيقونات مقدسـة لا ينقص السـلفية سـوى أن يصـلوا عليهم مـتى ذكـروهم، بـل لا ينقصـهم سـوى أن يضـيفوا إليهم ما يضيفونه إلى الله من عزة وتعال وجلال.

ثانيا ـ أننا في هـذا الكتـاب سـنركز على القضـايا الكـبرى التي تميز بها التراث السلفي، ولا نهتم كثيرا بالتفاصيل .. اللهم إلا إذا احتجنا إليها للدلالة على أمر، أو توضـيح قضـية.. والهـدف منهـا ليس التفاصـيل في حـد ذاتهـا، وإنمـا القضـية الـتي نريـد إثباتها، والتي لم نر وسيلة للدلالة عليها سوى تلك التفاصيل.

ثالثا ــ نحن لا ننكـر أن يكـون في الـتراث السـلفي بعض المحاسـن، أو الكثـير من المحاسـن.. ولكنهـا وحـدها لا تكفي، فمفسدة واحدة قد تقضي على المحاسن جميعـا، والشـيطان لا يضع سم مكره إلا في عسل كثير من المحاسن.. ولهـذا حاولنـا في هذا الكتاب أن نسلط مجهر التحقيق على تلك الفيروسـات التي تكمن في التراث السلفي لتنحرف به إلى خدمة المشروع الشيطاني، ومواجهة المشروع الرباني.

وفي ختام هذه المقدمة نذكر أن هذا جهد المقل، وأن مثل هذه الأعمال تحتاج إلى دراسات نقدية كثيرة، مع جـرأة كبـيرة، لأنه لا يمكن تمييز الدين من الدجل إلا بالبحث الجريء الصـادق الـذي يعتمـد القـرآن والعقـل وسـائل للتصـحيح والسـير على الصراط المستقيم.

التراث السلفي .. والقرآن

لا ينكر أحـد من النـاس اهتمـام السـلفية بـالقرآن الكـريم حفظا وتلاوة وترتيلا، حتى أنـه روي عن سـلفهم أنـه كـان منهم من يختم القـرآن كـل يـوم مـرة، وكـان بعضـهم يختم في قيـام رمضان كل ثلاث ليال، وبعضهم في كل سبع، وبعضـهم في كـل عشر.. ويـروون عن قتـادة أنـه كـان يختم في كـل سـبع دائمًـا، وفي رمضان في كل ثلاث، وفي العشر الأواخـر في كـل ليلـة.. وكــان الزهــريُّ إذا دخــل رمضــان يفــرُّ من قــراءة الحــديث، ومجالسة أهل العلم، ويُقبِل على تلاوة القـرآن من المصـحف.. وكان سفيان الثوري إذا دخل رمضان ترك جميع العبـادة وأقبـل على قراءة القرآن(1).

وهكذا نجدهم في عصـرنا الحـديث يهتمـون بتلاوة القـرآن الكريم، وترتيله، ولهم قنواتهم الكثيرة المختصة بذلك، بالإضافة لكثرة قرائهم ومرتليهم الذين لقوا شهرة كبيرة بسبب أصواتهم العذبة، وأدائهم الماهر، وتـدقيقهم الكبـير في مخـارج الحـروف وأحكام التلاوة.

بالإضافة إلى هذا نجد اهتمامهم الشديد ـ من لدن سلفهم الأول ـ بالتصنيف في تفسـير القـرآن الكـريم وعلومـه، بـل إننـا نجــدهم أول من بــادر إلى ذلــك.. فمن أوائــل مــا صــنف في التفسير يزيد بن هارون السلمى المتوفى سنة 117هـ، وشــعبة بن الحجاج المتوفى سـنة 160هــ، ووكيـع بن الجـراح المتـوفى سنة 197هـ وسفيان بن عيينة المتوفى سنة 198هــ، وروح عن عبادة البصرى المتـوفى سـنة 205هــ، وعبـد الـرزاق بن همـام المتوفى سنة 211هـ، وآدم بن أبى إياس المتوفى سنة 220هـ، وعبد بن حميد المتوفى سنة 249هــ وغـيرهم، (وهـؤلاء جميعـاً كانوا من أئمة الحديث، فكان جمعهم للتفسـير جمعـاً لبـاب من أبواب الحديث، ولم يكن جمعاً للتفسير على اسـتقلال وانفـراد، وجميع مـا نقلـه هـؤلاء الأعلام عن أسـلافهم من أئمـة التفسـير نقلوه مسنداً إليهم)(2)

ثم عندما بدأت مرحلة التدوين في التفسير بشكل منفصل عن الحديث كان سلف السلفية أول من بـادر إلى ذلـك، وكـانوا أول من وضـع التفسـير لكـل آيـة من القـرآن، ورُتِّب ذلـك على حسب ترتب المصحف، فقد كـان من أوائـل من وضـع كتبـا في التفسير ابن ماجه المتوفى سـنة 273هــ، وابن جريـر الطـبرى

1() انظر: ابن رجب الحنبلي: لطائف المعارف ص318.

2() التفسير والمفسرون للذهبي (1/ 104)

المتوفى سنة 310هـ، وأبو بكر بن المنذر النيسابوري المتوفى سنة 318هـ، وابن أبى حاتم المتوفى سنة 327هـ، وأبو الشيخ بن حبان المتوفى سنة 369هـ، والحاكم المتوفى سنة 405هـ، وأبو بكر بن مردويه المتوفى سنة 410هـ، وغيرهم من أهل الحديث الذين هم سلف السلفية(1)

وهكذا عندما نذهب للبحث عن الكتب المصنفة في أسباب النزول أو الناسخ والمنسوخ أو غريب القرآن أو غيرها من علوم القرآن الكريم، فإننا نجد سلف السلفية هم أول من بادر إلى ذلك، فقد كتب علي بن المديني شيخ البخاري المتوفى سنة (234 هـ) كتابا في (أسباب النزول)، وكتب أبو عبيد القاسم بن سلّام المتوفى سنة (224 هـ) في (الناسخ والمنسوخ)، وكتب أبو بكر السجستاني المتوفى (330 هـ) في (غريب القرآن)، وكتب عليّ بن سعيد الحوفي في (إعراب القرآن)

وهكذا نجد في العصور التالية: ابن تيمية المتوفى سنة (728 هـ) يكتب رسالة في أصول التفسير، وهي مشتملة على بعض موضوعات علوم القرآن (2).

وقد كان جل اعتماد هذه الكتب على النقل عن الصحابة والتابعين ومن بعدهم، ولذلك لقيت عناية كبيرة من طرف السلفية الذين أثنوا عليها، بل اعتبروها مصادرهم الأساسية في فهم القرآن الكريم، بل لم يحلوا لأحد من الأمة أن يتجاوزها إن أراد أن يفهم كتابه المقدس غضا طريا كما أنزل.

يقول ابن تيمية، وهو يوضح منهج سلفه في التفسير: (إذا لم نجد التفسير في القرآن ولا في السنة رجعنا في ذلك إلى أقوال الصحابة فإنهم أدرى بذلك لما شاهدوه من القرآن والأحوال التي اختصوا بها؛ ولما لهم من الفهم التام والعلم الصحيح والعمل الصالح؛ لا سيما علماؤهم وكبراؤهم كالأئمة الأربعة الخلفاء الراشدين والأئمة المهديين)(3)

وهذا الكلام من ابن تيمية ـ مع جماله الظاهري ـ يحوي مغالطة عظيمة ذلك أن المروي عن هؤلاء الراشدين المهديين ـ كما يقول ـ محصور جدا في كتب التفسير، بل لا يكاد يوجد.. حتى قال السيوطي ـ وهو من أكبر المهتمين بجمع كل ما روي من التفسير بالمأثور ـ: (لا أحفظ عن أبي بكر في التفسير إلا آثارا قليلة جدا لا تكاد تجاوز العشرة)(4)، بل إنهم يروون عنه أنه سئل عن آية، فقال: (أي أرض تسعني؟ أو أي سماء

1() التفسير والمفسرون للذهبي (1/ 105)
2() الواضح في علوم القرآن (ص: 9)
3() مجموع الفتاوى (13/ 364)
4() الإتقان(2/493)

تظلني؟ إذا قلت في كتاب الله ما لم يرد الله؟)(1)
ومثله روي أن عمر قرأ على المنبر قوله تعالى: ﴿فَأَنْبَتْنَا فِيهَا حَبًّا (27) وَعِنَبًا وَقَضْبًا (28) وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا (29) وَحَدَائِقَ غُلْبًا (30) وَفَاكِهَةً وَأَبًّا﴾ [عبس: 27 ـ 31]، ثم قال: كل هذا قد عرفناه فما الأب؟ ثم رفع عصا كانت في يده فقال: هذا لعمر الله هو التكلف فما عليك أن لا تدري ما الأب، اتبعوا ما بين لكم هداه من الكتاب، فاعملوا به، وما لم تعرفوه فكلوه إلى ربه)(2)
وهكذا لا نجد الصحابة الذين ذكرهم ابن تيمية في مصادر التفسير، فلا نجد بلالا ولا عمارا، ولا غيرهم من أهل بدر أو أحد .. ولو أن السلفية اكتفوا بهؤلاء لما وصل تفسير الطبري إلى 25 مجلدا.
لذلك فقد لجأ السلفية إلى التابعين، كما قال ابن تيمية: (إذا لم تجد التفسير في القرآن ولا في السنة ولا وجدته عن الصحابة فقد رجع كثير من الأئمة في ذلك إلى أقوال التابعين كمجاهد بن جبر فإنه كان آية في التفسير كما قال محمد بن إسحاق: حدثنا أبان بن صالح عن مجاهد قال: عرضت المصحف على ابن عباس ثلاث عرضات من فاتحته إلى خاتمته أوقفه عند كل آية منه وأسأله عنها وبه إلى الترمذي قال: حدثنا الحسين بن مهدي البصري حدثنا عبد الرزاق عن معمر عن قتادة قال: ما في القرآن آية إلا وقد سمعت فيها شيئا وبه إليه قال حدثنا ابن أبي عمر حدثنا سفيان بن عيينة عن الأعمش قال: قال مجاهد: لو كنت قرأت قراءة ابن مسعود لم أحتج أن أسأل ابن عباس عن كثير من القرآن مما سألت. وقال ابن جرير: حدثنا أبو كريب قال: حدثنا طلق بن غنام عن عثمان المكي عن ابن أبي مليكة قال: رأيت مجاهدا سأل ابن عباس عن تفسير القرآن ومعه ألواحه قال: فيقول له ابن عباس اكتب حتى سأله عن التفسير كله ولهذا كان سفيان الثوري يقول: إذا جاءك التفسير عن مجاهد فحسبك به. وكسعيد بن جبير وعكرمة مولى ابن عباس وعطاء بن أبي رباح والحسن البصري ومسروق بن الأجدع وسعيد بن المسيب وأبي العالية والربيع بن أنس وقتادة والضحاك بن مزاحم وغيرهم من التابعين وتابعيهم ومن بعدهم)(3)
وكل هؤلاء الذين ذكرهم ابن تيمية هم في الحقيقة أركان التفسير الذي يعتمد عليه السلفية، لأن تفسيرهم القرآن

---

(1) ذكره القرطبي في تفسيره 1 ص 29.
(2) رواه سعيد بن منصور وابن جرير وابن سعد وعبد بن حميد وابن المنذر وابن مردويه والبيهقي في شعب الإيمان والخطيب والحاكم وصححه، انظر: الدر المنثور في التفسير بالمأثور (8/ 421)
(3) مجموع الفتاوى (13/ 368)

بالقرآن محدود جدا، وفي آيات مخصوصة فقط، ومثله التفاسير المنقولة عن رسول الله ﷺ، بل لا يكاد يـذكر منهـا شـيء، ولـو ذكر فإن سند الرواية فيـه عن أولئـك الـذين تشـبعوا بالروايـات الإسرائيلية أو اختلطت أحاديثهم بأحاديث بني إسرائيل، فصارت الأحاديث المرفوعة في ذلك كأحاديث كعب الأحبار نفسها.

وبناء على هذا، فإن التفاسير السلفية معتمدة أساسا على التابعين، وكلهم بلا استثناء تتلمذوا على اليهود، بطريقة مباشرة أو غير مباشرة، واختلطت رواياتهم عن الصـحابة برواياـتهم عن اليهود.

ولذلك نجد علما كبـيرا في التفسـير كمجاهـد والـذي أثـنى عليه ابن تيمية كثيرا باعتباره من تلاميذ ابن عبـاس، وقـال فيـه ابن سعد: (ثقـة فقيـه عـالم، كثـير الحـديث)، وقـال فيـه يحـيى القطان: (أجمعت الأمة على إمامة مجاهد والاحتجاج به)، وقـال فيه الذهبي: (أجمعت الأمة على إمامـة مجاهـد والاحتجـاج بـه)، وقال ابن كثير: (أحد أئمة التابعين والمفسرين، كان من أخصـاء أصحاب ابن عباس، وكان أعلم أهل زمانه بالتفسير حـتى قيـل: إنه لم يكن أحد يريد بالعلم وجه الله إلا مجاهد وطاووس)[1]

نجد هذا العلم الكبير الثقة مثله مثل سـائر السـلف يـروي الكثـير من الإسـرائيليات، وهـو دليـل على أنـه نقلهـا من أهـل الكتاب، فقد كـان يجمـع بين تلمذتـه على ابن عبـاس، وتلمذتـه على الكثير من أهل الكتاب الذين أسلموا وخصوصـا من اليهـود منهم، كعطية القرظى.

ومن الأمثلة على هذا تفسيره لقوله تعالى: ﴿ وَقُولُوا حِطَّةٌ ﴾ [البقرة: 58]، فقد قال في تفسيرها: (بـاب حطـة بـاب إليـاء بيت المقـدس، أمـر قـوم موسـى أن يـدخلوا البـاب سـجدا، ويقولـوا: حطـة، وطـؤطيء البـاب ليخفضـوا رؤوسـهم، فلمـا سجدوا قالوا: حنطة)[2]، وفسر قوله تعـالى: ﴿أَنْـزَلَ السَّـكِينَةَ﴾ [الفتح: 4] قال: (السكينة من اللـه عـز وجـل كهيئـة الـريح لهـا رأس مثل رأس الهرة وجناحان)[3]

وفسر قوله تعالى: ﴿وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ اللَّهَ قَـدْ بَعَثَ لَكُمْ طَـالُوتَ مَلِكًـا﴾ [البقـرة: 247] بقولـه: (فكـان طـالوت على الجيش أميرا، فبعث أبو داود مع داود بشـيء إلى إخوتـه، فقـال داود لطـالوت: مـاذا لي وأقتـل جـالوت؟، قـال: لـك ثلث ملكي وأنكحك ابنتي، فأخذ داود مخلاة فجعل فيها ثلاث مروات - يعني ثلاثة أحجار - وسمى أحجاره إبراهيم، وإسحاق، ويعقوب، فخرج

1() انظـر ترجمتـه في: تهـذيب الكمـال (27/ـ 228)، وسـير أعلام النبلاء (4/ـ 257)، والبداية والنهاية (9/ 224)

2() تفسير مجاهد (ص: 203)

3() تفسير مجاهد (ص: 607)

الذي على اسم إبراهيم فجعله في مرجمته فـرمى بهـا جـالوت فخرق ثلاثا وثلاثين بيضة على رأسه، وقتل ما وراءه ثلاثين ألفـا، يقول: وَاللَّهُ يُؤْتِي مُلْكَهُ مَنْ يَشَـاءُ [البقـرة: 247]، يعـني: سـلطانه، وقـال ابن أبي نجيح: وسـمعت مجاهـدا يقـول: أقبلت السكينة والصرد وجبريل عليه السلام مع إبراهيم خليل الرحمن عز وجل من الشام، قال مجاهد فبلغـني أن السـكينة لهـا رأس كرأس الهرة وجناحان)(1)

بل إننا نجد أعلام السلفية يدافعون عمن وصـفهم سـلفهم بالكذب وبروايـة الإسـرائيليات بـل بالبـدع المختلفـة، ومن ذلـك دفاعهم المستميت عن عكرمـة مـولى ابن عبـاس على الـرغم من تصريح بعض السلف بكونه كذابا، وذلك كاف لرده لو طبقوا منهجهم في الحكم على الأحـــاديث، وفي تقـــديم الجـــرح على التعديل.

يقول السمعوني في ترجمته: (احتج به البخـاري وأصـحاب السنن وتركه مسلم فلم يخرج له سوى حـديث واحـد في الحج مقرونا بسعيد بن جبير، وإنماتركه لكلام مالـك فيـه، وقـد تعقب جماعة من الأئمة ذلك وصنفوا في الـذب عن عكرمـة منهم أبـو جعفر بن جرير الطبري ومحمد بن نصر المروزي وأبو عبد اللــه بن مندة وأبو حاتم ابن حبان وابن عبد البر وغيرهم)(2)

ثم ذكر التهم الخطيرة الموجهة له، فقال ـ مستصـغرا لهـا ـ: (ومدار طعن الطاعنين فيـه على ثلاثـة أشـياء: وهي الكـذب، وموافقة الخوارج في مذهبهم، وقبول جوائز الأمراء)(3)

ثم ذكر جواب المـدافعين عنـه من أعلام السـلفية، فقـال: (ومدار جواب الذابين عنه على أن قبول جوائز الأمراء لا يوجب القدح إلا عند المشددين، وأهل العلم على جواز ذلك وقد صنف في ذلك ابن عبد البر، وأما البدعة فـإن ثبتت عنـه فلا تضـر في روايته، لأنه لم يكن داعية، مـع أنهـا لم تثبت عليـه، وأمـا نسـبته إلى الكذب، فأشـد مـا ورد في ذلـك مـا روي عن عبـد اللـه بن عمر أنه قال لنافع: (لا تكذب علي، كما كـذب عكرمـة على ابن عباس)، قال ابن حبان: (أهل الحجاز يطلقون كـذب في موضـع أخطأ، ويؤيد ذلك قول عبادة بن الصامت: كذب أبو محمـد، لمـا أخبر أنه يقول: إن الوتر واجب، مع أنه لم يقله راوية وإنما قاله اجتهادا، ولا يقال للمجتهد فيما أداه إليه اجتهاده إنـه كـذب فيـه، وإنما يقال أخطأ فيه، وقد ذكر ابن عبـد الـبر أمثلـة كثـيرة تـدل على أن كذب تأتي بمعنى أخطأ، ويتلو ما روي عن ابن عمر في

---

(1) تفسير مجاهد (ص: 241)
(2) توجيه النظر إلى أصول الأثر (1/ 264)
(3) توجيه النظر إلى أصول الأثر (1/ 264)

الشدة ما يروي عن ابن سيرين من قوله لمولاه برد لا تكذب علي كما كذب عكرمة على ابن عباس وقد عرفت ان كذب قد يكون بمعنى أهخطأ، وقال بعض العلماء: كان عكرمة ربما سمع الحديث من رجلين فيحدث به عن احدهما تارة وعن الآخر تارة أخرى فربما قالوا ما أكذبه فربما قالوا ما أكذبه وه صادق، وقال أيوب قال عكرمة أرأيت هؤلاء الذين يكذبونني من خلفي أفلا يكذبونني في وجهي، يعني انهم إذا واجهوه بذلك أمكنه الجواب عنه والمخرج منه، وأما طعن مالك فيه فقد بين سببه أبو حاتم قال ابن أبي حاتم: سألت أبي عن عكرمة فقال ثقة قلت يحتج بحديثه قال نعم إذا روى عنه الثقات والذي أنكر عليه به مالك إنما هو بسبب رأيه على انه لم يثبت عنه من وجه قاطع أنه كان يرى ذلك، وإنما كان يوافقهم في بعض المسائل فنسبوه إليهم وقد برأه أحمد والعجلي من ذلك) (1)

وهكذا استطاع العقل السلفي أن يحتال له كما احتال لغيره، لأنه إن لم يحتل له، ولم يدافع عنه، فستضيع ثروة حديثية كثيرة، وتنقص معها صفحات كثيرة من تراث السلفية في التفسير والعقائد والفقه وغيرها.

وقد ذكر الطبري هذا المبرر عند دفاعه عنه، فقال: (لو كان كل من ادعي عليه مذهب من المذاهب الرديئة ثبت عليه ما ادعي به وسقطت عدالته وبطلت شهادته بذلك للزم ترك أكثر محدثي الأمصار لأنه ما منهم إلا وقد نسبه قوم إلى ما يرغب به عنه)(2)

وهكذا نجد أمثال هذه المرافعات الطويلة عن كل المفسرين من التابعين، والذين اعتمد عليهم التراث السلفي بالدرجة الأولى.. فلا نكاد نجد أحدا منهم إلا وتكلم فيه، ولا نجد أحدا منهم إلا ودافع السلفية عنه دفاع المستميت مستعملين كل أدوات الحيلة التي استفادوها نتيجة تواصلهم الدائم مع اليهود أو تلاميذهم.

وليس الأمر قاصرا على الروايات الإسرائيلية، بل تعداه إلى أمور خطيرة كثيرة، ساهمت في تشويه المعاني القرآنية، بتحويلها إلى معان بشرية مدنسة بالانحرافات التي وقعت فيها سائر الأديان.

لذلك فإن ما يعتبره السلفية مكرمة لسلفهم بالمبادرة لتفسير القرآن الكريم، نراها أكبر بدعة وانحراف ساهم في تحريف القرآن الكريم، وإبعاد الأمة عن معانيه السامية، نتيجة خلطه بتراث الأديان الأخرى، وبالمفاهيم البشرية القاصرة.

1() توجيه النظر إلى أصول الأثر (1/ 264)
2() توجيه النظر إلى أصول الأثر (1/ 266)

ومن العجيب أن السلفية الذين ذكروا من أسباب نهي سلفهم عن تدوين الحديث خشية اختلاطه بالقرآن الكريم، نجدهم هم أنفسهم يخلطون تراث الأمم الأخرى، ومفاهيمهم القاصرة بالقرآن الكريم.. فلا تجد آية حتى لو كانت واضحة الدلالة لا تحتاج إلى تفسير إلا وأمامها ما قال مجاهد أو عكرمة أوقتادة أو كعب أو غيره.

فمع وضوح معنى الكلب في قوله تعالى: ﴿وَكَلْبُهُمْ بَاسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِالْوَصِيدِ﴾ [الكهف: 18] لأن العرب كانت ولا تزال تطلقه على الحيوان المعروف، إلا أن مفسر السلفية الثقة والمشهور ابن جرير يقول في تفسير معنى [الكلب]: (اختلف أهل التأويل في الذي عنى الله بقوله: (وكلبهم باسط ذراعيه) فقال بعضهم: هو كلب من كلابهم كان معهم، وقد ذكرنا كثيرا ممن قال ذلك فيما مضى، وقال بعضهم: كان إنسانا من الناس طباخا لهم تبعهم)(1) .. وهكذا نرى كيف يحرف القرآن الكريم.. فيتحول الإنسان المحترم المبجل إلى كلب.

وهكذا نراه عند تفسير قوله تعالى: ﴿إِنَّ هَذَا أَخِي لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِيَ نَعْجَةٌ وَاحِدَةٌ ﴾ [ص: 23]، فقد قال: (وإنما كنى بالنعجة ها هنا عن المرأة، والعرب تفعل ذلك، ومنه قول الأعشى:

قَدْ كُنْتُ رَائِدَهَا وَشاةِ مُحَاذِرٍ... حَذرًا يُقِلُّ بعَيْنِهِ إغْفَالَهَا

يعني بالشاة: امرأة رجل يحذر الناس عليها، وإنما يعني: لقد ظلمت بسؤال امرأتك الواحدة إلى التسع والتسعين من نسائه)(2)

بناء على هذا، سنحاول هنا أن نسلط مجهر التحقيق والنقد على التراث السلفي المتعلق بالقرآن الكريم لنرى أهم الانحرافات التي سربها للأمة من خلال هذا المصدر العظيم من مصادر الدين.

وقد رأينا أنه يمكن جمعها في انحرافين كبيرين: الأول: هو تشويه الحقائق القرآنية، والثاني: وهو تشويه القيم القرآنية.. وسنتحدث عن هذين المعنيين في المبحثين التاليين:

أولا ـ تشويه الحقائق القرآنية.

مع ورود النهي في القرآن الكريم عن سؤال أحد من الناس عن الحقائق القرآنية، وخاصة اليهود منهم، كما قال تعالى: ﴿وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِمْ مِنْهُمْ أَحَدًا﴾ [الكهف: 22]، وقد فسرها مجاهد بأن المراد منهم اليهود(3).

---

(1) تفسير الطبري (17/ 624)
(2) تفسير الطبري (21/ 179)
(3) تفسير مجاهد (ص: 446)

وهكذا نجد النصوص الكثيرة التي تحذر من خلط الحقائق القرآنية الناصعة بغيرها، إلا أننا نجد التراث السلفي، لم يصغ إلى كل تلك التنبيهات والتحذيرات، وانشغل بسبب هيامه بالحشو والرواية والتصنيف والمبالغة فيها إلى تشويه الحقائق القرآنية تشويها عظيما خلطها بالخرافة والدجل، فأصبح القرآن الكريم بذلك مطية لكل الأساطير والأوهام البشرية.

ومن العجيب أن السلفية ـ مع تشددهم الكبير ـ في فروع الأحكام الفقهية، وخاصة ما يتعلق منها بالشعائر التعيدية من الطهارة والصلاة وغيرها، حيث أنهم يتشددون مع الرواة، ويقومون بالكثير من المقارنات والتحقيقات، ويؤلفون في ذلك الكتب والرسائل، إلا أنهم وفي حقائق القرآن تساهلوا تساهلا عظيما، فأخذوها من كل من هب ودب، حتى قال الإمام أحمد: (ثلاثة كتب ليس لها أصول المغازي والملاحم والتفسير)(1)، وقد علق عليه الزركشي بقوله: (قال المحققون من أصحابه: ومراده أن الغالب أنها ليس لها أسانيد صحاح متصلة) (2)

وهكذا نرى السيوطي ينقل عن الشافعي قوله: (لم يثبت عن ابن عباس في التفسير شبيهٌ بمئة حديث)(3)

وهكذا قال عبد الرحمن بن مهدي ، وهو من من أعلام السلفية الكبار: (إذا روينا في الثواب والعقاب وفضائل الأعمال، تساهلنا في الأسانيد، وتسامحنا في الرجال، وإذا روينا في الحلال والحرام والأحكام، تشدَّدنا في الأسانيد، وانتقدنا الرجال)

بل هكذا نرى ابن تيمية نفسه يعتبر التحقيق في هذا نوعا من الفضول، وكأن الحقائق القرآنية لا أهمية لها حتى يتحدث فيها من شاء كما شاء، يقول في ذلك: (الاختلاف في التفسير على نوعين: منه ما مستنده النقل فقط، ومنه ما يعلم بغير ذلك، إذ العلم إما نقل مصدق، وإما استدلال محقق، والمنقول إما عن المعصوم، وإما عن غير المعصوم، والمقصود بأن جنس المنقول سواء كان عن المعصوم أو غير المعصوم، وهذا هو النوع الأول منه ما يمكن معرفة الصحيح منه والضعيف ومنه ما لا يمكن معرفة ذلك فيه. وهذا القسم الثاني من المنقول، وهو ما لا طريق لنا إلى الجزم بالصدق منه عامته مما لا فائدة فيه فالكلام فيه من فضول الكلام، وأما ما يحتاج المسلمون إلى معرفته فإن الله نصب على الحق فيه دليلا فمثال ما لا يفيد ولا دليل على الصحيح منه اختلافهم في لون كلب أصحاب الكهف، وفي البعض الذي ضرب به موسى من البقرة، وفي مقدار

1() البرهان في علوم القرآن (2/ 156)
2() البرهان في علوم القرآن (2/ 156)
3() الإتقان (2/188-189)

سفينة نوح وما كان خشبها، وفي اسم الغلام الذي قتله الخضر ونحو ذلك، فهذه الأمور طريق العلم بها النقل، فما كان من هذا منقولا نقلا صحيحا عن النبي ﷺ كاسم صاحب موسى أنه الخضر فهذا معلوم وما لم يكن كذلك بل كان مما يؤخذ عن أهل الكتاب - كالمنقول عن كعب ووهب ومحمد بن إسحاق وغيرهم ممن يأخذ عن أهل الكتاب - فهذا لا يجوز تصديقه ولا تكذيبه إلا بحجة .. وكذلك ما نقل عن بعض التابعين وإن لم يذكر أنه أخذه عن أهل الكتاب فمتى اختلف التابعون لم يكن بعض أقوالهم حجة على بعض وما نقل في ذلك عن بعض الصحابة نقلا صحيحا فالنفس إليه أسكن مما نقل عن بعض التابعين لأن احتمال أن يكون سمعه من النبي ﷺ أو من بعض من سمعه منه أقوى؛ ولأن نقل الصحابة عن أهل الكتاب أقل من نقل التابعين ومع جزم)(1)

ونحب أن ننقل هنا للدلالة على هذا التساهل أو الحرص على الحفاظ على التراث الإسرائيلي في تفسير القرآن الكريم رسالة كتبها أحد أعلام السلفية المعاصرين، وهو أبو إسحق الحويني لشيخه الألباني.. وسبب كتابته لها هو أنه عندما أراد أن يخضع الروايات الواردة في التفسير عن السلف إلى منهج المحدثين ـ مع ما فيه من قصور ـ لقي معارضة على ذلك، فأرسل للألباني ليزكي عمله هذا.

قال الشيخ أبو إسحاق الحويني في مقدّمة تحقيقه لتفسير ابن كثير: (توقفتُ طويلاً في الحكم على الآثار التي يوردها ابن كثير: هل أخضعها لقواعد المحدّثين من النظر في رجال السند، واعتبار ما قيل فيهم من جرحٍ وتعديلٍ، أم أتساهل في ذلك وأداني البحثُ والتأملُ أنه لا بدٍ من إخضاع كل ذلك لقواعد المحدّثين، إذ الكل نقلٌ، وأصول الحديث إنما وضعها العلماء لذلك، ولأني أشعر بخطورة الأمر، عرضتُ ما وصلتُ إليه على مَن أثق بعلمه ورأيه من شيوخي وإخواني، فكتبتُ لشيخنا الشيخ الإمام، حسنة الأيام، أبي عبد الرحمن ناصر الدين الألباني حفظه الله ومتّع به أذكر له ما انتهى إليه بحثي، وما اخترتُهُ منهجاً لي في العمل.. فأجابني إلى ما أردتُ برغم مرضه الشديد - آنذاك - عافاه الله ورفع عنه)(2)

ونص رسالة الألباني ـ كما نقلها عنه الحويني ـ هي: (أما بعدُ، فقد ذكرتَ أنك في صدد تحقيق تفسير الحافظ ابن كثير، وأن العلماء وطلبة العلم اختلفوا عليك في إخضاع أسانيد التفسير كلِّها لقواعد المحدّثين إلى فريقين: أحدهما: يرى أن

1() مجموع الفتاوى (13/ 344)
2() أبو إسحاق الحويني في مقدّمة تحقيقه لتفسير ابن كثير (1/ 8 / ط. ابن الجوزي)

الإخضاع المذكور فيه تضييع للتفسير، إذ غالبُهُ نسخ وكتبٌ؛ كنسخة علي بن أبي طلحة عن ابن عباس، وكتفسير السدّي وغيرها، ومن حجّتهم المقالةُ التي تُنسَب إلى الإمام أحمد قال: ثلاثة لا أصل لها؛ منها: التفسير، قالوا: معنى لا أصل لها؛ يعني: لا إسناد لها، فهذا يدلُّ على عدم اعتبار الإسناد في التفسير، فهل هذا صحيح ؟.. والآخر: يرى - معك - ضرورة إخضاع ذلك لقواعد المحدّثين، ثم رجوتَ أن أسطر لك جوابي عليه، فأقول مستعيناً بالله، ومعتذراً لك عن الإيجاز فيه نظراً لظروفي الخاصّة: لا أرى - البته - عدم تطبيق قواعد علم الحديث على الآثار السلفيّة؛ كيف ؟ وهي في المرتبة الثانية بعد السنّة المحمديّة في تفسير الآيات الكريمة، فينبغي أن تُساق مساقها في تحقيق الكلام على أسانيدها، وهو الذي جرى عليه مجرى العلماءُ المحقّقون، وقد فصّل السيوطي القول في نسخة (علي بن أبي طلحة عن ابن عباس)، وفي غيرها من الروايات، وبيّن ما يصحُّ منها وما لا يصحُّ على تساهل منه في التصحيح معروف، ثم نقل عن الشافعي أنه قال: (لم يثبت عن ابن عباس في التفسير شبيهٌ بمئة حديث)(1)، وكلمة الإمام أحمد التي احتجّ بها الفريقُ الأول هي - إن صحَّت - حجّةٌ عليهم إذا فسِّرت على ظاهرها، لأنه لا يجوز الجزم بما لا أصل له اتفاقاً، ولذلك فسّرها المحققون من أصحابه بأن مراده: أن الغالب أنه ليس لها أسانيد صحاحٌ متصلة، وإلا فقد صحَّ من ذلك كثيرٌ، وعليه فلا يجوز أيضاً التسوية في تفسير كلام الله بين ما صحَّ من الآثار وما لم يصحّ، وأن تساق مساقاً واحداً، هذا ما لا يقوله عالمٌ، وإن قال خلافه عالم، فله وجهة نظر عنده، ولا يُجعل قاعدةً .. وختاماً: فإني أرى أنه لا بد من إخضاع أسانيد التفسير كلّها للنقد العلميِّ الحديثي، وبذلك نتخلّص من كثير من الآثار الواهية التي لا تزال في بطون كتب التفسير، وما كان سكوت العلماء عنها إلاّ لكثرتها وصعوبة التفرّغ لها)(2)

انطلاقا من هذا سنحاول هنا، وباختصار، أن نذكر نموذجين عن تأثير المنهج السلفي المعتمد في التفسير على الحقائق القرآنية، وهما يمثلان أصول الحقائق القرآنية، والتأثير فيهما تأثير في الدين جميعا، وقد اعتمدنا في الأمثلة والنماذج على التفاسير المعتبرة عند أعلام السلفية القدامى والمحدثين.

1 ـ تشويه الحقائق العقدية:

ربما يكون المنطلق الأول الذي بدأ فيه تشويه التراث السلفي للحقائق العقدية هو عدم إعمالهم للتفريق بين المحكم

---

(1) الإتقان (2/188-189)

(2) أبو إسحاق الحويني في مقدّمة تحقيقه لتفسير ابن كثير (1/ 8)

والمتشابه في القرآن الكريم، أو خلطهم بينهما، وسبب ذلك هو عدم رجوعهم للراسخين في العلم، والذين ذكر القرآن الكريم أنهم هم وحدهم الذين يستطيعون التفريق بينهما، كما قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ [آل عمران: 7]

فالله تعالى في هذه الآية الكريمة أخبر أن في القرآن الكريم نوعين من الآيات، آيات محكمات واضحات هي الأصل والمرجع وأم الكتاب الذي يصار إليه عند التنازع، ومنه متشابهات، وهي ـ كما يعبر الزركشي ـ (أن يشتبه اللفظ [فيها] في الظاهر مع اختلاف المعاني، ويقال للغامض متشابه لأن جهة الشبه فيه، والمتشابه مثل المشكل لأنه أشكل ودخل في شكل غير شكله)[1]

وهي على نوعين: (أحدُهُما إذا رُدَّ إلى المُحْكَم عُرِف معناه، والآخر ما لا سبيل إلى معرفة حقيقته. فالمُتَتَبِّع له مُبْتَغ لِلْفتنَة، لأنه لا يكادُ ينتهي إلى شيءٍ تسكن نَفْسُه إليه)[2]

وعلى عكس ذلك المحكم، لأنه (لا اختلاف فيه ولا اضطراب، وما لا يحتمل الوجوه وعُرف بنفسه)[3]

وقد ذكرت الآية الكريمة أن من أغراض وجود المتشابه في القرآن الكريم هو الفتنة والابتلاء ليميز الراسخون في العلم من الذين في قلوبهم مرض، كما قال قال محمد بن جعفر بن الزبير[4]: (المحكمات هي التي فيها حجة الرب، وعصمة العباد ودفع الخُصُوم والباطل، ليس لها تصريف ولا تحريف عما وضعن عليه. والمتشابهات لهنّ تصريف وتحريف وتأويل، ابتلى الله فيهنّ العباد)

وبناء على هذا كان الأصل في التعريف بالحقائق المرتبطة بالألوهية الاكتفاء بما ورد في القرآن الكريم من حقائق قطعية لا خلاف فيها، والتي تضمنتها أسماؤه الحسنى الكثيرة،وفيها غنية وكفاية لمن يريد التعرف على الله بحسب الطاقة المحدودة.

لكن العقل السلفي لم يهضم ذلك، ولم يكتف به، بل لم يعره أي أهمية، وراح إلى ألفاظ متشابهات تحمل معاني

1() البرهان: 2/69 .

2()النهاية في غريب الحديث والأثر 2/442.

3() أنظر: غريب الحديث (حكم) 1/419.

4() - محمد بن جعفر بن الزبير بن العوام الأسدي، المدني، ثقة، من السادسة، مات سنة بضع عشرة ومائة. ابن حجر – تقريب التهذيب:1/471 .

متعددة ليستنتج منها ما يسميه صفات الله تعالى.

ومن الأمثلة على ذلك ما ورد من النصوص القرآنية في ذكر اليد مضافة لله تعالى، لأن العرب عندما تضيف اليد لأي كان قد تريد بذلك اليد التي هي الجارحة، وتريد بها أيضا معاني أخرى مثل: القوة والنعمة والعطاء والثواب والهداية والنصرة والحفظ وغيرها.

وبما أن الأمر كذلك، فاليد المنسوبة لله، تعتبر من المتشابهات، والتي لا يمكن القطع بمعناها إلا للراسخين في العلم، ولهذا وقفت الأمة ـ من غير السلفية ـ موقفين: أحدهما تفويض المراد منها لله تعالى، والثاني هو تأويلهما بما يتناسب مع كلام العرب، وقد قال الزركشي عند حديثه عن المحكم والمتشابه، (وممن نقل عنه التأويل علي بن أبي طالب وابن مسعود وابن عباس وغيرهم.وهو اختيار ابن برهان من الأشعرية.. وإنما حملهم على التأويل وجوب حمل الكلام على خلاف المفهوم من حقيقته لقيام الأدلة على استحالة المتشابه والجسمية في حق البارئ تعالى، والخوض في كل هذه الأمور خطر عظيم)(1).

لكن السلفية وحدهم من بين الأمة رفضوا اعتبار ذلك من المتشابه، بل اعتبروه محكما، قال ابن تيمية: (ما وجدت أحدا من أهل العلم من السلف جعل آيات الصفات من المتشابه)(2)

ثم فسر المتشابه ـ كما تتصوره المدرسة السلفية ـ فقال: (المعنى الذي يراد به هذا في حق المخلوقين لا يجوز أن ثم يكون نظيره ثابتا لله، فلهذا صار متشابها، وكذلك قوله: {ثم استوى على العرش} فإنه قد قال: {واستوت على الجودي} وقال: {فاستوى على سوقه} وقال: {فإذا استويت أنت ومن معك على الفلك} وقال: {لتستووا على ظهوره} فهذا الاستواء كله يتضمن حاجة المستوي إلى المستوى عليه، وأنه لو عدم من تحته لخر، والله تعالى غني عن العرش وعن كل شيء، بل هو سبحانه بقدرته يحمل العرش وحملة العرش.. فصار لفظ الاستواء متشابها يلزمه في حق المخلوقين معاني ينزه الله عنها، فنحن نعلم معناه وأنه العلو والاعتدال، لكن لا نعلم الكيفية التي اختص بها الرب التي يكون بها مستويا من غير افتقار منه إلى العرش، بل مع حاجة العرش وكل شيء محتاج إليه من كل وجه، وأنا لم نعهد في الموجودات ما يستوي على غيره مع غناه عنه وحاجة ذلك المستوى عليه إلى المستوي، فصار متشابها من هذا الوجه، فإن بين اللفظين والمعنيين قدرا

1() أنظر: الزركشي- البرهان في علوم القرآن: 2/78-80

2() مجموع الفتاوى (17/ 378)

مشتركا، وبينهما قدرا فارقا هو مراد في كل منهما، ونحن لا نعرف الفارق الذي امتاز الرب به فصرنا نعرفه من وجه ونجهله من وجه، وذلك هو تأويله، والأول هو تفسيره) (1)

وهكذا صار المتشابه عنده ليس كونه مجهولا غير معلوم بسبب الاحتمالات الكثيرة الواردة على اللفظ، وإنما هو متشابه من حيثية واحدة وهي عدم معرفة الكيفية..

فالاستواء عندهم والذي له في اللغة دلالات كثيرة بإقرارهم وإقرار مفسريهم المعتبرين مثل الطبري، الذي قال في شرحه للاستواء: (الاستواء في كلام العرب منصرف على وجوه: منها انتهاء شباب الرجل وقوّته، فيقال إذا صار كذلك: قد استوى الرجل، ومنها: استقامة ما كان فيه أَوَدٌ من الأمور والأسباب، يقال منه: استوى لفلان أمره: إذا استقام له بعد أود. ومنها: الإقبال على الشيء بالفعل، كما يقال: استوى فلان على فلان بما يكرهه ويسوءه بعد الإحسان إليه. ومنها: الاحتياز والاستيلاء كقولهم: استوى فلان على المملكة، بمعنى احتوى عليها وحازها. ومنها: العلوّ والارتفاع، كقول القائل: استوى فلان على سريره، يعني به علوّه عليه)(2)

لكن السلفية وابن تيمية ـ كما رأينا ذلك بتفصيل في كتاب [السلفية والوثنية المقدسة] يفسرون الاستواء بالقعود والجلوس، ويجعلون المتشابه فيه هو عدم معرفتهم لكيفية القعود والجلوس.

وبناء على هذا راح السلفية لكل الآيات المحكمة في القرآن الكريم يحولونها آيات متشابهة، لأنه إذا اعتبرت الآية المتشابهة محكمة، فإنه لابد أن يؤول كل مخالف لها.

ومن هذا الباب أولوا كل الآيات التي تذكر استغناء الله عن المكان، قال أبو عمر الطلمنكي الأندلسي (339-429 هـ) في كتابه (الوصول إلى معرفة الأصول): (أجمع المسلمون من أهل السنة على أن معنى قوله: وهو معكم أينما كنتم. ونحو ذلك من القرآن: أنه علمه، وأن الله تعالى فوق السموات بذاته مستو على عرشه كيف شاء)(3)

وقال أبو نصر السجزي (ت 444 هـ) في كتابه الإبانة: (فأئمتنا كسفيان الثوري ومالك وسفيان بن عيينة وحماد بن سلمة وحماد بن زيد وعبد الله بن المبارك وفضيل بن عياض واحمد بن حنبل وإسحاق بن إبراهيم الحنظلي متفقون على أن الله سبحانه بذاته فوق العرش وأن علمه بكل مكان وأنه يرى

1() مجموع الفتاوى (17/ 378)

2() - الطبري:1/192 .

3() درء التعارض 6/250، الفتاوى 5/189، بيان تلبيس الجهمية 2/38، مختصر العلو 264.

يوم القيامة بالأبصار فوق العرش، وأنه ينزل إلى سماء الدنيا وأنه يغضب ويرضى ويتكلم بما شاء فمن خالف شيئا من ذلك فهو منهم بريء وهم منه براء)(1)

وهكذا اعتبر ابن عبد البر (ت 463 هـ) كل تلك الإضافات المتشابهة محكمة يؤول كل القرآن لأجلها، قال: (أهل السنة مجمعون على الإقرار بالصفات الواردة كلها في القرآن والسنة، والإيمان بها وحملها على الحقيقة لا على المجاز، إلا انهم لا يكيفون شيئا من ذلك ولا يحدون فيه صفة محصورة وأما أهل البدع والجهمية والمعتزلة كلها والخوارج فكلهم ينكرها ولا يحمل شيئا منها على الحقيقة، ويزعمون أن من أقر بها مشبه، وهم عند من أثبتها نافون للمعبود، والحق فيما قاله القائلون بما نطق به كتاب الله وسنة رسوله وهم أئمة الجماعة والحمد لله) (2)

وبذلك تحول المحكم متشابها، والمتشابه محكما، وقد ذكر ابن القيم ذلك، فقال: (الذين يستمسكون بالمتشابه في رد المحكم، لهم طريقان في رد السنن: أحدهما: ردها بالمتشابه من القرآن أو من السنن، الثاني: جعلهم المحكم متشابها ليعطلوا دلالته، وأما طريقة الصحابة والتابعين وأئمة الحديث كالشافعي والإمام أحمد ومالك وأبي حنيفة وأبي يوسف والبخاري وإسحاق: فعكس هذه الطريق، وهي أنهم يردون المتشابه إلى المحكم، ويأخذون من المحكم ما يفسر لهم المتشابه ويبينه لهم، فتتفق دلالته مع دلالة المحكم وتوافق النصوص بعضها بعضا، ويصدق بعضها بعضا، فإنها كلها من عند الله، وما كان من عند الله فلا اختلاف فيه ولا تناقض، وإنما الاختلاف والتناقض فيما كان من عند غيره)(3)

فالمفاهيم هنا ـ في الظاهر ـ سليمة جدا، فالأصل أن نرجع المتشابه للمحكم، لكن ابن القيم وكل سلفه يخلطون في المصاديق، فيحولون المتشابه محكما، والمحكم متشابها.

ولهذا ذكر ابن القيم أمثلة يوضح بها مقصوده حتى لا يختلط بغيره، فقال: (ولنذكر لهذا الأصل أمثلة لشدة حاجة كل مسلم إليه أعظم من حاجته إلى الطعام والشراب.. المثال الأول: رد الجهمية النصوص المحكمة غاية الإحكام المبينة بأقصى غاية البيان أن الله موصوف بصفات الكمال من العلم والقدرة والإرادة والحياة والكلام والسمع والبصر والوجه واليدين والغضب والرضا والفرح والضحك والرحمة والحكمة

1() درء التعارض 6/250 ونقل الذهبي كلامه هذا في السير 17/ 656.

2() فتح البر بترتيب التمهيد 2/ 7 –48.

3() إعلام الموقعين عن رب العالمين (2/ 210)

وبالأفعال كالمجيء والإتيان والنزول إلى السماء الدنيا ونحو ذلك) [1]

فقد اعتبر الوجه واليدين والنزول وغيرها محكمات، ولا دليل على هذا، لا من العقل الذي يرفض ذلك رفضا تاما، ولا من النقل الذي لا يدل عليه دلالة قطعية، بل دلالته على ذلك من النوع المتشابه الذي يحتمل فيه اللفظ وجوها متعددة كما ذكرنا في الاستواء واليدين وغيرهما.

بل إنهم هم أنفسهم يقرون بالتأويل وضرورته فيما يتصورونه من صفات الله تعالى، فلهذا يؤولونها في نفس الوقت الذي ينكرون على غيرهم التأويل.

ومن الأمثلة على ذلك ما أوردوه في تفسير قوله تعالى: ﴿ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾ [الفتح: 10]، فقد قال الطبري: (وفي قوله: (يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ) وجهان من التأويل: أحدهما: يد الله فوق أيديهم عند البيعة، لأنهم كانوا يبايعون الله ببيعتهم نبيه ﷺ والآخر: قوّة الله فوق قوّتهم في نُصرة رسوله ﷺ، لأنهم إنما بايعوا رسول الله ﷺ على نُصرته على العدوّ) [2]

وقال ابن تيمية: (ومعلوم أن يد النبيّ ﷺ كانت مع أيديهم كانوا يصافحونه ويصفقون على يده في البيعة، فعلم أن يد الله التي فوق أيديهم ليست هي يد النبيّ ﷺ ولكن الرسول عبد الله ورسوله فبايعهم عن الله وعاهدهم وعاقدهم عن الله، فالذين بايعوه بايعوا الله الذي أرسله وأمره ببيعتهم، ألا ترى أن كل من وكل شخصاً بعقد مع الوكيل كان ذلك عقداً مع الموكل ومن وكل نائباً له في معاهدة قوم فعاهدهم عن مستنيبه كانوا معاهدين لمستنيبه، ومن وكل رجلاً في نكاح أو تزوج كان الموكل هو الزوج الذي وقع له العقد؟) [3]

وبناء على هذا الخلط بين المحكم والمتشابه، صار تخبطهم الكبير في هذا الباب العقدي الخطير، بل صار القرآن الكريم عندهم محلا لتفسيرات غريبة متكلفة، ولو أنهم أعملوا المحكم واكتفوا بما ورد في القرآن الكريم من أسماء الله الحسنى لما تخبطواذلك التخبط الذي عبر عنه ابن القيم بقوله: (التشابه والإحكام نوعان: تشابه وإحكام يعم الكتاب كله، وتشابه وإحكام يخص بعضه دون بعض، فالأول كقوله تعالى: ﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَاباً مُتَشَابِهاً﴾ [الزمر23]وقوله: ﴿كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ﴾[هود1].. والثاني: كقوله: ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ

1() إعلام الموقعين عن رب العالمين (2/ 210)

2() تفسير الطبري (22/ 210)

3() مجموعة الرسائل والمسائل لابن تيمية (1/ 98)

مُتَشَابِهَاتٌ﴾ [آل عمران7]، فإن اردتم بتشابه آيات الصفات النوع الأول فنعم هي متشابهة غير متناقضة يشبه بعضها بعضا، وكذلك آيات الأحكام، وإن أردتم أنه يشتبه المراد بها بغير المراد فهذا وإن كان يعرض لبعض الناس فهو أمر نسبي إضافي فيكون متشابها بالنسبة إليه دون غيره، ولا فرق في هذا بين آيات الأحكام وآيات الصفات، فإن المراد قد يشتبه فيهما بغيره على بعض الناس دون بعض، وقد تنازع الناس في المحكم والمتشابه تنازعا كثيرا ولم يعرف عن أحد من الصحابة قط أن المتشابهات آيات الصفات، بل المنقول عنهم يدل على خلاف ذلك، فكيف تكون آيات الصفات متشابهة عندهم وهم لا يتنازعون في شيء منها، وآيات الأحكام هي المحكمة وقد وقع بينهم النزاع في بعضها؟! وإنما هذا قول بعض المتأخرين، وسيأتي إشباع الكلام في هذا في الفصل المعقود له إن شاء الله تعالى)(1)

وهكذا استدل ابن تيمية كعادته في إطلاق الحكم بالإجماع واتفاق الأمة على هذا، فقال: (أما الدليل على بطلان ذلك [أي اعتبار ما يسمونه آيات الصفات متشابهات] أني ما أعلم عن أحد من سلف الأمة ولا من الأئمة، لا أحمد بن حنبل ولا غيره أنه جعل ذلك من المتشابه الداخل في هذه الآية، ونفي أن يعلم أحد معناه وجعلوا أسماء الله وصفاته بمنزلة الكلام الأعجمي الذي لا يفهم، ولا قالوا: إن الله ينزل كلاما لا يفهم أحد معناه، وإنما قالوا كلمات لها معان صحيحة، قالوا في أحاديث الصفات: تمر كما جاءت ــ ونهوا عن تأويلات الجهمية وردوها وأبطلوها التي مضمونها تعطيل النصوص عما دلت عليه، ونصوص أحمد والأئمة قبله بينة في أنهم كانوا يبطلون تأويلات الجهمية، ويقرون النصوص على ما دلت عليه من معناها، ويفهمون منها بعض ما دلت عليه، كما يفهمون ذلك في سائر نصوص الوعد والوعيد والفضائل وغير ذلك، وأحمد قد قال في غير أحاديث الصفات: تمر كما جاءت)(2)

وهكذا فإن الدليل الذي يذكره ابن تيمية كما يذكره جميع السلفية ليس هو في كون النص محتملا للتأويل أو غير محتمل، لأنهم هم أيضا يمارسون التأويل.. وإنما هو أقوال السلف، وقد وضحنا بالأدلة الكثيرة في كتاب [هكذا يفكر العقل السلفي] أن المركز الذي يجتمع عنده سلفهم جميعا هو اليهود وتلاميذ اليهود.

فهم الذين فسروا لهم الآيات القرآنية تفسيرا حسيا موغلا

1() الصواعق المرسلة في الرد على الجهمية والمعطلة (1/ 213)
2() مجموع الفتاوى (13/ 295)

في التجسيم والتشبيه، ثم تلى ذلك عنهم أعلام الحـديث الكبـار الذين اشتغلوا بالحشـو أكـثر من اشـتغالهم بـالتحقيق.. وبمـرور الـزمن أصـبحت تلـك التشـويهات العقيـدة عقيـدة سـنية يكفـر جاحدها، ويحكم عليه بالقتل.

وكمثال على ذلك أن ابن عباس الذي هو ترجمـان القـرآن الكريم ـ كما يعتقد السلفية ــ فسـر ﴿يَـوْمَ يُكْشَـفُ عَن سَـاقٍ﴾ [القلم: ٤٢]، بشدَّة الهول والأمـر، لكن السـلفية يرفضـون هـذا التفسير، ويتعلقون بتفسير يرفعونه لرسـول اللـه ﷺ فسـر لهم الساق بأنها ساق الله، وأنه يكشفها يوم القيامة ليميز المؤمنين من الكافرين، فقد رووا عن رسول اللـه ﷺ أنـه قـال: (يكشـف ربنا عن ساقه، فيسجد له كـل مـؤمن ومؤمنـة، ويبقى من كـان يسجد في الدنيا ريـاء وسـمعة، فيـذهب ليسـجد، فيعـود ظهـره طبقا واحدا)(1)

هذا نموذج لأثر كتابـاتهم في علم المحكم والمتشـابه على عقيـدة الأمـة، بـل على أهم مسـألة عقديـة وهي معرفـة اللـه تعالى.. أما معرفة الرسل والملائكـة .. فحـدث على تحريفـاتهم فيها ولا حرج.

2 ـ تشويه الحقائق الكونية:

مثلما حصل الوهم الكبير للسلفية حين وثقـوا في سـلفهم كل تلك الثقة العمياء التي جعلتهم يتركون آيات الله المحكمات ليتعلقوا بالمتشابهات، ليبنـوا عليهـا جـدرانا من الأوهـام جعلهتم أقرب إلى الوثنيـة منهم إلى التوحيـد.. حصـل لهم مـع الحقـائق الكونية التي تشكل جزءا مهما جدا في القرآن الكريم.

فقد تصور السلفية أن سـلفهم ــ كمـا أحـاطوا علمـا باللـه وملائكته وكتبه ورسله ـ فقد أحاطوا علما كذلك بالكون، ولـذلك راحـوا ينهلـون منهم معـارفهم في الفلـك والجغرافيـا والتـاريخ والطب وكل العلوم، ويفسرون القرآن الكريم من خلالها.

وقد تناسوا خلال ذلك الانبهار بالسلف استحالة إحاطــة أي جيل من الأجيـال بالمعـاني القرآنيـة.. لأن اللـه تعـالى أخـبر أن عطاء القرآن الكـريم ممتـد، وأن كـل جيـل ينهـل منـه بحسـب استعداداته، كمـا قـال تعـالى: ﴿سَـنُرِيهِمْ آيَاتِنَـا فِي الْآفَـاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْـفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُـلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴾ [فصلت: 53]

لكن السـلفية الـذين حصـروا فهم القـرآن الكـريم في السلف الأول من أصحاب القـرون الثلاثـة الأولى، حجـروا على غيرهم أن يتحدث في الحقائق القرآنية.

ولهـذا كـانوا أول من بـادر إلى تحـريم تفسـير القـرآن

1() أخرجه البخاري في التفسير (٤٩١٩)، وفي التوحيد (٧٤٣٩)

بمقتضيات العلم، باعتبار أن من شروط المفسر عندهم ألا يخالف ما ورد عن السلف.

كما نص على ذلك بعضهم، فقال: (إنَّ أي تفسير جاء بعد تفسير السلف، فإنه لا يقبل إلا بضوابط ،وهذه الضوابط: أن لا يناقض (أي: يبطل) ما جاء عن السلف (أعني: الصحابة والتابعين وأتباع التابعين) .. وذلك لأنَّ فهم السلف حجة يُحتكم إليه، ولا تجوز مناقضته البتة، فمن جاء بتفسير بعدهم، سواءً أكان مصدره لغة، أو بحثًا تجريبيًا، فإنه لا يقبل إن كان يناقض قولهم)(1)

وبناء على هذا صدرت الفتاوى الكثيرة من أعلامهم تحرم البحث في مثل هذا النوع من التفسير، لأن البحث فيه سيقضي على مصداقية السلف الذي أقحموا أنوفهم في كل شيء..

ومن الأمثلة على ذلك ما أجابت به اللجنة الدائمة للفتوى في السعودية عن سؤال يقول: (ماحكم الشرع في التفاسير التي تسمى بالتفاسير العلمية؟ وما مدى مشروعية ربط آيات القرآن ببعض الأمور العلمية التجريبية فقد كثر الجدل حول هذه المسائل ؟)، فأجابت: (إذا كانت من جنس التفاسير التي تفسر قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ ﴾ [الأنبياء: 30] بأن الأرض كانت متصلة بالشمس وجزءً منها ومن شدة دوران الشمس انفصلت عنها الأرض ثم برد سطحها وبقي جوفها حاراً وصارت من الكواكب التي تدور حول الشمس – إذا كانت التفاسير من هذا النوع فلا ينبغي التعويل ولا الاعتماد عليها، وكذلك التفاسير التي يستدل مؤلفوها بقوله تعالى: ﴿وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ صُنْعَ اللَّهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ إِنَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَفْعَلُونَ﴾ [النمل: 88]ـ على دوران الأرض، وذلك أن هذه التفاسير تحرف الكلم عن مواضعه وتخضع القرآن الكريم لما يسمونه نظريات علمية، وإنما هي ظنيات أو وهميات وخيالات، وهكذا جميع التفاسير التي تعتمد على آراء جديدة ليس لها أصل في الكتاب والسنة ولا في كلام سلف الأمة لما فيها من القول على الله بلا علم)(2)

ومثل ذلك الشيخ صالح بن فوزان الفوزان، الذي كتب مقالا بعنوان (حكم تفسير القرآن بنظريات علمية حديثة)، ومما جاء فيه تعقيبا على كلام نقله عن ابن تيمية في التفسير: (انتهى ملخص كلام الشيخ في الرد على من فسّر آية في

---

(1) نقد ما يسمى بالإعجاز العلمي للقرآن، للدكتور مساعد الطيار.

(2) فتاوى اللجنة الدائمة: 4\145..

القرآن بتفسير لم يرد في الكتاب والسنة، وأنه تفسيرٌ باطلٌ.. وهذا ينطبق اليوم على كثيرٍ من جهّال الكتبة الذين يفسرون القرآن حسب أفهامهم وآرائهم .. أو يفسرون القرآن بنظريات حديثة من نظريات الطب أو علم الفلك أو نظريات روّاد الفضاء ويسمّون ذلك: بالإعجاز العلميّ للقرآن الكريم .. وفي هذا من الخطورة والكذب على الله الشيء الكثير؛ وإن كان بعض أصحابه فعلوه عن حسن نيّة وإظهاراً لمكانة القرآن ..إلاّ أنّ هذا عملٌ لا يجوز، قال ﷺ: (من قال في القرآن برأيه وبما لا يعلم فليتبوأ مقعده من النار).. والقرآن لا يُفسّر إلاّ بالقرآن أو بالسنة أو بقول الصّحابيّ كما هو معلوم عند العلماء المحققين) (1)

وهنا يقضى العجب منهم، فما داموا يعتقدون حرمة القرآن الكريم، وحرمة تفسيره بالرأي والعلم، كيف أجازوا لسلفهم أن يفسر القرآن الكريم بالخرافة؟

هكذا هي المكاييل المزدوجة للعقل السلفي، فهو يقلب كل شيء .. يقلب المحكم متشابها، والمتشابه محكما، ويحرم التفسير العلمي في نفس الوقت الذي يجيز فيه التفسير الخرافي.

ولم يكتف التراث السلفي بتحريم البحث العلمي في القرآن الكريم، بل راح يفرض خرافات استفادها من الشعوب البدائية ليفسر بها القرآن الكريم، ويضع من خلالها خارطة للكون تختلف عن كل خرائط العالم.

وكمثال على ذلك أن من وجوه الاختلاف التي يمكننا أن نستفيدها من تراث السلفية عن خرائط العالم هو أن أعلى قمة على سطح الأرض ليست هي قمة إفرست، وإنما هي قمة جبل قاف، والذي رووا فيه الروايات الكثيرة التي توضح طوله وعرضه ووظائفه على هذه الأرض.

ومنها ما رووه عن ابن عباس أنه قال ــ وهو يوضح الخارطة السلفية للأرض ــ: (خلق الله تعالى من وراء هذه الأرض بحرا محيطا بها ثم خلق من وراء ذلك جبلا يقال له ق السماء الدنيا مترفرفة عليه ثم خلق من وراء ذلك الجبل أرضا مثل تلك الأرض سبع مرات، ثم خلق من وراء ذلك بحرا محيطا بها، ثم خلق من وراء ذلك جبلا يقال له ق السماء الثانية مترفرفة عليه، حتى عد سبع أرضين وسبعة أبحر وسبعة أجبل وسبع سموات قال: وذلك قوله ﴿ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ﴾ [لقمان: 27])(2)

1() حكم تفسير القرآن بنظريات علمية حديثة، مجلة الدعوة/ العدد 1447 الخميس 21 محرم 1415هـ الموافق 30 يونيو 1994] صـ 23.

2() رواه ابن أبي حاتم كما في: الدر المنثور في التفسير بالمأثور (7/ 589)

بل ذكروا أن لهذا الجبل قدرة على الحديث، فقد رووا عن ابن عبّاس، أنه حدث عن وهب بن منبه أنه قال: إنّ ذا القــرنين أتى على جبل قاف، فرأى حوله جبالا صغارا، فقال له: ما أنت؟ قال: أنا قاف، قال: وما هذه الجبال حولك؟ قـال: هي عـروقي، وليست مدينة من المدائن إلّا وفيها عرق منها، فإذا أراد الله أن يزلزل تلك الأرض أمرني، فحرّكت عرقي ذلـك، فـتزلزلت تلـك الأرض، فقال له: يا قاف، فأخبرني بشيء من عظمة الله، قال: إنّ شأن ربّنا لعظيم، تقصر عنه الصفات، وتنقضي دونه الأوهام، قال: فـأخبرني بـأدنى مـا يوصـف منهـا. قـال: إنّ ورائي لأرضـا مسيرة خمسمائة عام في عرض خمسمائة عـام من جبـال ثلج يحطم بعضه بعضا، لولا ذاك الثلج لاحترقت من حرّ جهنّم. قـال: زدني، قال: إنّ جبريل عليه السّلام واقف بين يدي الله سـبحانه ترعد فرائصه، يخلق الله من كلّ رعدة مائة ألف ملـك، وأولئـك الملائكة صفوف بين يدي الله سبحانه، منكّسـو رؤوسـهم، فـإذا أذن الله لهم في الكلام، قالوا: لا إِلهَ إِلَّا اللَّهُ)(3)

وقد فسروا بهذا الغثاء قولـه تعـالى: ﴿ يَـوْمَ يَقُـومُ الـرُّوحُ وَالْمَلَائِكَةُ صَفًّا لَا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَقَـالَ صَـوَابًا﴾ [النبأ: 38]

وبعد كل هذه الخرافـات نجـد ابن خلـدون يعتـذر لهم بكـل احترام، ويقول ـ عنـد حديثـه عن التفاسـير السـلفية ــ: (وصـار التفسير على صنفين: تفسـير نقلي مسـند إلى الآثـار المنقولـة عن السـلف وهي معرفـة الناسـخ والمنسـوخ وأسـباب الـنزول ومقاصــد الآي. وكــل ذلــك لا يعــرف إلا بالنقــل عن الصــحابة والتابعين. وقد جمـع المتقـدمون في ذلـك وأوعـوا، إلا أن كتبهم ومنقولاتهم تشـتمل على الغث والسـمين والمقبـول والمـردود. والسبب في ذلك أن العرب لم يكونوا أهل كتاب ولا علم وإنما غلبت عليهم البداوة والأمية. وإذا تشوقوا إلى معرفة شيء مما تتشــوق إليــه النفــوس البشــرية في أســباب المكونــات وبــدء الخليقة وأسرار الوجود فإنما يسـألون عنـه أهـل الكتـاب قبلهم ويستفيدونه منهم وهم أهـل التـوراة من اليهـود ومن تبـع دينهم من النصارى. وأهل التوراة الذين بين العرب يومئذ باديــة مثلهم ولا يعرفــون من ذلــك إلا مــا تعرفــه العامــة من أهــل الكتــاب ومعظمهم من حمير الذين أخذوا بـدين اليهوديـة. فلمـا أسـلموا بقوا على ما كان عندهم مما لا تعلق له بالأحكام الشرعية الـتي يحتاطون لها مثـل أخبـار بـدء الخليقـة ومـا يرجـع إلى الحـدثان والملاحم وأمثال ذلك. وهؤلاء مثل كعب الأحبار ووهب بن منبــه وعبد الله بن سلام وأمثالهم. فامتلأت التفاســير من المنقــولات

3() الكشف والبيان عن تفسير القرآن (9/ 93)

عندهم في أمثال هذه الأغـراض أخبـار موقوفـة عليهم وليسـت ممـا يرجـع إلى الأحكـام فيتحـرى في الصـحة الـتي يجب بهـا العمل. وتساهل المفسرون في مثل ذلـك وملأوا كتب التفسـير بهـذه المنقـولات. وأصـلها كمـا قلنـاه عن أهـل التـوراة الـذين يسكنون البادية، ولا تحقيق عندهم بمعرفة ما ينقلونـه من ذلـك إلا أنهم بعـد صـيتهم وعظمت أقـدارهم. لمـا كـانوا عليـه من المقامات في الدين والملة، فتلقيت بالقبول من يومئذ)(1)

ولم يقف الأمر عند حد تفسير القرآن الكريم بالخرافة، بل راح السـلفية المتـأخرون لا ليعتـذروا بمثـل مـا اعتـذر بـه ابن خلـدون، وإنمـا راحـوا يقـررون مـا ذكـر سـلفهم من الحقـائق، ويربطونها بالقرآن الكريم، ليبنوا عليها أحكامهم التكفيرية.

ومن أمثلة ذلك قـول الشـيخ ابن عـثيمين عنـد حديثـه عن مسألة دوران الأرض، وتطويعـه للنصـوص المقدسـة في سـبيل إثبات ذلك: (.. لكن الشيء الذي أرى أنه لا بد منه هو أن نعتقـد أن الشمس هي الـتي تـدور على الأرض، وهي الـتي يكـون بهـا اختلاف الليل والنهار، لأن الله تعـالى أضـاف الطلـوع والغـروب إلى الشمس، فقال عز وجل: ﴿وَتَرَى الشَّمْسَ إِذَا طَلَعَتْ تَزَاوَرُ عَنْ كَهْفِهِمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَإِذَا غَـرَبَتْ تَقْرِضُـهُمْ ذَاتَ الشِّـمَالِ﴾ [الكهف: 17]، فهذه أربعة أفعال أضيفت كلها إلى الشـمس إذا طلعت، وإذا غـربت، تـزاور، تقـرض، كلهـا أفعـال أضـيفت إلى الشمس، والأصل أن الفعل لا يضاف إلا إلى فاعله، أو من قـام به، أي من قام به هذا الفعل فلا يقـال: مـات زيـدٌ، ويـراد مـات عمرو .. فإذا قال الله (وَتَرَى الشَّمْسَ إِذَا طَلَعَتْ) ليس المعـنى أن الأرض دارت حتى رأينـا الشـمس لأنـه لـو كـانت الأرض هي التي تدور، وطلوع الشمس يختلف باختلاف الدوران ما قيل: إن الشمس طلعت، بل يقال نحن طلعنـا على الشـمس، أو الأرض طلعت على الشمس وكذلك قال الله تبـارك وتعـالى في قصـة سـليمان ﴿إِنِّي أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْـرِ عَنْ ذِكْـرِ رَبِّي حَتَّى تَـوَارَتْ بِالْحِجَابِ﴾ [ص: 32] أي الشمس، ولم يقل حـتى تـوارى عنهـا بالحجـاب، وقـال النـبي ﷺ لأبي ذر: أتـدري أين تـذهب هـذه الشمس؟) قلت: الله ورسوله أعلم، قال: (تـذهب تسـجد تحت العرش، فتستأذن، فيؤذن لها، ويوشك أن تسجد فلا يقبل منهـا، وتسـتأذن فلا يـؤذن لهـا، فيقـال لهـا: ارجعي من حيث جئت، فتطلع من مغربها)(2)، فأضاف الذهاب إلى الشمس)(3)

وهكذا، وبعد أن طوع ما شاء من النصوص القرآنيـة لقوتـه

(1) مقدمة ابن خلدون (2/ 93)
(2) البخاري 8 / 416، ومسلم رقم (159)
(3) مجموع فتاوى ورسائل العثيمين (1/ 71)

الوهمية، قال: (فظاهر القرآن والسنة أن اختلاف الليل والنهار يكون بدوران الشمس على الأرض، وهذا هو الذي يجب أن نعتقده ما لم يوجد دليلٌ حسيٌ قاطع يسوغ لنا أن نصرف النصوص عن ظواهرها إلى ما يوافق هذا النص القاطع، وذلك لأن الأصل في أخبار الله ورسوله أن تكون على ظاهرها حتى يقوم دليل قاطع على صرفها عن ظاهرها، لأننا يوم القيامة سنسأل عما تقتضيه هذه النصوص بحسب الظاهر، والواجب علينا أن نعتقد ظاهرها إلا إذا وجد دليلٌ قاطع يسوغ لنا أن نصرفها عن هذا الظاهر) (1)

وهكذا قال في تفسيره لقول الله تعالى: ﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ﴾ [العنكبوت: 61] عند ذكره لفوائد هذه الآية الكريمة، فقد قال: (وفي قوله تعالى: (وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ) دليلٌ على أنهما هما اللذان يجريان حول الأرض يسِيرَان حول الأرض خلافًا لِمَن قال: إنَّهما لا يسيرَان على الأرض وأنَّ هذا - اختلاف الليل والنهار- بسبب دَوَران الأرض نفسِها وهذا لا شكَ أنَّ الذي لا يعتقد أنهما يدوران على الأرض أنَّه على خطر عظِيم ربما يصل به ذلك إلى الكفر لأنّ الذي نؤمن به ونعتقِدُه ما أخبرَنا الله عنه مِن أنَّ الشمس هي التي تدور على الأرض وكذلك القمر) (2)

ثم يرد ـ بمثل ما ردوا به على من أنكر عليهم تصوراتهم المرتبطة بالحقائق الدينية ـ فقال: (ومِن العجيب أنَّ هذا القول المخالف لِظاهِر القرآن أنَّه قد سرَى إلى أناسٍ لا تثِقُ في ديانَتِهم قصدي لا تشُكّ في ديانتهم، لكن غرَّهم السراب، فانخدعوا والواجِبُ علينا في هذه الأمور أن نمشِيَ على ظاهِر القرآن هذا الواجب حتى يتبَيَّن لنا ما يكون مخالِفًا لهذا الظاهر، أمَّا ما دلَّ عليه القرآن دلالة يقينية فإنَّه لا يمكن لِشيء أن يخالفه فدلالةُ القرآن إمَّا ظاهرة وإما صريحة الصريحة قطْعِيَّةُ الدلالة ولا يمكن لشيء أن يخالفَها، والظاهرة ظنِّيَّة الدلالة فنبقى على هذا الأصل نبقى على الظاهر حتى يتبيَّن لنا بأمرٍ قطعي خلافُه وحينئذٍ ما دام ظاهرًا فإنه يمكن أن يُؤَوَّل) (3)

بل إن بعض السلفية لم يكتف بإنكار دوران الأرض، بل راح ينكر كرويتها أيضا، استنادا إلى قوله تعالى: ﴿وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ﴾ [الغاشية: 20]، وفي ذلك يقول القحطاني في نونيته التي لا يزال السلفية يهتمون بها ويحفظونها(4):

1() مجموع فتاوى ورسائل العثيمين (1/ 71)

2() مجموع فتاوى ورسائل العثيمين (1/ 72)

3() مجموع فتاوى ورسائل العثيمين (1/ 73)

4() نونية القحطاني (ص: 32)

كذب المهندس والمنجم مثله فهما لعلم الله مدعيان
الأرض عند كليهما كروية وهما بهذا القول مقترنان
والأرض عند أولي النهى لسطيحة بدليل صدق واضح القرآن
والله صيرها فراشا للورى وبنى السماء بأحسن البنيان
والله أخبر أنها مسطوحة وأبان ذلك أيما تبيان

بل كان أئمة الوهابية في السعودية يتهمون القائل بكون الأرض كروية بالتجهم، حتى أنه اتهم تقي الدين محمد بن عبد القادر الهلالي (المغربي)، بذلك مع كونه سلفيا متشددا، حيث وشى به المسؤول عن مراقبة الدروس في المسجد النبوي للمسئولين لأنه يقول بكروية الأرض! واشتد نكيره عليه، وقال: (هذا لا يقوله إلا جهمي!)(1)

ثانيا ـ تشويه القيم القرآنية.

يمكننا تقسيم المحار الكبرى التي يدورها عليها القرآن الكريم إلى محورين كبيرين:

المحور الأول هو محور الحقائق الكبرى التي يتشكل منها الوجود بنوعيه الواجب والممكن، وهو ما تحدثنا عنه في المبحث السابق.

والمحور الثانية هو القيم التي يتنظم بها الإنسان في هذا الوجود انتظاما صحيحا وإيجابيا لينال بذلك حظه من الكمال والسعادة.

والقرآن الكريم تناول بتفصيل كلا الجانبين، وربطهما ببعضهما البعض ربطا محكما، فحقائق الوجود هي التي تغذي القيم، والالتزام بالقيم هو الذي يرفع الإنسان إلى آفاق الكمال التي تؤهله للتعرف على الوجود ونيل حظه من الفلاح والسعادة فيه، كما أشار إلى ذلك قوله تعالى: ﴿ لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ (4) ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ (5) إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴾ [التين: 4 - 6]

فقوله تعالى ﴿ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ يشير إلى الإيمان بحقائق الوجود كما ذكرها الله لا كما ذكرتها الخرافة، وقوله ﴿ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ﴾ إشارة إلى الالتزام بالقيم القرآنية، لا القيم التي صاغها البشر لأنفسهم، أو صاغها لهم الشيطان.

(1) مختصر اللفظ في مسألة دوران الأرض، ص19.

وكمـا أن العبث أصـاب الحقـائق القرآنيـة من خلال سـلف السـلفية، فقـد أصـاب العبث القيم القرآنيـة أيضـا، حيث جـرى التلاعب بها باسم الناسخ والمنسوخ وأسباب النزول ونحوها من علوم القرآن الكريم التي ابتـدعها سـلف السـلفية، وقيـدوا بهـا المعاني القرآنية أو عطلوها، أو حرفوها.

وبما أن النماذج كثيرة جدا لكثرة القيم الواردة في القرآن الكريم، فسأكتفي هنا بقيمة واحدة هي قيمـة السـماحة، والـتي عبث فيهـا باسـم علمين من علـوم القـرآن، أولهمـا: أسـباب النزول، والثاني: الناسخ والمنسوخ.

أما الأول فعبث بالآية الكريمة التي تضع قانون التعامل مع المخـالف في الـدين أيـا كـان كتابيـا أو غـير كتـابي، وهي قولـه تعـالى: ﴿لَا يَنْهَـاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَـاتِلُوكُمْ فِي الـدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَـرُّوهُمْ وَتُقْسِـطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِـطِينَ ﴾ [الممتحنـة: 8]، فالآيـة الكريمـة تـدعو إلى الـبر والقسط بين المسلمين وغيرهم من أهل الأديان المختلفـة، بـل حتى مع الملحدين منهم، لأن القيـد فيهـا مرتبـط بالمحاربـة، ولا علاقـة لـه بالـدين، وهي بـذلك تقسـم النـاس إلى معتـدين ومسـالمين، كمـا تقسـمهم آيـات أخـرى إلى مستضـعفين ومستكبرين.

لكن مفسـري السـلفية ــ وباسـم علم أسـباب الـنزول ـ عطلوا الآية الكريمة تعطيلا تاما، حيث أنهم جعلوها خاصة بقـوم مخصوصـين في زمـان مخصـوص، وأن علاقتنـا بهـا لا تتعـدى الترتيـل مـع اشـتراط أن يكـون الترتيـل متناسـبا مـع مخـارج الحروف وأحكامها.

وسأنقل هنا ما ذكـره المفسـرون من الأقـوال في تفسـير الآية الكريمة، أو بالأخرى في تحريفها، ومنها قـول مجاهـد أنهم (الذين آمنوا بمكة ولم يهاجروا) (1)

ومنها قول عبد الله بن الزبير، أنه (عني بهـا من غـير أهـل مكة من لم يهاجر)(2)، وقد روى عنه الطبري وغـيره في سـبب نزول الآية قوله: (نزلت في أسماء بنت أبي بكر، وكانت لهـا أم فى الجاهلية يقال لها قتيلة ابنة عبد العزى، فأتتها بهدايا وصناب وأقط وسمن، فقالت: لا اقبل لـك هديـة، ولا تـدخلي علي حـتى يأذن رسول الله ﷺ فذكرت ذلك عائشة لرسول الله ﷺ، فأنزل اللــه ﴿لَا يَنْهَــاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَــاتِلُوكُمْ فِي الــدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَـرُّوهُمْ وَتُقْسِـطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ

1() تفسير الطبري (23/ 322)
2() تفسير الطبري (23/ 322)

ﱡﭐ الْمُقْسِطِينَ ﱠ [الممتحنة: 8])[1]

ومنها قول بأنه (عني بها من مشركي مكة من لم يقاتل المؤمنين، ولم يخرجوهم من ديارهم؛ ونسخ الله ذلك بعد بالأمر بقتالهم)، وهو قول ابن زيد، فقد قال: (هذا قد نسخ، نسخه، القتال، أمروا أن يرجعوا إليهم بالسيوف، ويجاهدوهم بها، يضربونهم، وضرب الله لهم أجل أربعة أشهر، إما المذابحة، وإما الإسلام)[2]

وبناء على هذا فقد عطلت هذه الآية الكريمة تعطيلا تاما.. وعطل بنفس السبب قوله تعالى في شأن رقة النصارى مقارنة باليهود: ﱡﭐ لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِّلَّذِينَ آمَنُواْ الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُواْ وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ آمَنُواْ الَّذِينَ قَالُوَاْ إِنَّا نَصَارَى ذَلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لاَ يَسْتَكْبِرُون ﱠ [المائدة:82]، فقد ذكروا عن سلفهم أن هذا ليس عاما بكل النصارى، بل خاص بالنجاشي ووفده الذين أسلموا لما قدموا على النبي ﷺ وهم اثنان وثلاثون أو أربعون أو سبعون أو ثمانون رجلا، وليس المراد كل النصارى لأنهم في عداوتهم كاليهود[3].

وهكذا عطلت هذه الآيات الكريمة باستخدام سلاح أسباب النزول.. لكن لا بأس فهناك آيات أخرى كثيرة يمكن الرجوع إليها لإثبات سماحة الإسلام، ولقيام الفروع الفقهية على أساسها.

لكن سلف السلفية راحوا إلى تلك الآيات الكريمة أيضا يستخدمون في حقها سلاحا آخر أكثر تطورا، هو سلاح النسخ، فقد قال الشيخ مرعي بن يوسف المقدسي الحنبلى (المتوفى: 1033هـ)، وهو من مشايخ السلفية الكبار في قوله تعالى: ﱡﭐ فَاعْفُواْ وَاصْفَحُواْ حَتَّى يَأْتِيَ اللّهُ بِأَمْرِهِ إِنَّ اللّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِير ﱠ [البقرة:109]: (أصل العفو الترك والمحو والصفح الإعراض والتجاوز نسخ بقوله تعالى: ﱡﭐ قَاتِلُواْ الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِاللّهِ وَلاَ بِالْيَوْمِ الآخِرِ وَلاَ يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللّهُ وَرَسُولُهُ ﱠ [التوبة:29]، وأمر الله القتل والسبي لبني قريظة، والجلاء والنفي لبني النضير، قال المحققون: إن مثل هذا لا يسمى منسوخا، لأن الله جعل العفو والصفح مؤقتا بغاية، وهو إتيان أمره بالقتال، ولو كان غير مؤقت بغاية لجاز أن يكون منسوخا)[4]

ومثل ذلك قالوا في قوله تعالى:ﱡﭐ قُلْ أَتُحَاجُّونَنَا فِي اللّهِ وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ وَلَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُخْلِصُون ﱠ

1() تفسير الطبري (23/ 322)
2() تفسير الطبري (23/ 323)
3() قلائد المرجان في بيان الناسخ والمنسوخ في القرآن (ص: 100)
4() قلائد المرجان في بيان الناسخ والمنسوخ في القرآن (ص: 54)

[البقـرة:139]، فقـد اعتبروهـا أيضـا منسـوخة، نسـختها آيـة السـيف(1).. فمـا حاجـة المسـلمين إلى محاجـة خصـومهم ومجـادلتهم وحـوارهم بعـد أن أمـدهم اللـه بقـوة السـيف؟ فكفى بالسيف شافيا، وكفى بالسيف محاورا.

ومثل ذلك قولهم في قوله تعالى: لاَ إِكْرَاهَ فِي الـدِّينِ قَـد تَّبَيَّنَ الرُّشْـدُ مِنَ الْغَيِّ [البقـرة:256]، فهي مثـل سـابقاتها.. نسختها آية السيف(2)..

ومثل ذلك قولهم في قوله تعالى: أولَـئِكَ الَّذِينَ يَعْلَمُ اللّهُ مَـا فِي قُلُـوبِهِمْ فَـأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ وَقُـل لَّهُمْ فِي أَنفُسِـهِمْ قَـوْلاً بَلِيغًـا [النسـاء:63]، فقـد ذكـروا أن هـذا (كـان في بـدء الإسلام، ثم صار الوعظ والإعراض منسوخاً بآية السيف)(3)

ومثل ذلك قولهم في قوله تعالى: فَـاعْفُ عَنْهُمْ وَاصْـفَحْ إِنَّ اللّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِين [المائدة:13]، فقد ذكروا أن سـلفهم ذكر أنها (نزلت في اليهود، ثم نسخ العفو والصفح بآية السـيف) (4)

ومثل ذلـك قـولهم في قولـه تعـالى: وَإِن جَنَحُـواْ لِلسَّـلْمِ فَاجْنَحْ لَهَـا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللّـهِ إِنَّهُ هُـوَ السَّـمِيعُ الْعَلِيم [الأنفـال: 61]، فقد نص سلفهم على أنها منسوخة بآية السـيف (5).. فمـا حاجة المسلمين للسلام، وقد أعطاهم الله القوة الـتي يقهـرون بها أعداءهم.

ومثل ذلك قـولهم في قولـه تعـالى: ادْعُ إِلِى سَـبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِـالَّتِي هِيَ أَحْسَـنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَـلَّ عَن سَـبِيلِهِ وَهُـوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَـدِين [النحـل: 125]، فقد نصوا على أنها منسوخة نسختها آية السيف(6).. فما حاجة المسلمين للحكمة والموعظة وقد من اللـه عليهم بنعمـة القوة والعزة والتسلط.

ومثل ذلك قولهم في قوله تعالى: ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَـنُ السَّـيِّئَةَ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَـا يَصِـفُون [المؤمنـون:96]، فقـد نصـوا على أنها نسختها آية السيف(7).. وذلك واضح لكل عاقـل.. فمن أعطاه الله القوة التي يقهـر بهـا أعـداءه لا يحتـاج إلى أن يـدفع بالتي هي أحسن.

ومثل ذلك قولهم في قولـه تعـالى: قُـلْ يَاأَيُّهَـا النَّاسُ قَـدْ جَاءكُمُ الْحَـقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَنِ اهْتَـدَى فَإِنَّمَـا يَهْتَـدِي لِنَفْسِـهِ وَمَن

1() الناسخ والمنسوخ للنيسابوري ص44-45.
2() الناسخ والمنسوخ للنيسابوري ص 96 -97..
3() الناسخ والمنسوخ للنيسابوري ص 135.
4() الناسخ والمنسوخ للنيسابوري، ص 150.
5() قلائد المرجان، ص 176-177.
6() قلائد المرجان، ص 210..
7() قلائد المرجان، ص 235..

ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَا أَنَاْ عَلَيْكُم بِوَكِيل [يونس:108]، فقد نصوا على أن معناها نسخ لا لفظها بآية السيف(1).

ومثل ذلك قولهم في قوله تعالى: وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ وَقَالُوا لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ سَلاَمٌ عَلَيْكُمْ لاَ نَبْتَغِي الْجَاهِلِين [القصص:55]، فهي الأخرى نسخت بآية السيف(2).. وهو واضح لمن تأمله.. أليس الإعراض نوعا من الضعف.. والمسلم قوي عزيز لا يحتاج أن يذل نفسه.

ومثل ذلك قولهم في قوله تعالى: يَاأَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا [الأحزاب:45]، فهي مثل سابقاتها منسوخة بآية السيف(3).. وهي واضحة لا تحتاج إلى شرح يبين نسخها.

ومثل ذلك قولهم في قوله تعالى: وَلاَ تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلاَ السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيم [فصلت:34]، فقد نص سلفهم على أنها منسوخة بآية السيف(4).

ومثل ذلك قولهم في قوله تعالى: فَلِذَلِكَ فَادْعُ وَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَلاَ تَتَّبِعْ أَهْوَاءهُمْ وَقُلْ آمَنتُ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِن كِتَابٍ وَأُمِرْتُ لأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ اللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ لاَ حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ اللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا وَإِلَيْهِ الْمَصِير [الشورى:15]، فقد نصوا على أنها منسوخة بآية السيف (5).

وهكذا استطاعت آية واحدة أساء سلفهم فهمها أن ينسخوا بها كل قيم السماحة والرحمة التي جاء القرآن الكريم للدعوة إليها، ولهذا يذكرون في فضل آية السيف قول الحسن بن فضل: (نسخت هذه الآية كل آية في القرآن فيها ذكر الإعراض والصبر على أذى الأعداء..)، وقال ابن حزم في كتابه الناسخ والمنسوخ: (في القرآن مائة وأربع عشرة آية في ثمان وأربعين سورة نسخت الكل بقوله: اقتلوا المشركين حيث وجدتموهم..)(6)

ولهذا نجد فتاوى السلفية المرتبطة بالعلاقة مع الآخر تلغي كل آيات السماحة لكونها مخصوصة بزمن معين وقوم معينين، أو لكونها منسوخة لا يمكن تطبيقها، لأنها معطلة عن التنفيذ، ونجدهم بدل ذلك يستدلون بالآيات الكريمة في التعامل مع المحاربين.

1() قلائد المرجان، ص 252..
2() المصدر السابق ص 253.
3() المصدر السابق ص 258.
4() المصدر السابق ص 268.
5() المصدر السابق ص 270.
6() الناسخ والمنسوخ لابن حزم (ص: 12)

وهكذا انتكس الأمر هنا أيضا، فتحول المسالمون الذين دعا القرآن الكريم إلى تأليف قلوبهم والمعاملة الحسنة معهم إلى محاربين لا يمكننا أن نتدين التدين الصحيح إلا إذا أريناهم وجوهنا الكالحة، تحت اسم [الولاء والبراء]

وسأسوق هنا بعض الأمثلة من فتاوى السلفية المعاصرين في حكم بعض المعاملات البسيطة التي تدخل ضمن البر والرحمة والسماحة والأخلاق الحسنة التي أمرنا القرآن الكريم أن نتعامل بها مع الناس جميعا بغض النظر عن دينهم وعرقهم وأرضهم، لكن هؤلاء العلماء نظروا إلى المسألة كما نظروا إلى المتشابه والمحكم، حيث تحول المحكم متشابها، والمتشابه محكما، وهكذا تحول المسالمون عندهم إلى محاربين، كما تحول المحاربون عند أولياء أمورهم إلى مسالمين.

فمن الأمثلة على ذلك ما أجاب به الشيخ ابن باز عن سؤال يقول صاحبه: (يسكن معي شخص مسيحي،وهو يقول لي:يا أخي، ونحن إخوة، ويأكل معنا ويشرب، فهل يجوز هذا العمل أم لا؟)

فأجاب الشيخ بقوله: (الكافر ليس أخا للمسلم، والله يقول:﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾[الحجرات:10]، ويقول ﷺ: (المسلم أخو المسلم)(1)، فليس الكافر -يهوديا أو نصرانيا أو وثنيا أو مجوسيا أو شيوعيا أو غيرهم- ليس أخا للمسلم، ولا يجوز اتخاذه صاحبا وصديقا، لكن إذا أكل معكم بعض الأحيان من غير أن تتخذوه صاحبا وصديقا، وإنما يصادف أن يأكل معكم، أو في وليمة عامة فلا بأس، أما اتخاذه صاحبا وصديقا وجليسا وأكيلا فلا يجوز، لأن الله قطع بيننا وبينهم المحبة والموالاة، فقال الله سبحانه وتعالى في كتابه العظيم:﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآءُ مِنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ﴾ [الممتحنة:4]، وقال سبحانه:﴿لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ يعني يحبون ﴿وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ﴾[المجادلة:22]، فالواجب على المسلم البراءة من أهل الشرك وبغضهم في الله، ولكن لا يؤذيهم ولا يضرهم ولا يتعدى عليهم بغير حق، لكن لا يتخذهم أصحابا ولا أخدانا، ومتى صادف أن أكل معهم في وليمة عامة أو طعام عارض من غير صحبة ولا ولاية ولا مودة فلا بأس)(2)

1() صحيح البخاري (2310) ،صحيح مسلم البر والصلة والآداب (2580)

2() فتاوى نور على الدرب لابن باز بعناية الطيار (ص: 370)

وعندما نشرت بعض الصحف مقالا جاء فيه هذه العبارة: (إننا لا نكن العداء لليهود واليهودية وإننا نحترم جميع الأديان السماوية) انبرى أكبر علم سلفي في ذلك الحين، وهو ابن باز، فكتب بيانا شديد اللهجة، جاء فيه: (.. ولما كان هذا الكلام في شأن اليهود واليهودية يخالف صريح الكتاب العزيز والسنة المطهرة،ويخالف العقيدة الإسلامية وهو تصريح يخشى أن يغتر به بعض الناس، رأيت التنبيه على ما جاء فيه من الخطأ نصحا لله ولعباده..فأقول: قد دل الكتاب والسنة وإجماع المسلمين على أنه يجب على المسلمين أن يعادوا الكافرين من اليهود والنصارى وسائر المشركين، وأن يحذروا مودتهم واتخاذهم أولياء، كما أخبر الله سبحانه في كتابه المبين الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد.. ونظرا إلى ما في هذا الكلام من مصادمة الأدلة الشرعية الدالة على أنه لا أخوة ولا محبة بين المسلمين والكافرين، وإنما ذلك بين المسلمين أنفسهم، وأنه لا اتحاد بين الدينين الإسلامي والنصراني، لأن الدين الإسلامي هو الحق الذي يجب على جميع أهل الأرض المكلفين اتباعه، أما النصرانية فكفر وضلال بنص القرآن الكريم .. أما الكفار فيجب بغضهم في الله ومعاداتهم فيه سبحانه، وتحرم موالاتهم وتوليهم حتى يؤمنوا بالله وحده ويدعوا ما هم عليه من الكفر والضلال)(1)

وهكذا أجاب الشيخ الفوزان عندما سئل: (ما رأيُ فضيلتكم فيمن يتقرَّب إلى الكفَّار ويواليهم بحجَّة أنهم يفهمون في أمور المادَّة أكثر منَّا ؟ وكيف يكون التعامل معه ؟)، فأجاب بقوله: (التودُّدُ إلى الكفار لا يجوز، لا تجوز محبَّتُهم في القلوب، لأنهم أعداءُ الله ورسوله،تجبُ عداوتهم، قال تعالى: لا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ [المجادلة:22 .]، فلا يجوز للمسلم أن يحبَّ الكافر، أما التعامل معه في الأمور المباحة، فلا بأس إذا كان الكافر عنده تجارة تبيع معه وتشتري، لا بأس بالبيع والشِّراء معه، هذا من المعاملات المباحة، النبي ﷺ تعامل مع اليهود، اشترى منهم، استدان منهم عليه السلام، كذلك إذا كان عندهم خبرات في بعض الأمور، ولا يوجد عند المسلمين من يقوم بها، فلا بأس أن نستفيد من خبراتهم، لكن لا نحبُّهم، ولا نواليهم، وإنما نؤاجِرُهم أجرةً،ي ؤدُّون لنا عملاً بالأجرة، مع بغضهم ومع عداوتهم)(2)

هذه مجرد أمثلة عن انهيار القيم القرآنية بسبب التراث

1() مجموع فتاوى ابن باز (2/ 178)

2() المنتقى من فتاوى الفوزان (18/ 2)(148)

السـلفي في التفسـير والناسـخ والمنسـوخ وأسـباب الـنزول وغيرهـا، والـتي يفخـر السـلفية بـأن لهم الريـادة فيهـا، وهم لا يعلمـون أن لهم الريـادة في تحريـف القـرآن الكـريم وتشـويه معانيه، بل محاربتها، ومناقضتها، ولو أن الأعداء اجتمعوا ليفعلوا بالقرآن الكريم ما فعله السلفية فيه ما استطاعوا.

ولهذا نرى من الغرابـة أو من الجبن ذلـك التركـيز الشـديد من بعض المثقفين والمفكـرين على الـرد على الحـداثيين ومواقفهم من القرآن الكـريم، مـع الغفلـة عن الـرد عن هـؤلاء الذين لولاهم ما كان الحداثيون ولا الليـبراليون ولا العلمـانيون.. بـل إن هـؤلاء جميعـا ضـحية لتلـك المفـاهيم الشـيطانية الـتي ألصقها السلفيون وسلفهم بالقرآن الكريم.

التراث السلفي .. والحديث

لا يستطيع أي عاقل في الدنيا أن ينكـر اهتمـام السـلفية ـ سلفهم وخلفهم ـ بالحـديث، فالحـديث هـو مهنتهم الأولى، وهـو بضاعتهم التي يقدمونها للناس، كمـا أنـه الأداة الـتي من خلالهـا يزنون من يقبلون من الناس، ومن يرفضون منهم.

ولأجـل ذلـك سـمى أسـلافهم أنفسـهم [أهـل الحـديث]، والأثريين، بل إنهم ـ وبثقة عظيمة ـ أنزلوا كل ما ورد في السنة المطهرة حول شـرف أهـل الحـديث عليهم.. فهم المقصـودون بقولـه ﷺ حـتى ولـو لم ينص الحـديث على ذلـك.. لأن سـلفهم أخبروا بـذلك، ومـا كـان لسـلفهم الربـانيين المتقين أن يتقولـوا على رسول الله ﷺ ما لم يقله.

ولذلك تراهم إذا قرأوا قوله ﷺ: (نضر الله امـرأ سـمع منـا شيئا فبلغه كما سمع فرب مبلغ أوعى من سامع)[1] نقلـوا معـه قول أبي بكر بن العربي في تفسيره: (قال علمـاء الحـديث مـا من رجل يطلب الحديث إلا كان على وجهة نضـرة لقـول النـبي ﷺ : (نضر الله امرأ سمع منا شيئا فبلغه كما سـمع فـرب مبلـغ أوعى من سامع) الحديث.. وهذا دعاء منه عليه السـلام لحملـة علمه، ولابد بفضل الله من نيل بركته)[2]

ونقلوا معه قول أبي العباس العزفي[3]:

أهل الحديث عصابة الحق ... فازوا بدعوة سيد الخلق
فوجوههم زهر منضرة .... لألاؤها كتألق البرق
يا ليتني معهم فيدركني ... ما أدركوه بها من السبق

وإذا قرأو قوله ﷺ: (يحمل هذا العلم من كل خلف عدولـه، ينفون عنه تحريف الغالين، وانتحال المبطلين، وتأويل الجاهلين)[4] نصوا على أن أهل هذا العلم هم أهـل الحـديث، وأنهم لـذلك عدول بتعديل رسول الله ﷺ كما قال الحاكم: (لولا كثرة طائفة المحـدثين على حفـظ الأسـانيد، لـدرس منـار الإسـلام، ولتمكن أهل الإلحاد والمبتدعة من وضع الأحاديث وقلب الأسانيد) [5]

وقال بعده النووي: (هذا إخبـار منـه ﷺ بصـيانة هـذا العلم وحفظه وعدالة ناقليه، وإن الله تعالى يوفـق لـه في كـل عصـر خلفا من العدول يحملونه وينفون عنه التحريف فلا يضـيع، وهـذا تصريح بعدالة حامليه في كل عصـر، وهكـذا وقـع وللـه الحمـد،

1() سنن الترمذى (2869)

2() مقدمة تحفة الأحوذى ص 13.

3() نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب (ج 2 / ص 36)

4() الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع للخطيب البغدادي(135)

5() الحطة ص 39، مقدمة تحفة الأحوذي ص 15.

وهو من أعلام النبوة، ولا يضر كون بعض الفساق يعرف شيئا من علم الحديث، فإن الحديث إنما هو إخبار بأن العدول يحملونه لا أن غيرهم لا يعرف شيئا منه)(1)

وهكذا إذا رووا قوله ﷺ: (أولى الناس بى يوم القيامة أكثرهم على صلاة)(2)، فإنهم وبتحد عجيب يحملونها على أنفسهم، لا على أصحاب الطرق الصوفية الذين اتخذوا الصلاة على رسول الله ﷺ وظيفة دائمة لا يتوقفون عنها، يقول أبو حاتم: (في هذا الخبر دليل على أن أولى الناس برسول الله ﷺ في القيامة يكون أصحاب الحديث، إذ ليس من هذه الأمة قوم أكثر صلاة عليه ﷺ منهم)(3).. ويقول أبو اليمن بن عساكر: (ليهن أهل الحديث هذه البشرى، فقد أتم الله نعمه عليهم بهذه الفضيلة الكبرى، فإنهم أولى الناس بنبيهم، وأقربهم إن شاء الله تعالى وسيلة يوم القيامة إلى رسول الله ﷺ ، فإنهم يخلدون ذكره في دروسهم، ويجددون الصلاة والتسليم عليه في معظم الأوقات، في مجالس مذاكراتهم ودروسهم، فهم إن شاء الله تعالى الفرقة الناجية، جعلنا الله منهم وحشرتنا في زمرتهم) (4).

وهكذا إذا رووا قوله ﷺ: (لا تزال طائفة من أمتى منصورين لا يضرهم من خذلهم حتى تقوم الساعة)(5) ، فإنهم يروون معه قول على بن المدينى: (هم أصحاب الحديث)(6).. ويروون عن أحمد قوله لما سئل عن الطائفة المنصورة المذكورة في الحديث: (إن لم تكن هذه الطائفة المنصورة أصحاب الحديث، فلا أدري من هم)، وقول الحاكم معقبا: (فلقد أحسن أحمد بن حنبل في تفسير هذا الخبر، أن الطائفة المنصورة التي يدفع الخذلان عنهم إلى قيام الساعة هم أصحاب الحديث، ومن أحق بهذا التأويل من قوم سلكوا محجة الصالحين، واتبعوا آثار السلف من الماضين، ودفعوا أهل البدع والمخالفين، بسنن رسول الله ﷺ وعلى آله أجمعين) (7).

وهكذا نجدهم مع كل الأحاديث الواردة في فضل نقل السنة أو الاهتمام بها أو تمحيصها، فإنهم يعتبرون أنفسهم المقصودون بالحديث، ما عدا حديثا واحدا، فإنهم ـ ومع كونه ﷺ ذكر فيه أهل الحديث ــ إلا أنهم لا ينسبونه لهم، وهو قوله ﷺ:

1() الحطة في ذكر الصحاح الستة ص 39.

2() سنن الترمذى(486) والفتح 11/167 .

3() تحفة الأحوذي (ج 2 / ص 20)

4() مقدمة تحفة الأحوذي ص 12-13.

5() رواه أحمد: 5/34.

6() سنن الترمذى (2351) صحيح

7() معرفة علوم الحديث للحاكم ص 107-108.

(سيخرج قوم في آخر الزمان، حدثاء الأسنان، سفهاء الأحلام، يقولون من قول خير البرية، يقرؤون القرآن، لا يجاوز إيمانهم حناجرهم، يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية) [1]

ونحن لا ننكر أن يكون لأهل الحديث ــ الذين يعتبرهم السلفية سلفهم الأول ـ جهودهم في البحث عن السنة وتدوينها ووضع القواعد المرتبطة بتمحيصها .. ولكنا ننكر عليهم ذلك الغرور العظيم الذي جعلهم ينفصلون عن الأمة انفصالا تاما، ليصبحوا طائفة خاصة، وكأن رسول الله ﷺ لم يحدث سواهم، ولم تشمل رحمته التي وسعت العالمين غيرهم.

ولذلك فإن مبدأ الانحراف في التراث السلفي هو تلك الطائفية المقيتة التي جعلتهم يتصورون أنهم وحدهم أهل الحديث.. وأن غيرهم من الأمة ليس كذلك.. حتى لو أمضى حياته كلها متتبعا سنة رسول الله ﷺ بمفهومها القرآني الشامل..

لأن التصور السلفي أعطى لأهل الحديث شروطا، ووضع لهم قواعد، فمن كان معهم فيها، فهو من أهلهم، ومن أهل الحديث، وتنطبق عليه كل الأحاديث التي وردت في فضلهم، ومن لم يكن معهم، فلا حظ له من أجر، ولا حق له في ثواب.. لأنهم هم من يوزع الثواب.

يقول الخطيب البغدادي ـ مبينا سر ذلك ذلك الشرف الذي خص به أهل الحديث ــ: (لولا عناية أصحاب الحديث بضبط السنن وجمعها، واستنباطها من معادنها، والنظر في طرقها لبطلت الشريعة، وتعطلت أحكامها، إذ كانت مستخرجة من الآثار المحفوظة، ومستفادة من السنن المنقولة، فمن عرف للإسلام حقه، وأوجب للدين حرمته، أكبر أن يحتقر من عظم الله شأنه، وأعلى مكانه، وأظهر حجته، وأبان فضيلته، ولم يرتق بطعنه إلى حزب الرسول وأتباع الوحي وأوعية الدين، وخزنة العلم، الذين ذكرهم الله في كتابه فقال: ﴿وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ﴾ [التوبة: 100] وكفى المحدث شرفا أن يكون اسمه مقرونا باسم رسول الله ﷺ، وذكره متصلا بذكره ﴿ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ ﴾ [الجمعة: 4]) [2]

ويقول ابن تيمية مبينا سر ذلك التميز الذي تميز به أهل الحديث عن غيرهم من الأمة: (من المعلوم أن أهل الحديث يشاركون كل طائفة فيما يتحلون به من صفات الكمال ويمتازون عنهم بما ليس عندهم.فإن المنازع لهم لا بد أن يذكر

1() البخاري (3611) ومسلم (1066) وأبو داود (4767) والنسائي (7/ 119).
2() الكفاية في علم الرواية (ج 1 / ص 5) والكفاية للخطيب البغدادي (1/ 51-52)

فيما يخالفهم فيه طريقا أخرى ؛ مثل المعقول والقياس والرأي والكلام والنظر والاستدلال والمحاجة والمجادلة والمكاشفة والمخاطبة والوجد والذوق ونحو ذلك، وكل هذه الطرق لأهل الحديث صفوتها وخلاصتها: فهم أكمل الناس عقلا ؛ وأعدلهم قياسا وأصوبهم رأيا وأسدهم كلاما وأصحهم نظرا وأهداهم استدلالا وأقومهم جدلا وأتمهم فراسة وأصدقهم إلهاما وأحدهم بصرا ومكاشفة وأصوبهم سمعا ومخاطبة وأعظمهم وأحسنهم وجدا وذوقا .وهذا هو للمسلمين بالنسبة إلى سائر الأمم ولأهل السنة والحديث بالنسبة إلى سائر الملل) (1)

ويقول باستعلاء وكبرياء كل حين: (وبهذا يتبيّن أنّ أحقّ الناس بأن تكون هي الفرقة الناجية: أهل الحديث والسنّة الذين ليس لهم متبوع يتعصّبون له إلا رسول الله ﷺ، وهم أعلم الناس بأقواله وأحواله وأعظمهم تمييزا بين صحيحها وسقيمها وأئمّتهم فقهاء فيها وأهل معرفة بمعانيها واتباعٌ لها: تصديقًا وعملاً وحبًّا وموالاةً لمن والاها ومعاداة لمن عاداها، الذين يَرُدون المقالات المجملةَ إلى ما جاء به من الكتاب والحكمة، فلا يُنَصِّبُون مقالةً ويجعلونها من أصول دينهم وجُمل كلامهم إن لم تكن ثابتةً فيما جاء به الرسول ﷺ بل يجعلون ما بعث به الرسول ﷺ من الكتاب والحكمة هو الأصل الذي يعتقدونه ويعتمدونه)(2)

وهكذا أصبح أهل الحديث بمنطق ابن تيمية وجميع السلفية هم زبدة الأمة وخلاصتها، لذلك فإنهم، وبهذا الاعتبار، لا يختلفون عن الصحابة، لأنهم تسنى لهم ــ بسبب الحديث ـ الإطلاع على جميع أحواله ﷺ كما قال قائلهم:

أهل الحديث هم أهل النبي وإن لم يصحبوا نفسه أنفاسه صحبوا

وما دام قد ورد النهي عن التعرض للصحابة ــ كما ينص السلفية ـ فقد ورد النهي عن التعرض لهم أيضا، بل إن حرمتهم تزيد على حرمة الصحابة الذين لم يكفر السلفية سابيهم ولاعنيهم والطاعنين فيهم(3)، بينما كفروا من يطعن في أهل الحديث.

فقد رووا عن محمد ابن إسماعيل الترمذي قوله: كنت أنا وأحمد بن الحسن الترمذي عند أبي عبد اللّه أحمد بن محمد بن

1() مجموع الفتاوى (ج 4 / ص 9)

2() مجموع الفتاوى (٣٤٧/٣)

3() وخاصة سيد الصحابة الإمام علي الذي لم يتعرض أحد للإذية والسب والطعن مثلما تعرض له، وأول من تعرض له هم سلف السلفية، وعلى رأسهم ابن تيمية كما ذكرنا ذلك بتفصيل في كتاب [شيخ الإسلام في قفص الاتهام]

حنبل فقال له أحمد بن الحسن: يا أبا عبد اللّه ذكروا لابن أبي قتيلة بمكة أصحاب الحديث، فقال: أصحاب الحديث قوم سوء. فقام أبو عبد اللّه وهو ينفض ثوبه فقال: (زنديق زنديق زنديق)، ودخل البيت [1].

ورووا عن أحمد بن سنان القطان قوله: (ليس في الدنيا مبتدع إلا وهو يبغض أهل الحديث وإذا ابتدع الرجل نزع حلاوة الحديث من قلبه)، وروى عن أحمد بن سلام الفقيه قوله: (ليس شيء أثقل على أهل الإلحاد ولا أبغض إليهم من سماع الحديث وروايته بإسناد)[2]

وقد علق الحاكم على هذين الأثرين بقوله: (وعلى هذا عهدنا في أسفارنا وأوطاننا كل من ينسب إلى نوع من الإلحاد والبدع لا ينظر إلى الطائفة المنصورة إلا بعين الحقارة، ويسميها الحشوية، سمعت الشيخ أبا بكر أحمد بن إسحاق الفقيه وهو يناظر رجلا، فقال: الشيخ: حدثنا فلان، فقال له الرجل: دعنا من حدثنا، إلى متى حدثنا، فقال له الشيخ: (قم يا كافر، ولا يحل لك أن تدخل داري بعد هذا)، ثم التفت إلينا، فقال: (ما قلت قط لأحد لا تدخل داري إلا لهذا)[3]

بناء على هذا، فإن جذور المشكلة في التراث السلفي تكمن في هذه الطائفية المقيتة، ولو أن السلفية وسلفهم تعاملوا مع الحديث النبوي الشريف كما تعاملت الأمة مع القرآن الكريم لما كان الأمر بهذه الصورة، ولما وقعوا في تلك الانحرافات الكثيرة.. ذلك أن القرآن والحديث كلاهما وحي إلهي، وكلاهما مصدر أساسي للدين.. فلم التمييز بينهما؟

ولكن المشروع الشيطاني في هذه الأمة، والذي لم يستطع أن يمس كتابها بالتحريف كما حرف كتب الأمم السابقة راح يحارب الكتاب بالحديث، ولينجح في مشروعه اتخذ له من هذه الطائفة الناجية أمة من الناس تفسر الدين بحسب ما وصلها من روايات اختلط فيها الحابل بالنابل والطيب بالخبيث والعقل بالخرافة والمقدس بالمدنس.

وسنحاول هنا باختصار أن نبين الانحرافات الكبرى التي وقع فيها التراث السلفي في تعامله مع الحديث النبوي الشريف، وقد رأينا من خلال الاستقراء أنها خمسة أخطاء كبرى تساهم جميعا في حرب السنة النبوية المطهرة، وإحلال السنة المذهبية بدلها، والسنة المذهبية ليست سوى تلك الآراء التي تبناها سلف السلفية، وراحوا يفسرون بها القرآن الكريم

1() معرفة علوم الحديث للحاكم (ص: 4)
2() معرفة علوم الحديث للحاكم (ص: 4)
3() معرفة علوم الحديث للحاكم (ص: 4)

والحديث وكل شيء.

وهي مرتبة بهذا الترتيب:

أولا ـ الطائفية في التعامل مع الحديث رواية ودراية.

ثانيا ـ الذاتية في قبول الرواة ورفضهم.

ثالثا ـ الذاتية في تحديد علل الحديث.

رابعا ـ الذاتية في تفسير الأحاديث وتأويلها.

خامسا ـ مزاحمة الحديث بالرواية عن السلف.

وبهذا الترتيب لن ينجو من منخل أهل الحديث إلا ما يرتضونه من أحاديث، أو ما وضعه لهم سلفهم من الحديث.. اللهم إلا الأحاديث التي لا تضرهم، ولا تصيب مقاتلهم، فإنهم يتركونها تمر، فالشيطان لا يأتي من أبواب الشر المجردة، بل يخلط الخير بالشر، حتى يعبث من خلال ذلك بالعقول.

وأول ما يبدؤون به فرزهم للحديث بحسب أهوائهم هو حرمانهم لمن لا ينتسب لهم من الكلام في الحديث حتى لو بلغ ما بلغ من الحفظ والإتقان.. وهكذا يتعاملون مع رواة الأحاديث، فمن حدث بما يوافق أهواءهم قبلوه ووثقوه، ومن خالفها ضعفوه ووهنوه واتهموا حديثه.. فإن نجا الحديث منهم بصحة السند، ذكروا أن السند لا يكفي وحده للصحة، بل قد يضعف لعلة خفية فيه.. ثم راحوا يذكرون أي علة، ولا يحاسبهم أحد في ذلك، لأن العلل الخفية قد لا يطاق التعبير عنها.. فإن نجا الحديث منهم بعد ذلك كله فسروه أو أولوه بما يتناسب مع مزاجهم.. فإن نجا من ذلك ولم يكن هناك محمل آخر يمكن حمله عليه زاحموه بأقوال السلف التي يعتبرونها أكثر حرمة من القرآن الكريم والسنة المطهرة.

هذا هو منهج السلفية وسلفهم في التعامل مع الأحاديث التي لا تتناسب مع معتقداتهم، وسنفصل الكلام في هذا وأدلته في المباحث التالية:

أولا ـ الطائفية في التعامل مع الحديث رواية ودراية:

لعل أكبر انحراف وقع فيه التراث السلفي ورجاله هو تلك النبرة الطائفية المقيتة التي تعاملوا بها مع الحديث، ومع أهل الحديث، حيث أنهم وضعوا قوانين للمحدثين تفتقد للمصداقية والعلمية والموضوعية، وهي فوق ذلك تمتلئ بكل متطلبات الذاتية والقناعات الشخصية، فأصبح علم الحديث بذلك وسيلة لخدمة أغراضهم، لا كونه العلم الذي نعرف من خلاله السنة المطهرة.

ومن الأدلة على ذلك موقفهم من المحدثين الكبار الذين يخالفونهم في الرأي، أو يذهبون خلاف مذاهبهم العقدية الممتلئة بالتجسيم والوثنية، أو يخالفونهم لكونهم ارتضوا لأنفسهم منهجها معينا، أومدرسة معينة.

وقد أشار ابن حجر العسقلاني(ت 825هـ) إلى هذه الطائفية المقيتة، فقال: (واعلم أنه قد وقع من جماعة الطعن بسبب اختلافهم في العقائد فينبغي التنبه لذلك وعدم الاعتداد به إلا بحق، وكذا عاب جماعة من الورعين جماعة دخلوا في أمر الدنيا فضعفوهم لذلك ولا أثر لذلك التضعيف مع الصدق والضبط، وأبعد ذلك كله من الاعتبار تضعيف من ضعف بعض الرواة بأمر يكون الحمل فيه على غيره أو للتحامل بين الأقران، وأشد من ذلك تضعيف من ضعّف من هو أوثق منه أو أعلى قدراً أو أعرف بالحديث فكل هذا لا يعتبر به)(1)

وبذلك تحولت غاية علم الحديث من كونه العلم الذي تعرف به سنة رسول الله ﷺ إلى العلم الذي ينتصر لأهواء المحدثين، ورغباتهم الشخصية، وكأنهم يشرطون على رسول الله ﷺ وعلى سنته أن توافق أهواء سلفهم من اليهود أو تلاميذ اليهود، أو يرمى بها عرض الجدار.

ومن الأمثلة على ذلك ما ذكره المحدث الكبير أحمد بن محمد بن الصديق الغماري في كتابه (المداوي لعلل المناوي) منتقدا تلك المواقف السلبية من علماء الجرح والتعديل من الرواة المتعلقين بحب أهل البيت مقارنة بموقفهم من أعدائهم، فقد قال عند حديثه عن بعضهم: (وهذا الرجل ــ يعني عبدالسلام بن صالح الهروي ـ ممن ظلمه أهل الجرح والتعديل لأجل تشيعه لأهل البيت، وقد وثقه أهل التحقيق منهم، كما بينته في (فتح الملك العلي)(2)

وقال منتقدا بشدة موقف الذهبي والمناوي من الإمام جعفر الصادق: (هذه غلطة شنيعة من الشارح وغفلة عظيمة راج عليه معها نصب الذهبي، فهل أنت يا مناوي مجنون تعلل الحديث بجعفر الصادق أحد كبار الأئمة وسادات الأمة وبحور العلم والمعرفة من آل البيت الأطهار ؟! وتجعله في مصاف الضعفاء والمتروكين الذين يردُّ بهم الحديث.. غرضه الأكيد هو جلب الطعن فيه من إخوانه النواصب، وإدراج هذا الإمام ـ يعني جعفر الصادق ـ في دفتر الضعفاء والمتروكين، فإنه ذكر فيه أيضاً جميع الأئمة المشاهير المتبوعين من سادات أهل البيت

1() انظر: ابن حجر العسقلاني (هدى الساري مقدمة فتح البارئ ص 385)
2() المداوي لعلل المناوي: 1 / 207.

رضي الله عنهم) (1)

وقال عند ذكره لبعض الرواة الذين اتهمهم الذهبي زورا وبهتانا: (والذهبي إنما أورده لما قيل فيه من التشيع، وهو لا يترك شيعياً إلا أورده في الضعفاء) (2)

وهكذا انتقد موقفهم من المحدثين والرواة الذين اختاروا لأنفسهم منهج التصوف كوسيلة للسلوك إلى الله، فقد قال منتقدا موقفهم من أبي عبدالرحمن السلمي الصوفي المشهور، صاحب الطبقات والأربعين وحقائق التفسير، وغيرها: (هو ثقة تكلم فيه بلا حجة، كما هي عادة أهل الحديث مع أمثاله من الصوفية، فيعاب على الشارح تعليل الحديث به لاسيما وهو من العارفين بقدر الرجل ومنزلته وجلالته) (3)

وقال: (تعليل الحديث بأبي عبدالرحمن السلمي من جهل الشارح، بل من قلة حيائه، لأنه يدعي التصوف وإجلال الصوفية، ومن يجهل قدر أبي عبدالرحمن السلمي ويقبل قول الخطيب فيه فلم يشم للتصوف رائحة ولا قرب من ساحة ميدان الحديث، والذهبي على بغضه للصوفية وتعنته عليهم قد أورده في (تذكرة الحفاظ) وامتدحه وأطراه، وتكلم فيه من أجل مالم يفهمه من تصوفه، ونقل كلام من تكلم فيه كما هو الشأن في كتب الرجال، فقال في (التذكرة): أبوعبدالرحمن السلمي الحافظ العالم الزاهد شيخ المشايخ محمد بن الحسين بن محمد بن موسى النيسابوري الصوفي الأزدي الأب السلمي الأم، سمع خلقاً كثيراً، وكتب العالي والنازل، وصنف وجمع، وسارت بتصانيفه الركبان، حمل عنه القشيري والبيهقي وأبوصالح المؤذن وخلق سواهم، إلا أنه ضعيف، قال الخطيب: محله كبير، وكان مع ذلك صاحب حديث مجوداً، جمع شيوخاً وتراجم وأبواب، وله دويرة للصوفية، وعمل سنناً وتفسيراً وتاريخاً) (4)

ومن الأمثلة على ذلك انتقادات العلامة المحدث محمود سعيد ممدوح لتفريط الأمة في تراث أهل البيت الحديثي لأسباب سياسية ومذهبية وطائفية، سواء في كتبه أو في محاضراته ولقاءاته، والتي كانت سببا في حرق كتبه في دول الخليج، وكانت سببا في الحملة الإعلامية الشديدة عليه على الرغم من إقرارهم له بالتمكن من علم الحديث.

فمما قال في بعض الحوارات التي أجريت معه جوابا عن سؤال حول حكم روايات آل بيت رسول الله ﷺ في غير دواوين

---

(1) المداوي لعلل المناوي: 1 / 250.
(2) المداوي لعلل المناوي: 1 / 563.
(3) المداوي لعلل المناوي: 1 / 530.
(4) المداوي لعلل المناوي: 1 / 627.

أهل السنة: (المعول هنا على الإسناد فإذا ثبت الإسناد لأئمة آل البيت فهو كذلك وإلا فلا، ثم أعلم أن الله تعالى لم يقصر الثابت بأقسامه على كتب أهل السنة فقط ففي كتب السادة الزيدية جمع عظيم من الأحاديث النبوية الشريفة الثابتة، وعلى سبيل المثال بين يدي الآن شرح تجريد فتاوى الإمامين القاسم الرسي وحفيده الإمام الهادي عليهما السلام، والشرح للحافظ الفقيه الإمام المؤيد بالله أحمد بن الحسين بن هارون الحسني المتوفى سنة 416 هـ وهو مخطوط ومصور في ستة أجزاء ضخام بحجم مستدرك الحاكم، والكتاب قد امتلأ بالأحاديث المرفوعة المسندة من طريق آل البيت وغيرهم، والإمام المؤيد بالله له شيوخ كثيرون، وبينه وبين الطحاوي واسطة واحدة، وهذا الشرح أعني شرح التجريد، علق أسانيده الإمام المجتهد أحمد بن سليمان من ذرية الإمام الهادي يحي بن الحسين عليهم السلام المتوفى سنة 566هـ وجمع متونه في كتاب مفرد اسمه أصول الأحكام الجامع لأدلة الحلال والحرام، وهو مطبوع في مجلدين .. وفقه وحديث آل البيت عليهم السلام يحتاج لتوجه صادق وبحث وجَلَد وقبل ذلك تقوى واستعانة بالله تعالى)(1)

وقال جوابا على سؤال حول رأيه في (مسند الإمام الشهيد زيد بن علي)، وهل تصح نسبته إليه: (مسند الإمام زيد بن علي عليهما السلام صحيح النسبة إليه، وقد تلقاه ائمة آل البيت عليهم السلام بالقبول، وجميعهم بالنسبة لأحاديثه وآثاره بين عامل به أو متأول له، وهذا معنى التلقي بالقبول، وراوي المسند عن الإمام زيد عليه السلام، هو أبو خالد الواسطي قد قدح فيه غير واحد من ائمة الجرح والتعديل، لكن جرحهم مردود بتلقي ائمة آل البيت للمسند بالقبول، وأحاديث المسند معروفة ومشهورة وقد شرحها عدد من العلماء وخرجت واعتبرت.وأرجوا من الأستاذ الهولي الشافعي مراجعة مقدمة الروض النضير للعلامة الكبير السياغي الصنعاني رحمه الله تعالى فقد أفاض وأجاد وأتى بالمراد وفيه غنية وكفاية لإثبات صحة ونسبة مسند الإمام زيد بن علي له.والمسند مطبوع بمصر وعليه تقريظات عدد من علماء الأزهر، ثم اعلم أنه إذا كان العمل على القبول رد الجرح، وأنت إذا تأملت الجرح الذي جاء في عدد من ائمة الفقه وأن العمل على خلافه انحلت لك المشكلة، فهذا هو الإمام أبو حنيفة النعمان قد قدح في عدالته وضبطه عدد كبير من الحفاظ والفقهاء، وصنف ابن حبان الحافظ في علل أحاديثه، وهذا لم يحدث لأبي خالد الواسطي

1() من حوار مطول أجري معه في منتدى المنزهون من أهل الحديث.

راوي المسند ومع ذلك كان العمل على خلاف هذا الجرح، وهذان محمد بن شجاع الثلجي، والحسن بن زياد اللؤلؤي من أجل المجتهدين والرواة من أصحاب الإمام أبي حنيفة معتمدان في النقل والفقه عند السادة الحنفية مع أنهما كذابان عند ائمة الجرح والتعديل بل قال أبوثور ما رأيت أكذب من اللؤلؤي، وللشيخ الكوثري رسالة خاصة اسمها (الإمتاع) خاصة بالثلجي واللؤلؤي فإنها مطبوعة، وللثلجي واللؤلؤي نظائر كالحارثي والحسن بن عمارة، وابن حبيب، والحاصل أن أبا خالد الواسطي حديثه مقبول عند قرناء الكتاب أعني ائمة آل البيت عليهم السلام طبقة بعد طبقة مع توفر كتب الرجال عندهم، وفي هذا القدر كفاية لقبول حديث الرجل)[1]

وقال جوابا عن سؤال حول رأيه في كتاب (العتب الجميل) الذي انتقد فيه صاحبه ذاتية المحدثين، وكيلهم بالمكاييل المزدوجة، حين وثقوا النواصب وضعفوا الموالين لأهل البيت: (كتاب (العتب الجميل على أهل الجرح والتعديل) لسيدي العلامة المبجل الشريف محمد بن عقيل بن يحيى باعلوي الشافعي، كتاب رائد في بابه، تعرض لمشكلة من أهم المشكلات في الجرح والتعديل، ألا وهي توهين وجرح وظلم آل البيت عليهم السلام وشيعتهم، وتوثيق ومدح النواصب المجرمين، وهي مسألة عظيمة تعرض لها السيد محمد بن عقيل، فأزاح الستار عن سببها وأثرها، وذكر نماذج لها، فلله دره) [2]

ولم يقتصر أمر السلفية على توهينهم المخالفين لهم من الرواة القدامى بسبب آرائهم ومواقفهم، بل شمل ذلك أيضا كبار علماء هذا العصر، ومن المحدثين الذي شهد لهم الجميع بالقدرة والوثاقة.

وسنسوق هنا بعض الأمثلة على ذلك للدلالة على أن العقل السلفي القديم هو نفسه العقل السلفي الجديد، وأن السلفية لم يطوروا أنفسهم، ولم يراجعوا آراءهم، ولم يصححوا منهجهم.

المثال الأول: موقف السلفية من الكوثري:

يعتبر محمد زاهد الكوثري من كبار أعلام هذا العصر في كثير من العلوم الشرعية، ومنها علم الحديث، الذي ترك فيه آثار رائعة تدل على قدراته النقدية.

وقد شهد له بهذا كبار الأعلام المعاصرين، كتلميذه أحمد خيري، الذي شهد له بقوله: (كان ذا ذاكرة فذة، ولاسيما في

1() المرجع السابق.
2() المرجع السابق.

حفظ الأسماء فكان إذا سمع شيئا أو رأى أحدا مرة واحدة ذكره ولو بعد سنوات، وهيأ له ذلك مع إطلاعه على المخطوطات النادرة في الآستانة ومصر والشام إلى أن أصبح حجة لا يبارى في علم الرجال وجمع إلى براعته في الحديث ورجاله مهارة فائقة في علم الكلام وتنزيه الله سبحانه وتعالى، كما كان أستاذ العصر في علمي الأصول والفقه، وكان على عبقريته المدهشة يحب أن يتعقّبه العلماء)(1)

وشهد له الشيخ الكبير محمد أبو زهرة، فقال: (لا أعرف عالما مات فخلا مكانه في هذه السنين كما خلا مكان الإمام الكوثري،لأنه بقية السلف الصالح الذين لم يجعلوا العلم مرتزقا ولا سلما لغاية.. لقد تحقق فيه القول المأثور (العلماء ورثة الأنبياء)، وما كان يرى تلك الوراثة شرفا يفتخر به ويتسلط به على الناس،بل كان يراه جهادا في إعلان الإسلام وبيان حقائقه وإزالة الأوهام التي لحقت جوهره)(2)

وقال فيه: (لم يكن الكوثري من المنتحلين لمذهب جديد أو داعيا إلى مذهب لم يسبق إليه، لهذا كان ينفر من من يسمهم العامة وأشباه المثقفين بسمة التجديد، ومع ذلك فقد كان من المجددين بالمعنى الحقيقي للتجديد والذي هو إعادة رونق الدين وجماله وإزالة ما علق به من الأوهام، إنه لمن التجديد أن تحي السنة وتموت البدعة ويقوم بين الناس عمود الدين)(3)

وقال فيه الأستاذ محمد بن يوسف البنوري، أستاذ الحديث بدار العلوم بباكستان، بعد أن ساق ما ذكره مسروق في حق عبد الله بن مسعود حيث قال: (لقد جالست أصحاب محمد ﷺ فوجدتهم كالإخاذ، فالإخاذ يروي الرجل، والإخاذ يروي الرجلين، والإخاذ يروي العشرة، والإخاذ لو نزل به أهل الأرض لأصدرهم، فوجدت عبد الله بن مسعود من ذلك الإخاذ): (إنها تصدق هذه الكلمة في محقق العصر، الجهبذ الناقد البحاثة الخبير...فكان رجلا يتجلى فيه بعصره هذه المزية بأجلى منظرها، رجل جمع بين غاية سعة العلم والاستبحار المدهش ودقة النظر، والحافظة الخارقة، والاستحضار المحيّر، والجمع بين علوم الرواية على اختلاف فروعها وشعبها، وعلوم الدراية على تفنن مراميها)(4)

لكن كل هذه الشهادات وغيرها للرجل، وقدرته، وعلمه، واجتهاده، وصدقه لم تنفعه عند السلفية لسبب بسيط، وهو أنه

(1) مقدمة تاريخ الكوثري، ص13.
(2) مقدمة تاريخ الكوثري، ص14.
(3) مقدمة تاريخ الكوثري، ص15.
(4) مقدمة تاريخ الكوثري، ص3.

يخالفهم في عقائدهم التجسيمية، وفي مواقفهم من التوسل وفي عبوديتهم لابن تيمية، فهو من العلماء الكبار الذين ردوا عليه، فقد كتب كتابه (البحوث الوفية في مفردات ابن تيمية) تعقّبت فيه كتاب (منهاج السنة) لابن تيمية فيما أورده من مسائل منافية لأحاديث صحيحة وصريحة حول فضائل الإمام علي.. ومنها كتابه (التعقّب الحثيث لما ينفيه ابن تيمية من الحديث)، والذي تعقّبت فيه ما نفاه من أحاديث في كتابه منهاج السنة رغم وروده في كتب السنة.. ومنها كتابه (محق التقول في مسألة التوسل) والذي رد فيه على ابن تيمية والوهابية من رميهم المتوسلين برسول الله ﷺوأهل بيته بالشرك.. وغيرها من الكتب الكثيرة.

وبما أن السلفية يجعلون ابن تيمية قسيم الجنة والنار، فقد اعتبروا كلام الكوثري في ابن تيمية دليلا على أنه من أهل النار.

وقد كتبوا في الرد عليه والتحذير منه الكثير من الرسائل والكتب، ومن أمثلة ذلك قول بعضهم فيه: (رمز التعصب والتقليد حامل لواء الجهمية في هذا العصر ناشر للبدع ويثني على أهلها يعول عليه أهل البدع كثيرا وبخاصة الأشعرية والماتريدية والصوفية وغيرها من الفرق الضالة وبخاصة أهل الرفض يحتجون بكلامه ضد أهل السنة والجماعة ومحاربته لأهل الحديث وأعلام السنة والتوحيد)(1)

وقال الألباني عنه في مقدمة (التنكيل بما في تأنيب الكوثري من الأباطيل): (فإني أقدم اليوم إلى القراء الكرام كتاب التنكيل بما في تأنيب الكوثري من الأباطيل.. بين فيه بالأدلة القاطعة والبراهين الساطعة تجني الأستاذ الكوثري على أئمة الحديث ورواته ورميه إياهم بالتجسيم والتشبيه وطعنه عليهم بالهوى والعصبية المذهبية حتى لقد تجاوز طعنه إلى بعض الصحابة مصرحا بأن أبا حنيفة رغب عن أحاديثهم وأن قياسه مقدم عليها فضلا عن غمزه بفضل الأئمة وعلمهم فمالك مثلا عنده ليس عربي النسب بل مولى والشافعي كذلك بل هو عنده غير فصيح في لغته ولا متين في فقهه والإمام أحمد غير فقيه وابنه مجسم.. وهكذا لم يسلم من طعنه حتى مثل الحميدي وغيرهم، ثم هو إلى طعنه يضعف الثقات من الحفاظ والرواة وينصب العداوة بينهم وبين أبي حنيفة لمجرد روايتهم عنه بعض الكلمات التي لا تروق لعصبية الكوثري وجموده المذهبي وهو في سبيل ذلك لا يتورع ان يعتمد على مثل ابن النديم الوراق وغيره ممن لا يعتد بعلمه في هذا الشأن.وهو

(1) جهود الكوثري في علوم الحديث (ص 204-205)

على النقيض من ذلـك يوثـق الضـعفاء والكـذابين إذا رووا مـا يوافـق هـواه، ومنـه يتـبين للنـاس مـا كـان خافيـا من حقيقـة الكوثري وأنه كان يجمع في نفسه بين صفتين متناقضـتين فهـو في الفقهيات وعلم الكلام مقلـد جامـد وفي التجـريح والتعـديل والتوثيـق والتضـعيف وتصـحيح الحـديث وتوهينـه ينحـو منحى المجتهد المطلق غير أنـه لا يلـتزم في ذلـك قواعـد أصـولية ولا منهجاً علمياً فهو مطلق عن كل قيد وشرط لذلك فهو يوثق من شاء من الرواة ولو أجمع أئمة الحديث على تكذيبه ويضعف من يشاء ممن أجمعـوا على توثيقـه ويصـرح بأنـه لا يثـق بـالخطيب وأبي الشيخ ابن حيان ونحوهما ويضعف من الحـديث مـا اتفقـوا على تصحيحه ولو كان ممـا خرجـه الشـيخان في صـحيحهما ولا علة قادحة فيه)(1)

وقال فيه سلفي آخر: (.. وهذه الدراسـة تتنـاول علمـا من أعلام عصره وهو الشـيخ محمـد زاهـد الكـوثري (1296-1371 هـ) حيث إنه كان من أشد المنافحين عن مذهب الماتريدية ولـه أثـر كبـير على أبنـاء عصـره .. والكـوثري أدرك إحيـاء الـدعوة السلفية بمصر، وكان شـديد المعارضـة لهـا، فتجـده ينكـر طبـع المخطوطات السلفية ويتألم لإخراجها مثل (السنة) لعبدالله بن أحمد و(نقض الدرامي) للدارمي و(التوحيـد) لابن خزيمـة وكتب شـيخ الإسـلام وغيرهـا والـتي نشـط علمـاء السـلف لإخراجهـا وطبعها حتى إنه كتب في ذلك مقالا بعنـوان: (تحـذير الأمـة من دعاة الوثنية)، ويقصد به دعاة السلف رحمهم الله)(2)

وقـال مبينـا سـبب طعن السـلفية فيـه: (إن الكـوثري رد وطعن على كثـير من أئمـة السـلف قـديماً وحـديثاً، فمنهم من طعن ورد عليه، ومنهم من طعن عليه وغمزه فعـل ذلـك لأجـل إثباتهم صفات الله وفق معتقد السلف، فقد رد على ابن خزيمة وعلى سفيان الثوري والأوزاعي .. وعلى الحافظ صالح التميمي المشهور بصالح جزرة .. وعلى عبد الله بن أحمـد وعلى الإمـام ابن أبي حاتم فقد رد عليه مطولا متهمـا إيـاه بالجهـل بالتوحيـد وسوء المعتقد والتشبيه .. وعلى الإمام عبيد الله العكـبري (ابن بطة) .. وعلى عثمـان الـدارمي وعلى مجاهـد بن جـبر .. وعلى ابن المديني والدراقطني وابي حاتم .. ونعيم بن حماد طعن في معتقـده.. وأمـا طعونـه في شـيخ الإسـلام وتلميـذه ابن القيم فشيء كثير متفرق في رسائله وتعليقاته) (3)

وهكذا صار الطعن في هؤلاء أو نقـدهم سـببا لتجـريح كـل

1() مقدمة التنكيل بما في تأنيب الكوثري من الأباطيل (ص 3-7)

2() زاهد الكوثري وآراؤه الاعتقادية، عرض ونقد (ص 8)

3() زاهد الكوثري وآراؤه الاعتقادية، عرض ونقد (ص 10-18)

عالم حتى لو كان محدثا كبيرا، لأن من أول شروط المحدث عند السلفية أن يكون سلفيا، وأن يقدم كل قرابين الطاعة لابن تيمية وابن بطة والدارقطني وكل مجسم ومشبه.

ولذلك كان من انتقاداتهم الشديدة عليه، والتي كفروه بسببها، هو ما ذكره بعضهم من أنه (حاول إرجاع معتقد من أثبت الصفات من السلف إلى جهل رواة الحديث وبساطتهم بسبب الأعراب وغيرهم، فنقلوا أساطير اليهود والنصارى والمجوس، وربما رفعوها إلى النبي ﷺ فوجد التشبيه وشاع) (1)

وبذلك صار قول الحقيقة التي يدل عليها كل شيء سببا في التجريح.. كما عبر عن ذلك الشيخ مقبل بن هادي، فقال: (محمد بن زاهد الكوثري مبتدع لا يعتمد عليه في علم الحديث) (2)

وهذا أكبر دليل على الذاتية والطائفية المسيطرة على السلفية، الذين يصدقون الكاذب المجسم، ويكذبون الصادق المنزه.

المثال الثاني: موقف السلفية من الغماري:

يعتبر الشيخ العلامة المحدث عبد الله بن محمد بن الصديق الغُماري من كبار محدثي هذا العصر، الذين شهد له الكل بتمكنه وقدراته، لكن السلفية وبسبب مواقفه من آل البيت الكرام، أو من الصوفية، أخرجوه من زمرة أهل الحديث، وحرموه من كل ما ورد في النصوص من فضلهم.

ولم يكتفوا بذلك، بل راحوا يبدعونه ويكفرونه، هو وكل من سار على منهجه من المحدثين، غير مراعين ما يذكرونه كل حين من حرمة الطعن في أهل الحديث أو التعرض لهم، واعتبار التعرض لهم زندقة.

وممن تولى كبر ذلك منهم شيخهم الكبير المعاصر الشيخ الألباني الذي لم يكن يدع مناسبة إلا وهجم عليه فيها، ومن ذلك قوله في الرد عليه بسبب نصرته للمسبحة التي يستعملها جميع المسلمين في جميع العصور، وخاصة الصوفية منهم، لكن السلفية انفردوا دون الأمة جميعا بالقول ببدعيتها: (.. وجهل ذلك أو تجاهله بعض من ألف في سنية السبحة من أهل الأهواء من المعاصرين مقلداً في ذلك شيخه عبد الله الغماري الذي تجاهل هذه الحقائق وأورد هذا الحديث ليتوصل منه إلى تجويز السبحة لمريديه، ثم إلى تجويز تعليقها على العنق كما يفعل بعض مشايخ الطرق)(3)

وقال فيه: (هناك في المغرب رجل ينتمي إلى العلم، وله

---

(1) زاهد الكوثري وآراؤه الاعتقادية، عرض ونقد (ص 10-18)
(2) المخرج من الفتنة (ص 29)
(3) سلسلة الأحاديث الضعيفة والموضوعة وأثرها السيئ في الأمة (1/ 189)

رسائل معروفة ويزعم أنه خادم الحديث الشريف، وهو الشيخ عبد الله بن الصدِّيق الغُماري .. معروف بعدائه الشديد منذ القديم لأنصار السنّة، ولِكل من ينتمي إلى عقيدة السلف، مما يدل العاقل أنه لم يستفد من الحديث إلا حمله! ولا أدل على ذلك من كتيب له طُبع بعنوان: (القول المقنع في الرد على الألباني المبتدع)، أقول: إن كل من يقرا هذا العنوان من القرَّاء همهما كان اتِّجاهه- يتسائل في نفسه متعجباً: ماذا ارتكب الألبانيُّ من البدع - وهو المعروف بمحاربته إياها في محاضراته وكتبه، ومن مشاريعه المعروفة (قاموس البدع)، وقد نص على الكثير منها في فصول خاصة في آخر بعض كتبه، مثل بدع الجنائز، وبدع الجمعة، وبدع الحج والعمرة، فما هي البدع التي جاء بها الألباني حتى وصمه الغُماري بـ (المبتدع)؟ مع أنه كان أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا لأنه هو المعروف بالابتداع شي الدين، والانتصار للمبتدعة والطُرُقِيِّين، كما يشهد بذلك كل من اطلع على شيء من رسائله، وحسب القارئ دليلًا على ما أقول. أنه شيخ الطريقة الشاذلية الدرقاوية الصديقية، وهو يفخر بذلك في بعض كتاباته، كما يفخر بأنه خادم السنة، وليته كان خادماً لها. بل نقنع منه أن لا يكون من الهادمين لها)(1)

بل إن السلفية كعادتهم في كتابة الكتب في الرد على مخالفيهم أفردوه بالكثير من الكتب، ومنها كتاب (الفتح المبين بالرد على نقد عبد الله بن محمد الصديق الغماري لكتاب الأربعين) للشيخ علي ناصر الفقيهي، والذي انتقده في أمور كثيرة، يتبين من خلالها الذاتية والطائفية والغلو فيهما عند السلفية.

ومن الأمثلة على ذلك انتقادهم لموقفه من راو من الرواة اشتهر بالروايات التجسيمية هو حماد بن سلمة، وهو موقف طبيعي من محدث يتهم راويا من الرواة، وهم يمارسونه ذلك دائما، بل يستحيل أن يكون المحدث محدثا، وهو لا يوثق الرواة أو يضعفهم.. لكنهم لا يقبلون ذلك إلا منهم وفيهم وعلى منهجهم، فقد قال فيه: (ومن البلايا والطوام لعبد الله بن الصديق الغماري الوقيعة في الإمام حماد بن سلمة.. إن وقيعته في حماد بن سلمة يخشى عليه من قول ابن المديني: (من سمعتموه يتكلم في حماد فاتهموه) .. وقال أحمد ويحيى: ثقة وقال ابن المديني: من سمعتموه يتكلم في حماد فاتهموه، إلا ان حماد بن سلمة كان شديدا على المبتدعة ولهذا لم يسلم من ألسنتهم كما فعل الكوثري قبل عبد الله الغماري وذلك

(1) سلسلة الأحاديث الضعيفة والموضوعة وأثرها السيئ في الأمة (3/ 8)

سيكون زيادة في حسناته إن شاء الله تعالى)(1)

وهكذا أصبح الـرأي والمـذهب والأيـديولوجيا هي الحكم، لا الموضوعية العلمية التي تتنزه عن كل ذاتية وطائفية.

وهكذا كان موقفه منه أيضا بسبب دعوته لعـرض الحـديث على القرآن الكريم، والتي يخالفهـا السـلفية بشـدة، فقـد قـال فيه: (ومما ينبغي الإشارة إليه هنا بمناسبة رد الناقد والاستدلال بالحديث بعد صحته بحجة إنه يخالف القرآن: أن رسول اللـه ﷺ قد أخبر عن جماعة يأتون آخر الزمان يردون سـنته بحجـة أنهم لم يجدوا ما أمر به أو نهي عنه ﷺ في القرآن ويسمون أنفسهم قرآنيين ومنهم جماعة في العصر الحاضـر ولا أظن أن الناقـد – عبد الله الغماري – منهم) (2)

ثانيا ـ الذاتية في قبول الرواة ورفضهم:

يذكر السلفية كثيرا وبإعجاب شديد تورع سـلفهم من أهـل الحديث في الحكم على الأحـاديث أو الحكم على رواتهـا الـذين نقلوها، فهم يصورونهم وكـأنهم معصـومون لا يخطئـون، مـع أن أحــدهم قــد يحفــظ مئــات الآلاف من الأحــاديث، وبأســانيدها ورجالها، مع اتصالها وانفصالها، ومواضع العلل فيها.

والعجيب في الأمر أن من يقول هـذا هـو نفسـه من يجـوز صدور المعاصي من الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، قبـل النبـوة وبعدها، ويعتذر لذلك بأنهم ـ ومع كون الوحي يتـنزل عليهم ــ إلا أنهم بشر.. وما داموا بشرا فلا مانع أن يخطئوا .. بـل من الغلـو أن نعتبرهم لا يخطئون.

لكنك إن قلت لأحدهم: قد يكـون هـذا الحـديث الـذي رواه البخاري أخطأ فيه، أو حصل لـه سـهو في بعض ألفاظـه، أو أنـه وثق فيمن ليس أهلا لأن يثق فيه أقام الدنيا عليـك ولم يقعـدها، بل ونادى فيك، كما نادى سلفه: زنديق .. زنديق .. زنديق.

ثم ألقى عليك محاضرة في ورع المحدثين وعدم مداهنتهم ومجاملتهم لأي كـان، وروى لـك بسـنده عن الـبيهقي أحمـد بن الحسين (ت 458هـ) قولـه: (ومن أنعم النظـر في اجتهـاد أهـل الحفظ في معرفة أحوال الرواة، وما يقبل من الأخبار وما يــرد، علم أنهم لم يألوا جهداً في ذلـك حـتى إذا كـان الابن يقـدح في أبيه إذا عثر منه على ما يوجب رد خبره، والأب في ولـده، والأخ في أخيه لا تأخذه في الله لومة لائم ولا تمنعـه في ذلـك شـجنة رحم ولا صلة مال، والحكايات عنهم في ذلك كثير)(3).

فإن رأى في وجهـك بعض الاسـتغراب أخـبرك أن علي بن

---
(1) الفتح المبين في الرد على نقد كتاب الأربعين (ص 49-50)
(2) الفتح المبين في الرد على نقد كتاب الأربعين (ص 53)
(3) انظر: دلائل النبوة ومعرفة أحوال صاحب الشريعة 1/ 47)

عبد الله بن المديني شيخ البخاري (ت 234هـ) سئل عن أبيه فقال: (اسألوا غيري، فقالوا: سألناك، فأطرق ثم رفع رأسه وقال: هذا هو الدين، أبي ضعيف)(1)

ثم أردف بأن حمزة بن يوسف السهمي (ت427هـ) قال: سمعت أبا مسعود الدمشقي يقول: سمعت الزينبي ببغداد يقول: دخلت على محمد بن محمد الباغندي فسمعته يقول: لا تكتبوا عن ابني فإنه يكذب، فدخلت على ابنه فسمعته يقول: لا تكتبوا عن أبي فإنه يكذب)(2)

ثم روى لك أن شعبة بن الحجاج أبو بسطام الواسطي (ت 160هـ) قال: (سميت ابني سعداً، فما سعد ولا فلح، كنت أقول له: اذهب إلى هشام الدستوائي فيقول: اليوم أريد أن أرسل الحمام)(3)

ثم حدثك عن هشام بن حسان القردوسي، (ت148هـ) أن ابن عدي روى عنه، فقال: (لو حابيت أحداً لحابيت هشام بن حسان كان ختني(4)، ولكن لم يكن يحفظ)(5)

ثم حدثك عن أبي عروبة الحسين بن محمد الحرّاني (318هـ) أنه جرّح خال أمه: الحسين بن أبي السري العسقلاني (240هـ) حيث قال: كذاب هو خال أمي(6).

ثم حدثك كيف كانت صلابة المحدثين إذا ما طلب منهم أن يكفوا عن بعض من يتهمونهم، وروى لك من أخبار ذلك عن عباد بن عباد المهلبي قال: أتيتُ شعبة أنا وحماد بن زيد فكلمناه في أبان بن أبي عياش فقلنا له: يا أبا بسطام تمسك عنه، فلقيهم بعد فقال: ما أراني يسعني السكوت عنه(7).

بل إنهم لصلابتهم في مواقفهم لم يكونوا يبالون بتلك الأيدي التي ترفع للسماء للدعاء عليهم، وروى لك من ذلك أن الحسن بن عمارة ـ وهو أحد الذين اتهمهم شعبة ـ كان يقول: (الناس كلهم مني في حل، خلا شعبة فإني لا أجعله في حل حتى أقف أنا وهو بين يدي الله عز وجل فيحكم بيني وبينه) (8)، ومع ذلك فإن شعبة لم يهم بذلك، بل ظل على اتهامه له (9) .

1() انظر: محمد بن حبان البستني (المجروحين 2/15)
2() حمزة السهمي (سؤالات حمزة بن يوسف السهمي للدار قطني وغيره من المشايخ في الجرح والتعديل ص 132)
3() محمد بن عمرو العقيلي (الضعفاء الكبير2/ 118)
4() هو أبو امرأة الرجل وأخو امرأته وكل من كان من قبل امرأته.
5() الكامل في ضعفاء الرجال 7/2570.
6() عبد الرحمن بن أبي حاتم (الجرح والتعديل 2/289)
7() الكامل في ضعفاء الرجال: 1/377.
8() الجرح والتعديل 9/ 130.
9() ذكر أبو حاتم محمد بن حبان البستي سبب اتهام شعبة له، فقال: (كان بلية الحسن بن عمارة أنه كان يدلس عن الثقات ما وضع الضعفاء، كان يسمع من موسى بن مطير وأبي العطوف وأبان بن أبي عياش وأضرابهم، ثم يسقط أسماءهم ويرويها عن مشايخهم

لكن كل هذا الذي ذكروه ليس سوى زخرف من القـول، لا يصح الاعتمـاد عليـه، أو هـو مجـرد خطب مـؤثرة يضـحكون بهـا على أصـحاب العقـول الضـعيفة، وليس لهـا حـظ من الحقيقـة، لأنهم هم أنفسهم يرمي بعضهم بعضا، ويتهم بعضهم بعضا، ولــو طبقنا عليهم المقاييس الـتي يتعـاملون بهـا مـع خصـومهم، فلن يبقى أحد منهم أهلا للرواية، ولا أهلا للحكم على الأحاديث.

لكن عند البحث بموضوعية وجرأة في كتب علم الحــديث، وخاصــة علم الرجـال وعلم الجـرح والتعـديل ــ وهمـا العلمـان اللذان يقوم عليهما الحكم على الحديث قبولا ورفضا ـ نجد كــل أنواع المكاييل المزدوجة التي تخول للمحدث التلاعب برفض ما يشاء من الأحاديث، وقبول ما يشاء منهـا، لأنـه لا يوجـد راو في الدنيا إلا وهناك من ضعفه، وبذلك يتسنى للمحدث أن يســتعمل هذا السلاح مع المخالف إن أورد أي حديث لا يوافق هواه.

وقد حاول المتقدمون والمتأخرون من المحدثين أن يسدوا هذه الثغرة، لكن لم يستطيعوا، فراحوا يضعون قواعد لأنفسهم تمكنهم من اســتعمال هــذا الســلاح مــتى شــاءوا، من دون أن يسمحوا لخصومهم باستعماله.

ومن أمثلة ذلك مـا نص عليـه ابن الـبر (ت463هــ) بقولـه عند الحديث عن تجريح أهل الحديث لبعضهم بعضا: (.. هذا باب قد غلط فيه كثير من الناس وضلت به نابتـة جاهلـة لاتـدري مـا عليها في ذلك، والصحيح في هذا البـاب أن من صـحت عدالتـه، وثبتت في العلم أمانته، وبـانت ثقتـه وعنايتـه بـالعلم، لم يلتفت فيه إلى قول أحد إلا أن يأتي في جرحته ببينـة عادلـة تصـح بهـا جرحتــه علي طريــق الشــهادات والعمــل فيهــا من المشــاهدة والمعاينة لذلك بما يوجب قوله من جهة الفقه والنظر، وأمّا من لم تثبت إمامتــه ولا عــرف عدالتــه، ولا صــحت لعــدم الحفــظ والإتقان روايته، فإنه ينظر فيما اتفـق أهـل العلم عليـه ويجتهـد في قبول ما جاء به على حسب ما يـؤدي النظـر إليـه والـدليل، على أنــه لايقبــل فيمن اتخــذه جمهــور من جمــاهير المســلمين إماماً في الدين قول أحد من الطاغين، أن السلف رضوان اللــه عليهم قــد ســبق من بعضــهم في بعض كلام كثــير في حــال الغضب ومنه ما حمل عليه الحسد كما قـال ابن عبـاس ومالـك بن دينار وأبو حازم، ومنه على جهة التأويل ممـا لا يلـزم القـول فيه ما قاله القائل فيـه، وقـد حمـل بعضـهم على بعض السـيف تأويلاً واجتهـاداً لا يلـزم تقليـدهم في شـيء من دون برهـان ولا

الثقات، فلما رأى شعبة تلك الأحـاديث الموضـوعة الـتي يرويهـا عن أقـوام ثقـات أنكرهـا عليه، وأطلق الجرح، ولم يعلم أن بينه وبينهم هؤلاء الكذابين، فكان الحسن بن عمارة هو الجاني على نفسه بتدليسهم عن هؤلاء وإسقاطهم من الأخبار، حتى التزقت الموضوعات به) (انظر: الجرح والتعديل 1/299)

حجة توجبه(1).

وقـال عبـد اللـه بن وهب (ت197هــ): (لا يجـوز شـهادة القارئ على القارئ – يعني العلماء – لأنهم أشد الناس تحاسـداً وتباغضاً، وقاله سفيان الثوري ومالك بن دينار)(2).

وقـال أحمـد بن صـالح المصـري (ت284هــ): قلت لابن وهب: ما كان مالك يقول في ابن سمعان – يعـني عبـد اللـه بن زياد بن سمعان – قال: (لا يقبل قول بعضهم في بعض(3).قلت: وإن كـان ابن سـمعان من معاصـري الإمـام مالـك إلا أن كلام الإمام مالك فيه كـان بحجـة، بـدليل أن العلمـاء مجمعـون على ترك حديثه وكذّبه غير واحد منهم(4).

ولهـذا نـرى الـذهبي (ت748هــ) المشـهور بعلم الرجـال، وبتشدده في الأحكام عليهم يستعمل هـذا السـلاح الخطـير في تراجمه، فمن كان على مذهبه في التجسيم ونحـوه دافـع عنـه، ومن كان مخالفا لمنهجه نقل فيه أحكام خصـومه وأقرهـا، ومن ذلـك موقفـه من أبي نعيم (ت430هــ) الـذي روى الكثـير من الأحاديث التجسيمية في كتبـه، فقـد قـال مـدافعا عنـه ضـد من جرحه من كبار المحدثين: (وكلام ابن منـدة في أبي نعيم فظيـع لا أحب حكايته ولا أقبل قول كل منهما في الآخر بل هما عنــدي مقبــولان، لا أعلم لهمــا ذنبــاً أكــثر من روايتهمــا الموضــوعات ساكتين عنها، قرأت بخط يوسف ابن أحمد الشيرازي الحافـظ، رأيت بخـط ابن طـاهر المقدسـي يقـول أسـخن اللـه عين أبي نعيم، يتكلم في أبي عبد اللـه بن منـدة وقـد أجمـع النـاس على إمامته، وسـكت عن لاحـق وقـد أجمـع النـاس على أنـه كـذّاب، قلت: كلام الأقران بعضـهم في بعض لا يعبـأ بـه لا سـيما إذا لاح لك أنه لعداوة أو لمذهب أو لحسد، مـا ينجـو منـه إلا من عصـم الله، ما علمت أن عصراً من الأعصار سلم أهله من ذلك سـوى الأنبياء والصديقين، ولو شئت لسردت من ذلك كـراريس، اللهم فلا تجعل في قلوبنا غلاً للذين آمنوا ربنا إنك رؤوف رحيم(5).

وقال في ترجمة أبي عبداللـه محمـد بن حـاتم بن ميمـون السمين (ت 316هــ): (وذكـره أبـو حفص الفلاس فقـال: ليس بشيء، قلت: هذا من كلام الأقران الذي لا يسمع له فإن الرجل

1() نزهة النظر بشرح نخبة الفكر، ص 442.
2() تاج الدين السبكي (قاعـدة في الجـرح والتعـديل – ضـمن أربعـة رسـائل في علـوم الحـديث، ص (15- 16)
3() انظر: تهذيب التهذيب 5/220.
4() انظر: الامصدر السابق 5/219-/221.
5() ميزان الإعتدال 1/ 111.

ثبت حجة)(1).
وقال في ترجمة أبي بكر بن أبي داود السجستاني (ت 316هـ): (قلت: لا ينبغي سماع قول ابن صاعد فيه كما لم نعتد بتكذيبه لابن صاعد، وكذا لا يسمع قول ابن جرير فيه فإن هؤلاء بينهم عداوة بينة فقف في كلام الأقران بعضهم في بعض)(2)
وقد كان ابن تيمية يستعمل هذا المنهج في رده ما يشاء من الأحاديث، وقبوله ما يشاء منها، حتى عاتبه عليه كبار المحدثين، كقول الألباني في نقد رد ابن تيمية لبعض الأحاديث: (من العجيب حقاً أن يتجرأ شيخ الإسلام ابن تيمية على إنكار هذا الحديث وتكذيبه في منهاج السنة كما فعل بالحديث المتقدم هناك، مع تقريره رحمه الله أحسن تقرير أن الموالاة هنا ضد المعاداة وهو حكم ثابت لكل مؤمن وعليّ رضي الله عنه من كبارهم يتولاهم ويتولونه، ففيه رد على الخوارج والنواصب)(3)
وقال مبينا سبب إطالته في بيان صحة الحديث: (فقد كان الدافع لتحرير الكلام على الحديث وبيان صحته أنني رأيت شيخ الإسلام ابن تيمية، قد ضعّف الشطر الأول من الحديث، وأما الشطر الآخر فزعم أنه كذب ! وهذا من مبالغاته الناتجة في تقديري من تسرعه في تضعيف الأحاديث قبل أن يجمع طرقها ويدقق النظر فيها، والله المستعان)(4)
وقد ساعدهم على كل هذا المنهج الذي اختاروه في الجرح والتعديل، وفي الكلام في الرجال، فقد كانوا يضعون المحاسن والمساوئ، والمناقب والمثالب عند ذكر كل راوية حتى يتخير المحدث بعد ذلك ما شاء لرفض الحديث أو قبوله، وهم يعدون أن ذلك من محاسنهم، ويغفلون عن الآثار الخطيرة التي جلبها هذه المنهج.
يقول ظفر بن أحمد العثماني التهانوي (ت 1394هـ) في بيان ذلك: (إذا كان الراوي مختلفاً فيه، وثقه بعضهم، وضعّفه بعضهم فالاقتصار على ذكر التضعيف والسكوت عن التوثيق عيب شديد، وكذا بالعكس، إلا أن يكون ممن ثبتت عدالته وأذعنت الأمة لإمامته فلا بأس بالاقتصار على التوثيق إذاً، بل قد يجب ذلك إذا تبين صدور الجرح فيه من متعصب أو متعنت أو مجروح بنفسه أو متحامل عليه للمعاصرة أو المنافرة الدنيوية، أو ممن لا يلتفت إلى كلامه لكونه جاهلاً بحال الراوي، وهذا كله ظاهر بعد التأمل فيما ذكرنا من أصول الجرح

1() سير أعلام النبلاء 11/451.
2() تذكرة الحفاظ 2/772.
3() سلسلة الأحاديث الصحيحة وشيء من فقهها وفوائدها (5/ 264)
4() سلسلة الأحاديث الصحيحة وشيء من فقهها وفوائدها (4/ 344)

والتعديل)(1)

وبناء على هذا عاب الذهبي المنهج الذي اعتمده ابن الجوزي في كتابه (الضعفاء والمتروكين)، والذي كان يورد الجرح في الراوي ولا يورد التعديل، ومن الأمثلة على ذلك اعتراضه عليه في ترجمته لأبان بن يزيد العطار إذ قال: (وقد أورده العلامة أبو الفرج ابن الجوزي في الضعفاء ولم يذكر فيه أقوال من وثّقه، وهذا من عيوب كتابه، يسرد الجرح ويسكت عن التوثيق)(2)

وبناء على هذا نجد المحدثين يقعون في تناقضات كثيرة في أحكامهم على الأحاديث بسبب تغليب الذاتية، وكون علم الحديث أدة طيعة لتحقيق الذاتية.

ثالثا ـ الذاتية في تحديد علل الحديث:

لم يكتف المحدثون بما وضعوه من قواعد تتعلق بالسند تخول لهم التحكم في الأحاديث قبولا ورفضا، بل أضافوا إلى ذلك قاعدة أخرى، وهي أنه ليس كل ما صح سنده صح متنه، أو كما عبر ابن القيم، فقال: (وقد علم أن صحة الإسناد شرط من شروط صحة الحديث وليست موجبة لصحته فإن الحديث إنما يصح بمجموع أمور منها صحة سنده وانتفاء علته وعدم شذوذه ونكارته وأن لا يكون روايه قد خالف الثقات أو شذ عنهم)(3)

وهي قاعدة مهمة لو أحسنوا تطبيقها، فاعتبروا العلة مخالفة الحديث للقرآن الكريم، أو للمتواتر المشهور من السنة، أو لما اتفق عليه العقلاء، أو أن الحديث يحتاج إلى نقل كثير باعتباره مما تعم به البلوى.

لكنهم لم يفعلوا ذلك، بل تركوا العلة لمزاجهم، وأذواقهم التي قد تختلف بين حين وحين، فإن سئلوا عن سر رفضهم لبعض الأحاديث قالوا: لعلة خفية فيه، فإن سئلوا: ما العلة؟ نقلوا له من كلام أئمتهم أنها (الإلهام)(4)

أو يقولون له ما قال ابن كثير: (وإنما يهتدي إلى تحقيق هذا الفن الجهابذة النقاد منهم، يميزون بين صحيح الحديث وسقيمه، ومعوجه ومستقيمه، كما يميز الصيرفي البصير بصناعته بين الجياد والسيوف، والدنانير والفلوس، فكما لا يتمارى هذا، كذلك يقطع ذاك بما ذكرناه، ومنهم من يظن، ومنهم من يقف، بحسب مراتب علومهم وحذقهم واطلاعهم على طرق الحديث، وذوقهم حلاوة عبارة الرسول ﷺ التي لا

---

(1) ظفر بن أحمد التهانوي (قواعد في علوم الحديث ص 281)

(2) الذهبي محمد بن أحمد (ميزان الإعتدال في نقد الرجال 1/16)

(3) الفروسية (ص: 245)

(4) فتح المغيث شرح ألفية الحديث للشيخ شمس الدين محمد بن عبد الرحمن السخاوي ج1 ص235.

يشبهها غيرها من ألفاظ الناس)(1)

أو يقولون له ما قال الحاكم: (إن الصحيح لا يعرف بروايته فقط، وإنما يعرف بالفهم والحفظ وكثرة السماع، وليس لهذا النوع من العلم عون أكثر من مذاكرة أهل الفهم والمعرفة، ليظهر ما يخفى من علة الحديث، فإذا وجد مثل هذه الأحاديث بالأسانيد الصحيحة غير المخرجة في كتابي الإمامين البخاري ومسلم، لزم صاحب الحديث التنقير عن علته، ومذاكرة أهل المعرفة لتظهر علته)(2)، وقال: (وإنما يعلل الحديث من أوجه ليس للجرح فيها مدخل، فإن حديث المجروح ساقط واه، وعلة الحديث، يكثر في أحاديث الثقات أن يحدثوا بحديث له علة، فيخفى عليهم علمه، فيصير الحديث معلولا، والحجة فيه عندنا الحفظ، والفهم، والمعرفة لا غير) (3)

أو ما قال الخطيب عن علم العلل: (فإنه علم يخلقه الله تعالى في القلوب بعد طول الممارسة له والاعتناء به)(4)

أو ما قال ابن حجر: (هو من أغمض أنواع علوم الحديث، وأدقها، ولا يقوم به إلا من رزقه الله فهما ثاقبا، وحفظا واسعا، ومعرفة بمراتب الرواة، وملكة قوية بالأسانيد والمتون. ولذا لم يتكلم فيه إلا القليل من أهل هذا الشأن كعلي بن المديني وأحمد بن حنبل والبخاري ويعقوب بن شيبة وأبي حاتم وأبي زرعة الرازيين والدارقطني.. وقد تقصر عبارة المعلل عن إقامة الحجة على دعواه، كالصيرفي في نقد الدينار والدرهم) (5)

أو ما قال السخاوي: (ولخفائه (يعني علم العلل) كان بعض الحفاظ يقول: معرفتنا بهذا كهانة عند الجاهل، وقال ابن مهدي: هي إلهام، لو قلت للقيم بالعلل: من أين لك هذا؟ لم تكن له حجة، يعني يعبر بها غالبا، وإلا ففي نفسه حجج للقول وللدفع)(6)

وقال: (ومن تعاطى تحرير فن غير فنه فهو متعن، فالله تعالى بلطيف عنايته أقام لعلم الحديث رجالا نقادا تفرغوا له، وأفنوا أعمارهم في تحصيله، والبحث عن غوامضه، وعلله، ورجاله، ومعرفة مراتبهم في القوة واللين. فتقليدهم، والمشي وراءهم، وإمعان النظر في تواليفهم، وكثرة مجالسة حفاظ الوقت مع الفهم، وجودة التصور، ومداومة الاشتغال، وملازمة

1() اختصار علوم الحديث (ص: 64)
2() معرفة علوم الحديث: 1/59.
3() معرفة علوم الحديث: 1/ 112.
4() الجامع (2/255)
5() نزهة النظر 1/114.
6() فتح المغيث 1/289 .

التقوى والتواضع يوجب لك إن شاء الله معرفة السنن النبوية، ولا قوة إلا بالله)(1)

وبناء على هذا أصبح كل محدث متحكما في الحديث كما يشاء، لا يسأل عن قوله، ولا عن حكمه، وكيف يسأل الخبير عن ذلك، كما قال الزركشي عند حديثه عن زيادة الثقة وموقف المحدثين منها: (الذي يظهر من كلامهم خصوصا المتقدمين كيحيى بن سعيد القطان وعبد الرحمن بن مهدي ومن بعدهما كأحمد بن حنبل وعلي بن المديني ويحيى بن معين وهذه الطبقة ومن بعدهم كالبخاري وأبي زرعة وأبي حاتم الرازيين ومسلم والترمذي والنسائي وأمثالهم والدارقطني والخليلي كل هؤلاء مقتضى تصرفهم في الزيادة قبولا وردا الترجيح بالنسبة إلى ما يقوى عند الواحد منهم في كل حديث ولا يحكمون في المسألة بحكم كلي يعم جميع الأحاديث وهذا هو الحق)(2)

وبناء على هذه كله أعطى السلفية لأنفسهم حق التحكم في الأحاديث قبولا ورفضا بحسب ما يمليه عليهم مزاجهم، ولهذا نراهم يهشون ويبشون للأحاديث الممتلئة بالتجسيم، لأن بصائرهم ترى من خلال كل لفظة منها نور النبوة.

وكمثال على ذلك موقفهم من الحديث الطويل الذي رووه عن لقيط بن عامرٍ مرفوعا إلى النبي ﷺ وفيه: (فأصبح ربك يطوف في الأرض وخلت عليه البلاد)(3)

وهو حديث يخالف القرآن الكريم والعقل والفطرة السليمة وحتى الموازين التي وضعها المحدثون للتمييز بين الصحيح والضعيف، ولكن بسبب موافقته مزاج المحدثين في التجسيم، أقروه ودافعوا عنه، كما قال ابن القيم تلميذ ابن تيمية النجيب بعد إيراده الرواية: (هذا حديث كبير جليل تنادي جلالته وفخامته وعظمته على أنه قد خرج من مشكاة النبوة لا يعرف إلا من حديث عبد الرحمن بن المغيرة بن عبد الرحمن المدني رواه عنه إبراهيم بن حمزة الزبيري، وهما من كبار علماء المدينة ثقتان محتج بهما في الصحيح، احتج بهما إمام أهل الحديث محمد بن إسماعيل البخاري. ورواه أئمة أهل السنة في كتبهم وتلقوه بالقبول وقابلوه بالتسليم والانقياد ولم يطعن أحد منهم فيه ولا في أحد من رواته. فممن رواه الإمام ابن الإمام أبو عبد الرحمن عبد الله بن أحمد بن حنبل في

---

(1) فتح المغيث 1/289.

(2) النكت على مقدمة ابن الصلاح لبدر الدين الزركشي ج2 ص175 ــ 176.

(3) أحمد (١٦٢٠٦) وابن أبي عاصمٍ في (السنَّة) (٦٣٦)، وابن خزيمة في (التوحيد) (١/ ٤٦٠، ٤٧٠)، والآجريُّ في (كتاب التصديق بالنظر)، وأبو داود (٣٢٦٦)، وعبد الله بن أحمد في (السنَّة) (٢/ ٤٨٥)، والطبرانيُّ في (الكبير) (١٩/ ٢١١، ٢١٤)، والحاكم في (المستدرك) (٤/ ٥٦٠)

مسند أبيه وفي كتاب السنة.. ومنهم الحافظ الجليل أبو بكر أحمد بن عمرو بن أبي عاصم النبيل في كتاب السنة له، ومنهم الحافظ أبو أحمد محمد بن أحمد بن إبراهيم بن سليمان العسال في كتاب المعرفة، ومنهم الحافظ أبو محمد عبدالله بن محمد بن حيان أبو الشيخ الأصبهاني في كتاب السنة، ومنهم الحافظ أبو عبدالله محمد بن إسحاق بن محمد بن يحيى بن مندة حافظ أصبهان، ..وجماعة من الحفاظ سواهم يطول ذكرهم) (1)

بل إنه يرتب على منكر هذا حكما خطيرا، فينقل عن سلفه أبي عبد الله بن مندة مقرا له: (ولا ينكر هذا الحديث إلا جاحد أو جاهل أو مخالف للكتاب والسنة)(2)

ثم لا يكتفي بذلك.. بل يذهب يفسر الحديث حرفا حرفا يستنبط منه كل صنوف التجسيم والتشبيه، فيقول: (وقوله **فيظل يضحك هو من صفات أفعاله** سبحانه وتعالى التي لا يشبهه فيها شيء من مخلوقاته كصفات ذاته، وقد وردت هذه الصفة في أحاديث كثيرة لا سبيل إلى ردها كما لا سبيل إلى تشبيهها وتحريفها.. وكذلك **فأصبح ربك يطوف في الأرض** هو من صفات فعله..والكلام في الجميع صراط واحد مستقيم إثبات بلا تمثيل بلا تحريف ولا تعطيل.. وقوله: فيأخذ ربك بيده غرفة من الماء فينضح بها قبلكم فيه إثبات صفة اليد له سبحانه بقوله وإثبات الفعل الذي هو النضح)(3)

وما فعله سلف السلفية هو نفس ما فعله خلفهم حين استنهضوا هذه الخاصية الممنوحة لهم من طرف سلفهم ليبحثوا في الحديث من جديد، فيضعفوا ما شاءوا ويصححوا ما شاءوا.

وقد أشار الشيخ حبيب الرحمن الأعظمي عند رده على الألباني إلى استغلاله لهذه الناحية للتعامل مع الحديث بمزاجية، فقال: (الشيخ ناصر الدين الألباني شديد الولوع بتخطئة الحذاق من كبار علماء المسلمين ولا يحابي في ذلك أحدا كائنا من كان، فتراه يوهم البخاري ومسلما ومن دونهما.. ويكثر من ذلك حتى يظن الجهلة والسذج من العلماء أن الألباني نبغ في هذا العصر نبوغا يندر مثله. وهذا الذي ينم عنه ما يتبجج به الألباني في كثيرمن المواطن، ويلفت إليه أنظار قارئيه، فتارة يقول: أغتنم هذا التحقيق فإنك لا تجده في غير هذا الموضع ـ يعني عند غيره من المصنفين ـ وتارة يدعي أنه خصه الله تعالى في

(1) زاد المعاد 3/677-682 .
(2) زاد المعاد 3/677-682 .
(3) زاد المعاد 3/677-682 .

هذا العصر بالوقوف على زيادات الحديث الواردة في مختلف طرقه المنتشرة في الكتب المبعثرة، وبذلك وصل إلى ما لم يصل إليه غيره من المحققين السابقين ولا اللاحقين.. هذا مبلغ علم الألباني، فإذا نظرت في كتبه تجد الدليل فإنه يذكر فيما يسميها بالصحيحة ما يناقض ما يسميها بالضعيفة، فتراه يغير على الأحاديث النبوية الشريفة بما لا يجوز عند أهل العلم بالحديث، فيضعف الصحيح، ويجود الضعيف، وهذا شأن من لم يشم رائحة العلم، وسبيل من لم يعرف له شيوخ الحديث، وسماع من ألفاظهم، ولا أراه إلا مطالعا من المطالعين الذين ظنوا أن الكتب تغني عن الشيوخ والتلقي، فإنا لم نجد في ترجمة لحافظ أو محدث أنه اقتصر على المطالعة من غير أن يدور على الشيوخ، ويسمع منهم كما سمعوا ممن قبلهم على عادة أهل الإسناد، ومن معايبه تطاوله على الأئمة الكبار، ويكفيه ذما أنه تطاول على البخاري ومسلم فأغار على صحيحيهما ولم يسلما منه، وليته ضعف تلك الأحاديث بعلم ومعرفة، ولكن بجهل ووقاحة، ومن نظر في كتبه وكان له معرفة وفهم وبعدعن التعصب الأعمى والجهل القتال تبين له أن الألباني ضعيف في علم الحديث متنا ورجالا.. ومن معايبه أيضا لمزه لن يخالفه بالابتداع فهو ومن كان معه على زعمه سني يستحق الجنة، ومن خالفه فهو مبتدع يستحق النار، وقصده بهذا الشهرة، ومراده أنه أوحد عصره، وأنه سبق معاصريه، وتفوق على متقدميه.. وبالجملة فالألباني في فتاويه واستنباطاته بلايا وطامات، وسقطات عظيمة تراه يبدع من يذكر بالسبحة، أو يقرأ القرءان على الميت، وتجد في كتبه ولا سيما شرح الطحاوي الضلال والفساد)[1]

بل إننا نجد هذا النقد من نفس المدرسة السلفية، فقد قال الشيخ مقبل الوادعي منتقدا منهج الألباني في الحكم على الحديث: (.. العلماء المتقدمون مقدمون في هذا، لأنهم كما قلنا قد عرفوا هذه الطرق، ومن الأمثلة على هذا: ما جاء أن الحافظ يقول في حديث المسح على الوجه بعد الدعاء: أنه بمجموع طرقه حسن، والإمام أحمد يقول: إنه حديث لا يثبت، وهكذا إذا حصل من الشيخ ناصر الدين الألباني هذا؛ نحن نأخذ بقول المتقدمين ونتوقف في كلام الشيخ ناصر الدين الألباني، فهناك كتب ما وضعت للتصحيح والتضعيف، وضعت لبيان أحوال الرجال مثل: الكامل لابن عدي والضعفاء للعقيلي، وهم وإن تعرضوا للتضعيف، فهي موضوعة لبيان أحوال الرجال، وليست بكتب علل، فنحن الذي تطمئن إليه نفوسنا أننا نأخذ بكلام

1() الألباني أخطاؤه وشذوذه 1/9..

المتقدمين، لأن الشيخ ناصر الدين الألباني ما بلغ في الحديث مبلغ الإمام أحمد بن حنبل، ولا مبلغ البخاري، ومن جرى مجراهما. ونحن ما نظن أن المتأخرين يعثرون على مالم يعثر عليه المتقدمون اللهم إلا في النادر، فالقصد أن هذا الحديث إذا ضعفه العلماء المتقدمون الذين هم حفاظ، ويعرفون كم لكل حديث من طريق، فأحسن واحد في هذا الزمن هو الشيخ ناصر الدين الألباني، فهو يعتبر باحثا، ولا يعتبر حافظا، وقد أعطاه الله من البصيرة في هذا الزمن ما لم يعط غيره، حسبه أن يكون الوحيد في هذا المجال، لكن ما بلغ مبلغ المتقدمين)[1]

رابعا ـ الذاتية في تفسير الأحاديث وتأويلها:

المنهج الرابع الذي يعتمده المحدثون لحرب الأحاديث التي لا تتناسب مع أمزجتهم هو تفسيرها وتأويلها وحملها على ما يتناسب مع أهوائهم.

وكمثال على ذلك موقف السلفية من الأحاديث التي تثبت جواز التوسل برسول الله ﷺ، فهم بعد أن رموا الكثير منها بالضعف والكذب والوضع، مع كونها ليس كذلك، راحوا إلى حديث لم يمكنهم أن يكذبوه، فلذلك استبدلوا تكذيبه بتأويله تأويلا باردا يجعله خاصا بشخص معين، وفي زمن معين مع أن صيغة الحديث لا تحتمل ذلك.

وسأورد الحديث، ثم أورد أقوالهم في تأويله ليتبين لنا كيفية تلاعب السلفية الحديث سندا ومتنا.

والحديث هو ما روي عن عثمان بن حنيف أن رجلا ضريرا أتى النبي ﷺ، فقال:(ادع الله أن يعافني)، فقال:(إن شئت أخرت ذلك وهو خير، وإن شئت دعوت)، قال:(فادعه) قال: فأمره أن يتوضأ فيحسن، ثم يصلي ركعتين، ويدعو بهذا الدعاء، فيقول:(اللهم إني أسألك وأتوجه إليك بنبيك محمد نبي الرحمة، يا محمد إني توجهت بك إلى ربي في حاجتي هذه فتقضى لي، اللهم شفعه في وشفعني فيه) [2]

فالحديث ـ كما هو ظاهر ـ ورد مطلقا، ومن التأويل تقييده بما لم يدل الدليل على تقييده، بل إن رسول الله ﷺ يصف فيه هيئة خاصة بصلاة الحاجة، وذكر فيه صيغة خاصة بها، وهو لا يحتاج بعد ذلك إلى أي دليل خارجي يدل على أنه عام يصلح تطبيقه في كل الأزمنة، ومع ذلك ورد ذلك الدليل الخارجي.

ففي الحديث عن عثمان بن حنيف: أن رجلا كان يختلف

1() المقترح في أجوبة أسئلة المصطلح، ص41.

2() رواه الترمذي وقال: حسن صحيح غريب، ورواه أحمد وابن ماجة والحاكم وابن السني.

إلى عثمان بن عفان في حاجة لـه فكـان عثمـان لا يلتفت إليـه، ولا ينظر في حاجته، فلقي عثمـان بن حـنيف فشـكا إليـه ذلـك، فقــال لــه عثمــان بن حــنيف: ائت الميضــأة فتوضــأ ثم ائت المسجد، فصل فيه ركعتين، ثم قل: (اللهم إني أسـألك وأتوجـه إليك بنبيك محمد ﷺ نبي الرحمة، يـا محمـد أني أتوجـه بـك إلى ربي فتقضي لي حـاجتي)، وتـذكر حاجتـك، ورح إلي حـتى أروح معك.فانطلق الرجل فصنع ما قـال لـه، ثم أتى بـاب عثمـان بن عفان فجاء البواب حتى أخذ بيده، فأدخله على عثمان بن عفان فأجلسه معه على الطنفسة، وقال له ما حاجتـك فـذكر حاجتـه، فقضاها له، ثم قال: ما ذكرت حاجتك حتى كانت هـذه السـاعة، وقال: ما كانت لك من حاجة فائتنا.ثم إن الرجل خرج من عنده فلقى عثمان بن حنيف، فقال له: جزاك الله خيرا، ما كان ينظر في حـاجتي ولا يلتفت إلي حـتى كلمتـه في.فقـال عثمـان بن حنيف: والله ما كلمته ولكن شهدت رسول اللـه ﷺ وأتـاه رجـل ضرير فشكا إليـه ذهـاب بصـره.فقـال لـه النـبي ﷺ: أو تصـبر ؟ فقال: يا رسول الله إنه ليس لي قائد وقد شـق علي.فقـال لـه النـبي ﷺ: ائت الميضـأة فتوضـأ ثم صـل ركعـتين، ثم ادع بهـذه الدعوات) قال عثمـان بن حـنيف: فواللـه مـا تفرقنـا وطـال بنـا الحديث، حتى دخل علينا الرجل كأنه لم يكن به ضر قط (1) .

ومـع كـل ذلـك نـرى ابن تيميـة وجميـع السـلفية يؤولـون الحـديث بصـنوف من التـأويلات ليصـرفوه عن ظـاهره الـذي لا يروقهم، فمن التأويلات البعيدة التي أول بها ابن تيميـة الحـديث قوله: (وكذلك لو كان كل أعمى توسل به، ولم يدع له الرسـول ﷺ بمنزلة ذلك الأعمى لكان عميان الصحابة أو بعضهم يفعلــون مثــل مــا فعــل الأعمى، فعــدولهم عن هــذا إلى هــذا مــع أنهم الســابقون الأولــون المهــاجرون والأنصــار والــذين اتبعــوهم بإحسان، فإنهم أعلم منا بالله ورسوله وبحقـوق اللـه ورسـوله، وما يشرع من الدعاء وينفع وما لم يشـرع ولا ينفـع، ومـا يكـون أنفع من غيره وهم في وقت ضرورة ومخمصة وجـدب يطلبـون تفريج الكربات وتيسير العسير وإنزال الغيث بكل طريق ممكن دليل على أن المشروع ما سلكوه دون ما تركوه) (2)

ومـا ذكـره ابن تيميـة من التأويـل بعيـد جـدا ذلـك أن من الصحابة من رضي بحاله، ولم يسأل الله تغييره رضـى بقسـمة الله، بل في حديث الأعمى دليل على استحباب ذلـك، وقـد ورد في الحديث أن امرأة جاءت إلى النبي ﷺ، وبها طيـف، فقـالت: (يا رسول اللّه إني أصـرع، وأتكشـف، فـادع اللّـه أن يشـفيني)،

1() الطبراني في المعجم الكبير (9 / 17)

2() الرد على البكري، ابن تيمية، 1/268.

فقال:(إن شئت دعوت لك أن يشفيك، وإن شئت صبرت ولك الجنة)، فقالت:(بل أصبر ولي الجنة، ولكن ادع اللّه لي أن لا أتكشف)، فدعا لها فكانت لا تتكشف(1).

بالإضافة إلى أن اشتراط تأييد كل ما ورد من الأحاديث القولية أو الفعلية لرسول الله ﷺ بالآثار الدالة على الفعل به من الصحابة يكلفنا شططا، بل يلغي أكثر السنن.

وهكذا نجد الألباني في كتابه الذي خص به التوسل يتلاعب بكل صنوف التأويلات ليخرج الحديث من مضمونه، فقد قال ـ بعد ذكر الحديث، وعدم قدرته على تضعيفه ـ: (يرى المخالفون: أن هذا الحديث يدل على جواز التوسل في الدعاء بجاه النبي ﷺ أو غيره من الصالحين، إذ فيه أن النبي ﷺ علم الأعمى أن يتوسل به في دعائه، وقد فعل الأعمى ذلك فعاد بصيراً، وأما نحن فنرى ان هذا الحديث لا حجة لهم فيه على التوسل المختلف فيه، وهو التوسل بالذات، بل هو دليل آخر على النوع الثالث من أنواع التوسل المشروع الذي أسلفناه، لأن توسل الأعمى إنما كان بدعائه. والأدلة على ما نقول من الحديث نفسه كثيرة، وأهمها: أن الأعمى إنما جاء إلى النبي ﷺ ليدعو له، وذلك قوله: (أدعُ الله أن يعافيني) فهو توسل إلى الله تعالى بدعائه ﷺ، لأنه يعلم أن دعاءه ﷺ أرجى للقبول عند الله بخلاف دعاء غيره، ولو كان قصد الأعمى التوسل بذات النبي ﷺ أو جاهه أو حقه لما كان ثمة حاجة به إلى أن يأتي النبي ﷺ، ويطلب منه الدعاء له، بل كان يقعد في بيته، ويدعو ربه بأن يقول مثلاً: (اللهم إني أسألك بجاه نبيك ومنزلته عندك أن يشفيني، وتجعلني بصيراً). ولكنه لم يفعل.. ثانياً: أن النبي ﷺ وعده بالدعاء مع نصحه له ببيان ما هو الأفضل له.. ثالثاً: إصرار الأعمى على الدعاء وهو قوله: (فادع) فهذا يقتضي أن الرسول ﷺ دعا له، لأنه ﷺ خير من وفى بما وعد، وقد وعده بالدعاء له إن شاء كما سبق، فقد شاء الدعاء وأصر عليه، فإذن لا بد أنه ﷺ دعا له، فثبت المراد، وقد وجه النبي ﷺ الأعمى بدافع من رحمته، وبحرص منه أن يستجيب الله تعالى دعاءه فيه، وجهه إلى النوع الثاني من التوسل المشروع، وهو التوسل بالعمل الصالح، ليجمع له الخير من أطرافه، فأمره أن يتوضأ ويصلي ركعتين ثم يدعو لنفسه وهذه الأعمال طاعة لله سبحانه وتعالى يقدمها بين يدي دعاء النبي ﷺ له.. وهكذا فلم يكتف الرسول ﷺ بدعائه للأعمى الذي وعده به، بل شغله بأعمال فيها طاعة لله سبحانه وتعالى وقربة إليه، ليكون الأمر مكتملاً

1() رواه ابن مردويه وغير واحد من أهل السنن وأخرجه الحاكم وقال: صحيح على شرط مسلم.

من جميع نواحيه)[1]

وهكذا يمضي الألباني كما مضى قبله ابن تيمية في رد الحديث والتلاعب بتأويله ليصرف صرفا تاما عن معناه الواضح الذي لا يحتاج إلى كل ذلك التكلف.

هذا موقفهم من حديث التوسل الذي لا يرضيهم، فلذلك تلاعبوا به كما شاءت لهم أهواؤهم، في نفس الوقت نجد حديثا آخر، يرتبط بحادثة خاصة، وموقف خاص، ولكن لكونه يرتبط بأهواء سلفية، عمموه ولم يقولوا بتخصيصه، وأطلقوه ولم يقولوا بتقييده، بل لم يكتفوا باعتباره من مسائل الفروع، وإنما حولوه إلا مسائل الأصول التي يرتبط بها الكفر والإيمان.

والحديث هو ما رواه أبو سعيد الخدري قال: كان بين خالد بن الوليد وبين عبد الرحمن بن عوف شيء فسبه خالد فقال رسول الله ﷺ: (لا تسبوا أحدا من أصحابي؛ فإن أحدكم لو أنفق مثل أحد ذهبا ما أدرك مد أحدهم ولا نصيفه)[2]

ففي هذا الحديث يقول ﷺ لخالد ـ الذي أسلم متأخرا، أي بعد الفتح ـ: (لا تسبوا أصحابي)، يقصد عبد الرحمن بن عوف وأمثاله، لأن عبد الرحمن ونحوه هم السابقون الأولون، وهم الذين أسلموا قبل الفتح وقاتلوا، وهم أهل بيعة الرضوان؛ والحديث يقصدهم، لأن الرسول ﷺ لم يقل لخالد: (أنت من أصحابي فلا تسب أصحابي)

وهذا بظاهره يدل على أن الصحبة خاصة بالسابقين الأولين ـ باعتبار عبد الرحمن بن عوف هو المراد في الحديث بالنهي عن سبه، أو قد تعمم إلى كل من أسلم قبل الفتح، كما أشار إلى ذلك قوله تعالى: { لَا يَسْتَوِي مِنْكُمْ مَنْ أَنْفَقَ مِنْ قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ أُولَئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِنَ الَّذِينَ أَنْفَقُوا مِنْ بَعْدُ وَقَاتَلُوا} [الحديد: 10]

لكن السلفية يعممون هذا الحديث على كل من رأى رسول الله ﷺ حتى الذين سماهم رسول الله ﷺ طلقاء مثل سهيل بن عمرو والحارث بن هشام وأبي سفيان بن حرب وابنيه يزيد ومعاوية وأبي سفيان بن الحارث وعكرمة بن أبي جهل وصفوان بن أمية وغيرهم.

وهذا هو التناقض والمزاجية والهوى بعينه.. فإما أن يقولوا بتعميم الجميع، وإما أن يسمحوا بتخصيص الجميع.. أو يسمحوا على الأقل لغيرهم أن يخصص كما سمحوا لأنفسهم، ويعتبروا ذلك من مسائل الاجتهاد.. لكنهم لا يفعلون.

وهكذا في التصرف في الحديث بإطلاق معناه مع كونه

1() التوسل أنواعه وأحكامه، ص60.
2() مسلم رقم 2540 وغيره.

مقيدا بمعنى خاص، وهو تحريم السب.. والسب معروف، وهو بذاءة اللسان والفحش.. لكن السلفية يطلقونه على كل ناقد محقق حتى لو انتقد خطأ لبعض الصحابة بأدب، فإن القيامة تقوم عليه، بينما لو نزه لسانه عن تخطئة الأنبياء عليهم السلام، فإنهم يعتبرونه مبتدعا، لأن عصمة الأنبياء عندهم بدعة.

خامسا ـ مزاحمة الحديث بالرواية عن السلف:

لم يكتف السلفية بكل تلك المناخل التي يميزون بها الأحاديث التي تتناسب مع أهوائهم عن غيرها، بل راحوا إلى الأحاديث التي صحت، ولم يجدوا كيف يدفعوها إلى اشتراط موافقة السلف على العمل بها وإقرارها، وكأن السلف هم رسل الله لا محمد ﷺ.

ولهذا نرى كتبهم المسماة بكتب السنة مشحونة بأقوال سلفهم، مع اعتبار الجميع واحدا، وكأن رسول الله ﷺ ليس سوى فرد من أفراد السلف.

وليته كان كذلك عندهم، فلعله ينال من الحرمة ما ناله سلفهم، ذلك أنهم إذا تناقض قوله مع قولهم قدموه عليهم، لأنهم الأدرى، وهم الأعلم، ولا يمكن لأحد أن يفهم من الحديث ما لم يفهموه.

وقد اتفق سلفهم وخلفهم على هذا الاعتبار الخطير الذي يعزل رسول الله ﷺ عزلا تاما، وعن كبرى القضايا ليدع له هامشا محدودا في فضائل الأعمال ونحوها.

وهم يروون في هذا عن مالك بن أنس قوله: (سمعت من ابن شهاب أحاديث لم أحدث بها إلى اليوم، قلت: لِمَ يا أبا عبد الله؟ قال: لم يكن العمل عليها فتركتها)(1)

ويروون عن الإمام أحمد قوله لبعض أصحابه:(إياك أن تتكلم في مسألة ليس لك فيها إمام)(2)، ويروون قوله في رواية الميموني:(من تكلم في شئ ليس له فيه إمام أخاف عليه الخطأ)(3) والإمام كما يفهمونه هنا هو سلفهم الذي يشاركهم في عقائدهم ومواقفهم.

ولهذا نراهم يعتبرون من يرجع للسنة وحدها دون أقوال السلف فيها مبتدعا ومنحرفا، فلذلك يعتبرون من عيوب أبي القاسم عبد العزيز بن عبد الله الشافعي المعروف بالدّاركي أنه (ربما أفتى على خلاف مذهب الإمامين الشافعي وأبي حنيفة، فيقال له في ذلك، فيقول: ويحكم! حدث فلان عن فلان

1() رواه أبو نعيم في الحلية (6/322)، انظر السير للذهبي (8/107)
2() إعلام الموقعين (4/266)
3() الآداب الشرعية لابن المفلح (2/60)

عن رسول الله ﷺ بكذا وكذا، والأخذ بالحديث أولى من الأخذ بقول الشافعي وأبي حنيفة)(1)

وقد علق الذهبي على كلام الدّاركي بقوله:(قلت:هذا جيد، لكن بشرط أن يكون قد قال بذلك الحديث إمام من نظراء هذين الإمامين مثل مالك، أو سفيان، أو الأوزاعي، وبأن يكون الحديث ثابتاً سالماً من علة، وبأن لا يكون حجة أبي حنيفة والشافعي حديثاً صحيحاً معارضاً للآخر، أما من أخذ بحديث صحيح وقد تنكبه سائر أئمة الاجتهاد، فلا)(2)

وقد عبر ابن رجب عن موقف السلفية من هذا الشرط، فقال:(فأما الأئمة وفقهاء أهل الحديث فإنهم يتبعون الحديث الصحيح حيث كان، إذا كان معمولاً به عند الصحابة ومن بعدهم، أو عند طائفة منهم، فأما ما اتفق السلف على تركه فلا يجوز العمل به لأنهم ما تركوه إلا على علم أنه لا يعمل به)(3)

وهكذا نرى ابن تيمية يشترط على من يسميهم المبتدعة مراعاة إجماع سلفه، فلا يكفي تحاكمهم للقرآن والحديث دون مراعاة ما قال السلف، يقول في ذلك: (كان الإمام أحمد يقول:أكثر ما يخطئ الناس من جهة التأويل والقياس، ولهذا نجد المعتزلة المرجئة والرافضة وغيرهم من أهل البدع يفسرون القرآن برأيهم ومعقولهم، وما تأولوه من اللغة، ولهذا لا تجدهم يعتمدون على أحاديث النبي ﷺ والصحابة والتابعين وأئمة المسلمين، فلا يعتمدون لا على السنة، ولا على إجماع السلف وآثارهم، وإنما يعتمدون على العقل واللغة، وتجدهم لا يعتمدون على كتب التفسير المأثورة والحديث وآثار السلف، وإنما يعتمدون على كتب الأدب والكلام التي وضعتها رؤوسهم،وهذه طريقة الملاحدة أيضا، إنما يأخذون ما في كتب الفلاسفة، وكتب الأدب واللغة، وأما كتب القرآن والحديث والآثار فلايلتقون، وهؤلاء يعرضون عن نصوص الأنبياء إذ هي عندهم لا تفيد العلم، وأولئك يتأولون القرآن برأيهم،وفهمهم بلا آثار عن النبي ﷺ وأصحابه، وقد ذكرنا كلام أحمد وغيره في إنكار هذا وجعله طريقة أهل البدع)(4)

ويقول: (وكل قول قيل في دين الإسلام مخالف لما مضى عليه الصحابة والتابعون، لم يقله أحد منهم، بل قالوا على خلافه، فإنه قول باطل)(5)

ويقول:(فمن بنى الكلام في العلم:الأصول والفروع على

1() وفيات الأعيان (3/189)
2() سير أعلام النبلاء (16/405)
3() فضل علم السلف على الخلف، ص31.
4() كتاب الإيمان (ص 113- 114)
5() منهاج السنة (5/262)

الكتاب والسنة والآثار المأثورة عن السابقين فقد أصاب طريـق النبوة)(1)

ويقول:(وقد نص أحمد على هذا في روايـة عبـد اللـه وأبي الحارث في الصحابة إذا اختلفوا لم يخرج عن أقـاويلهم، أ رأيت إن أجمعوا له أن يخرج من أقاويلهم؟ هذا قول خبيث، قول أهل البدع، لا ينبغي لأحد أن يخرج من أقاويـل الصـحابة إذا اختلفـوا)(2)

ويقــول: (ومن عــدل عن مــذاهب الصــحابة والتــابعين وتفسيرهم إلى ما يخالف ذلك كـان مخطئـاً في ذلـك، بـل كـان مبتـدعاً وإن كـان مجتهـداً مغفـوراً لـه خطـؤه، فالمقصـود بيـان طرق العلم وأدلته، وطرق الصواب، ونحن نعلم أن القرآن قرأه الصحابة والتابعون وتابعوهم، وأنهم أعلم بتفسيره ومعانيه، كمـا أنهم أعلم بـالحق الـذي بعث اللـه بـه رسـوله ﷺ، فمن خـالف قولهم وفسر القـرآن بخلاف تفسـيرهم فقـد أخطـأ في الـدليل والمدلول جميعاً)(3)

وقد سار على هـذا المنهج خلفهم من السـلفية المحـدثين، وقد قـال الألبـاني: (فقـد قلنـا: إن العلم النـافع يجب أن يكـون على منهج السـلف الصـالح، فحينمـا يحيـد كثـير من الـدعاة الإسلاميين اليوم عن التقيد بهذا القيد الثـابت، الـذي أشـار إليـه الإمام ابن القيم في شعره السـابق حين قـال: العلم قـال اللـه قال رسوله قال الصحابة ليس بالتمويه، فعدم الالتفـات إلى مـا كان عليه السلف الصالح يعود بالناس بعد أن اتفقوا إلى الفُرقة التي تُبَاعِدُ بينهم، كما باعدت من قبل بين كثـير من المسـلمين، فجعلتهم شيعاً وأحزاباً)(4)

وقال ردا على الصوفية الذين يـحـتجون بقوله ﷺ: (لا تقوم الساعة وعلى وجه الأرض من يقول اللـه، اللـه) على جـواز بـل على استحباب ذكر الله عز وجـل باللفـظ المفـرد (اللـه، اللـه): (إن هذا التفسير لو كان صحيحاً لجرى عليه عمل سلفنا الصالح رضي الله عنهم، فـإذْ لم يفعلـوا دل إعراضـهم عن الفعـل بهـذا التفسير على بطلان هذا التفسير)

قال عند شرحه لحديث جابر بن عبد الله (كنا في سفر مع رسول الله ﷺ فلما قدمنا المدينة قال لي: ائت المسـجد فصـلِّ فيـه ركعـتين): (وظـاهر الأمـر يفيـد وجـوب صـلاة القـدوم من السفر في المسجد، لكني لا أعلم أحدا من العلمـاء ذهب إليـه،

1() مجموع الفتاوى(10/363)
2() المستدرك على مجموع الفتاوى(2/ 113)
3() مجموع الفتاوى (13 / 361)
4() في شريط الأجوبة الألبانية على الأسئلة الكويتية.

فإن وجد من قال به صرنا إليه، والله أعلم)[1]، وهكذا لم يكتف الألباني بالحديث، بل تصور أنه يحتاج إلى سلفه ليؤكدوه له.

وهكذا قال الشيخ مشهور بن حسن آل سلمان: (كان جواب شيخنا الألباني على سؤال له: لم الإقتصار على القول بكراهة الجماعة الثانية، وقد قامت الأدلة على منعها، والأصل في العبادات التوقيف، فما المانع من القول بحرمتها أو بدعتها؟ فقل حفظه الله: ما رأينا في ذلك لنا سلفا)[2]

وقد سئل الألباني: (هل هناك مسألة علمية أخذ بها المتأخر لم يقل بها من المتقدمين أحد أعني في علم الحديث؟)، فأجاب: (لا أعتقد أنه يوجد شيء من هذا، هذا علمي، لكني لا أستبعد أن يكون هناك قول قديم أخذ به بعض المتأخرين مرجحين له على غيره، هذا ممكن وهذا في الحقيقة الذي أنا أفهمه كأن القول في هذه المسألة الحديثيه كالقول في غيرها من المسائل الفقهية، أي: أنه كما أنه لا يجوز أن يتبنى الفقيه حقاً في هذا الزمان قولاً محدثاً لم يسبق إليه من أحد الأئمة المتقدمين كذلك لا يجوز لمن كان عالما بعلم الحديث أن يتبنى رأياً جديداً لم يسبق إليه من أحد من العلماء المتقدمين ،كل ما يجوز لهؤلاء وهؤلاء هو أن يرجحوا أو يتبنوا رأيا ًمن رأيين أو أكثر أما أن يبتدعوا فلا ،وعلى هذا أقول:لا أعتقد أن هناك مسألة لم يقل بها أحد أو رأى لم يقل به أحد)[3]

هذه خلاصة موجزة، أو مفاتيح لمنهج تعامل التراث السلفي مع السنة النبوية المطهرة، والتي يغلب عليها المزاج والذاتية وإقصاء الآخر.. فأفكارهم ومذاهبهم وطائفتهم هي السنة، وما رسول الله ﷺ في تراثهم إلا خادم بسيط لتلك المذاهب والأفكار، فإن لم تتوافق أقواله أو أفعاله ﷺ مع مزاجهم رموا بما قال عرض الجدار، أو أولوه، أو حرفوه، أو كتموه وتواصوا على كتمانه.

1() الثمر المستطاب (2/628)
2() إعلام العابد (ص10) بالهامش.
3() شريط رقم (852)من سلسلة الهدى والنور.

التراث السلفي .. والعقيدة

يعتبر المنهج السلفي في الدراسات العقدية منهجا قائما بذاته خلافا للمناهج التي اعتمدتها سائر المذاهب الإسلامية، ولذلك يمكن اعتبار السلفية في هذه الناحية طائفة خاصة، واعتبار سائر المسلمين طائفة أخرى.

وذلك الخلاف يشمل كل شيء ابتداء من المصادر العقدية، ومنهج الاستنباط منها، وانتهاء بالقضايا العقدية نفسها.

فالسلفية جعلوا من مصادرهم العقدية أحاديث الآحاد حتى لو كانت ضعيفة، أو موقوفة على الصحابي، أو لم ترفع أصلا إلى رسول الله ﷺ.. بل حتى لو كانت اجتهادا اجتهدوه أو اجتهده سلفهم.. وهم في ذلك كله مخالفون لكل المدارس الإسلامية التي تشددت في العقائد، فلم ترتض منها إلا القطعي الوارد عن المعصوم مع وضوح دلالته، وثبوت سنده.

وهم كذلك وضعوا تصنيفات خاصة في العقائد، وخاصة في أبواب الإلهيات منه تخالف ما عهده سائر المسلمين من تصنيفات.. بل تخالف نفس ما ورد في النصوص المقدسة من تصنيفات.

بالإضافة إلى ذلك كله أضافوا الكثير من الفروع الفقهية، والمسائل الخلافية، فجعلوها من المسائل العقدية الكبرى التي تفرق بينهم وبين سائر المسلمين.

ولذلك كله، كثرت تصانيفهم في العقائد، بل لا يكاد يوجد علم من أعلامهم إلا وترك الكتب الكثيرة فيها، لأنهم يحتاجون كل حين للرد على كل الذين يخالفونهم، وما أكثرهم، لأنهم يشملون كل من عداهم.

ولكن مع ذلك فإن استعراض ما كتبوه، والاطلاع على فهارسه ومحتوياته وأغراض مؤلفيه تكاد تجعل من كل ذلك التراث العقدي الكبير شيئا واحدا، أو عملا مكررا، يمكن جمعه في مجامع محدودة كما فعل ابن تيمية عندما جمع في كتبه العقدية كل ما كتبه سلفه، إما مشيرا إليهم، أو ناقلا من غير إشارة.

وحتى لا يدعي علينا مدع بأننا نقولهم ما لم يقولوا، فإننا نذكر هنا المصادر الكبرى التي نرجع إليها عند حديثنا عن عقائدهم أو غيرها، وهي مصادر معتمدة لديهم، ويكنون لها كل الاحترام والتقدير.. وهي كذلك مطبوعة، وأكثرها محقق تحقيقا جيدا، وأكثرها إن لم نقل كلها منشور على النت، يمكن مطالعته أو تحميله.. ولذلك يمكن للقارئ الكريم أن يتأكد من

كل ما نقوله عنهم.

فمن هذه المصادر ـ وهي مرتبة بحسب وفيات مؤلفيها ـــ: الإيمان لأبي عبيد القاسم بن سلام المتوفى سنة 224هـ، والرد على الجهمية لعبد الله بن محمد بن عبد الله الجعفي المتوفى سنة 229هـ، والإيمان لابن أبي شيبة المتوفى 235هـ، والحيدة في الرد على الجهمية لعبد العزيز بن يحيى المكي المتوفى سنة 240 هـ، والسنة للإمام أحمد بن حنبل المتوفى سنة 241 هـ، والرد على الجهمية والزنادقة للإمام أحمد، والتوحيد في صحيح البخاري للبخاري المتوفى سنة 256هـ، والرد على الجهمية للبخاري، والسنة لأبي بكر الأثرم المتوفى سنة 272هـ، والسنة لأبي علي حنبل بن إسحاق بن حنبل بن هلال تلميذ الإمام أحمد المتوفى سنة 273هـ، والسنة لأبي داود سليمان بن الأشعث السجستاني المتوفى سنة 275هـ، والاختلاف في اللفظ والرد على الجهمية والمشبهة لعبد الله بن مسلم بن قتيبة المتوفى سنة 276هـ، والرد على الجهمية لعثمان بن سعيد الدارمي المتوفى سنة 280هـ، والرد على بشر المريسي لعثمان بن سعيد الدارمي المتوفى سنة 280هـ، وإنكار البدع والحوادث لمحمد بن وضاح المتوفى سنة 286هـ، والسنة لأبي بكر عمرو بن أبي عاصم المتوفى سنة 287هـ، والسنة لعبد الله بن أحمد بن حنبل المتوفى سنة 290 هـ، والسنة لأبي بكر أحمد بن علي بن سعيد المروزي المتوفى سنة 292هـ، والسنة لمحمد بن نصر المروزي المتوفى سنة 294هـ، والسنة لأحمد بن محمد بن هارون الخلال المتوفى سنة 311هـ، والتوحيد لابن خزيمة المتوفى سنة 311 هـ، والعقيدة الطحاوية(1) للإمام أبي جعفر الطحاوي المتوفى سنة 321هـ، والرد على الجهمية لعبد الرحمن بن أبي حاتم المتوفى سنة 327هـ، وشرح كتاب السنة للحسن بن علي البربهاري المتوفى سنة 329هـ، والسنة لأبي أحمد محمد بن أحمد بن إبراهيم الأصفهاني العسال المتوفى سنة 349هـ، والسنة لأبي القاسم سليمان بن أحمد بن أيوب اللخمي الطبراني المتوفى سنة 360هـ، والشريعة لأبي بكر

1() يقول السقاف عنها: (اعلم أن متن الطحاوية وهو الكتاب الذي صنفه الامام أبو جعفر الطحاوي رحمه الله تعالى كتاب صحيح مستقيم من أحسن كتب العقيدة التي تمثل اعتقاد السلف الصالح، ولانه أيضا - أعني الطحاوي - ذكر في مقدمة ذلك الكتاب أنه عقيدة الامام الاعظم أبو حنيفة رضي الله عنه وصاحبيه محمد بن الحسن والقاضي أبو يوسف رحمهما الله تعالى، وأما شرحه المنتشر في الاسواق لابن أبي العز ففيه أمور كثيرة مخالفة للكتاب الاصلي - متن الطحاوية -، وفيه أيضا عقائد فاسدة كإثبات قدم العالم بالنوع وتسلسل الحوادث الى غير أول، وإثبات الحد لذات الله تعالى، وإثبات الحرف والصوت لكلامه سبحانه وقيام الحوادث بذات الله سبحانه إلى غير ذلك من أخطاء جسيمة، وأغلاط أليمة، فتنبهوا) (التنديد بمن عدد التوحيد - حسن بن علي السقاف ص 15)

الآجري المتوفى سنة 360 هـ، والسنة لعبد الله بن محمد الأصبهاني المتوفى سنة 369هـ، والسنة لعمر بن أحمد بن عثمان البغدادي (ابن شاهين) المتوفى سنة 385هـ، والإبانة لابن بطة المتوفى سنة 387هـ، والتوحيد لمحمد بن إسحاق بن مندة المتوفى سنة 395هـ، والرد على الجهمية لمحمد بن إسحاق بن مندة المتوفى سنة 395 هـ، وشرح السنة لأبي عبد الله محمد بن عبد الله بن أبي زمنين المتوفى سنة 399 هـ، وشرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة لأبي القاسم هبة الله بن الحسن بن منصور اللالكائي المتوفى سنة 418هـ، والأصول لأبي عمر الطلمنكي المتوفى سنة 429هـ، والسنة والصفات لأبي ذر عبد الله بن أحمد بن محمد الأنصاري الهروي المتوفى سنة 434هـ، وعقيدة السلف وأصحاب الحديث لإسماعيل بن عبد الرحمن الصابوني المتوفى سنة 449هـ، والاعتقاد والهداية إلى سبيل الرشاد للبيهقي المتوفى سنة 458هـ، ولمعة الاعتقاد الهادي إلى سبيل الرشاد لعبد الله بن أحمد بن قدامة المتوفى سنة 620هـ.

بالإضافة إلى ذلك مؤلفات ابن تيمية المتوفى سنة 728هـ، الكثيرة في العقيدة كالعقيدة الواسطية والفتوى الحموية والرسالة التدمرية.. ومؤلفات تلميذه ابن القيم المتوفى سنة 751هـ، كاجتماع الجيوش الإسلامية والكافية الشافية والصواعق المرسلة، وشفاء العليل.. ومؤلفات الشيخ محمد بن عبد الوهاب المتوفى سنة 1206هـ في الاعتقاد مثل كتاب التوحيد وله شروح كثيرة، كتيسير العزيز الحميد، وفتح المجيد، وكشف الشبهات، وأصول الإيمان.

بالإضافة إلى ذلك ما كتبه المعاصرون في شكل شروح لكتب سلفهم، أو في شكل رسائل مستقلة، أو كتب أكاديمية ونحو ذلك مثل: شرح العقيدة الواسطية للشيخ محمد خليل الهراس، والعقيدة الصحيحة وما يضادها للشيخ عبد العزيز بن عبد الله ابن باز، وعقيدة أهل السنة والجماعة للشيخ محمد بن صالح العثيمين، وشرح أصول الإيمان له، ومفهوم عقيدة أهل السنة والجماعة للدكتور ناصر العقل، ومباحث في عقيدة أهل السنة والجماعة له، ومن أصول عقيدة أهل السنة والجماعة للشيخ صالح بن فوزان الفوزان، ومجمل اعتقاد أهل السنة والجماعة، للدكتور ناصر العقل، وعقيدة أهل السنة والجماعة: مفهومها وخصائصها، وخصائص أهلها للشيخ محمد بن إبراهيم، وغيرها كثير.

والملاحظة العامة في هذه الكتب جميعا أنها لا تستعمل المناهج العقلية التي استعملها المتكلمون أو الفلاسفة، بل هي

في أكثرها نقـول وروايـات عن سـلف السـلفية الأوائـل، والـتي فسـروا بهـا القـرآن الكـريم أو الأحـاديث النبويـة، أو ابتـدعوها ابتداعا، بالإضافة إلى تلك الأحكام الشديدة القاسـية الـتي تختم بهـا كـل عقيـدة، وهي تبـدأ بـالحكم بالبدعـة، وتنتهي بـالحكم بالزندقة.

ولذلك فإن هذه الكتب تشكل شاحنا مهما للأحقاد ولجميـع الأمراض النفسية، فلا يخرج قارئها بطمأنينة الإيمان، ولا تسـليم الإسـلام، وإنمـا يخـرج منهـا بقلب ممتلئ بالغيـظ، حـانق على الجميع لا يكاد يطيق نفسه.

انطلاقا من هذا سنحاول هنا أن نذكر أهم الانحرافات التي وقع فيها التراث السلفي في هـذه الناحيـة المهمـة من الـدين.. بل هي أهم ناحية فيه لأنها تتعلق بالتصـورات الـتي يبـني عليهـا المؤمن دينه ومواقفه جميعا.

وقـد لاحظنـا من خلال الاسـتقراء أنـه يمكن تصـنيفها إلى انحرافين كبيرين: **أولهما** يتعلق بتحريف العقائد الإسلامية التي ورد بها القرآن الكريم، إما عن طريق التأويل والتفسـير، أو عن طريق الروايات الكثيرة وخاصة الإسرائيلية منها، **والثـاني** هـو ابتداع عقائد جديدة لم تـرد في القـرآن الكـريم، ولا في السـنة المطهرة، ومع ذلك أولاها السلفية وسلفهم أهمية كبرى، صنفوا المؤمنين على أساسها.

أولا ـ تحريف العقائد الإسلامية:

لا يسعى الشيطان ـ عند قيامه بتحريـف دين من الأديـان ـ كما يسعى لتحريف العقائد، لأنه إن حرفها انحـرفت معهـا رؤيـة الإنسان للوجود، ولنفسـه وللكـون جميعـا.. وانحـرف معهـا بعـد ذلك سلوكه ومواقفه لأنهـا جميعـا وليـدة الفكـر.. والفكـر وليـد الرؤية الكونية التي يتشكل من خلالها وعي الإنسان ولاوعيه، أو عقله الظاهر وعقله الباطن.

وقد ضـرب لنـا القـرآن الكـريم مثلا على ذلـك بمـا حصـل لليهود من تقديمهم للسامري الوثني على هـارون المـنزه، ومن تقديمهم للعجل المصنوع من الذهب على الله الذي ليس كمثله شيء.

وهكذا دخل الشيطان إلى هذه الأمة عندما عزلت هارونها، وعـزلت معـه الخلـف الصـالح الـذي خلـف النـبي ﷺ، وراحت تســتبدلهم بمن رق دينهم، وضــعف عقلهم، فلم يجــدوا في القرآن الكريم ما يغنيهم، فلجأوا إلى سامريين كثيرين يخلطـون دينهم بدينهم، وعقائدهم بعقائدهم.

وقد كان سـلف السـلفية هم الثغـرة الـتي شـكلت فرصـة الشيطان لتغيير عقائـد الإسـلام وتحريفهـا.. وسـنحاول هنـا من

خلال التراث السلفي أن نرى بعض المظاهر الكبرى لهذا التحريف، والذي خصصناه بكتابين من هذه السلسلة [السلفية والوثنية المقدسة] وهو يتعرض بتفصيل للتحريفات المرتبطة بالعقيدة في الله.. وكتاب [السلفية والنبوة المدنسة]، ويتعرض بتفصيل للتحريفات المرتبطة بالعقيدة في الرسل عليهم الصلاة والسلام.

ومن خلالنا اطلاعنا على التراث العقدي السلفي نجد أن تحريفاتهم امتدت لكل أبواب العقيدة ابتداء من العقيدة في الله، وانتهاء بالعقيدة في القضايا الغيبية المختلفة.

1 ـ التصورات الوثنية لله:

يقسم السلفية العقيدة في الله، والتي يطلقون عليها كثيرا لقب [التوحيد] إلى ثلاثة أقسام: (توحيد الألوهية وتوحيد الربوبية وتوحيد الأسماء والصفات)، وهذا التقسيم ليس تقسيما تصنيفيا فقط، بل هو تقسيم له دلالاته التحريفية الخطيرة التي أشار إلى بعضها الباحث الكبير المتحرر الشيخ حسن بن علي السقاف، فقال: (لقد أرسل الله تعالى سيدنا محمدا ﷺ بكلمة التوحيد (لا إله إلا الله محمد رسول الله ﷺ)، وحث عليها ووعد قائلها ومعتقدها الجنة، وقد وردت بذلك الآيات والاخبار الصحيحة .. فمن هذه الآيات الكريمة والأحاديث الشريفة يتضح وضوحا جليا أن الله سبحانه بين لنا أن التوحيد هو (لا إله إلا الله محمد رسول الله)، ولم يذكر الله تعالى في كتابه، ولا النبي ﷺ في سنته أن التوحيد ينقسم إلى ثلاثة أقسام: توحيد ربوبية وتوحيد ألوهية وتوحيد أسماء وصفات، بل لم ينطق بهذا التقسيم أحد من الصحابة، بل ولا أحد من التابعين، بل ولا أحد من السلف الصالح.. بل إن هذا التقسيم بدعة خلفية مذمومة حدثت في القرن الثامن الهجري، أي بعد زمن النبي ﷺ بنحو ثمانمائة سنة، ولم يقل بهذا التقسيم أحد من قبل، والهدف من هذا التقسيم عند من قال به هو تشبيه المؤمنين الذين لا يسيرون على منهج المتمسلفين بالكفار، بل تكفيرهم بدعوى أنهم وحدوا توحيد ربوبية كسائر الكفار بزعمهم، ولم يوحدوا توحيد ألوهية، وهو توحيد العبادة الذين يدعونه)(1)

فالهدف ـ كما يشير السقاف، وكما سنشرحه بتفصيل ـ من هذا التقسيم ثلاثة أمور:

الأول: احتقار ما ورد في القرآن الكريم من أسماء حسنى باعتبارها لا تدل عند السلفية سوى على توحيد الربوبية الذي يشترك فيه المسلمون مع المشركين، كما يذكرون.

الثاني: الاهتمام بالتجسيم ومقتضياته وربطه بالعقيدة،

---

(1) التنديد بمن عدد التوحيد - حسن بن علي السقاف ص 8.

باعتباره هو التوحيد بالأسماء والصفات، ولهذا كفروا جميع مذاهب الأمة بسبب قولها بالتنزيه.

الثـالث: تكفـير من بقي من المسـلمين ممن لم يكفـر بسبب تنزيهه بما يسمى بتوحيد الألوهيـة، أو إضـافة كفـر جديـد للمنزهة بسبب توسلهم بالأنبياء والأولياء أو زيارتهم للأضرحة أو نحو ذلك.

وبذلك فإن العقيدة السلفية ابتداء وانتهاء عقيدية تكفيرية، تركز على ما تسميه نواقض الإيمان أكـثر من تركيزهـا على مـا يساهم في ترسيخه وتثبيته وطمأنينة القلب به.

ونحب قبل أن نتحدث عن هذه الأنـواع الثلاثـة من التوحيـد كما نص عليها التراث السـلفي أن نلخص ردودا ذكرهـا الشـيخ السـقاف في رسـالته [التنديـد بمن عـدد التوحيـد] على هـذا التقسيم، فقد ذكر لذلك وجوها، هذا ملخصها (1):

الوجـه الأول: لا يعـرف في الشـرع اطلاق اسـم موحـد على من كفـر ولـو بجـزء من العقيـدة الإسـلامية، وذلـك بنص الكتاب والسنة، بل لا يجوز أن نقول الشرع ما لم يقل ولم يرد، فلا يحل لنا أن نطلق على من كان يقر بوجود اللـه ويـدرك أنـه هو الإله المستحق للعبادة دون أن يذعن ويدخل في هـذا الـدين بأنه موحد، بل نطلق عليـه أنـه كـافر، بـدليل قـول اللـه تعـالى: ﴿ أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَـا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي مَـا هُمْ فِيـهِ يَخْتَلِفُونَ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ ﴾ [الزمر: 3]، فقـد وصفهم الله تعالى بالكذب وبالكفر، بل وصـفهم بصـيغة مبالغـة وهى (كفار).. فكيـف يقـال إنهم موحـدون توحيـد ربوبيـة واللـه تعالى وصفهم بالكفر صراحة؟!

الوجه الثاني: هـؤلاء الكفـار الـذين كـانوا يقولـون فيمـا وصفهم الله تعالى بقوله: ﴿وَلَئِنْ سَـأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَـقَ السَّـمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾ [الزمر: 38]، والذين كانوا يقولون: ﴿ مَـا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى﴾ [الزمر: 3]، ما كانوا يقـرون بتوحيد ربوبية لو سلمنا جدلا بقسـم توحيـد الربوبيـة، ومـا كـانوا يقرون بوجود الله تعالى، وإنما قالوا ذلك عند محاججة النبي ﷺ ومجادلته إياهم وإفحامه لهم بالأدلة التي تثبت وجود الله تعـالى وتبطل إلهية ما يعبدون من دون الله سبحانه .

فلما كان ﷺ يثبت لهم وجود اللـه ووحدانيتـه وأن لا إلـه إلا هـو سـبحانه ويلـزمهم بـترك عبـادة هـذه الاصـنام الـتي كـانوا يعبـدونها ويسـجدون لهـا من دون اللـه، كـانوا يتحرجـون ولا يعرفون بماذا سيجيبون فكانوا يقولون عند سؤال النبي ﷺ لهم:

1() انظر: التنديد بمن عدد التوحيد - حسن بن علي السقاف ص 9، فما بعدها.

من خلق السموات والارض؟ (الله).. وهذا كذب صريح منهم لأنهم ما كانوا يعتقدون بوجود الله الذي خلق السموات والارض البتة بدليل أن الله أمرهم في القرآن الكريم أن يتفكروا في خلق السموات والارض ليعرفوا أن لها إلها خلقها وأوجدها فيؤمنوا به، كما قال تعالى: أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ (17) وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ (18) وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ (19) وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ [الغاشية: 17 - 20]، فكانوا يردون قائلين: أَجَعَلَ الْآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ [ص: 5]، ولو كانوا مقرين بأن الله سبحانه هو خالق السموات والأرض وما فيهن، لما ذكر الله لهم تلك الآيات الآمرة بالتفكر في الابل كيف خلقت، وفي الجبال كيف نصبت، وفي الأرض كيف سطحت، وفي السماء كيف رفعت، فقولهم عند سؤال النبي ﷺ لهم وقت إلزامهم الحجة في المناظرة: (من خلق السموات والارض؟!) فيقولون: الله، ما هو إلا كذب وكفر بنص القرآن الكريم، حيث قال الله تعالى في آخر الآية: إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ [الزمر: 3] وكما قال تعالى: يُرْضُونَكُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ وَتَأْبَى قُلُوبُهُمْ وَأَكْثَرُهُمْ فَاسِقُونَ [التوبة: 8] فلا يجوز أن يستنبط بعد هذا البيان أنهم كانوا موحدين توحيدا يسمى توحيد ربوبية، بل هذا استنباط معارض لنص القرآن الذي حكم عليهم بالكفر بل بالمبالغة بالكفر.

الوجه الثالث: أن أولئك الكفار اشتهر عنهم أنهم كانوا يعبدون تلك الاصنام ويحجون لها ويتقربون إليها: وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لَعَلَّهُمْ يُنْصَرُونَ [يس: 74]، بل واشتهر عنهم أنهم كانوا يقولون: ما هي إلا أرحام تدفع وأرض تبلع وما يهلكنا إلا الدهر، كما قال تعالى مخبرا لنا عنهم: وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ [الجاثية: 24]، بل قال أحدهم للنبي ﷺ: مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ [يس: 78]، فرد الله عليه: قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ [يس: 79]، فهل يجوز لنا بعد هذا أن نصف من لا يقر بأن الله خالق ومحيي بأنه موحد توحيد ربوبية.

بل بلغ من كفرهم ما أخبر الله تعالى عنهم في كتابه العزيز إذ قال: وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اسْجُدُوا لِلرَّحْمَنِ قَالُوا وَمَا الرَّحْمَنُ أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا وَزَادَهُمْ نُفُورًا [الفرقان: 60]، فهل هؤلاء يقولون بوجود الرحمن الرحيم؟! ولو كانوا يقرون أن الله هو الخالق لما قال الله لهم: مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذًا لَذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ [المؤمنون: 91]، وعبر بالاله أيضاً ولم يعبر بالرب إشارة الى أنهم لا يوحدون لا الرب ولا الإله،

ولأن الرب هو الاله، والاله هو الرب.

الوجه الرابع: أن ابن تيمية الذي اخترع تقسيم التوحيد الى ألوهية وربوبية يقول إن المشركين كانوا يقرون بتوحيد الربوبية دون توحيد الألوهية وأن المسلمين الذين يخالفونه في آرائه كذلك وحدوا ربوبية ولم يوحدوا ألوهية، فهو يكفرهم بذلك، وهذا مراده من هذا التقسيم، كما قال في (منهاج السنة) بعد أن دمج وخلط بعض أئمة الاسلام كالسهروردي وأبي حامد الرازي والآمدي وغيرهم بمن يخالفهم في آرئهم من الفلاسفة كأرسطو والفارابي وابن سينا ما نصه: (دخلوا في بعض الباطل المبدع، وأخرجوا من التوحيد ما هو منه كتوحيد الالهية وإثبات حقائق أسماء الله ولم يعرفوا من التوحيد إلا توحيد الربوبية وهو الإقرار بأن الله خالق كل شئ وهذا التوحيد كان يقر به المشركون)[1]، وهذه مغالطة منه وتلبيس، وهل يعقل عاقل أو يقول إنسان بأن فرعون الذي كان من جملة المشركين كان يوحد ربوبية ولا يوحد ألوهية، وهو الذي يقول: ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي﴾ [القصص: 38]، ولو كان يقر بالربوبية لما قال: ﴿أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى﴾ [النازعات: 24]، بل قال بدلها: (أنا إلهكم الأعلى)

ولو تذكر ابن تيمية قول الله تعالى: ﴿قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا بِالَّذِي آمَنْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ﴾ [الأعراف: 76]، وقول يوسف عليه السلام ﴿أَأَرْبَابٌ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ﴾ [يوسف: 39]، وقول ابراهيم عليه السلام: ﴿أَئِفْكًا آلِهَةً دُونَ اللَّهِ تُرِيدُونَ﴾ [الصافات: 86]، وقول الكفار حينما دعاهم الرسول ﷺ إلى كلمة التوحيد: ﴿أَجَعَلَ الْآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ﴾ [ص: 5] لاستحيا أن يتفوه بذلك.

انطلاقا من هذا سنحاول هنا أن نشرح هذه الأقسام الثلاثة، والانحرافات الخطيرة التي حواها التراث السلفي حولها.

توحيد الألوهية:

يعتبر توحيد الألوهية بالمفهوم السلفي الذي نظر له ابن تيمية، وركز عليه خصوصا الشيخ محمد بن عبد الوهاب، وتبنته بعد ذلك كل التنظيمات الإرهابية هو الأداة الكبرى التي حكم بها هذا الاتجاه على أكثر المسلمين بالشرك ومقتضياته.

فمفهوم الشرك المرتبط بهذا النوع من التوحيد ــ عند السلفية ــ يختلف عن مفهومه عند جميع المدارس والفرق الإسلامية، ذلك أنه لا يعني فقط جعل الند مع الله تعالى، وإنما يضيفون إليه الكثير من السلوكات التي يمارسها المسلمون

(1) منهاج السنة (2 / 62)

سلفهم وخلفهم بنية تعظيم من أمر الله بتعظيمه من الصالحين والأولياء ونحو ذلك، فيعتبرون تلك السلوكات التعظيمية شركا جليا بالله تعالى.

ولهذا يدخل في الشرك الجلي عندهم التوسل بالأولياء، أو الاستغاثة بهم، أو النذر لهم، أو القسم بهم، أو طلب الشفاعة منهم، أو زيارة أضرحتهم، أو البناء على قبورهم.. وغير ذلك، مما يسمونه (نواقض التوحيد)

فكل من فعل هذا عندهم مشرك، وإن صلى وصام وحج وعمل بكل ما طلبته الشريعة من تكاليف، يقول محمد بن عبد الوهاب في رسالة له في (معنى لا إله إلا الله): (إن الكفار الذين قاتلهم رسول الله ﷺ كانوا يتصدقون ويحجون ويعتمرون ويتعبدون ويتركون أشياء من المحرمات خوفا من الله عز وجل، ولكنهم لم يشهدوا لله بتوحيد الألوهية، وذلك أن المشركين كانوا يدعون الصالحين مثل الملائكة وعيسى وعزير وغيرهم من الأولياء، فكفروا بهذا مع اقرارهم بأن الله هو الخالق الرازق المدبر، واذا عرفت هذا عرفت معنى (لا اله الا الله)، وعرفت أن من دعا نبيا أو ملكا أو ندبه او استغاث به، فقد خرج من الإسلام)(1)

وهم لأجل هذا يعتبرون جميع المسلمين في جميع البلاد الاسلامية كفارا ومشركين، وقد ورد في (الدرر السنية) الذي يعتبر المصدر الأكبر للفكر السلفي في (رسالة الأمير عبد العزيز بن سعود إلى أهل المخلاف السليماني يعرفهم بدين الإسلام): (إن الله تبارك وتعالى، أرسل محمدا ﷺ إلينا على حين فترة من الرسل، فهدى الله به إلى الدين الكامل، والشرع التام؛ وأعظم ذلك وأكبره، وزبدته، هو: إخلاص الدين، لله، بعبادته وحده لا شريك له، والنهي عن الشرك؛ وهو: أن لا يدعى أحد من دونه، من الملائكة، والنبيين، فضلا عن غيرهم; فمن ذلك: أن لا يسجد إلا لله، ولا يركع إلا له; ولا يدعى لكشف الضر إلا هو، ولا لجلب الخير إلا هو، ولا ينذر إلا له، ولا يحلف إلا به، ولا يذبح إلا له؛ وجميع العبادة لا تصلح إلا له وحده لا شريك له؛ وهذا معنى قول لا إله إلا الله ; فإن المألوه هو: المقصود، المعتمد عليه; وهذا أمر هين عند من لا يعرفه، كبير عظيم عند من عرفه. فمن عرف هذه المسألة، عرف أن أكثر الخلق قد لعب بهم الشيطان، وزين لهم الشرك بالله، وأخرجه في قالب حب الصالحين وتعظيمهم)(2)

1() نقلا عن: عقيدة محمد بن عبد الوهاب السلفية وأثرها في العالم الإسلامي، صالح بن عبد الله العبود.

2() الدرر السنية في الأجوبة النجدية (1/ 265)

بــل إنــه يــرى أن المســلمين في زمانــه – بســبب تلك الســلوكات – أكــثر شــركا من المشــركين الــذين أرسل إليهم رسول الله ﷺ، يقول في ذلك: (المشركون في زماننا أضل من الكفار الذين في زمن رسـول اللـه ﷺ من وجهين: أحـدهما: أن الكفـار إنمـا يـدعون الأنبيـاء والملائكـة في الرخـاء; وأمـا في الشدائد، فيخلصون لله الـدين، كمـا قـال تعـالى: ﴿وَإِذَا مَسَّـكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلَّا إِيَّاهُ﴾ الآيـة [سـورة الإسـراء آية: 67]ـ والثاني: أن مشركي زماننا، يدعون أناسا لا يوازنـون عيسى والملائكة)(1)

ولا يزال السلفية إلى الآن يتبنون هذه المواقف المتشـددة من عموم المسلمين(2)، يقـول محمـد حامـد الفقي - وهـو علم من كبـار أعلام السـلفية في مصـر-: (كمـا جـرى لأهـل مصـر وغيرهم؛ فإن أعظم آلهتهم أحمد البدوي، وهو لا يعرف له أصل ولا فضـل ولا علم ولا عبـادة. ومـع هـذا فصـار أعظم آلهتهم.. وكان أهل العراق ومن حـولهم كأهـل عمـان يعتقـدون في عبـد القادر الجيلاني; كما يعتقد أهل مصر في البـدوي. وعبـد القـادر من متأخري الحنابلة.. كما جرى من الرافضة مـع أهـل الـبيت.. وهكذا حال أهل الشرك مع من فتنوا به، وأعظم من هذا عبـادة أهل الشام لابن عربي، وهو إمام أهـل الوحـدة الـذين هم أكفـر أهـل الأرض وأكـثر من يعتقـد فيـه هـؤلاء لا فضـل لـه ولا دين كأناس بمصر وغـيره، وجـرى في نجـد قبـل هـذه الـدعوة مثـل هــذا.. وفي الحجــاز واليمن وغيرهــا من عبــادة الطــواغيت والأشجار والأحجار والقبور ما عمت به البلـوى، كعبـادتهم للجن وطلبهم للشفاعة منهم)(3)

وبـذلك لم يبـق أحـد من المسـلمين – في نظر هـؤلاء - إلا وهو كــافر أو مشــرك، ولم يســلم من هــذا التكفــير إلا الدولة السـعودية – في شـقها الوهـابي(4) - والـتي اعتبرهـا علم كبـير كأبي بكر جابر الجزائري الدولة الوحيدة الممثلة للإسلام، يقول: (هذه الدّولة الّتي كانت معجزة القرن الرّابع عشر، هـذه الدّولـة الـتي لا يواليهـا إلاّ مـؤمن ولا يعاديهـا إلاّ منـافق كـافر مـادامت

1() الدرر السنية في الأجوبة النجدية (2/ 41)

2() لا نحتاج إلى استدلال على هذا الكلام، لأن الذي يزعم أنه سلفي أو وهابي ثم لا يقف هذا الموقف من المسلمين لا يعتـبر سـلفيا ولا وهابيـا، لأن النصـوص الـواردة عنهم تقيـد السلفي والوهابي بهذا القيد، فيما يسمى عندهم بالولاء والبراء.

3() فتح المجيد شرح كتاب التوحيد، عبد الـرحمن بن حسـن بن محمـد بن عبـد الوهـاب، ص220.

4() لأن هؤلاء يكفرون شيعة السعودية ومن فيها من الصوفية.

قائمة بأمر الله)(1)

ويقـول: (إنّـه لا يوجـد مسـلم صـحيح الإسـلام، ولا مـؤمن صادق الإيمان وفي أي بلد إسلامي، كـان، إلاّ ويتمنّى بكـلّ قلبـه أن يحكمه ابن السعود وإنّه لو يدعى إلى مبايعته مَلِكاً أو خليفـةً للمسلمين لمـا تـردد طرفـة عين، كـان ذلـك من أجـل أنّ هـذه الدّولة تمثّل الإسلام وتقوم به وتدعو إليه...)(2)

ويقـول عن دورهـا في تهـديم الآثـار والأضـرحة: (وهيهـات هيهات أن يتنكر آل سعود لمبدأ الحق الذي أقـاموا ملكهم عليه، ووقفـوا حيـاتهم على حمايتـه ونصـرته ونصـرة الـدّاعين إليـه، والهادين إلى مثله، إنه لو لم يبق إلاّ عجوزٌ واحدة من آل سـعود لم يكن لها أن تتنازل عن مبدأ الحقّ)(3)

ولهـذا نـرى هـؤلاء يفتـون بجـواز الخـروج على الحكـام، والمشاركة في المظاهرات، بل والخروج المسلح على الحكـام، ما عدا السعودية، باعتبارها في تصورهم تمثل الحكومـة الإلهيـة العادلــة الــتي لا يحــل الخــروج عليها، أو كمــا عــبر أبــو بكــر الجزائري، فقال: (هذه الدّولـة الإسـلامية تمثّـل العدالـة الإلهيـة في الأرض)(4)

ونحب أن ننقل هنا بعض التعليقات التي كتبها الشيخ حسن بن فرحـان المـالكي(5) على بعض كتب الشـيخ محمـد بن عبـد الوهاب على هذا النوع من التوحيد، وخصوصا كتابه الـذي يعتـبر إنجيل السلفية في الحكم على المخالفين [كشف الشبهات]

وقـد اخترنـا كلامـه هنـا باعتبـاره ابن هـذه المدرسة، وابن البيئة السلفية الوهابية المتشددة، وهو لذلك أدرى بها وبأهلها..

قال في تعليقه على مقدمة الكتاب، عند ذكر الشيخ محمد بن عبد الوهاب بأن دعوته امتداد لـدعوة الرسـل عليهم الصـلاة والسلام، وهو ما يذكره السلفية عادة عنـد افتخـارهم بـدعوتهم وبمشايخهم: (كان الشيخ يُواجه من خصـومه، بـأن من تقـاتلهم وتكفرهم مسلمون يصلون ويصومون ويحجون فكـان الـرد منـه على هذه الشبهة - وهي شـبهة قويـة- حاضـرة في ذهن الشـيخ عند تأليفه الكتب أو كتابته الرسائل؛ فبـالغ في تأكيـده من بـاب ردة الفعل.. وتكـرر عرضـه لمحاسـن كفـار قـريش وأصـحاب مسيلمة والمنافقين في عهد النبوة والغلاة الذين قيل أن الإمام

1() وجاءوا يركضون مهلاً يا دعاة الضلالة، أبو بكر جابر الجزائـري، دار الحـرمين، 1413، ص17.

2() الإعلام بأن العزف والغناء حرام. أبوبكر جابر الجزائري، ص 57.

3() وجاءوا يركضون، ص17.

4() الإعلام بأن العزف والغناء حرام، ص62.

5() وذلك في كتابه [داعية وليس نبياً!] (قراءة لمذهب الشـيخ محمـد بن عبـد الوهـاب في التكفير مع نقد تفصيلي لكتابه كشف الشبهات)

علياً حرقهم، فتكـرر من الشـيخ تفضـيلهم على المسـلمين في عصره من علماء وعامة! حتى يبرهن أنه لم يقاتل إلا أناساً أقل فضلاً من كفار قـريش ومن المنـافقين ومن أصـحاب مسـيلمة! وهذا خطأ بلا شك، مع مـا في مقارناتـه الـتي يكتبهـا بين هـؤلاء وهؤلاء من أقيسـة تهمـل فـوارق كبـيرة، فلـذلك تجـد اسـتهلاله السابق ينبئ عن قلقله من الشبهة القويـة الـتي كـان الخصـوم يواجهونه بها)(1)

وأورد قول الشيخ محمد بن عبـد الوهـاب: (وآخـر الرسـل محمد ﷺ وهو الذي كسر صور هؤلاء الصالحين، أرسله إلى قوم يتعبدون ويحجون ويتصدقون ويذكرون الله..)(2)

ثم علـق عليـه بقوله: (هكـذا يرسـم الشـيخ سـامحه اللـه صورة جميلة وغـير صـحيحة عن كفـار قـريش ليبـني على ذلـك تكفــير مســلمين (يتعبــدون ويحجــون ويتصــدقون ويــذكرون الله..!!)، وهذا قياس مع الفارق الكبير.. ثم ذكر الشـيخ الصـفة التي يرى أنه من أجلها قاتل الرسـول ﷺ الكفـار وقاتـل الشـيخ المسلمين فقال: (لكنهم – يعـني كفـار قـريش - يجعلـون بعض المخلوقات وسائط بينهم وبين الله!) يعني فجاز قتـالهم ويجـوز لنا نحن قتالهم للسبب نفسه.. سبحان الله، كفار قـريش الـذين لا يقولون (لا إله إلا الله) ولا يؤمنون بيوم القيامــة ولا البعث ولا جنة ولا نار ولا يؤمنون بنبي ويعبدون الأصنام ويقتلون ويظلمون ويشربون الخمور ويزنون ويـأكلون الربـا ويرتكبـون المحرمـات مثلهم مثـل المسـلمين المصـلين الصـائمين الحـاجين المـزكين المتصـدقين المجتنـبين للمحرمـات والفـاعلين مكـارم الأخلاق.. ﴿أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ (35) مَـا لَكُمْ كَيْـفَ تَحْكُمُـونَ﴾ [القلم: 35، 36]) (3)

ثم يبين الفوارق الكثيرة بين المسلمين والمشركين الـذين يحرص السلفية على تشـبيههم بهم، فيقـول: (لا، ليسـوا سـواء، المسـلمون ليسـوا كالكفـار حـتى وإن تـأول علمـاؤهم وجهـل عـوامهم فالتأويـل والجهـل بـاب واسـع لكن لا يسـاوى فيـه من يقـوم بأركـان الإسـلام مـع من ينكرها.. ولا يتسـاوى من يـؤمن بالنبي ﷺ نبياً ورسولاً ومن يكذبـه ويظنـه سـاحراً أو كاهنـاً.. ولا يتساوى من يتوسل بـالنبي ﷺ ويتـبرك بالصـالحين – وإن أخطأ- مع من يرجم النبي ﷺ ويقتل الصـالحين.. لا يتسـاوى من يـؤمن باليوم الآخر والجنة والنار مع من يقول: (إن هي إلا حياتنا الـدنيا نمـوت ونحيا..).. لا يتسـاوى من قـال: (لا إلـه إلا اللـه) مـع من

1() داعية وليس نبياً!، ص67.
2() كشف الشبهات، ص5-6.
3() داعية وليس نبياً!، ص71.

قال: (أجعل الآلهة إلهاً واحداً).. لا، لا يتساوى من آمن ومن كفر.. من صدق الرسل ومن كذبهم.. من آمن بالبعث ومن كفر به.. لا يتساوى من طلب شفاعة الأنبياء والصالحين ممن يطلب شفاعة الجماد.. لا يتساوى ممن يطلب شفاعة الأنبياء وهو يعرف أنهم عبيد الله ممن يطلب شفاعة الأصنام ويجعلهم مشاركين لله في الألوهية... لا يا شيخنا هناك فرق كبير بين هؤلاء وهؤلاء) (1)

ويورد قول الشيخ محمد بن عبد الوهاب: (وإلا فهؤلاء المشركون –يعني كفار قريش- يشهدون أن الله هو الخالق وحده، لا شريك له، وأنه لا يرزق إلا هو، ولا يحي إلا هو، ولا يميت إلا هو، ولا يدبر الأمر إلا هو، وأن جميع السماوات ومن فيهن والأرضين السبع ومن فيها، كلهم عبيده وتحت تصرفه وقهره..)(2) ثم سرد الآيات في ذلك.

ثم يعلق عليه بقوله: (هنا أيضاً رسم صورة زاهية للمشركين؛ ولم يذكر تكذيبهم بالبعث، ولا اعتقادهم أن الذي يهلكهم هو الدهر، ولا اعتقادهم أنهم يمطرون بنوء كذا وكذا، ولا أكلهم الربا، وقتلهم النفس، ودفنهم البنات ولا غير ذلك من المظالم والجرائم؛ ولا ذكر وصفهم للنبي ﷺ بأقبح الأوصاف وتكذيبهم له، وتعذيبهم المسلمين وقتلهم المستضعفين.. فالشيخ محمد أخذ الآيات التي تدل على إيمانهم على وجه الجملة بأن الله هو الخالق الرازق. مع أن هذه الاعترافات التي اعترف بها المشركون؛ قد أجاب عنها بعض العلماء؛ وذكروا أن المشركين إنما اعترفوا بها من باب (الإفحام والانقطاع)، وليس من باب الاقتناع، ولو كانوا صادقين في اعترافهم؛ لأتوا بلوازم هذا الاعتراف؛ فلذلك يأمر الله نبيه ﷺ أن يذكّرهم بلوازم هذا الاعتراف كما في قوله تعالى: (فقل: أفلا تتقون) (قل: أفلا تذكرون)؟!.. فكأن الله عز وجل يوبخهم بأنهم كاذبون، وأنهم لا يؤمنون بالله عز وجل خالقاً ورازقاً، كما لا يستطيعون في الوقت نفسه أن يقولوا أن الأصنام هي التي خلقت السماوات والأرض!! فيقوا بين الاعتراف بالقول (انقطاعاً) وممارسة ما يخالفه واقعاً، وهذا الجواب الذي أجاب به بعض العلماء إن كان ضعيفاً فأضعف منه الزعم بأن كفار قريش أفضل من المسلمين في عصر الشيخ، والحاصل: أنه لا يجوز للشيخ ولا لغيره أن يذكر فضائل الكفار ويهمل أخطاءهم، بينما يختار أخطاء المسلمين وينسى فضائلهم!. ولا يجوز أن نختار الآيات التي قد نوهم بها العوام – ولو دون قصد- بأن فيها ثناء على

1() داعية وليس نبياً!، ص73.
2() كشف الشبهات، ص7.

الكفار، ونترك الآيات التي تذمهم وتبين كفرهم وظلمهم وتكذيبهم بالبعث.. لا يجوز أن نقوم بكل هذا حتى نسوغ به قتالنا للمسلمين الركع السجود؛ بزعمنا أنهم مثل الكفار تماماً الذين (يصلون ويحجون ويتصدقون ويذكرون الله..) (1)

وفي موضع آخر يرد ردا بليغا على تشبيه الوهابية المسلمين بالمشركين بقوله: (.. ثم إن المسلمين لا يعبدون إلا الله بخلاف هؤلاء المشركين؛ الذين يسجدون للأصنام؛ وإذا لم يكن هذا واضحاً؛ فلن نستطيع التفريق بين أمور أخرى أشد التباساً، ومن تلك الأمور الملتبسة اتهام بعض العلماء للشيخ محمد وأصحابه بأنهم خوارج؛ فهم يرون أن خصائص الخوارج مجتمعة فيهم لأنهم: يكفرون المسلمين.. ويستبيحون دماءهم.. وأنهم في آخر الزمان.. ويخرجون من قبل المشرق.. وينزلون الآيات التي نزلت في المشركين على المسلمين.. وأنهم يقرأون القرآن بما فيه من أوامر ونواه، فلا يتجاوز حناجرهم فلذلك لم تمنعهم هذه القراءة من تكفير المسلمين واستحلال دمائهم وظلمهم مع النهي عن ذلك في النصوص القرآنية ومع نهي القرآن عن الظلم ولبس الحق بالباطل!.. وأن سيماهم التحليق.. فإذا كانت التسوية بين الخوارج والوهابية ظلماً – مع وجود هذا التشابه عند المخالفين لهم- فالتسوية بين كفار قريش والمسلمين أكثر ظلماً، وأبعد عن الحق، وإن كان الشيخ معذوراً في تفضيل كفار قريش على علماء زمانه؛ فالذي يجعل علماء الدعوة من الخوارج يكون أولى بالعذر؛ لأن الخوارج - مع هذا- مسلمون على الراجح، ولم يكفرهم الصحابة بينما كفار قريش لا يشك أحد في كفرهم)(2)

هذه نماذج عن بعض تعليقات الشيخ حسن بن فرحان المالكي على أقوال الشيخ محمد بن عبد الوهاب التي صرح فيها بالحكم بالشرك على جميع المسلمين قياسا لهم على مشركي قريش وغيرهم.. ويوجد أمثالها كثير من أعلام المسلمين الذين عاصروا الشيخ محمد بن عبد الوهاب أو عاصروا أبناءه وتلاميذه الذين أكملوا مسار الشيخ في تكفير المسلمين وقتالهم بسبب هذا النوع من التوحيد.

ومن بين تلك الردود المهمة ردود الشيخ سليمان بن عبد الوهاب، وهو أخ للشيخ محمد بن عبد الوهاب، وكان يشغل منصب القضاء في (حريملاء)، وقد ألف رسالة في نقد أخيه سماها (الصواعق الإلهيّة في الرّد على الوهابيّة)(3)، ومما جاء فيها قوله: (ابتلى الناس بمن ينتسب الى الكتاب والسنة

1() داعية وليس نبياً!، ص77.
2() داعية وليس نبياً!، ص82.

ويستنبط من علومهما، ولا يبالي من خالفه، واذا طلبت منـه ان يعرض كلامه على أهل العلم لم يفعل، بـل يـوجب على النـاس الأخذ بقوله ويمفهومه، ومن خالفه فهو عنده كافر، هذا وهـو لم يكن فيه خصلة واحدة من خصال اهل الاجتهاد، ولا واللـه عشـر واحدة ومع هذا، فراج كلامه على كثير من الجهال فإنا للـه وانـا اليه راجعون، الأمة كلها تصيح بلسان واحد، ومع هذا لا يـرد لهم في كلمة، بل كلهم كفـار أو جهـال (اللهم) اهدالضـال ورده الى الحق)(1)

وهم – كما يـذكر سـليمان بن عبـد الوهـاب - لم يكتفـوا بالحكم عليهم بالكفر فقط، بل حكموا على البلاد التي يسكنونها بأنها بلاد حرب، فيقول: (تكفرون عوام المسـلمين وتسـتبيحون دماءهم وأموالهم، وتجعلـون بلادهم بلاد حـرب، ولم يوجـد منهم عشر معشار ما وجد من هولاء، وإن وجـد منهم شـئ من أنـواع الشرك سـواء شـرك أصـغر أو أكـبر فهم جهـال، لم تقم عليهم الحجة الذي يكفر تاركها)(2)

ونجد من خلال رسالته حرقـة كبـيرة تـدل على مـدى الألم الذي أصاب الناس بسبب أخيه، فهو يقـول: (ياعبـاد اللـه تنبهـوا وارجعو الى الحق وامشـوا حيث مشـى السـلف الصـالح وقفـوا حيث وقفـوا، ولا يسـتغركم الشـيطان ويـزين لكم تكفـير أهـل الإسلام، وتجعلون ميزان كفر الناس مخالفتكم وميزان الاسـلام موافقتكم)(3)

ويقول: (يا عباد الله.. اتقوا الله خـافوا ذا البطش الشـديد لقـد آذيتم المؤمـنين والمؤمنـات ﴿وَالَّذِينَ يُـؤْذُونَ الْمُـؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بِغَيْرِ مَا اكْتَسَـبُوا فَقَـدِ احْتَمَلُـوا بُهْتَانًـا وَإِثْمًـا مُبِينًـا﴾[الأحزاب: 58]، واللـه مـا لعبـاد اللـه عنـد اللـه ذنب إلا أنهم لم يتبعـوكم على تكفـير من شـهدت النصـوص الصـحيحة بإسـلامه وأجمع المسلمون على إسلامه فإن اتبعوكم أغضبوا اللـه تعـالى ورسوله ﷺ وإن عصوا آراءكم حكمتم بكفرهم وردتهم)(4)

ويقول: (فـأنتم الآن تكفـرون بأقـل القليـل من الكفر، بـل تكفرون بما تظنون أنتم أنه كفر، بل تكفـرون بصـريح الإسـلام، فإن عندكم أن من توقف عن تكفير من كفرتموه خائفاً من الله تعـالى في تكفـير من رأى عليـه علامـات الإسـلام فهـو عنـدكم

3() ويسمى أيضا (فصل الخطاب في الرد على محمد بن عبد الوهاب)، وذكر بعضهم أنه عنوان لكتاب آخر.

1() الصواعق الإلهيّة في الرّد على الوهابيّـة، الشـيخ سـليمان بن عبـد الوهـاب النجـدي، ص4.

2() الصواعق الإلهيّة، ص28.

3() الصواعق الإلهيّة، ص24.

4() الصواعق الإلهيّة، ص27..

كافر)[5]

هذا موقفهم من توحيد الألوهية وإنما أطلنا الحديث عنه، وأكثرنا من ذكر النقول ردا على احتيال السلفية لأنفسهم ولمشايخهم بأنهم ليسوا من المكفرة، مع أنه لا يوجد في الأمة من كفر الأمة، وفعل بها الأفاعيل مثلهم..

توحيد الربوبية:

يقصد السلفية بتوحيد الربوبية كل ما ورد من معاني الأسماء الحسنى في القرآن الكريم كرزق الله لعباده، ورحمته بهم، وإحسانه إليهم، ونحو ذلك.. وككون الله تعالى هو الخالق البارئ المصور.. وهكذا..

ومع كون القرآن الكريم أعطى هذا النوع من المعرفة بالله الحظ الأعلى، بل جعله هو الباب الوحيد لمعرفة الله تعالى، إلا أن السلفية ــ كما رأينا ــ يحتقرون هذا النوع من المعرفة، لأنهم يتصورون أن المشركين يشاركونهم فيها.. ولهذا فإن التوحيد الكامل عندهم هو إما توحيد الألوهية ــ كما رأينا ـ أو توحيد الأسماء والصفات.. وهو كما سنرى لا يقصدون منه إلا التجسيم والتشبيه.

وقد حاولت كثيرا أن أجد كتابا سلفيا في شرح الأسماء الحسنى غير مختلط بالتجسيم فلم أجد.. وأتحدى من يجد هذا النوع من الكتب.. لأنهم ــ حتى لو ذكروا الأسماء الحسنى ـ فإنهم يمرون عليها مرور الكرام، ليتفرغوا بعدها للساق والضرس والحقو والقعود والجري والهرولة.

ولهذا لا نجد كتابا من كتبهم خصوه لأي اسم من أسماء الله الحسنى، بينما خصوا الصورة والوجه والحد والقعود والجلوس ونحوها بكتب ورسائل كثيرة كما شرحنا ذلك في [السلفية والوثنية المقدسة]

وسأستعرض هنا للدلالة على هذا فهرس كتاب سلفيا في التوحيد ألفه من يسمونه إمام الأئمة: أبو بكر محمد بن إسحاق بن خزيمة السلمي النيسابوري (المتوفى: 311هـ)، وهو [كتاب التوحيد وإثبات صفات الرب عز وجل] لنرى من خلاله حظ هذا الكتاب من أسماء الله الحسنى، أو مما يسمونه توحيد الربوبية:

[ذكر البيان من خبر النبي ﷺ في إثبات النفس لله عز وجل.. باب ذكر إثبات العلم لله بالوحي المنزل على النبي المصطفى ﷺ، الذي يقرأ في المحاريب والكتاتيب من العلم الذي هو من علم العام، لا بنقل الأخبار التي هي من نقل علم الخاص، ضد قول الجهمية المعطلة الذين لا يؤمنون.. ذكر إثبات وجه الله الذي وصفه بالجلال والإكرام.. باب ذكر البيان من

5() الصواعق الإلهيّة، ص29.

أخبار النبي المصطفى ﷺ في إثبات الوجه لله جل ثناؤه.. باب ذكر صورة ربنا جل وعلا وصفة سبحات وجهه عز وجل تعالى ربنا أن يكون وجه ربنا كوجه بعض خلقه، وعز ألا يكون له وجه، إذ الله قد أعلمنا في محكم تنزيله أن له وجها، ذواه بالجلال والإكرام، ونفى عنه الهلاك.. باب ذكر أخبار رويت عن النبي ﷺ: تأولها بعض من لم يتحر العلم على غير تأويلها ففتن عالما من أهل الجهل والغباوة، حملهم الجهل - بمعنى الخبر - على القول بالتشبيه، جل وعلا عن أن يكون وجه خلق من خلقه مثل وجهه، الذي وصفه الله بالجلال والإكرام.. باب ذكر إثبات العين لله جل وعلا على ما ثبته الخالق البارئ لنفسه في محكم تنزيله، وعلى لسان نبيه ﷺ.. باب إثبات السمع والرؤية لله جل وعلا الذي هو كما وصف نفسه: سميع بصير، ومن كان معبوده غير سميع بصير، فهو كافر بالله السميع البصير.. باب البيان من سنن النبي ﷺ على تثبيت السمع والبصر لله.. باب ذكر إثبات اليد للخالق البارئ جل وعلا والبيان: أن الله تعالى له يدان.. باب ذكر البيان من سنة النبي ﷺ على إثبات يد الله جل وعلا موافقا لما تلونا من تنزيل ربنا لا مخالفا قد نزه الله نبيه.. باب ذكر قصة ثابتة في إثبات يد الله جل ثناؤه بسنة صحيحة عن النبي ﷺ بيانا أن الله خط التوراة بيده لكليمه موسى، وإن رغمت أنوف الجهمية.. باب ذكر سنة ثالثة في إثبات اليد لله الخالق البارئ وكتب الله بيده على نفسه أن رحمته تغلب غضبه، وفي هذه الأخبار التي نذكرها في هذا الباب إثبات صفتين لخالقنا البارئ، مما ثبتها الله لنفسه في اللوح المحفوظ والإمام المبين ذكر النفس واليد جميعا وإن رغمت أنوف.. باب ذكر سنة رابعة مبينة ليدي خالقنا عز وجل مع البيان: أن لله يدين، كما أعلمنا في محكم تنزيله، أنه خلق آدم بيديه، وكما أعلمنا أن له يدين مبسوطتين، ينفق كيف يشاء.. باب ذكر سنة خامسة تثبت أن لمعبودنا يدا يقبل بها صدقة المؤمنين عز ربنا وجل عن أن تكون يده كيد المخلوقين.. باب ذكر صفة خلق الله آدم عليه السلام والبيان الشافي أنه خلقه بيديه، لا بنعمتيه، على ما زعمت الجهمية المعطلة، إذ قالت: إن الله يقبض بنعمته من جميع الأرض قبضة، فيخلق منها بشرا، وهذه السنة السادسة في إثبات اليد للخالق البارئ جل وعلا.. باب ذكر سنة سابعة تثبت يد الله والبيان أن يد الله هي العليا، كما أخبر الله في محكم تنزيله.. باب ذكر سنة ثامنة تبين وتوضح: أن لخالقنا جل وعلا يدين كلتاهما يمينان، ولا يسار لخالقنا عز وجل، إذ اليسار من صفة المخلوقين، فجل ربنا عن أن يكون له يسار.. باب ذكر سنة تاسعة تثبت يد الله جل وعلا وهي إعلام النبي ﷺ

أن الله غرس كرامة أهل الجنة بيده وختم عليها.. باب ذكر سنة عاشرة تثبت يد الله وهو إعلام النبي ﷺ أمته قبض الله الأرض يوم القيامة، وطيه جل وعلا سماواته بيمينه، مثل المعنى الذي هو مسطور في المصاحف، متلو في المحاريب، والكتاتيب، والجدور.. باب ذكر إمساك الله تبارك وتعالى اسمه وجل ثناؤه السماوات والأرض وما عليها على أصابعه جل ربنا عن أن تكون أصابعه كأصابع خلقه.. باب ذكر إثبات الرجل لله عز وجل وإن رغمت أنوف المعطلة الجهمية.. باب ذكر استواء خالقنا العلي الأعلى الفعال لما يشاء، على عرشه فكان فوقه.. باب ذكر البيان أن الله عز وجل في السماء.. باب ذكر سنن النبي ﷺ المثبتة أن الله جل وعلا فوق كل شيء وأنه في السماء.. باب ذكر الدليل على أن الإقرار بأن الله عز وجل في السماء من الإيمان.. باب ذكر أخبار ثابتة السند صحيحة القوام رواها علماء الحجاز والعراق عن النبي ﷺ في نزول الرب جل وعلا إلى السماء الدنيا كل ليلة..

وهكذا يستمر الكتاب من أوله إلى آخره في بحث هذه المسائل، وفي الدلالة عليها من أخبار الرواة المجسمة، سواء كانوا عقلاء أو مجانين عربا أو عجما مسلمين أو يهود.. فالهدف هو إثبات تلك الأعضاء لله، ولا يهم المصدر المثبت لها.

توحيد الأسماء والصفات:

وهذا هو التوحيد الذي يعطيه السلفية أهمية كبرى بعد توحيد الألوهية باعتباره أكبر مصدر تكفيري للأمة جميعا، لأن السلفية وحدهم من بين الأمة من يقول بهذا النوع من التوحيد.. فالصفات عندهم لا تقتصر على الصفات المعنوية أو المعاني كما ينص الأشاعرة، وإنما تشمل اليد والأصابع والوجه ونحوها.. بل هذه الصفات، وهي التي يسمونها صفات الذات من الأهمية ما لا تعدله أي صفات أخرى.

وهم في تصنيفهم للصفات ينطلقون من الإنسان، باعتبار الله تعالى ـ كما يرون ـ خلق الإنسان على صورته.. ولذلك فإن كل ما للإنسان من صفات وأعضاء يوجد مثله لله.

ولهذا نرى علما كبيرا من أعلامهم هو القاضي أبو يعلى، محمد بن الحسين بن محمد بن خلف ابن الفراء (المتوفى: 458هـ) ينطلق من حديث الصورة الذي يعظمونه كثيرا ليصف الله تعالى بكل ما تقتضيه الجسيمة من أوصاف.

ومثلما استعرضنا في العنوان السابق فهرس كتاب التوحيد لابن خزيمة، نستعرض باختصار فهرس أبواب كتاب [إبطال التأويلات لأخبار الصفات]، وهو مطبوع ومحقق ومنتشر على النت بكثرة:

[فصل في الدلالة على أنه لا يجوز الاشتغال بتأويلها وتفسيرها.. فصل في إطلاق القول بأنه خلق آدم على صورته وأن الهاء راجعة على الرحمن.. فصل في إثبات رؤيته لله سبحانه في تلك الليلة.. فصل وضع الكف بين كتفيه.. فصل جواز إطلاق تسمية الصورة عليه.. فصل إثبات صفة الساق لربنا سبحانه.. فصل إثبات صفة الشخص والغيرة لربنا جل شأنه.. فصل إثبات صفة اليد واليمين والقبض لله تعالى.. فصل إثبات الرجل والقدم لربنا جل شأنه.. فصل إثبات صفة الضحك لربنا، تبارك وتعالى.. فصل صفة العلو لربنا، تبارك وتعالى.. فصل إثبات صفة الفرح لربنا جل شأنه.. فصل إثبات صفة العجب لربنا، تبارك وتعالى.. فصل إثبات صفة النزول لربنا، تبارك وتعالى.. فصل بيان أن الله تعالى حجابه النور أو النار.. فصل إثبات رؤية المؤمنين لربهم جل وعز في الآخرة.. فصل إثبات صفة الكف للرحمن جل شأنه.. فصل إثبات صفة الأصابع للرحمن سبحانه.. فصل إثبات صفة القبض والبسط لربنا تعالى.. فصل إثبات السمع والبصر لله تعالى.. فصل إثبات صفة العينين لربنا جل شأنه.. فصل إثبات صفة الحياء لربنا جل شأنه.. فصل إثبات صفة النفس لربنا جل شأنه.. فصل في المقام المحمود لنبينا ﷺ]

وحتى لا يتصور القارئ أن الفصل الأخير لا علاقة له بالتجسيم، وأنه يذكر فقط مكانة رسول الله ﷺ والمقام المحمود الذي خصه به، نذكر الروايات التي أوردها المؤلف في هذا الفصل لنعلم من خلالها أن التجسيم والوثنية السلفية دخلت في كل محل..

فمن الروايات التي أوردها ما رواه عن ابن عمر، عن النبي ﷺ في قوله تعالى: ﴿عَسَى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَحْمُودًا﴾ [الإسراء: 79] قال: (يجلسه معه على السرير)(1)

وروى عن عائشة قالت: سألت رسول الله ﷺ عن المقام المحمود فقال: (وعدني ربي القعود على العرش) (2)

وروى عن عن عبد الله بن سلام أنه قال: (إذا كان يوم القيامة جيء بنبيكم ﷺ فأقعد بين يدي الله تعالى على كرسيه)، قال: فقلت: يا أبا مسعود إذا كان على كرسيه أليس هو معه؟ قال: (ويلكم هذا أقر حديث في الدنيا لعيني)، قال حجاج في حديثه: (إذا كان يوم القيامة نزل الجبار جل اسمه على عرشه، وقدماه على الكرسي، ويؤتي بنبيكم ﷺ، فيقعد بين يديه على الكرسي، فقالوا للحسن: إذا كان على الكرسي هو معه؟ قال:

(1) إبطال التأويلات (ص: 476)
(2) إبطال التأويلات (ص: 476)

نعم، ويلكم هو معه هو معه) (1)

وقد علق الشيخ أبو يعلى على هذه الروايات وغيرها بقوله: (اعلم أنه غير ممتنع حمل هذا الخبر على ظاهره، وأنه يجلسه معه على عرشه وسريره بمعنى يدنيه من ذاته ويقربه منها)(2)

2 ـ التصورات الإسرائيلية للنبوة:

لم يكتف السلفيون بما ورد في القرآن الكريم من تلك الحقائق الجميلة الطاهرة حول الأنبياء عليهم السلام، ولم يسمعوا لقوله تعالى وهو ينهى المؤمنين عن سؤال أهل الكتاب أو غيرهم عن تلك الحقائق الجميلة، كما قال تعالى: ﴿ وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِمْ مِنْهُمْ أَحَدًا﴾ [الكهف: 22]

بل راحوا يحادون الله تعالى، ويستفتون من هب ودب عن الأنبياء عليهم السلام، ليشوهوا صورتهم الجميلة التي رسمها القرآن الكريم لتكون للمؤمنين موضع قدوة.

وكان منطلقهم في ذلك هو نفس منطلق اليهود من قبلهم.. وهو أن الأنبياء بشر.. وما داموا بشرا، فلا حرج أن يكونوا قدوة للمؤمنين في المعصية، كما أنهم قدوة لهم في الطاعة.

وقد عبر ابن تيمية عن ذلك، فقال: (إن القول بأن الأنبياء معصومون عن الكبائر دون الصغائر هو قول أكثر علماء الإسلام وجميع الطوائف.. وهو أيضا قول أكثر أهل التفسير والحديث والفقهاء، بل هو لم ينقل عن السلف والأئمة والصحابة والتابعين وتابعيهم إلا ما يوافق هذا القول ولم ينقل عنهم ما يوافق القول وإنما نقل ذلك القول في العصر المتقدم عن الرافضة ثم عن بعض المعتزلة ثم وافقهم عليه طائفة من المتأخرين. وعامة ما ينقل عن جمهور العلماء أنهم غير معصومين عن الإقرار على الصغائر ولا يقرون عليها ولا يقولون إنها لا تقع بحال وأول من نقل عنهم من طوائف الأمة القول بالعصمة مطلقا وأعظمهم قولا لذلك: الرافضة فإنهم يقولون بالعصمة حتى ما يقع على سبيل النسيان والسهو والتأويل.. فهؤلاء وأمثالهم من الغلاة القائلين بالعصمة، وقد يكفرون من ينكر القول بها، وهؤلاء الغالية هم كفار باتفاق المسلمين، فمن كفر القائلين بتجويز الصغائر عليهم كان مضاهيا لهؤلاء الإسماعيلية والنصيرية والرافضة والاثني عشرية)(3)

ونحب أن نذكر تعليقا على هذا بأن المغالطة الكبرى

---

(1) إبطال التأويلات (ص: 477)

(2) إبطال التأويلات (ص: 479)

(3) مجموع الفتاوى (4/ 319)

الموجودة في هذا الكلام هو عن مفهوم العصمة عند ابن تيميــة وعند سلفه.. فإن كان هذا المفهـوم قاصـرا على تـرك الكبـائر، فإن الأمة جميعا إلا ما شذ منها معصوم.. ولا مزية في هذا.. بل إنهم في تراجمهم لمن يسمونهم أئمة السلف يـذكرون تـنزههم منـذ صـغرهم عن الصـغائر، فكيـف بالكبـائر، في نفس الـوقت الذي يجيزون فيه على الأنبياء الوقوع في الكبائر حال صغرهم.

فمن الأمثلة التي يوردونها كثيرا في خطبهم قـولهم: (قـال البخاري: ما اغتبت مسـلماً منـذ احتلمت.. وقـال الشـافعي: لـو أعلم أن الماء يفسد عليَّ مروءتي ما شربته.. وقالوا لمحمد بن واسع: ألا تتكيء، فقال: إنمـا يتكيء الآمن، وأنـا لا زلت خائفـاً.. وحج مسروق فمـا نـام إلا سـاجداً..).. وهكـذا نجـد أمثـال هـذه الأوصاف عند ذكرهم لأئمتهم المعصومين.

ولم يكتــف ابن تيميــة بمــا ذكــره من اتفــاق ســلفه ومن شـايعهم في هـذه المسـألة، بـل يضـيف إليـه اعتبـار مـا قالـه المنزهـة من تنزيـه الأنبيـاء تحريفـا للـدين، يقـول في (منهـاج السـنة): (تبعهم في هـذا البـاب، بـل كتب التفسـير والحـديث والآثار والزهد وأخبار السـلف مشـحونة عن الصـحابة والتـابعين بمثل ما دل عليه القرآن، وليس فيهم من حرف الآيات كتحريف هؤلاء، ولا من كـذب بمـا في الأحـاديث كتكـذيب هـؤلاء، ولا من قال هذا يمنـع الوثـوق، أو يـوجب التنفـير ونحـو ذلـك كمـا قـال هؤلاء، بل أقوال هؤلاء الذين غلوا بجهـل من الأقـوال المبتدعـة في الإسـلام.. وهم قصـدوا تعظيم الأنبيـاء بجهـل كمـا قصـدت النصـارى تعظيم المسـيح وأحبـارهم ورهبـانهم بجهل، فأشـركوا بهم واتخذوهم أربابا من دون اللـه وأعرضـوا عن اتبـاعهم فيمـا أمروهم به ونهوهم عنه)(1)

وهكذا أصـبح تنزيـه الأنبيـاء بدعة.. وأصـبح رميهم بالكبـائر والصغائر والموبقات عند ابن تيمية والسلفية سنة..

ولـو أننـا بحثنـا جيـدا في مصـدر هـذه المقولـة لوجـدناهم اليهود.. فاليهود الذين تتملذ عليهم أسلاف السـلفية الأوائـل هم الذين رووا تلك الروايات الكثيرة التي استند إليهـا السـلفية في إثبات المعاصي للأنبياء عليهم الصلاة والسلام.

وقد ورد في (سفر الملوك: إصـحاح 8،ـ عـدد 46):ـ (لأنـه ليس إنسان لا يخطئ)، وورد في (سفر أيوب: إصحاح 15، عدد 14-16) (من هـو الإنسـان حـتى يزكو، أو مولـود المـرأة حـتى يتبرر؟. هوذا قديسوه لا يأتمنهم، والسماوات غير طاهرة بعينيه، فبالحري مكروه وفاسد الإنسـان الشـارب الإثم كالمـاء!)، وورد في (سفر المزامير، المزمـور 14،ـ 1:ـ 53،ـ 2:ـ 53،ـ 3:ـ 53)

1() منهاج السنة النبوية (2/ 435)

(فسدوا ورجسوا بأفعالهم، وليس من يعمل صلاحا، الله من السماء أشرف على بني البشر لينظر: هل من فاهم طالب الله؟ كلهم قد ارتدوا معا، فسدوا. ليس من يعمل صلاحا، ليس ولا واحد)

وبناء على هذه النصوص وغيرها كثير يقصر اليهود العصمة على التبليغ، يقول ابن كمونه (وأما داود وسليمان فلم يكونا من المعصومين عن الخطأ لأنهما لم يكونا من المرسلين، وإنما يجب عصمة النبي المرسل فيما أرسل فيه، وفيما عدا ففي العصمة شك) (1).

وما ذكره ابن كمونة هو نفس ما يذكره السلفية الذين يقصرون العصمة على التبليغ، يقول الشيخ عبد العزيز بن باز: (قد أجمع المسلمون قاطبة على أن الأنبياء عليهم الصلاة والسلام – ولاسيما محمد ﷺ – معصومون من الخطأ فيما يبلغونه عن الله عز وجل.. فنبينا محمد ﷺ معصوم في كل ما يبلغ عن الله قولاً وعملاً وتقريراً، هذا لا نزاع فيه بين أهل العلم)(2)

وقال ابن تيمية: (فإن الآيات الدالة على نبوة الأنبياء دلت على أنهم معصومون فيما يخبرون به عن الله عز وجل فلا يكون خبرهم إلا حقاً وهذا معنى النبوة وهو يتضمن أن الله ينبئه بالغيب وأنه ينبئ الناس بالغيب والرسول مأمور بدعوة الخلق وتبليغهم رسالات ربه)(3)

ولم يكتف السلفية بهذا الاقتباس من أهل الكتاب، بل راحوا في تفاصيل حديثهم عن الأنبياء يذكرون نفس ما يذكره أهل الكتاب، ويصورون الأنبياء بتلك الصورة المشوهة التي صور بها الأنبياء، مبتعدين عن الصورة الجميلة التي صورهم بها القرآن الكريم.

بل إننا نجد من أعلامهم أو المتأثرين بهم من ذهب إلى جواز النقل المباشر من كتب أهل الكتاب بدل الاكتفاء بما يقوله كعب الأحبار أو وهب بن منبه..

وقد ذكرنا في كتاب [السلفية والنبوة المدنسة] الكثير من الأمثلة عن تلك التحريفات الخطيرة التي شوه بها السلفية وسلفهم النبوة والأنبياء عليهم الصلاة والسلام إلى درجة قولهم بجواز الكفر عليهم، بل وقوعه منهم.

بل إلى درجة اعتبار إبراهيم عليه السلام وبعد تلك

1() ابن كمونه، سعد بن منصور، تنقيح الأبحاث للملل الثلاث اليهودية والمسيحية والإسلام، دار الأنصار، ص، 15-18 بتصرف.
2() فتاوى ابن باز ج6/371.
3() مجموع الفتاوى ج18 / 7.

الابتلاءات العظيمة التي مر بها ونجح فيها جميعا متشككا في قدرة الله تعالى، كما فسروا بذلك قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِنْ قَالَ بَلَى وَلَكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ اجْعَلْ عَلَى كُلِّ جَبَلٍ مِنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ [البقرة: 260]

فقد رووا أن إبراهيم ﵇ حصل له شك في قدرة الله على إحياء الموتى، ولهذا أراد أن يتأكد، وقد رجح الطبري هذا كما رجحه الكثير من السلفية، بناء على حديث يرفعونه إلى رسول الله ﷺ يقول فيه: (نحن أحق بالشك من إبراهيم، قال: رب أرني كيف تحيي الموتى، قال أولم تؤمن؟ قال بلى ولكن ليطمئن قلبي)(1)

بل إنهم يذكرون في هذا أمرا عمليا خطيرا، وهو أن الشك لا يؤثر في الإيمان، ولذلك يعتبرون أن حكاية الله لشك إبراهيم ﵇ وعدم عقوبته عليه أرجى آية في القرآن الكريم، وقد رووا في ذلك عن سعيد بن المسيب، قال: اتعد عبد الله بن عباس وعبد الله بن عمرو أن يجتمعا. قال: ونحن يومئذ شببة، فقال أحدهما لصاحبه: أي آية في كتاب الله أرجى لهذه الأمة؟ فقال عبد الله بن عمرو: ﴿قُلْ يَاعِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ [الزمر: 53]، فقال ابن عباس: أما إن كنت تقول: إنها، وإن أرجى منها لهذه الأمة قول إبراهيم ﷺ: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِنْ قَالَ بَلَى وَلَكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي ﴾ [البقرة: 260] (2)

وقد رجح الطبري هذا القول، فقال تعقيبا على الروايات التي أوردها في ذلك: (وأولى هذه الأقوال بتأويل الآية، ما صح به الخبر عن رسول الله ﷺ أنه قال: (نحن أحق بالشك من إبراهيم، قال: رب أرني كيف تحيي الموتى؟ قال أولم تؤمن؟)، وأن تكون مسألته ربه ما سأله أن يريه من إحياء الموتى لعارض من الشيطان عرض في قلبه، كالذي ذكرنا عن ابن زيد آنفا: من أن إبراهيم لما رأى الحوت الذي بعضه في البر وبعضه في البحر، قد تعاوره دواب البر ودواب البحر وطير الهواء، ألقى الشيطان في نفسه فقال: متى يجمع الله هذا من بطون هؤلاء؟ فسأل إبراهيم حينئذ ربه أن يريه كيف يحيي الموتى، ليعاين ذلك عيانا، فلا يقدر بعد ذلك الشيطان أن يلقي في قلبه

1() رواه البخاري (4/ 179، 6/ 39) ومسلم (ص/ 133، 1839) وابن ماجة (ح/ 4026) وأحمد (2/ 326)

2() تفسير الطبري (5/ 489)

مثل الذي ألقي فيه عند رؤيته ما رأى من ذلك. فقال له ربه: (أولم تؤمن)؟ يقول: أولم تصدق يا إبراهيم بأني على ذلك قادر؟ قال: بلى يا رب! لكن سألتك أن تريني ذلك ليطمئن قلبي، فلا يقدر الشيطان أن يلقي في قلبي مثل الذي فعل عند رؤيتي هذا الحوت)(1)

وبهذا أعطى السلفية المبرر لكل من يطلب الشواهد الحسية ليؤمن، كما فعل بنو إسرائيل عندما طلبوا أن يروا الله جهرة..

3 ـ التصورات الخرافية للعوالم الغيبية:

لم يكتف السلفية بتشويه العقائد المرتبطة بالله تعالى، وبرسله عليهم الصلاة والسلام، بل راحوا يشوهون جميع الحقائق الغيبية التي وردت في القرآن الكريم حول عوالم الغيب من الملائكة والجن وغيرها، فقد حولوا من تلك العوالم خرافات ممتلئة بالغرابة.

فقد حولوا الملائكة من مخلوقات نورانية مقدسة لا نعرف حقيقتها، وإنما نعرف فقط بعض صفات كمالها، وبعض الوظائف التي انتدبت لها إلى مخلوقات غريبة ضخة تتشكل بأشكال الحيوانات المختلفة، وتتصرف التصرفات الغريبة.

ومن تلك الأحاديث التي رووها في الدلالة على ذلك ما رووه عن العباس بن عبد المطلب قال: كنا بالبطحاء في عصابة فيهم رسول الله ﷺ، فمرت سحابة، فقال: تدرون ما هذه، قالوا: سحاب، قال: والمزن، قا لوا: والمزن، قال: والعنان، ثم قال: تدرون كم بعد ما بين السماء والأراضين، قالوا: لا، قال: إما واحدة أو اثنتين أو ثلاث وسبعين سنة، ثم السماء فوق ذلك، حتى عد سبع سموات، ثم فوق السابعة بحر بين أعلاه وأسفله مثل ما بين سماء إلى سماء، ثم فوق ذلك كله ثمانية أملاك أوعال، ما بين أظلافهم إلى ركبهم مثل ما بين سماء إلى سماء، ثم فوق ظهورهم العرش بين أعلاه وأسفله مثل ما بين سماء إلى سماء، والله تعالى فوق ذلك)(2)

وعلى الرغم من الغرابة الشديدة لهذا الحديث إلا أن ابن تيمية انتصر له انتصارا شديدا، ومما قاله في الانتصار له: (إن هذا الحديث قد رواه إمام الأئمة ابن خزيمة في كتاب التوحيد الذي اشترط فيه أنه لا يحتج فيه إلا بما نقله العدل عن العدل موصولا إلى النبي ﷺ، والإثبات مقدم على النفي، والبخاري إنما نفى معرفة سماعه من الأحنف، ولم ينف معرفة الناس بهذا،

1() تفسير الطبري (5/ 491)

2() رواه وأبو داود في سننه، كتاب السنة، باب في الجهمية: (5/ 93)، والدارمي في الرد على بشر المريسي: ص 448..

فإذا عرف غيره كإمام الأئمة ابن خزيمة ما ثبت به الإسناد، كانت معرفته وإثباته مقدما على نفي غيره وعدم معرفته)(1)

بل انتصر له كل المعاصرين يقول ابن جبرين: (فهذا وما أشبهه مما أجمع السلف على نقله وقبوله ولم يتعرضوا لرده ولا تأوله ولا تشبيهه ولا تمثيله)(2)

ومع هذا، فقد نقلوا في روايات أخرى أن حملة العرش كانو بصور أخرى.. وهي (ملك في صورة رجل، وملك في صورة ثور، وملك في صورة أسد، وملك في صورة نسر)(3)، ورووا عن ابن الكواء أنه قال لعلي بن أبي طالب: يا أمير المؤمنين إن في كتاب الله لآية قد أفسدت علي قلبي، وشككتني في ديني، فقال له أمير المؤمنين: (ويحك يابن الكواء، وما هذه الآية التي أفسدت عليك قلبك وشككتك في دينك؟ فقال له ابن الكواء: قول الله تعالى: ﴿وَالطَّيْرُ صَافَّاتٍ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾ [النور: 41]،ـ ما هذه الصلاة؟ وما هذا الصف؟ وما هذا التسبيح؟ فقال له أمير المؤمنين: يابن الكواء إن الله تعالى خلق الملائكة في صور شتى، وإن لله ملكا في صورة ديك أشهب، براثنه في الأرض السفلى السابعة، وعرفه مثنى تحت عرش الرحمن، له جناح بالمشرق من نار، وجناح بالمغرب من ثلج، فإذا حضر وقت كل صلاة قام على براثنه، وأقام عرفه تحت العرش، ثم صفق بجناحيه كما تصفق الديكة في منازلكم، فلا الذي من النار يذيب الثلج، ولا الذي من الثلج يطفئ الذي من النار، ثم نادى بأعلى صوته: لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدا عبده ورسوله، سبوح قدوس رب الملائكة والروح، وأشهد أن محمدا خير النبيين، فتسمعه الديكة في منازلكم فتصفق بأجنحتها فتقول كنحو من قوله، فهو قول الله عز وجل في كتابه: ﴿وَالطَّيْرُ صَافَّاتٍ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾ [النور: 41])(4)

ورووا عن رسول الله ﷺ قوله: (العرش على ملك من لؤلؤة في صورة ديك رجلاه في التخوم السفلى وعنقه مثنية تحت العرش، وجناحاه في المشرق والمغرب فإذا سبح الله ذلك الملك لم يبق شيء إلا سبح)(5)

---

(1) الفتاوى (3/192)، ومثله مال تلميذه ابن القيم إلى تصحيحه، انظر: تهذيب التهذيب: (7/ 92، 93)

(2) وهو عبد الله الجبرين في التعليقات على متن لمعة الاعتقاد 84

(3) رواه ابن خزيمة في كتاب التوحيد: ص 198، والآجري في الشريعة: ص 494 ..

(4) العرش وما روي فيه لابن أبي شيبة (ص: 448)

(5) أورده السيوطي في الحبائك: ص 59، و68، وعزاه إلى ابن مردويه والديلمي في مسند الفردوس.

هذا حديثهم عن عالم الملائكة، أما حديثهم عن عالم الجن، فأعجب وأغرب، فهم لا يستندون فيه لا إلى الإسرائيليات ولا إلى غيرها، بل يستندون إلى اتصالهم المباشر بهذا العالم، لأنهم يعتبرون إمكانية التواصل مع هذا العالم عبر الرقية المبتدعة التي يمارسونها أو عبر غيرها.

ولهذا نرى ابن تيمية عند حديثه عن الجن يطرح كل أدواته الاستدلالية التي يسخر من خصومه بسبب عدم تمسكهم بها، لأنه لا يحتاج إليها في التعرف عليهم، وكيف يحتاج إليها وهو يتواصل مباشرة معهم هو وجميع إخوانه من السلفيين.. وقد ذكر ذلك في مواضع كثيرة منها قوله: (.. أما كونه لم يتبين له كيفية الجن وماهياتهم، فهذا ليس فيه إلا إخباره بعدم علمه، لم ينكر وجودهم؛ إذ وجودهم ثابت بطرق كثيرة غير دلالة الكتاب والسنة، فإن من الناس من رآهم، وفيهم من رأى من رآهم، وثبت ذلك عنده بالخبر واليقين، ومن الناس من كلمهم وكلموه، ومن الناس من يأمرهم وينهاهم ويتصرف فيهم، وهذا يكون للصالحين وغير الصالحين، ولو ذكرت ما جرى لي ولأصحابي معهم لطال الخطاب، وكذلك ما جرى لغيرنا، لكن الاعتماد على الأجوبة العلمية يكون على ما يشترك الناس في علمه، لا يكون بما يختص بعلمه المجيب، إلا أن يكون الجواب لمن يصدقه فيما يخبر به)(1)

ويذكر ابن تيمية رؤيته لخط الجن وكتابتهم مرات متعددة، فيقول: (وأصحاب الحلاج لما قتل كان يأتيهم من يقول أن الحلاج فيرونه في صورته عيانا وكذلك شيخ بمصر يقال له الدسوقي بعد أن مات كان يأتي أصحابه من جهته رسائل وكتب مكتوبة وأراني صادق من أصحابه الكتاب الذي أرسله فرأيته بخط الجن وقد رأيت خط الجن غير مرة وفيه كلام من كلام الجن)(2)

بل إن ابن تيمية يذكر حب بعض الجن له، وسعيهم في خدمته، ومن تلك الحكايات قوله: (كما جرى مثل هذا لي كنت في مصر في قلعتها وجرى مثل هذا إلى كثير من الترك من ناحية المشرق وقال له ذلك الشخص أنا ابن تيمية فلم يشك ذلك الأمير أني أنا هو وأخبر بذلك ملك ماردين وأرسل بذلك ملك ماردين إلى مصر رسولا وكنت في الحبس فاستعظموا ذلك وأنا لم أخرج من الحبس ولكن كان هذا جنيا يحبنا فيصنع بالترك التتر مثل ما كنت أصنع بهم لما جاؤوا إلى دمشق كنت أدعوهم إلى الإسلام فإذا نطق أحدهم بالشهادتين أطعمتهم ما

(1) مجموع الفتاوى: 4/232.
(2) دقائق التفسير: 2/143.

تيسر فعمل معهم مثل ما كنت أعمل وأراد بذلك إكرامي ليظن ذاك أني أنا الذي فعلت ذلك، قال لي طائفة من الناس فلم لايجوز أن يكون ملكا قلت لا إن الملك لا يكذب وهذا قد قال أنا ابن تيمية وهو يعلم أنه كاذب في ذلك)(1)

وبناء على هذا التواصل المباشر من السلفية ومن ابن تيمية خصوصا مع عالم الجن، نجدهم يذكرون عنهم معلومات كثيرة لا توجد لا في الكتاب ولا في السنة، ولا حتى في الإسرائيليات نفسها، لأنهم استفادوها مباشرة من التواصل مع إخوانهم من الشياطين وعالم الجن.

ومن تلك المعلومات ذكرهم لأنواع التواصل مع الجن وأغراضه، كما عبر ابن تيمية على ذلك، فقال: (.. والمقصود هنا أن الجن مع الإنس على أحوال: فمن كان من الإنس يأمر الجن بما أمر الله به ورسوله من عبادة الله وحده وطاعة نبيه ويأمر الإنس بذلك فهذا من أفضل أولياء الله تعالى، وهو في ذلك من خلفاء الرسول ونوابه. ومن كان يستعمل الجن في أمور مباحة له فهو كمن استعمل الإنس في أمور مباحة له وهذا كأن يأمرهم بما يجب عليهم وينهاهم عما حرم عليهم ويستعملهم في مباحات له فيكون بمنزلة الملوك الذين يفعلون مثل ذلك وهذا إذا قدر أنه من أولياء الله تعالى فغايته أن يكون في عموم أولياء الله مثل النبي الملك مع العبد الرسول: كسليمان ويوسف مع إبراهيم وموسى وعيسى ومحمد صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين. ومن كان يستعمل الجن فيما ينهي الله عنه ورسوله إما في الشرك وإما في قتل معصوم الدم أو في العدوان عليهم بغير القتل كتمريضه وإنسائه العلم وغير ذلك من الظلم وإما في فاحشة كجلب من يطلب منه الفاحشة فهذا قد استعان بهم على الإثم والعدوان ثم إن استعان بهم على الكفر فهو كافر وإن استعان بهم على المعاصي فهو عاص: إما فاسق وإما مذنب غير فاسق وإن لم يكن تام العلم بالشريعة فاستعان بهم فيما يظن أنه من الكرامات: مثل أن يستعين بهم على الحج أو أن يطيروا به عند السماع البدعي أو أن يحملوه إلى عرفات ولا يحج الحج الشرعي الذي أمره الله به ورسوله وأن يحملوه من مدينة إلى مدينة ونحو ذلك فهذا مغرور قد مكروا به)(2)

ومن ذلك قول ابن تيمية عند حديثه عن أسباب الصرع: (وصرعهم للإنس قد يكون عن شهوة وهوى وعشق كما يتفق للإنس مع الإنس، وقد يتناكح الإنس والجن ويولد بينهما ولد

1() دقائق التفسير (2/ 142)
2() مجموع الفتاوى (11/ 307)

وهـذا كثـير معـروف.. وقـد يكـون عن عبث منهم وشـر بمثـل سـفهاء الإنس وحينئـذ فمـا كـان من البـاب الأول فهـو من الفواحش التى حرمها اللـه تعـالى كمـا حـرم ذلـك على الإنس، وإن كان برضى الآخر فكيف إذا كـان مـع كراهتـه فإنـه فاحشـة وظلم، فيخاطب الجن بذلك، ويعرفون أن هذا فاحشـة محرمة، أو فاحشة وعدوان لتقوم الحجة عليهم بذلك، ويعلموا أنـه يحكم فيهم بحكم الله ورسوله الذى أرسـله إلى جميـع الثقلين الإنس والجن، وما كان من القسـم الثـانى فـان كـان الإنسـي لم يعلم فيخـاطبون بـأن هـذا لم يعلم ومن لم يتعمـد الأذى لا يسـتحق العقوبة، وإن كان قد فعل ذلك فى داره وملكه عرفوا بأن الدار ملكه فله أن يتصرف فيها بما يجـوز، وأنتم ليس لكم أن تمكثـوا فى ملك الإنس بغير أذنهم، بل لكم ما ليس من مسـاكن الإنس كالخراب والفلوات، ولهذا يوجدون كثيرا فى الخراب والفلـوات ويوجـودون فى مواضـع النجاسـات كالحمامـات والحشـوش والمزابـل والقمـامين والمقـابر والشـيوخ الـذين تقـترن بهم الشياطين وتكون أحوالهم شيطانية لا رحمانية يأوون كثـيرا الى هذه الأماكن التى هى مأوى الشياطين)(1)

بل إن ابن تيمية وتلاميذه من السلفية لا يكتفـون بإمكانيـة التواصـل مـع عـالم الجن فقط، بـل يضـمون إلى ذلـك إمكانيـة الاستعانة بهم والاستفاده منهم، يقول ابن تيمية في [النبـوات]: (والجني قد يحب الإنسي كما يحب الأنسي الانسـي وكمـا يحب الرجل المرأة، والمرأة الرجل ويغار عليـه ويخدمـه بأشـياء واذا صار مع غيره فقد يعاقبه بالقتل وغيره كـل هـذا واقـع ثم الـذي يخدمونه تارة يسرقون له شيئا من أموال النـاس ممـا لم يـذكر اسم الله عليه ويأتونه إما بطعام وإما شـراب وامـا لبـاس وامـا نقد وإما غير ذلك وتارة يأتونه في المفـاوز بمـاء عـذب وطعـام وغـير ذلـك وليس شـيء من ذلـك من معجـزات الانبيـاء ولا كرامات الصالحين فإن ذلـك انمـا يفعلونـه بسـبب شـرك وظلم وفاحشة وهو لو كان مباحا لم يجز أن يفعل بهذا السبب فكيـف اذا كان في نفسـه ظلمـا محرمـا لكونـه من الظلم والفـواحش ونحو ذلك وقد يخبرون بأمور غائبة مما رأوه وسمعوه ويـدخلون في جـوف الانسـان قـال النـبي ﷺ: (ان الشـيطان يجـري من الانسان مجرى الدم)(2)

ويقول في [دقائق التفسير]: (وتارة يخدم هؤلاء لهؤلاء فى أغراضهم وهؤلاء لهؤلاء فى أغراضهم فالجن تأتيه بمـا يريـد من صورة او مال أو قتل عدوه والانس تطيع الجن فتارة تسـجد لـه

1() مجموع الفتاوى: (19/39)

2() النبوات:(1/279)

وتارة تسجد لما يأمره بالسجود له وتارة تمكنه من نفسه فيفعل به الفاحشة وكذلك الجنيات منهن من يريد من الانس الذى يخدمنه ما يريد نساء الانس من الرجال وهذا كثير فى رجال الجن ونسائهم فكثير من رجالهم ينال من نساء الانس ما يناله الانسى وقد يفعل ذلك بالذكران)(1)

وسئل الشيخ عبدالله بن عبد الرحمن الجبرين عن الحكم الشرعي للاستعانة بالجن في الكشف عن الجرائم والسرقات الخطيرة ونحو ذلك، فقال: (لا شك أن في الجن مسلمون وصالحون، ولا شك أنهم جميعا يروننا ونحن لا نراهم، وأنهم يتكلمون وقد نسمع كلامهم وقد لا نسمعه، فعلى هذا لا ينكر أنهم يخبرون بعض البشر بأشياء لا يعلمها الإنس لأنهم لخفتهم يقطعون المسافات الطويلة في زمن قصير، وقد حكى الله عنهم قولهم: وَأَنَّا لَمَسْنَا السَّمَاءَ فَوَجَدْنَاهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا (8) وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَاعِدَ لِلسَّمْعِ فَمَنْ يَسْتَمِعِ الْآنَ يَجِدْ لَهُ شِهَابًا رَصَدًا [الجن: 8، 9]، ففي الإمكان أن يعلموا عن السارق ومكان الضالة ومجتمع أهل الإجرام ومكائد الأعداء وموضع ذخائرهم ونوعها، ولكنهم لا يعلمون الغيب.. فأما الاستعانة بهم فأرى أنه لا يجوز لأن في ذلك استخدام لهم وقد لا يخدمون إلا بتقرب إليهم واستضعاف لهم، فأما إن تلبس أحدهم بإنسان وسألناه عن بعض ما لا نعلمه فلا مانع من اعتبار خبره، مع أنه قد يظن ظنا، وقد يتعمد الكذب أما إن تحقق من بعض الصالحين منهم خبر بواسطة بعض الصالحين من البشر فلا مانع من قبوله دون طلب ذلك من أحدهم وقد تواتر عن بعض الصالحين من الناس أن هناك من يوقظهم للصلاة آخر الليل ولا يرون أحدا وإنما هم من صالحي الجن)(2)

وقال الشيخ صالح بن عبدالعزيز آل الشيخ: (والاستعانة بالجن الأصل فيها المنع، وقد أجاز بعض العلماء أنه إذا عرض الجني أحيانا وهذه نادرة للمسلم في إبداء إعانة له فإن له أن يفعل ذلك وهذا ليس من هدي النبي ﷺ ولا صحابته، وقد أدت الاستعانة بمن زعموا أنهم من مسلمين الجن من قبل بعض الراقين إلى فتن وشحناء ومشكلات بين الناس فيقول الراقي إن الجن يقول إن الحاسد أو العائن هو الزوجة الثانية أو السحر من قبل أهل الزوجة أو من فلان من الأقرباء وهكذا، مما يؤدي إلى القطيعة والشحناء والشرور.. وهنا أمر نلفت إليه وهو أن عدالة الجن لا تعلم حتى لو كان قرينا للإنسان وهل الجن فيما

1() دقائق التفسير:(2/137)

2() القول المعين في مرتكزات معالجي الصرع والسحر والعين، وانظر: الفتاوى الذهبية، ص 198.

يخبر به عدل أو غير عدل، ولهذا ذكر علماء الحديث في كتب المصطلح أن رواية مسلمي الجن ضعيفة لأن الرواية في صحتها موقوفة على معرفة العدالة والثقة في الراوي، وهذا لا سبيل للوصول إليه بالنسبة للجن فكيف يقبل من يقولون بأنهم مسلمي الجن إما فلان مسحور على يد فلان أو أنه محسود بعين فلان)(1)

وقال الدكتور أحمد بن ناصر بن محمد الحمد: (إن المؤمنين من الجن كالمؤمنين من الإنس من حيث أنهم مأمونو الجانب، فلا يدعون إلى غير عبادة الله تعالى، ولا يكونون عونا على الظلم والعدوان، وحصول الخير منهم غير مستنكر، بل هو مأمول، وعونهم لإخوانهم من الإنس ممكن، وقد يحصل من غير أن يراهم الإنس، أو يشعروا بمساعدتهم حسيا بحسب قدرتهم، كما يعين الإنس بعضهم بعضا، وكثيرا ما يعدم التعاون بين الإنس مع اتحاد جنسهم، فعدمه حال اختلاف الجنس أقرب وأحرى، لكن أن تحصل السيطرة والتسخير من الإنسي للجني فهذا أمر ليس ممكنا للاختلاف في الخلقة، من حيث أن الإنسي لا يرى الجن، ومن ثم لا يستطيع السيطرة والتحكم، وهذا الأمر ليس من متطلبات النفوس، فلا أحد تميل نفسه إلى أن يسخر ويكون عبدا إلا بالقوة والقهر، وعليه.. فلن يرضى هذا الأمر أحد رغبة له. ويحصل من الشياطين نتيجة سيطرة بعضهم على بعض فيكون المسخر للإنسي من الجن مستذلا من قبل أمثاله من ذوي السيطرة من الشياطين، وذلك مقابل تحقيق الإنسي لذلك المسيطر من الشياطين ما يريد منه، من الكفر والفسوق والعصيان، والخروج على تعليمات الدين، فيكون المستعبد في الحقيقة الإنسي للشيطان)(2)

بل إن السلفية وابن تيمية لا يكتفون بكل ذلك، بل يضمون إليه إمكانية ضرب الجن، وإلحاق مختلف العقوبات بهم، يقول ابن تيمية: (ولهذا قد يحتاج في إبراء المصروع ودفع الجن عنه إلى الضرب، فيضرب ضربا كثيرا جدا، والضرب إنما يقع على الجني، ولا يحس به المصروع حتى يفيق المصروع، ويخبر أنه لم يحس بشيء من ذلك، ولا يؤثر في بدنه، ويكون قد ضرب بعصا قوية على رجليه نحو ثلاثمائة أو أربعمائة ضربة وأكثر وأقل، بحيث لو كان على الإنسي لقتله، وإنما هو على الجني والجني يصيح ويصرخ، ويحدث الحاضرين بأمور متعددة كما قد فعلنا نحن هذا وجربنا مرات كثيرة يطول وصفها بحضرة خلق

1() مجلة الدعوة، العدد 1683 من ذي القعدة 1419 هـ، ص23.
2() السحر بين الحقيقة والخيال – ص 211.

كثيرين)[1]

وقال: (وإذا ضرب بدن الإنسي؛ فإن الجني يتألم بالضـرب ويصيح ويصرخ ويخرج منه ألم الضرب، كما قد جرب الناس من ذلك ما لا يحصى، ونحن قد فعلنا من ذلك ما يطول وصفه)[2]

وقال: (فإنه يصرع الرجل؛ فيتكلم بلسان لا يعـرف معنـاه، ويضرب على بدنه ضرباً عظيماً لو ضرب به جمـل لأثَّر بـه أثـراً عظيماً، والمصروع مع هذا لا يحس بالضـرب، ولا بـالكلام الـذي يقوله)[3]

بل إن ابن تيمية نفسه اسـتعمل هـذه الوسـيلة في عقـاب الجن، فقد حكى ابن مفلح – وهو تلميذ لابن تيمية– فقال: (كان شيخنا – يعني شيخ الإسلام ابن تيمية – إذا أتي بالمصروع وعظ من صرعه وأمره ونهاه، فإذا انتهى وفارق المصروع أخـذ عليـه العهد أن لا يعود، وإن لم يأتمر ولم ينته ولم يفارق؛ ضربه حـتى يفارقه)[4]

ولم يكن هـذا خاصـا بـابن تيمية، فقـد قـال القاضـي أبـو الحسن بن أبي يعلى بن الفراء الحنبلي: سمعت أحمد بن عبيـد الله قـال: سـمعت أبـا الحسـن علي بن علي بن أحمـد بن علي العكـبري قـدم علينـا من عكـبرا في ذي القعـدة سـنة اثنـتين وثلاثمائة قال: حدثني أبي عن جدي قـال: كنت في مسـجد أبي عبدالله أحمد ابن حنبل، فأنفذ إليه المتوكل صاحبا له يعلمـه أن له جارية بها صرع وسأله أن يدعو الله لهـا بالعافية، فـأخرج لـه أحمـد نعلي خشـب بشـراك من خـوص للوضـوء فدفعـه إلى صاحب له وقال له: امض إلى دار أمـير المؤمـنين وتجلس عنـد رأس هذه الجارية وتقول له - يعني للجني - قال لك أحمد: أيمـا أحب إليك تخرج من هذه الجارية أو تصفع بهذه النعـل سـبعين، فمضى إليه وقال له مثل ما قال الإمام أحمد، فقـال لـه المـارد على لسان الجارية: السمع والطاعة لـو أمرنـا أحمـد أن لا نقيم بالعراق ما أقمنا به.. وخرج من الجارية.. وهدأت ورزقت أولادا، فلما مات أحمد عاودها المـارد فأنفـذ المتوكـل إلى صـاحبه أبي بكر المروزي وعرفه الحال.. فأخذ المروزي النعـل ومضـى إلى الجارية فكلمه العفريت على لسانها: لا أخرج من هـذه الجاريـة ولا أطيعـك ولا أقبـل منك، أحمـد بن حنبـل أطـاع اللـه فأمرنـا بطاعته)[5]

---

(1) مجموع الفتاوى 19 / 60.
(2) مجموع الفتاوى 10 / 349.
(3) مجموع الفتاوى 24 / 277.
(4) الفروع 1 / 607.
(5) أحكام الجان - نقلا عن طبقات أصحاب الإمام أحمد - ص 152.

أما خلف السلفية والمعاصرون منهم، فقد قال الشيخ عبدالعزيز بن عبدالله بن باز جوابا لمن سأله عن جواز الضرب والخنق والتحدث مع الجن لمن يعالج المرضى بقراءة القرآن؟ فأجاب: (هذا قد وقع شيء منه من بعض العلماء السابقين مثل شيخ الإسلام ابن تيمية – يرحمه الله تعالى – فقد كان يخاطب الجني ويخنقه ويضربه حتى يخرج، وأما المبالغة في هذه الأمور مما نسمعه عن بعض القراء فلا وجه لها)(1)

وقال: (يجب الحذر كل الحذر من مسألة الضرب فهي مسألة خطيرة يترتب عليها آثار خطيرة خصوصا إذا لجأ إليها من لا يعرف استخدام الضرب.. فقد يضرب المصروع على أن به جن وما به جن فيقع الضرب على بدن الآدمي وينتج عن ذلك أمور خطيرة. وقد يضرب المريض في أماكن خطيرة، إلى غير ذلك من المحاذير، وقد بالغ بعض القراء في مسألة الضرب وبعضهم يستخدم الصعق الكهربائي وهذا خطأ.. والحاصل أن مسألة الضرب تحتاج إلى مقياس ومعرفة بحيث يعرف متى يضرب وأين يضرب ومقدار الضرب وهل هو محتاج إليه؟ إلى غير ذلك من القيود والضوابط)(2)

وقال الأستاذ وائل آل درويش مبينا كيفية التعامل مع الجن قبل عقوبته: (والحاصل أنه يؤمر – يعني الجني الصارع – بالمعروف وينهى عن المنكر فتبدأ معه بالترغيب والترهيب والنصح والإرشاد والعلم والتعريف ثم الزجر ثم قد يصل الأمر إلى الضرب والعقاب ثم الحرق بآيات الكتاب، إلا أنه ينبغي أن يتفطن المعالِج فلا يستخدم الضرب إلا عن بصيرة وقلب حاضر ونظر ثاقب، إذ من الجن من يفر ويهرب، وقد يترك الجسم ويخرج عند نزول الضرب عليه، فيقع الضرب على المريض فيشعر به، وهذا واقع مشاهد)(3)

ثانيا ـ إضافة عقائد جديدة:

لم يكتف السلفية بتلك التحريفات الخطيرة التي شوهوا بها العقيدة الإسلامية الصافية، وإنما أضافوا إلى ذلك عقائد جديدة ممتلئة بالغرابة، ليس لها دليل لا من العقل ولا من النقل.. وإنما دليلها الوحيد هو سلف السلفية..

ولم يكتف السلفية بذكر تلك العقائد، ويخيروا الناس بين قبولها ورفضها، بل ألزموهم بها إلزاما شديدا، وكأنها هي الدين بأصوله وفروعه.

---

(1) الدعوة – العدد 1456- فتاوى العلاج بالقرآن والسنة - ص 69.

(2) فتح الحق المبين في علاج الصرع والسحر والعين، ص 133.

(3) منة الرحمن في العلاج بالقرآن ص 44، 45.

ويمكننا تصنيف تلك العقائد الجديدة إلى ركنين كبيرين: أولهما العقيدة في الصحابة، والثاني العقيدة في بعض الفروع الفقهية الخلافية.

1 ـ العقيدة في الصحابة:

يعتبر السلفية العقيدة في الصحابة الركن السابع من أركان الإيمان، إن لم تكن الركن الأول منه، ذلك أن النبي ﷺ عندما ذكر الأركان الست للإيمان في حديث جبريل نسي أو أخطأ ـ باعتباره بشرا في تصورهم ــ فلم يذكر هذه العقيدة الخطيرة التي تعتبر أهم العقائد، لكن سلف السلفية بحمد الله استدركوا ذلك لاحقا، فأضافوا هذه العقيدة العظيمة إلى العقائد الإسلامية.

وسبب إضافة هذه العقيدة هو أن من أغراض رسالة النبي ﷺ الكبرى ـ كما يصور السلفية بطريقة مباشرة أو غير مباشرة ـ بيان فضل الصحابة، وأن انتقادهم أو تخطئتهم ونحو ذلك كفر وضلال وزندقة.

ومن النصوص القطعية المتواترة التي يستدل بها السلفية على هذه العقيدة الجديدة، قول الإمام العظيم أيوب السختياني: (من أحب أبا بكر فقد أقام الدين، ومن أحب عمر فقد أوضح السبيل، ومن أحب عثمان استنار بنور الله عز وجل، ومن أحب عليا فقد أخذ بالعروة الوثقى، ومن أحسن الثناء على أصحاب رسول الله ﷺ فقد برئ من النفاق ومن ينتقص أحدا منهم أو يبغضه لشيء كان منه فهو مبتدع مخالف للسنة والسلف الصالح، والخوف عليه أن لا يرفع له عمل إلى السماء حتى يحبهم جميعا ويكون قلبه لهم سليما) (1)

ولست أدري من أين له كل هذه الأحكام الخطيرة التي تحتاج إلى معصوم لإثبات أي حرف منها، فهل صارت إقامة الدين جميعا متوقفة على حب أبي بكر.. وهل صار حب عثمان سببا للاستنارة بنور الله.. ومن أين استنبط كل هذه الأنواع العجيبة من الجزاء والعقوبة، أم أن الجزاء والعقوبة محل اجتهاد، ويحق للسلف أن يتحدثوا فيها بما شاءوا، ويفرضوا على الله أن يجزي بها من شاءوا؟

ومثل ذلك ما رواه ابن كثير عن بعض السلف قال: (بينما أنا على جبل بالشام إذ سمعت هاتفا يقول: من أبغض الصديق فذاك زنديق، ومن أبغض عمر فإلى جهنم زمر، ومن أبغض عثمان فذاك خصمه الرحمن، ومن أبغض علي فذاك خصمه النبي، ومن أبغض معاوية سحبته الزبانية، إلى جهنم الحامية،

1() الاعتصام (1/60-68)، الكبائر للذهبي (1/236)، كتاب الشفا (2/47) .

يرمى به في الحامية الهاوية)[1]

ومثل ذلك أو أخطر منه ما يروونه كل حين عن أبي زرعة من قوله: (إذا رأيت الرجل ينتقص أحدا من أصحاب رسول الله ﷺ فاعلم انه زنديق، وذلك أن الرسول ﷺ عندنا حق، والقرآن حق، وإنما أدى إلينا هذا القرآن والسنن أصحاب رسول الله ﷺ، وإنما يريدون أن يجرحوا شهودنا ليبطلوا الكتاب والسنة، والجرح بهم أولى وهم زنادقة) [2]

ويروون عن عبدالله بن المبارك قوله: (خصلتان من كانتا فيه نجا: الصدق، وحب أصحاب محمد ﷺ)[3]

ورووا عن بشر بن الحارث قوله: (من شتم أصحاب رسول الله ﷺ فهو كافر وإن صام وصلى وزعم أنه من المسلمين) [4]

وعند تتبعنا لحقيقة كلامهم ومرادهم منها لا نجد اهتماما كبيرا بأولئك الصادقين السابقين الذين أوذوا في الله، والذين لا يعيرهم السلفية أي اهتمام، بل إنهم مجهولون عندهم، لا قيمة لتضحياتهم، ولا عبرة بجهادهم.. وإنما العبرة عندهم بأولئك الطلقاء الذين قضوا حياتهم في حرب رسول الله ﷺ.

ولذلك نراهم يؤلفون الكتب الكثيرة في فضل معاوية وهو الطليق بن الطليق الذي قضى حياته كلها في حرب رسول الله ﷺ هو وأبوه وأمه وأهله جميعا، لكنهم لم يؤلفوا ولا نصف كتاب في عمار بن ياسر ذلك الرجل العظيم الذي اعتبره رسول الله ﷺ محكا ومعيارا لتمييز الفئة الباغية الظالمة من الفئة المحافظة على دين الله الأصيل.

ولهذا ـ أيضا ـ نراهم في كتب العقائد التي وضعها سلفهم يضمنون العقائد في معاوية إلى جانب العقيدة في الله ورسله وملائكته، كما قال الآجري في (الشريعة): (معاوية رحمه الله كاتب رسول الله ﷺ على وحي الله عز وجل وهو القرآن بأمر الله عز وجل وصاحب رسول الله ﷺ ومن دعا له النبي ﷺ أن يقيه العذاب ودعا له أن يعلمه الله الكتاب ويمكن له في البلاد وأن يجعله هادياً مهدياً.. وهو ممن قال الله عز وجل ﴿ يَوْمَ لا يُخْزِي اللَّهُ النَّبِيَّ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ ﴾ (التحريم: 8) فقد ضمن الله الكريم له أن لا يخزيه لأنه ممن آمن برسول الله ﷺ)[5]

وقال ابن بطة في (الإبانة الصغرى): (تترحم على أبي عبد الرحمن معاوية بن أبي سفيان أخي أم حبيبة زوج النبي ﷺ خال

1() البداية والنهاية 6/184.

2() الكفاية في علم الرواية (1/49)

3() كتاب الشفا (2/43)

4() الشرح والإبانة للإمام ابن بطة (162) .

5() الشريعة [3 / 496.

المؤمنين أجمعين وكاتب الوحي وتذكر فضائله)(1)

ولهذا ـ أيضا ـ نراهم يجيزون نقد عمار والطعن فيه وتأويل ما ورد في فضله من نصوص، بينما يعتبرون الكلام في معاوية طامة كبرى، وزندقة عظمى، وبدعة ليس لصاحبها قرار سوى في النار.. لأن سلفهم هو الذي قرر ذلك، ولا راد لقراره.

فقد رووا عن سلفهم عبد الله بن المبارك قوله: (معاوية عندنا محنة، فمن رأيناه ينظر إلى معاوية شَزْراً؛ اتهمناه على القوم، أعني على أصحاب محمد ﷺ)(2)

ورووا عن الربيع بن نافع قوله: (معاوية بن أبي سفيان ستر أصحاب رسول الله ﷺ فإذا كشف الرجل الستر اجترئ على ما وراءه)(3)

ورووا كذبا وزورا عن النسائي أنه سُئِلَ عن معاوية، فقال: (إنما الإسلام كدار لها باب، فباب الإسلام الصحابة فمن آذى الصحابة إنما أراد الإسلام، كمن نقر الباب إنما يريد دخول الدار، قال: فمن أراد معاوية؛ فإنما أراد الصحابة)(4)

أما ما ورد من النصوص في الدعاء عليه، فإنهم يفرضون على المسلم تأويله حتى يصير من الفرقة الناجية، قال الألباني: (.. فسره بعض المحبين قال: لا أشبع الله بطنه، حتى لا يكون ممن يجوع يوم القيامة، لأن الخبر عنه أنه قال: (أطول الناس شبعا في الدنيا أطولهم جوعا يوم القيامة)(5).. وقد يستغل بعض الفرق هذا الحديث ليتخذوا منه مطعناً في معاوية، وليس فيه ما يساعدهم على ذلك.. ولذلك قال الحافظ ابن عساكر (إنه أصح ما ورد في فضل معاوية) فالظاهر أن هذا الدعاء منه ﷺ غير مقصود، بل هو ما جرت به عادة العرب في وصل كلامها بلا نية كقوله ﷺ في بعض نسائه (عقرى حلقى) و(تربت

1() الإبانة الصغرى [ص: 299].

2() تاريخ دمشق59/209.

3() تاريخ بغداد 1/209.

4() تهذيب الكمال 1/339-340، وهذا من الكذب عليه، لأن المؤرخين يذكرون تعرضه لمحنة سببها كتابه في في فضل الإمام علي بن أبي طالب الذي جمع فيه الاحاديث الواردة في فضل الامام علي وأهل بيته .. فقد ذكر المؤرخون أنه بعد أن ترك مصر في أواخر عمره قصد دمشق ونزلها ، فوجد الكثير من أهلها منحرفين عن الامام علي بن أبي طالب، فأخذ على نفسه وضع كتاب يضم مناقبه وفضائله رجاء أن يهتدي به من يطالعه أو يلقى إليه سمعه ، فأتى به والقاه على مسامعهم بصورة دروس متواصلة.. وبعد ان فرغ منه سئل عن معاوية وما روي من فضائله، فقال: (أما يرضى معاوية ان يخرج رأسا برأس حتى يفضل؟)، وفي رواية: (ما أعرف له فضيلة إلا لا أشبع الله بطنك)، فهجموا عليه وداسوه حتى أخرجوه من المسجد ، فقال: احملوني إلى مكة، فحمل إليها ، فتوفى بها، انظر: تذكرة الحفاظ للذهبي ص699 ،ووفيات الأعيان لابن خلكان ج1 ص77 والمقفى الكبير للمقريزي ج1 ص402 ، والبداية والنهاية لابن كثير ج 11 ص124 وغيرها كثير.

5() رواه الترمذي وابن ماجة وهو حديث قوي بشواهده، كما في سير أعلام النبلاء 3/123.

يمينك)، ويمكن أن يكون ذلك منه ﷺ بباعث البشرية التي أفصح عنها هو نفسه عليه السلام في أحاديث كثيرة متواترة، منها حديث عائشة قالت: (دخل على رسول الله ﷺ رجلان، فكلماه بشيء لا أدري ما هو فأغضباه، فلعنهما وسبهما، فلما خرجا قلت: يا رسول الله من أصاب من الخير شيئا ما أصابه هذان؟ قال: وما ذاك؟ قالت: قلت: لعنتهما وسببتهما، قال: (أو ما علمت ما شارطت عليه ربي؟ قلت: اللهم إنما أنا بشر، فأي المسلمين لعنته أو سببته فاجعله له زكاة وأجراً)[1]

بل إنهم ولمبالغتهم في شأن معاوية حرموا الكثير من علماء المسلمين من الانتماء للفرقة الناجية بسبب نقدهم لمعاوية ولاستبداده وطغيانه.

ومن أمثلة ذلك تلك الانتقادات الشديدة لسيد قطب بسبب نقد علمي بسيط ذكره في كتابه (كتب وشخصيات) عن معاوية بن أبي سفيان، وعمرو بن العاص، قال فيه: (إن معاوية وزميله عمراً لم يغلبا علياً لأنهما أعرف منه بدخائل النفوس، وأخبر منه بالتصرف النافع في الظرف المناسب، ولكن لأنهما طليقان في استخدام كل سلاح، وهو مقيد بأخلاقه في اختيار وسائل الصراع. وحين يركن معاوية وزميله إلى الكذب والغش والخديعة والنفاق والرشوة وشراء الذمم لايملك علي أن يتدلى إلى هذا الدرك الأسفل، فلا عجب ينجحان ويفشل. وإنه لفشل أشرف من كل نجاح)[2]

وهو كلام طبيعي يبين فيه سيد قطب فضل السابق على الطليق، وأن أخلاق تلاميذ رسول الله ﷺ لا يمكن أن يعادلها أحد غيرهم.. لكن السلفية لم يعجبهم هذا، لأن النصب الذي ورثوه من أسلافهم جعلهم يفضلون من حيث لا يشعرون معاوية على علي، لأن معاوية هو الذي آوى سلفهم أبا هريرة وكعب الأحبار وغيرهما، بينما كان علي بن أبي طالب هو عدو سلفهم من اليهود وتلاميذ اليهود.

والعجب أن الذين ينكرون هذا في حق معاوية مع ما فعله من جرائم في حق هذه الأمة هم أنفسهم الذين يجيزون الكبائر على الأنبياء، ويرون أن نقدهم فيها سنة، والدفاع عنهم والقول بعصمتهم المطلقة بدعة.

يقول الشيخ عبد العزيز بن باز تعليقا على النص الذي أوردناه لسيد قطب: (هذا كلام قبيح سب لمعاوية وسب لعمرو بن العاص؛ كل هذا كلام قبيح، وكلام منكر.. معاوية وعمرو ومن معهما مجتهدون أخطأوا. والمجتهدون إذاأخطأوافالله يعفوا عنا

1() السلسلة الصحيحة 1/164.81.

2() كتب وشخصيات) (ص242)

وعنهم).
وعنـــدما ســـئل: ألا ينهى عن هـــذه الكتب الـــتي فيهـــا هذاالكلام؟ أجاب: (ينبغي أن تمزق)[1] مع أنـه هـو نفسـه يثـني ويحقق الكتب الممتلئة بسب الأنبياء، بل بسب سيد الأنبياء ﷺ.
هذا مجرد نموذج عن موقف كبير من كبـار سـلفية العصـر من سيد قطب بسبب هذا الموقف البسيط، أما صغار السلفية، وما كتبوه في ذلك، فحدث ولا حرج.
بناء على هذه الرؤيـة في الصـحابة، والـتي تخص الطلقـاء أكـــثر من الســـابقين، والمنحـــرفين أكـــثر من المعتـــدلين، والمشوهين لرسالة رسول الله ﷺ أكـثر من المحـافظين عليهـا نرى السلفية يضعون في كتب عقائدهم هذه العقيـدة المخالفـة للقرآن والعقل والفطرة ولكل شيء.
يقول الذهبي معبرا عن هذه العقيدة: (فمن طعن فيهم، أو سـبهم فقـد خـرج من الـدين، ومـرق من ملـة المسـلمين، لأن الطعن لا يكون إلا عن اعتقاد مسـاويهم، وإضـمار الحقـد فيهم، وإنكـار مـا ذكـره اللـه تعـالى في كتابـه من ثنائـه عليهم، ومـا لرسول اللـه ﷺ من ثنائـه عليهم، وفضـائله، ومنـاقبهم، وحبهم، ولأنهم أرضـى الوسـائل من المـأثور، والوسـائط من المنقـول، والطعن في الوسائط طعن في الأصل، والازدراء بالناقل ازدراء بـالمنقول، هـذا ظـاهر لمن تـدبره وسـلم من النفـاق، ومن الزندقة، والإلحـاد في عقيدته، وحسـبك مـا جـاء في الأخبـار والآثار)[2]
وكما أن كل عقيدة تحتاج إلى تفاصيل وفـروع، فقـد وضـع السلفية الكثير من الفروع لهذه العقيدة الجديدة، ومنهـا عقيـدة وجوب السكوت عن تلك الحروب المستعرة الـتي راح ضـحيتها عشرات الآلاف من الناس، لأن كل الذين كـانوا يحـاربون كـانوا يسـتعملون سـيوفهم فقط، أمـا قلـوبهم فقـد كـانت ممتلئـة بالطهارة والنبـل والصـفاء.. فقـد رروا وعن شـهاب بن خـراش قوله: (أدركت من أدركت من صـدر هـذه الأمـة وهم يقولـون: اذكروا مجالس أصحاب رسول الله ﷺ مـا تـألف عليـه القلـوب، ولا تذكروا الذي شجر بينهم فتحرشوا عليهم الناس) [3]
ويقول ابن حجـر بجـرأة عجيبة: (واتفـق أهـل السـنة على وجوب منع الطعن على أحد من الصحابة بسبب ما وقع لهم من ذلك ولو عرف المحق منهم لأنهم لم يقـاتلوا في تلـك الحـروب إلا عن اجتهاد وقد عفا الله تعالى عن المخطئ في الاجتهاد بـل

1() شرح رياض الصالحين، بتاريخ يوم الأحد 18/7/1416.
2() الكبائر للذهبي (1/236)
3() سير أعلام النبلاء (8/285)

ثبت أنه يؤجر أجرا واحدا وان المصيب يؤجر أجرين)(1)

وهكذا أصبح القاتل الظالم المحرف لدين الله مأجورا على ذلك رغم أنف كل الأحاديث المطهرة التي تحذر من تلك الفتنة العظيمة التي حولت دين الله إلى دين البشر.

ومن تلك العقائد عقيدة التفاضل بين الصحابة.. فلا يحل لأحد عند السلفية أن يختار من يشاء من الصحابة، ويعطيه المزيد من المحبة، بل عليه أن يعطيهم من المحبة بحسب ما تمليه العقيدة السلفية، فقد رووا أن الإمام أحمد سئل عن رجل ذكر أنه يحب أصحاب رسول الله ﷺ ولا يفضل بعضهم على بعض، فقال: (السنة أن يفضل أبا بكر وعمر وعثمان وعلي من الخلفاء)(2)

وبناء على هذا فقد وضعوا سلما للتفاضل بين الصحابة عبر عنه ابن كثير بقوله: (وأفضل الصحابة، بل أفضل الخلق بعد الأنبياء - عليهم السلام -: أبو بكر الصديق ثم من بعده عمر بن الخطاب ثم عثمان بن عفان ثم علي بن أبي طالب)(3)

وقال: (هذا - أي الترتيب بين الأربعة في الفضل كالترتيب بينهم في الخلافة - رأي المهاجرين والأنصار، حين جعل عمر الأمر من بعده شورى بين ستة، فانحصر في عثمان، وعلي، واجتهد فيهما عبد الرحمن بن عوف ثلاثة أيام بلياليها حتى سأل النساء في خدورهن على علي، وولاه الأمر قبله، قال: ولهذا قال الدارقطني: من قدم عليا على عثمان فقد أزرى بالمهاجرين والأنصار، وصدق رضي الله عنه وأكرم مثواه، وجعل جنة الفردوس مأواه)(4)

وقد حصل الخلاف بين السلف الأول في المفاضلة بين عثمان وعلي، لكن ذلك الخلاف ترجح أخيرا لصالح عثمان، وهذا شيء طبيعي، لأن سلف السلفية لا يعيرون اهتماما كبيرا لعلي بن أبي طالب، ويجيزون سبه خلافا لسائر الصحابة، بل إنه لولا توليه الخلافة لتلك الفترة القصيرة لكان شأنه شأن عمار وبلال وزنيرة وسمية وغيرهم من الصحابة الذين لا يسمع بهم أحد.

وقال ابن تيمية في (منهاج السنة) في ذكر الخلاف الحاصل بين أيهما أفضل علي أم عثمان؟: (وأما جمهور الناس ففضلوا عثمان، وعليه استقر أمر أهل السنة، وهو مذهب أهل الحديث ومشايخ الزهد والتصوف وأئمة الفقهاء كالشافعي وأصحابه وأحمد وأصحابه وأبي حنيفة وأصحابه وإحدى الروايتين عن مالك وأصحابه، وذكر أن هذا هو مذهب جماهير أهل الكلام،

1() فتح الباري(13/34)

2() رواه الخلال في (السنة) (2/ 372).

3() الباعث الحثيث (ص: 183).

4() الباعث الحثيث (ص: 183)، وانظر (محاسن الاصطلاح) (ص: 433).

ونقل عن أبي أيوب السختياني قوله: من لم يقدم عثمــان على علي فقـد أزرى بالمهـاجرين والأنصـار قـال: وهكـذا قـال أحمـد والدارقطني وغيرهما)(1)

ويفسر ابن تيمية سر ذلك التقديم بأنه: (لو لم يكن عثمان أحق بالتقديم وقد قدموه كانوا إما جاهلين بفضله، وإما ظالمين بتقديم المفضول من غير ترجيح ديني، ومن نسـبهم إلى الجهـل والظلم فقد أزرى بهم)(2)

بــل إن الســلف الأول كــانوا متــوقفين في الأفضــل بعــد عثمان، فقد روى اللالكائي في عقيدتـه عن الإمـام أحمـد قوله: (وخير الأمة بعد نبيها ﷺ أبو بكر الصديق، ثم عمر بن الخطــاب، ثم عثمان بن عفـان. نقـدم هـؤلاء الثلاثـة كمـا قـدمهم أصـحاب رسول الله ﷺ لم يختلفوا في ذلك، ثم بعد هؤلاء الثلاثة أصحاب الشورى الخمسة: علي بن أبي طـالب، وطلحة، والزبـير، وعبـد الـرحمن بن عــوف، وسـعد كلهم يصــلح للخلافــة وكلهم إمــام، ونــذهب إلى حــديث ابن عمــر (كنــا نعــد ورســول اللــه ﷺ حي وأصحابه متوافرون أبو بكر، ثم عمر، ثم عثمان)(3)

لكن السلفية ومراعاة للأحاديث الكثيرة في مناقب الإمــام علي وفضـله، والـتي لم يظفـر سـائر الصـحابة بعشـر عشـيرها اضــطروا لأن يجعلــوه الرابــع مــع إتاحــة المجــال لمن يجعلــه الخامس أو السادس، فقـد روى الخلال عن الإمـام أحمـد قوله: (من قال: أبو بكر وعمر وعثمان فقد أصاب. وهـو الـذي العمـل عليه، ومن قال: أبو بكر وعمر وعثمـان وعلي رضـي اللـه عنهم فصحيح أيضا جيد لا بأس به وبالله التوفيق)(4)

وفي روايــة أخــرى عن محمــد بن عــوف الحمصي: (وخــير الناس بعد رسول الله ﷺ: أبو بكر ثم عمر، ثم عثمان، ثم علي، فقلت لــه يــا أبــا عبــد الله، فــإنهم يقولــون: إنــك وقفت على عثمان؟ فقال: كذبوا والله علي، إنما حدثتهم بحديث ابن عمر - وذكر الحديث - ولم يقل النبي ﷺ: لا تخايروا بعد هؤلاء بين أحد، ليس لأحد في ذلك حجة، فمن وقف على عثمان ولم يربع بعلي فهو على غير السنة يا أبا جعفر)(5)

وقــد قــال ابن تيميــة معــبرا على مــا انتهى إليــه الخلاف الســلفي: (فليس في أهــل الســنة من يقــدم عليــه - أي علي - أحدا غير الثلاثة، بل يفضلونه على جمهور أهل بدر، وأهــل بيعــة الرضوان، وعلى السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار، ومــا

1() منهاج السنة) (4/ 202).
2() مجموع الفتاوى) (4/ 428).
3() شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة) (1/ 159).
4() السنة) للخلال (2/ 410).
5() طبقات الحنابلة (1/ 313).

في أهل السنة من يقول: إن طلحة والزبير وسعدا وعبد الرحمن بن عوف أفضل منه، بل غاية ما يقولون السكوت عن التفضيل بين أهل الشورى)(1)

وبناء على هذا فقد وقع خلافهم أيضا في تبديع من قدم عليا على عثمان، وقد عبر الخلال بعد ذكره لعدة روايات عن أحمد بن حنبل فيمن قدم عليا على عثمان فقال: (فاستقر القول من أبي عبد الله أنه يكره هذا القول ولم يجزم في تبديعه، وإن قال قائل: هو مبتدع لم ينكر عليه)(2)

2 ـ فروع فقهية:

بناء على الأنانية والطائفية التي تشكل لب العقل السلفي، فقد راح إلى بعض القضايا الفرعية الفقهية التي وقع الخلاف فيها بين علماء الأمة إلى اعتبارها من أصول الدين وعقائده الكبرى، في نفس الوقت الذي راح فيه إلى آراء لمخالفيه استنبطوها من القرآن الكريم يحكم باعتبارها من العقائد المبتدعة، مع كونها من فروع الدين، بل مع كونها وردت الدلالة عليها في القرآن الكريم، وهذا يؤكد ما ذكرناه في كتاب [هكذا يفكر العقل السلفي] من تقديمهم المدنس على المقدس، والهوى على الشرع.

ومن الأمثلة على ذلك اعتبارهم للمسح على الخفين سنة يتميز بها السني عن المبتدع، بينما المسح على القدمين بدعة ضلالة حتى لو ورد للدلالة عليه القرآن الكريم.

ولهذا نجد في كل كتب عقائدهم المسندة وغير المسندة عقيدة المسح على الخفين، فقد ذكرها الطحاوي في عقيدته المشهورة(3)، وأبو عثمان الصابوني (توفي 449هـ) في (عقيدة أهل الحديث)، وقوام السنة الأصفهاني (توفي 534هـ) في كتابه (الحجة في بيان المحجة) وابن بطة في الإبانة الصغرى (4)، والبربهاري في شرح السنة (5)، وابن خفيف في عقيدته (6)، وأبو عمرو الداني في الرسالة الوافية (7).. وغيرهم كثير.

وقد رووا في ذلك عن سلفهم سفيان الثوري – مخاطباً من سأله عن معتقده -: (يا شعيب بن حرب، لا ينفعك ما كتبت لك حتى ترى المسح على الخفين دون خلعهما أعدل عندك من

---

(1) منهاج السنة (2/ 206).
(2) السنة للخلال (2/ 382).
(3) شرح العقيدة الطحاوية 2/552.
(4) انظر الإبانة الصغرى ص 287.
(5) شرح السنة ص 30.
(6) انظر الفتوى الحموية، لابن تيمية ص 443 .
(7) انظر الرسالة الوافية ص 145.

غسل قديمك)(1)، ورووا عنه قوله: (من لم يسمح على الخفين فاتهموه على دينكم) (2).

وقد ذكروا من أسباب إيراد هذه المسألة الفرعية في كتب العقائد مخالفة الروافض والخوارج الذين لا يجيزون المسح على الخفين، كما قال الإمام محمد بن نصر المروزي (توفي 294هـ): (وقد أنكر طوائف من أهل الأهواء والبدع من الخوارج والروافض المسحَ على الخفين) (3)

وقد قال صالح بن فوزان بن عبد الله الفوزان تعليقا على ما جاء في الطحاوية:)ونرى المسح على الخفين، في السفر والحضر، كما جاء في الأثر) مجيبا عن التساؤل عن سر وضع هذه المسألة الفقهية في العقيدة: (لأن هذه المسألة أنكرها المبتدعة، وأثبتها أهل السنة، والمسح على الخفين تواترت به الأحاديث عن النبي ﷺ. وممن اشتهر عنهم إنكار المسح على الخفين: الرافضة، ويخالفون أهل السنة والجماعة في ذلك، ويخالفون الأحاديث الثابتة، فالمسح ثابت، يوم وليلة للمقيم، وثلاثة أيام بلياليهن للمسافر، وهذه رخصة وتسهيل من الله على عباده. فالرافضة ينكرون المسح على الخفين، ويقولون بالمسح على الرجلين، وهذا من أكبر المغالطة، فلا أحد يقول بالمسح على الرجلين، وهكذا من ترك الحق ابتلاه الله بالباطل)(4)

ثم راح ينتقد الرافضة بسبب قولهم بالمسح على الرجلين، فقال: (استدل الرافضة على المسح على الرجلين: بقوله تعالى: ﴿وَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ ﴾ [المائدة: 6] بقراءة الجر، حيث عطف الأرجل على الرؤوس في هذه القراءة، والرؤوس ممسوحة وعندهم الكعبان معقد الشراك، مجمع القدم مع العقب ويسمى عرش الرِّجْل. وعند أهل السنة والجماعة أن المراد بالكعبين: العظمان الناتئان في أسفل الساق، مجمع الساق مع الرجل)(5)

ثم قال مستدلا بهذا الاستدلال العجيب الذي يخطئ من خلاله قراءة صحيحة متواترة: (فالمسح للرجلين باطل؛ لأن المشهور من قراءة الآية: الفتح، عطف على المغسولات، على ﴿وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ﴾ [المائدة: 6] وأدخل الممسوح بين المغسولات من أجل الترتيب، ولو أخر لفهم أن مسح الرأس

1() أخرجه شرح أصول اعتقاد أهل السنةفي أصول السنة 1/154، وانظر منهاج السنة النبوية لابن تيمية 4/151.

2() أخرجه أبو نعيم في الحلية 7/32.

3() السنة ص 104، وانظر المجموع للنووي 1/500، والمغني لابن قدامة 1/360، ومقالات الإسلاميين للأشعري 2/161، وفقه الإمامية للسالوس ص 112.

4() التعليقات المختصرة على متن العقيدة الطحاوية (ص: 184)

5() التعليقات المختصرة على متن العقيدة الطحاوية (ص: 184)

يكون بعد غسل الرجلين) [1]

ثم راح يـؤول النص القـرآني الصـريح الـدال على المسـح بصنوف من التأويـل الـتي يحـرم على خصـومه أن يسـتعملوها، فقد قال: (أما قراءة (وأرجلكم) بالجر فهي صحيحة، ولكن عنها أربعة أجوبة: الأول أن وجه الجر هنا على المجاورة، وهـذه لغـة عند العرب، مثل أن تقول: هذا جحر ضب خربٍ، خـربٍ ليسـت صفة لضب، إنما هي صفة لجحر، وجحر مرفوع. ولكن من أجل المجاورة، ومن أجل سهولة النطق جُـرّت للمجـاورة.. والثـاني: أن المــراد بالمسح: الغسل، فالغســل يســمى مســحاً، تقــول: تمسـحت بالمـاء، يعـني اغتسـلت به، فـالمراد بمسـح الـرجلين غســلهما، بــدليل قــراءة النصب.. الثــالث: أن المشــهور من القــراءتين: قـراءة النصـب وهنـا لا إشـكال.. الرابع: أن غسـل الرجلين هو صفة وضوء رسول الله ﷺ التي نقلها عنه أصـحابه، لم يـرد في حـديث واحـد -ولـو ضـعيف- أن رسـول اللـه عليـه الصلاة والسلام مسح رجليه، وكذلك ما ثبت ذلـك عن أصـحابه، بل لما رأى ﷺ رجلاً في رجله لمعة لم يصبها الماء، أمره بإعادة الوضوء، وقال عليه الصلاة والسلام: (ويـل للأعقـاب من النـار) [2]؛ لأن صاحبها يغفل عنها، وقـد لا يصـيبها المـاء وذلـك بسـبب التساهل والغفلة، والأمر في هذا واضح) [3]

وليتـه بعـد هـذا اعتـبر المسـألة خلافيـة بنـاء على الـدليل القرآني القوي [4]، والأدلة الأخرى من الأحاديث التي تؤكـد هـذا، والتي رويت من ثقاة الشيعة المعتبرين لديهم، بل فيها مـا رواه المحدثون من السنة [5].. لكن العقل السلفي لا يقبل هـذا، فهـو

1() التعليقات المختصرة على متن العقيدة الطحاوية (ص: 184)

2() أخرجه البخاري (رقم60، 96، 163) ومسلم (رقم241)

3() التعليقات المختصرة على متن العقيدة الطحاوية (ص: 185)

4() يذكر الشيعة أنه على كلا القراءتين فإن النص القرآني يدل على المسح: أمّا قراءة الجر (وَأَرْجُلِكُمْ) وجه هذه القراءة واضح، لانّ الواو عاطفة، تعطف الارجل على الرؤوس، الرؤوس ممسوحة فالارجـل أيضـاً ممسـوحة (وَامْسَـحُوا بِرُؤُوسِـكُمْ وَأَرْجُلِكُمْ)، بنـاء على هذه القراءة تكون الواو عاطفة، والارجل معطوفة على الرؤوس، وحينئذ تكون الاية دالّـة على المسح بكلّ وضوح.
أمّا بنـاء على القـراءة بالنصـب (وَأَرْجُلَكُمْ) الـواو عاطفـة، وأرجلكم معطوفـة على محـلّ الجار والمجرور، على محلّ رؤوسكم، ومحـلّ رؤوسـكم منصـوب، والعطـف على المحـل مذهب مشهور في علم النحو وموجود، ولا خلاف في هذا على المشهور بين النحاة، وكما أنّ الرؤوس ممسوحة، فالارجل أيضاً تكون ممسوحة.. فبناء على القراءتين المشـهورتين تكون الاية دالّة على المسح دون الغسل.

5() من ذلك ما ورد في الحديث عن عبد الله بن عمرو قـال: تخلـف النـبي ﷺ عنـا في سفرة سافرناها، فأدركنا وقد أرهقنا العصر (أي أخرنا العصر) فجعلنا نتوضأ ونمسـح على أرجلنا، فنادى بأعلى صوته: (ويل للأعقاب من النار مرتين أو ثلاثـا) رواه البخـاري (163) ومسلم (241)
فمن هـذا الحـديث يظهـر أنّ أصـحاب النـبي ﷺ لم يغسـلوا أرجلهم في الوضـوء، وإنّمـا مسحوا، لكنّهم لمّا مسحوا لم يمسحوا كلّ ظهر القدم وبقيت الاعقاب لم يمسّـها المـاء، فاعترض عليهم رسول الله ﷺ، لأنهم لم يمسحوا كلّ ظهر القـدم، ولم يقـل رسـول اللـه

يقبل فقط من سلفه من اليهود وتلاميذ اليهود، أما المحبين لعترة النبي ﷺ، فهم محرومون مطرودون لا يحق لهم الحديث في الدين حتى في أبسط فروعه المسح على الرجلين.

ولهذا نراهم ابتداء من سلفهم الأول يقرنون اليهود بالشيعة بسبب إنكارهم للمسح على الخفين، حيث يروون عن الشعبي (توفي 104 هـ) قوله: (واليهود لا يرون المسح على الخفين، وكذلك الرافضة)[1]، ولست أدري هل عند اليهود المسح على الرأس وسائر أركان الوضوء.. أم لا؟

ولم يكتف السلفية بهذا، بل راحوا إلى فروع كثيرة وقع فيها الخلاف، وللمخالفين فيها من الأدلة ما لا يقل عن الأدلة التي يستند إليها السلفية، ومع ذلك نراهم يتشددون عليهم، ويعتبرون المسائل الفرعية مسائل عقدية يبدع المخالف لها.

ومن تلك المسائل (ترك الجهر بالبسملة في الصلاة الجهرية)، حيث اعتبروها من عقائد أهل السنة خلافا للشيعة، ولمن تبعهم في ذلك من أهل السنة، وقد حصلت بسبب ذلك الفتن الكثيرة في التاريخ الإسلامية.

يقول سفيان الثوري في اعتقاده: (وإخفاء البسملة أفضل من الجهر)[2]، ويقول ابن بطة: (من السنة ألا تجهر ببسم الله الرحمن الرحيم) [3].

بل إن من سلف السلفية من اتهم الشافعي بالرفض بسبب قوله بالجهر بالبسملة، واعتبر ذلك من تأثير رحلته للعراق، ولهذا اعتبر السلفية من السنة ترك السنة إذا صارت شعارا للمبتدعة وخاصة الرافضة منهم، يقول ابن تيمية: (إنه إذا كان في فعل مستحب مفسدة راجحة لم يصر مستحباً، ومن هنا ذهب من ذهب من الفقهاء إلى ترك بعض المستحبات إذا صارت شعاراً لهم، فإنه لم يترك واجباً بذلك، لكن قال في إظهار ذلك مشابهة لهم، فلا يتميَّز السني من الرافضي، ومصلحة التميز عنهم لأجل هجرانهم ومخالفتهم أعظم من مصلحة هذا المستحب، وهذا الذي ذهب إليه يُحتاج إليه في بعض المواضع إذا كان في الاختلاط والاشتباه مفسدة راجحة على مصلحة فعل ذلك المستحب، لكن هذا أمر عارض لا

ﷺ: لماذا لم تغسلوا؟

ولهذا قال ابن رشد تعقيبا على الحديث: (هذا الاثر وإنْ كانت العادة قد جرت بالاحتجاج به في منع المسح، فهو أدلّ على جوازه منه على منعه، وجواز المسح أيضاً مروي عن بعض الصحابة والتابعين. (بداية المجتهد 1 / 16)

وقال صاحب المنار: هذا أصحّ الاحاديث في المسألة، وقد يتجاذب الاستدلال به الطرفان أي القائلون بالمسح والقائلون بالغسل (تفسير المنار 6 / 228)

[1] () منهاج ا السنة النبوية 1/33.

[2] () أخرجه شرح أصول اعتقاد أهل السنةفي أصول السنة 1/152.

[3] () الإبانة الصغرى ص 288، وانظر الإبانة الكبرى 2/ 287.

يقتضي أن يُجعل المشروع ليس بمشروع دائماً) (1)

ومن هذا الباب فقد شرع السلفية الكثير من الشعائر التي تخالف السنة بسبب ممارسة غيرهم لها، فالأولوية عندهم للتميز وليس للسنة، يقول ابن عبد البر: (وقد كان التختم في اليمين مباحا حسنا، لأنه قد تختم به جماعة من السلف في اليمين، كما تختم منهم جماعة في الشمال وقد روي عن النبي ﷺ الوجهان جميعا، فلما غلبت الروافض على التختم في اليمين ولم يخلطوا به غيره كرهه العلماء منابذة لهم، وكراهية للتشبه بهم، لا أنه حرام ولا أنه مكروه وبالله التوفيق)(2)

ويقول ابن تيمية: (وإنما كثر الكذب في أحاديث الجهر لأن الشيعة ترى الجهر، وهم أكذب الطوائف، فوضعوا في ذلك أحاديث لبسوا بها على الناس دينهم، ولهذا يوجد في كلام أئمة السنة من الكوفيين كسفيان الثوري أنهم يذكرون من السنة المسح على الخفين وترك الجهر بالبسملة كما يذكرون تقديم أبي بكر وعمر ونحو ذلك لأن هذا كان من شعار الرافضة، ولهذا ذهب أبو علي بن أبي هريرة أحد الأئمة من أصحاب الشافعي إلى ترك الجهر بها قال: لأن الجهر بها صار من شعار المخالفين كما ذهب من ذهب من أصحاب الشافعي إلى تسنمة القبور لأن التسطيح صار من شعار أهل البدع)(3)

ومن المسائل الفرعية التي وضعها السلفية وسلفهم في العقائد: اعتبارهم المبادرة بصلاة المغرب بمجرد غياب قرص الشمس، ولو بجبل، ومثل ذلك الفطر، ولهذا نراهم ينكرون التوقيت الفلكي في الغروب (4)، يقول ابن بطة: (ومن السنة المبادرة بصلاة المغرب إذا غاب حاجب الشمس قبل ظهور النجوم)(5)

وهذا خلافا للشيعة الذين يستدلون لتأخير صلاة المغرب والإفطار بقوله تعالى: ﴿ ثُمَّ أَتِمُّوا الصِّيَامَ إِلَى اللَّيْلِ﴾ [البقرة: 187]، فقد رووا عن الشعبي قوله: (واليهود لا يصلون المغرب حتى تشتبك النجوم.. وكذلك الرافضة)(6)

وقال ابن تيمية عن الخلاف الشيعي في المسألة: (فلهذا تجد فيما انفردوا به عن الجماعة أقوالاً في غاية الفساد، مثل تأخيرهم صلاة المغرب حتى يطلع الكوكب مضاهاة لليهود، وقد

1() منهاج السنة النبوية 4/149، 150، 154 باختصار.

2() التمهيد (6/80)

3() الفتاوى الكبرى (2/166)

4() لأهمية المسألة سنتحدث عنها ببعض التفصيل عند حديثنا عن التراث السلفي والفقه..

5() الإبانة الصغرى ص 287.

6() منهاج السنة النبوية 1/31.

تواترت النصوص عن النبي ﷺ بتعجيل المغرب)[1]

ومن المسائل الفرعية التي وضعها السلفية وسلفهم في العقائد: قولهم بوجوب صلاة الجمعة والجماعة خلف كل بر وفاجر خلافا للشيعة الذين يشترطون عدالة الإمام.

وقد نص على هذه العقيدة سفيان الثوري فقال: (يا شعيب، لا ينفعك حتى ترى الصلاة خلف بر وفاجر)، قال شعيب: فقلت لسفيان: يا أبا عبد الله! الصلاة كلها؟ قال: (لا؛ ولكن صلاة الجمعة والعيدين، صلِّ خلف من أدركت، وأما سائر ذلك فأنت مخيَّر، لا تصلِّ إلا خلف من تثق به وتعلم أنه من أهل السنة والجماعة) [2]

ومما ورد في اعتقاد الإمام أحمد بن حنبل: (وصلاة الجمعة خلفه [3] وخلف من ولي جائزة تامة ركعتين، من أعادهما فهو مبتدع تارك للأثر مخالف للسنة..) [4].

وقد نص ابن تيمية على وجه ذكر هذه العقيدة فقال ـ كعادته في الكذب على المخالفين ــ: (والرافضة لا يصلون إلا خلف المعصوم، ولا معصوم عندهم، وهذا لا يوجد في سائر الفرق أكثر مما يوجد في الرافضة، فسائر أهل البدع سواهم لا يصلون الجمعة والجماعة إلا خلف أصحابهم، كما هو دين الخوارج والمتعزلة وغيرهم، وأما أنهم لا يصلون ذلك بحال فهذا ليس إلا للرافضة)[5]

ومن المسائل الفرعية التي وضعها السلفية وسلفهم في العقائد: قولهم بضرورة الفصل بين الفرض والنفل في صلاة الجمعة، وقد علل ابن تيمية سر وضع هذه المسألة في العقيدة بقوله: (فإن كثيراً من أهل البدع لا ينوون الجمعة بل ينوون الظهر، ويظهرون أنهم سلّموا، وما سلموا، فيصلون ظهراً، ويظن الظان أنهم يصلون السنة، فإذا حصل تمييز بين الفرض والنفل كان في هذا منع لهذه البدعة)[6]

ومن المسائل الفرعية التي وضعها السلفية وسلفهم في العقائد: قولهم بمشروعية إقامة صلاة التراويح وسنيتها خلافا للشيعة لاعتبارهم صلاة التراويح حدثت في عهد عمر بن الخطاب، وهي بذلك بدعة لا سنة، ولهذا نص أبو عبد الله محمد بن خفيف في (عقيدته) على هذه العقيدة،

1() منهاج السنة النبوية 5/173.

2() أخرجه شرح أصول اعتقاد أهل السنة1/ 154.

3() أي خلف إمام المسلمين.

4() أخرجه شرح أصول اعتقاد أهل السنة1/161، وانظر اعتقاد علي بن المديني في أصول السنة للالكائي 1/168.

5() منهاج السنة 5/175.

6() مجموع الفتاوى 24/ 203.

فقال: (والتراويح سنة) (1)، وقال قوام السنة الأصفهاني في عقيدته: (ومن السنة صلاة التراويح في شهر رمضان في الجماعة) (2).

وفي فتاوى ابن تيمية أنه سئل عمن يصلي التراويح قبل العشاء الآخرة، كان من جوابه: (ولكن الرافضة تكره صلاة التراويح، فإذا صلوا قبل العشاء الآخرة لا تكون هي صلاة التراويح، فمن صلاها قبل العشاء فقد سلك سبيل المبتدعة المخالفين للسنة) (3).

ومن المسائل الفرعية التي وضعها السلفية وسلفهم في العقائد: كراهتهم للقنوت مع ورود السنة به، خلافا للشيعة، قال ابن بطة: (ومن السنة ألا تجهر ببسم الله الرحمن الرحيم، ولا تقنت في الفجر إلا أن يدهم المسلمين أمرٌ من عدوهم فيقنت الإمام فيتبعه)(4)

ومن المسائل الفرعية التي وضعها السلفية وسلفهم في العقائد: قولهم بمشروعية القتال مع أولي الأمر من المسلمين برّهم وفاجرهم إلى قيام الساعة، فقد قال سفيان الثوري عند بيانه لعقيدته: (والجهاد ماض إلى يوم القيامة، والصبر تحت لواء السلطان جائر أو عدل) (5)، وقال الإمام أحمد: (والغزو ماض مع الأمراء إلى يوم القيامة البر والفاجر لا يترك) (6)، وقال محمد بن أبي زمنين (توفي 399 هـ): (ومن قول أهل السنة أن الحج والجهاد مع كل برٍّ أو فاجر من السنة والحق، وقد فرض الله الحج فقال: (وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلاً) (آل عمران: 97)، وأعلمنا بفضل الجهاد في غير موضع من كتابه، وقد علم أحوال الولاة الذين لا يقوم الحج والجهاد إلا بهم، فلم يشترط ولم يبين وما كان ربك نسياً) (7).

وقال قوام السنة الأصفهاني: (والجهاد ماضٍ منذ بعث الله نبيه ﷺ إلى آخر عصابة تقاتل الدجال) (8)

وهكذا نجد هذه العقيدة الخطيرة عند علي بن المديني (9)،

1() الفتوى الحموية ص 444.
2() الحجة في بيان المحجة 2/409.
3() مجموع الفتاوى 23/120، 121، وانظر مختصر الفتاوى المصرية ص 81.
4() الإبانة الصغرى ص 488.
5() أخرجه شرح أصول اعتقاد أهل السنة1/154.
6() أخرجه شرح أصول اعتقاد أهل السنة1/160.
7() أصول الدين لابن أبي زمنين ص 288.
8() الحجة 2/266.
9() انظر: أصول السنة للالكائي 1/167.

والطحاوي [1]، وابن بطة [2]، والبربهاري [3]، والصابوني [4]، وابن قدامة في اللمعة [5]، وابن تيمية [6] وغيرهم.

وقد قرروا هذه المسألة في العقيدة خلافا للشيعة الذين يشترطون في جهاد الطلب توفر الإمام المعصوم، كما روي عن الإمام الصادق قوله: (القتال مع غير الإمام المفترض طاعته حرام مثل الميتة والدم ولحم الخنزير) [7]

وقد كانت تلك العقيدة سببا في كثرة الحروب في التاريخ الإسلامي، حيث أن الحاكم يجد في المسلمين المتبعين لمنهج السلف آذانا صاغية تأتمر لكل معركة يريد خوضها، ولا يسألونه عن السبب، لأن طاعة الإمام عندهم من طاعة الله، ولا يهم إن كان ذلك الإمام برا أو فاجرا.. بل حتى لو كان الحجاج نفسه.. وكيف لا يقولون هذا، وكل الملوك الذين يؤيدونهم ويدافعون عنهم ظلمة ومستبدون ومجرمون أولهم وآخرهم.

هذه بعض الفروع التي حولها السلفية من فروع فقهية إلى مسائل عقدية، ليخرجوا بها من شاءت لهم أهواؤهم من زمرة الفرقة الناجية، ليضعوهم في الزمر الهالكة.

ولو طبقنا هذه القضايا العقدية جميعا، لأخلينا الجنة من سواهم، ولملأنا النار من غيرهم.. وبذلك فإن أهمية العقيدة عندهم تكمن في أنها السوط الذي يلهبون به ظهور مخالفيهم.. لأن الله تعالى ـ كما يذكرون ـ يعفو ويسمح في الفروع لكنه لا يفعل ذلك في الأصول.. وقد سلم الأصول لهم ولسلفهم حتى لا يجاورهم في الجنة غيرهم.

1() انظر شرح الطحاوية 2/555.

2() انظر الإبانة الصغرى ص 278.

3() انظر: شرح السنة للبربهاري ص 51.

4() انظر عقيدة السلف للصابوني ص 294.

5() انظر لمعة الاعتقاد ص 37.

6() انظر: مجموع الفتاوى 28/260، 35/38.

7() الكافي 1/334، وانظر مختصر التحفة الإثنى عشرية ص 221.

التراث السلفي.. والفقه

تشكل الأحكام الشرعية العملية التي يطلق عليها اصطلاحا [الفقه] ركنا أصيلا من أركان الاهتمامات السلفية، سواء من القدامى أو من المحدثين.. ولو أن اهتمامات المحدثين به أكثر بكثير من اهتمامات السابقين الذين كانوا يركزون على العقيدة أكثر من تركيزهم على الفقه.

ومثلما كانت الطائفية والأنانية والصراع هي الخاصية الأبرز في التراث العقدي السلفي، فإننا نراها كذلك هي الخاصية الأبرز في التراث الفقهي.. فالسلفي لا يستطيع أن يمارس تدينه بسلام، ومثل سائر الناس.. بل يريد أن يجعل من أبسط فروع تدينه وسيلة للصراع مع المجتمع ومع الأمة ومع كل شيء.

وهو يتخذ لهذا الصراع جلابيب لا تختلف كثيرا عن الجلابيب التي اتخذها في صراعه مع الأمة في الجوانب العقدية.. ذلك أنه يتصور أنه مثلما نال الحظوة في احتكار العقيدة الإسلامية، فله الحق أيضا في أن ينال حق احتكار الفقه.. فيعتبر كل مخالف له في أي مسألة من المسائل الفقهية لا مجرد مخالف، له رأيه المحترم، بل يراه مبتدعا وضالا ومنحرفا.

ولذلك نرى أنه مثلما أمكن تقسيم الأمة في الأصول العقدية إلى قسمين: منزهة وهم كل الأمة.. ومجسمة وهم الطائفة السلفية.. فإننا كذلك في الفروع الفقهية يمكن تقسيم الأمة إلى قسمين: قسم يحترم اجتهادات الآخر، ويرى أن له الحق في التعبد بها ما دام قد وصل إليها باجتهاده وهم كل الأمة بمذاهبها المختلفة.. وقسم لا يرى لأحد غيره الحق في الاجتهاد.. وهم الطائفة السلفية.

بناء على هذا كان أكثر ما كتبه السلفيون في هذا المجال من كتب أحكام أو فتاوى يغلب عليها الصراع.. الصراع مع كل شيء حتى مع النصوص المقدسة نفسها.. والتي يقدمون عليها رجال سلفهم الذين اتخذوهم أندادا من دون الله.

وسنحاول هنا من خلال ذكر أهم الجوانب التي يتناولها الفقه أن نبين الأدلة التي تبرهن على ما ذكرناه من خواص الفقه السلفي.

وقد اخترنا لبيان ذلك أربعة جوانب كبرى: التعبدية، والشخصية، والاجتماعية، والسياسية.

أولا ـ أحكام الجوانب التعبدية:

من المقاصد الكبرى التي ذكرها القرآن الكريم للشعائر

التعبدية أن تكون وسيلة لتطهير النفس من الأنانية والكبر وجميع الأمراض، ذلك أنه لا يمكن أن يسير المؤمن إلى الله، أو أن تحل معرفة الله في قلبه، وهو يضم في صدره ثعابين الكبر وحيات الحقد وعقارب الغرور.

ولهذا قال الله تعالى في الصلاة: ﴿ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ ﴾ [العنكبوت: 45]، وقال في الزكاة: ﴿ خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ [التوبة: 103]، وقال في الصيام: ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ [البقرة: 183]، وقال في الحج: ﴿ الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَعْلُومَاتٌ فَمَنْ فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي الْحَجِّ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ اللَّهُ وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى وَاتَّقُونِ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ ﴾ [البقرة: 197].

وهكذا كانت الشعائر التعبدية هي وسيلة لتحقيق غايتين كبيرتين:

الأولى: التحقق بمعرفة الله، عبر التواصل المباشر معه، والذي وضعت له الشريعة الكثير من الشعائر التعبدية إما مطلقة: كالذكر وقراءة القرآن، أو مقيدة كالصلاة.

الثاني: التخلق بالأخلاق الإسلامية، ولذلك كان لبعض هذه الشعائر علاقة بالمجتمع، لأنها تؤدى أداء جماعيا، يملأ المجتمع بسكينة الإيمان، وروحانية التواصل مع الله.

وقد حاولت الأمة بمذاهبها المختلفة أن تسعى لتحقيق هذه المقاصد، بطرق مختلفة، وكان الانسجام بينها هو الأصل، حتى لا تضيع في متاهات الفروع عن حقيقة المقاصد الشرعية.

ولهذا لم تلق اهتماما كبيرا للخلافات الفرعية بينها، اهتماما بتحقيق المقاصد، حتى لا تصبح الفروع أداة لهدم الأصول.. ولهذا يروى عن الشافعي أنه صلى الصبح في مسجد أبي حنيفة، وكان الشافعي يرى القنوت في صلاة الصبح، ويرى الجهر بالبسملة، لكنه لم يقنت ولم يجهر ببسم الله تأدباً مع أبي حنيفة واحتراما لأصحابه(1)..

وقد ذكر القرطبي أن ذلك كان شأن أئمة المذاهب الفقهية، فقال: (كان أبو حنيفة وأصحابه والشافعي وغيرهم يصلون خلف أئمة أهل المدينة من المالكية وإن كانوا لا يقرؤون البسملة لا سراً ولا جهراً.. وصلى أبو يوسف خلف الرشيد وقد احتجم وأفتاه مالك بأنه لا يتوضأ فصلّى خلفه أبو يوسف ولم يُعد، رغم أنه يرى أن خروج الدم بحجامة أو غيرها

(1) طبقات الحنفية (1/433)

ينقض الوضوء)(1)

وهكـذا كـانت الخلافـات الفرعيـة لا تـؤثر على علاقـاتهم الاجتماعية، قال يونس الصدفي متحدثا عن الشافعي: (ما رأيت أعقل من الشافعي، ناظرته يوماً في مسألة ثم افترقنـا ولقيتـه فأخذ بيدي ثم قال: يا أبا موسى ألا يستقيم أن نكون إخواناً وإن لم نتفق في مسألة)(2)

ولهذا كان من القواعد التي اتفقوا عليها [عدم الإنكـار في مسـائل الخلاف إذا كـان للاجتهـاد فيهـا مسـاغ]، وقـد روي عن أحمـد في ذلـك قوله: (لا ينبغي للفقيـه أن يحمـل النـاس على مذهب ولا يشدد عليهم)(3)

وقال النووي: (ليس للمفتي ولا للقاضـي أن يعـترض على من خالفه إذا لم يخالف نصاً أو إجماعاً أو قياساً جلياً)(4)

وسُئل القاسم بن محمد عن القراءة خلف الإمـام فيمـا لم يجهر به فقال: (إن قـرأت فلـك في رجـال من أصـحاب محمـد رسول الله ﷺ أسوة، وإذا لم تقرأ فلـك في رجـال من أصـحاب رسول الله ﷺ أسوة)(5).

وقد ذكر أنس أن هذا كان شأن الصحابة لا يتـدخل أحـدهم في اختيار أخيه في الشؤون التعبدية، فقال: (إنا معشر أصحاب رسول الله ﷺ كنا نسافر، فمنا الصائم ومنا المفطر، ومنا المتم ومنا المقصر، فلم يعب الصائم على المفطر، ولا المفطـر على الصائم، ولا المقصر على المتم، ولا المتم على المقصر)(6)

وعلى هذا المنهج نجد أئمة الشيعة الذين يعتـبرون الوحـدة الإسلامية فوق كل خلاف، ولهذا يجيزون أن يـترك المـوالي لهم ما يراه من أحكام شرعية حتى لـو كـانت مبطلـة لعملـه حرصـا على عدم صدع وحـدة الأمة، وهـو مـا يسـمونه التقية.. فالتقيـة بمفهومهـا عنـدهم لا تعـني الحـرص على النفس فقـط حـتى لا تؤذى، بل تعـني كـذلك الحـرص على حفـظ وحـدة صـف الأمة، وعدم التسبب في وقوع الشقاق بينها.

فمن الروايات في ذلك ما رواه جابر الجعفي، قال: سألت أبا جعفر الباقر ع: (إن لي جيراناً، بعضهم يعرف هذا الأمر ــ أي ولاية أهل البيت ﷺ ـ وبعضـهم لا يعـرف، قـد سـألوني أن أؤذّن لهم، وأصلي بهم، فخفت أن لا يكـون ذلـك موسَّـعاً لي؟ فقـال:

1() الجامع لأحكام القرآن، للقرطبي (23/375)
2() سير أعلام النبلاء (10/16-17)
3() الآداب الشرعية (1/186)
4() شرح النووي على صحيح مسلم (2/24)
5() التمهيد، ابن عبد البر (11/54)
6() السنن الكبرى للبيهقي (3/رقم4652)

(أذّن لهم، وصلِّ بهم، وتحرَّ الأوقات)(1)

وروي عن الصادق أنـه قـال: (من صـلى معهم في الصـف الأول كان كمَنْ صلى خلف رسول الله ﷺ في الصف الأول)(2) ، وقال: (إذا صلّيت معهم غفر لك بعدد مَنْ خالفك)(3)

وعن أبي علي قال: قلت لأبي عبداللـه الصـادق ع: إن لنـا إماماً مخالفاً، وهو يبغض أصحابنا كلهم؟ فقـال: (مـا عليـك من قوله، والله لئن كنت صادقاً لأنت أحق بالمسـجد منه، فكُنْ أول داخل وآخر خارج، وأحسن خلقك مع الناس، وقُلْ خيراً)(4)

وعن إسحاق بن عمار، قال: قال لي أبـو عبداللـه الصـادق ع: (يـا إسـحاق، أتصـلي معهم في المسـجد؟ قلت: نعم، قـال: (صـلِّ معهم؛ فـإن المصـلي معهم في الصـف الأول كالشـاهر سيفه في سبيل الله)(5)

وعن عبدالله بن سنان قال: سمعت أبـا عبداللـه ع يقـول: (أوصيكم بتقوى الله عز وجل، ولا تحملوا النـاس على أكتـافكم فتذلّوا، إن الله تبـارك وتعـالى يقـول في كتابه: ﴿وَقُولُـوا لِلنَّاسِ حُسْناً﴾، ثم قال: عودوا مرضاهم، واشهدوا جنـائزهم، واشـهدوا لهم وعليهم، وصلّوا معهم في مساجدهم) (6)

وعن زيد الشحّام، عن جعفر بن محمد ع، أنه قـال له: (يـا زيد، خـالقوا النـاس بـأخلاقهم، صـلّوا في مسـاجدهم، وعـودوا مرضاهم، واشـهدوا جنـائزهم، وإن اسـتطعتم أن تكونـوا الأئمـة والمؤذِّنين فافعلوا، فإنكم إذا فعلتم ذلك قالوا: هـؤلاء الجعفرية، رحم الله جعفراً ما كان أحسـن مـا يـؤدِّب أصـحابه. وإذا تـركتم ذلك قالوا: هؤلاء الجعفرية، فعل الله بجعفـر مـا كـان أسـوأ مـا يؤدِّب أصحابه)(7)

وعن علي بن جعفر في كتابه، عن أخيه موسـى بن جعفر، قال: (صلّى حسن وحسين خلف مروان، ونحن نصلّي معهم)(8)

وهكـذا يفـتي كبـار علمـاء الشـيعة ومـراجعهم في القـديم والحـديث، فمن المتقـدمين قـال الشـهيد الأول محمـد بن مكي العاملي: (ويستحبّ حضور جماعة العامة، كالخاصة، بـل أفضل، فقـد روي: من صـلى معهم في الصـف الأول كـان كمَنْ صـلى خلف رسول الله؛ فيه. ويتأكد مع المجـاورة. ويقـرأ في الجهرية

1() جامع أحاديث الشيعة، حديث رقم 10996.
2() وسائل الشيعة، حديث رقم10717.
3() وسائل الشيعة، حديث رقم 10718.
4() وسائل الشيعة، حديث رقم 10721.
5() وسائل الشيعة، حديث رقم 10723.
6() وسائل الشيعة، حديث رقم 10724.
7() جامع أحاديث الشيعة، حديث رقم 10995.
8() وسائل الشيعة، حديث رقم 10725.

سرّاً، ولو مثل حديث النفس، وتسقط لو فجأه ركوعهم، فيتمّ فيه إن أمكن، وإلا سقط)(1)

ومن المتأخرين قال السيد شرف الدين الموسوي: (حاشا أمير المؤمنين ـ علياً ـ أن يصلّي إلا تقرُّباً لله وأداءً لما أمره الله به، وصلاته خلفهم ــ أي الخلفاء ــ ما كانت إلا خالصة لوجهه الكريم، وقد اقتدينا به ع، فتقرّبنا إلى الله عزّ وجلّ بالصلاة خلف كثير من أئمّة جماعة أهل السنّة، مخلصين في تلك الصلوات لله تعالى. وهذا جائز في مذهب أهل البيت. ويُثاب المصلّي منّا خلف الإمام السني كما يُثاب بالصلاة خلف الشيعي. والخبير بمذهبنا يعلم أنّا نشترط العدالة في إمام الجماعة إذا كان شيعيّاً، فلا يجوز الائتمام بالفاسق من الشيعة، ولا بمجهول الحال، أمّا السنّي فقد يجوز الائتمام به مطلقاً)(2)

وهكذا نجد كل الأمة بمذاهبها المختلفة يحترم بعضها بعضا، ويصلي بعضها خلف بعض إلا السلفية.. فإنهم ينفردون عنهم بذلك الغرور الذي يجعلهم يشعرون أنهم وحدهم على حق، وأن كل من عداهم على باطل، ولذلك نراهم يحولون الشعائر التعبدية إلى أداة لهدم العلاقات الاجتماعية، بل أداة لتفريق صف الأمة وتبديعها وتكفيرها بسبب فروع فقهية لكل فريق من الفقهاء أدلته عليها.

والعجب أنهم يعذرون الفئة الباغية التي انحرفت بمسيرة الأمة عن منهج النبوة، ويزعمون أن ذلك كان اجتهادا منها، وأنهم يؤجرون عليه، في نفس الوقت الذي ينكرون على الأمة الاجتهاد في فروع فقهية بسيطة لعل أدلتهم عليها أقوى بكثير من الأدلة التي يستند إليها السلفية أنفسهم.

وحتى لا يكون كلامنا دعوى لا دليل عليها، فسأذكر هنا أربعة أمثلة على مسائل لقيت اهتماما كبيرا من طرف التراث السلفي، لا لشيء إلا لأنهم يجدون فيها متعة الصراع مع الأمة، وإبراز أنانيتهم وطائفيتهم عليها.

المثال الأول: تحريم السلفية الصلاة مع سائر المسلمين:

مع أن من مقاصد الصلاة الكبرى أن تربي المؤمن على التواضع والخشوع والمسكنة، لتؤهله للتوحد مع إخوانه من المؤمنين، ليكونوا يدا واحدة وقلبا واحد كما ورد في في بعض الآثار: (إنما أتقبل الصلاة ممن تواضع بها لعظمتي، ولم يستطل على خلقي، ولم يبت مصرا على معصيتي، وقطع نهاره في

1() محمد بن مكي العاملي، الدروس الشرعية، ضمن سلسلة الينابيع الفقهية، الصلاة 10: 651.

2() أجوبة مسائل موسى جار الله 4: 73.

ذكري، ورحم المسكين وابن السبيل والأرملة، ورحم المصاب، ذلك نوره كنور الشمس، أكلؤه بعزتي، وأستحفظه ملائكتي، وأجعل له في الظلمة نورا، وفي الجهالة حلما، ومثله في خلقي كمثل الفردوس في الجنة)(1)

إلا أن السلفية ببدعة تصورهم أنهم المستأثرون الوحيدون من دون الأمة بالاطلاع على الكيفية التامة لصلاة رسول الله ﷺ، بحيث لا يشركهم أحد في ذلك، حولوا هذه الصلاة إلى وسيلة للترفع والتباهي والكبرياء والغرور كما أشار ﷺ إلى هذه الخصلة فيهم إشارة صريحة، فقال: (يخرج قوم من أمتي يقرأون القرآن ليس قراءتكم إلى قراءتهم بشيء، ولا صلاتكم إلى صلاتهم بشيء، ولا صيامكم إلى صيامهم بشيء، يقرأون القرآن يحسبون أنه لهم وهو عليهم، لا تجاوز صلاتهم تراقيهم)(2)

ولذلك لم نر في التاريخ أحدا يؤلف كتابا بهذا العنوان الممتلئ بالغرور [صفة صلاة النبي ﷺ من التكبير إلى التسليم كأنك تراها] والذي ألفه شيخ مشايخ السلفية المحدثين محمد ناصر الدين الألباني، ليفرق به صف الأمة في مساجدها التي تعود كل منها على مذهب معين، أو هيئة معينة.. لكن الألباني والسلفية معه جاءوا ليقولوا للجميع: إما أن تصلوا مثلنا.. وإلا فسنعتبركم مبتدعة.

لقد ذكر الألباني ذلك بصراحة عندما ذكر دوافعه من تأليفه، فقال: (ولما كنت لم أقف على كتاب جامع في هذا الموضوع فقد رأيت من الواجب علي أن أضع لأخواني المسلمين ممن همهم الاقتداء في عبادتهم بهدي نبيهم ﷺ كتابا مستوعبا ما أمكن لجميع ما يتعلق بصفة صلاة النبي ﷺ من التكبير إلى التسليم بحيث يسهل على من وقف عليه من المحبين للنبي ﷺ حبا صادقا القيام بتحقيق أمره في الحديث: (صلوا كما رأيتموني أصلي)، ولهذا فإني شمرت عن ساعد الجد وتتبعت الأحاديث المتعلقة بما إليه قصدت من مختلف كتب الحديث فكان من ذلك هذا الكتاب الذي بين يديك)(3)

وهذا الكلام العنصري الخطير الذي يحصر المحبين لرسول الله ﷺ في هذا التيار دون سائر الأمة يبين مفهوم المحبة الصادقة لرسول الله ﷺ عند السلفيين، فهي عندهم مجرد تقليد لما كان يفعله، لا التواصل الروحي والعاطفي الممتلئ بالمشاعر النبيلة.. ولهذا نراهم يجعلون السنة ـ كما يتصورونها ـ

1() أبو نعيم في حلية الأولياء ح 4731.

2() مسلم 2/ـ 748 وأبي داود 5/ـ 125 وأحمد 1/ـ 91 و92 والنسائي في الكبرى 5/ 163.

3() صفة صلاة النبي ﷺ الألباني (ص: 40)

هي وسيلتهم للفرقة والكراهية.

وقد ذكر الألباني الآثار الخطيرة التي ستنجر عن كتابه هذا، فقال ـ بجرأة عجيبة متحديا كل الأمة وفقهائها ــ: (ولذلك فإن الكتاب سيكون إن شاء الله تعالى جامعا لشتات ما تفرق في بطون كتب الحديث والفقه - على اختلاف المذاهب مما له علاقة بموضوعه - بينما لا يجمع ما فيه من الحق أي كتاب أو مذهب، وسيكون العامل به إن شاء الله ممن قد هداه الله لما اختلفوا فيه من الحق بإذنه والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم، ثم إني حين وضعت هذا المنهج لنفسي - وهو التمسك بالسنة الصحيحة - وجريت عليه في هذا الكتاب وغيره - مما سوف ينتشر بين الناس إن شاء الله - كنت على علم أنه سوف لا يرضي ذلك كل الطوائف والمذاهب بل سوف يوجه بعضهم أو كثير منهم ألسنة الطعن وأقلام اللوم إلي ولا بأس من ذلك علي فإني أعلم أيضا أن إرضاء الناس غاية لا تدرك، فحسبي أنني معتقد أن ذلك هو الطريق الأقوم الذي أمر الله تعالى به المؤمنين وبينه نبينا محمد سيد المرسلين وهو الذي سلكه السلف الصالح من الصحابة والتابعين ومن بعدهم)(1)

لقد ذكر هذا الكلام في مقدمته للطبعة الأولى، وبعد عشر سنين من نشر الكتاب، وبعد أن أصبحت الصلاة التي جعلها الله وسيلة لوحدة الأمة وعروجها إلى ربها وسيلة للفتنة والكراهية.. لم يتراجع، ولم يندم، بل ظل مصرا على ذلك.

بل إنه راح يدعو أتباعه وأتباع مدرسته إلى التشدد أكثر، قال في مقدمته لطبعة جديدة من الكتاب: (ذلك ما كنت كتبته منذ عشر سنوات في مقدمة هذا الكتاب وقد ظهر لنا في هذه البرهة أن له تأثير طيب في صفوف الشباب المؤمن لإرشادهم إلى وجوب العودة في دينهم وعبادتهم إلى المنبع الصافي من الإسلام: الكتاب والسنة فقد ازداد فيهم - والحمد لله - العاملون بالسنة والمتعبدون بها حتى صاروا معروفين بذلك)(2)

لكنه بعد العشرية السوداء من الفتنة التي أحدثها كتابه، والتي أنشأت جيلا من الشباب معروفا بصلاته المميزة رأى في البعض بعض الورع عن استخدام الصلاة وسيلة لشق الصف الإسلامي، فراح ينصحهم، ويرفع عنهم ذلك الورع، بل راح ينفخ فيهم روح التحدي، تحدي الأمة جميعا في أقدس شعائرها، يقول في ذلك: (غير أني لمست من بعضهم توقفا عن الاندفاع إلى العمل بها لا شكا في وجوب ذلك بعد ما سقنا من الآيات والأخبار عن الأئمة في الأمر بالرجوع إليها، ولكن لشبهات

1() صفة صلاة النبي ﷺ (ص: 43)

2() صفة صلاة النبي ﷺ(ص: 58)

يسمعونها من بعض المشايخ المقلدين، لذا رأيت أن أتعرض لذكرها والرد عليها لعل ذلك البعض يندفع بعد ذلك إلى العمل بالسنة مع العاملين بها، فيكون من الفرقة الناجية بإذن الله تعالى)(1)

وهكذا قسم الألباني المصلين إلى قسمين: ناجين وغير ناجين.. أما الناجون فليسوا أولئك الذين في صلاتهم خاشعون، ولا على صلاتهم دائمون.. وإنما أولئك الذي لكتاب الألباني قارئون، وله متبعون، وفي سبيله مضحون.. وأما الهالكون، فليسوا أولئك الذين عن صلاتهم ساهون، الذين هم يراؤون، وإنما هم الذين للألباني مخالفون، وعن كيفية صلاة رسول الله ﷺ ـ كما يراها الألباني ـ معرضون.

هذا ما يريد الألباني وغيره من أعلام السلفية تلقينه للأمة.. هم يدعونها للانشقاق باسم أقدس مقدساتها، كما دعوها للانشقاق باسم عقائدها ورسولها وكل أصول دينها وفروعه.

والعجيب أن الألباني يرد على أولئك الشباب ورعهم في تمزيق وحدة الأمة، فيقول حاكيا موقفه الذي لم يعجبه: (قال بعضهم: لا شك أن الرجوع إلى هدي نبينا ﷺ في شؤون ديننا أمر واجب لا سيما فيما كان منها عبادة محضة لا مجال للرأي والاجتهاد فيها لأنها توقيفية كالصلاة مثلا ولكننا لا نكاد نسمع أحدا من المشايخ المقلدين يأمر بذلك بل نجدهم يقرون الاختلاف ويزعمون أنها توسعة على الأمة ويحتجون على ذلك بحديث - طالما كرروه في مثل هذه المناسبة رادين به على أنصار السنة -: (اختلاف أمتي رحمة) فيبدو لنا أن هذا الحديث يخالف المنهج الذي تدعو إليه وألفت كتابك هذا وغيره عليه فما قولك في هذا الحديث)(2)

وهنا يدخل الألباني قدراته الحديثية التي تصحح ما يشاء وتضعف ما يشاء، ليقضي على الحديث، وبعدها يذهب ليقضي على ما ورد في الدعوة إلى الوحدة في القرآن الكريم، فيقول: (.. الثاني: أن الحديث مع ضعفه مخالف للقرآن الكريم فإن الآيات الواردة فيه - في النهي عن الاختلاف في الدين والأمر بالاتفاق فيه أشهر من أن تذكر) (3)

والعجيب أن الألباني كغيره من السلف يطبق ما يقول المثل بدقة: (رمتني بدائها وانسلت)، فهو يتصور أن الاتفاق والوحدة لابد أن تكون على مذهبه، لا على أي مذهب آخر.. أي

---

(1) صفة صلاة النبي ﷺ (ص: 58)
(2) صفة صلاة النبي ﷺ (ص: 58)
(3) صفة صلاة النبي ﷺ (ص: 59)

أن الأمة جميعا سلفها وخلفها إن أرادت أن تتحد، فعليها أن تتحد على كتابه، وإلا فإنه لا يهمه اتحادها أو اختلافها.

ونحن لا ننكر عليه، ولا على السلفية جميعا، ولا على أي أحد من الناس أن يجتهد في أي مسألة، ولكن ننكر عليه ذلك الاحتكار لرسول الله ﷺ ولسنة رسول الله ﷺ وللصلاة.. فلو أنه ذكر أن كتابه هذا اجتهاد منه، وهو لا يلغي اجتهاد غيره، وأنه لا حرج على أي أحد أن يتبع ما شاء من الآراء، لما أنكرنا عليه هذا، لأن إنكارنا للفتنة، وليس للبحث العلمي.

وما فعله الألباني هو نفس ما فعله السلفية جميعا، وفي جميع مراحل التاريخ، فقد حفظ لنا المؤرخون الكثير من الحوادث التي كان الحنابلة سببا فيها بسبب فروع بسيطة في الصلاة وغيرها.

ومن الأمثلة على ذلك ما ذكره ابن الأثير في سنة 447 هـ، قال: (في هذه السنة وقعت الفتنة بين الفقهاء الشافعية والحنابلة ببغداذ، ومقدم الحنابلة أبو يعلى بن الفراء، وابن التميمي، وتبعهم من العامة الجم الغفير، وأنكروا الجهر ببسم الله الرحمن الرحيم، ومنعوا من الترجيع في الأذان، والقنوت في الفجر، ووصلوا إلى ديوان الخليفة، ولم ينفصل حال، وأتى الحنابلة إلى مسجد بباب الشعير، فنهوا إمامه عن الجهر بالبسملة، فأخرج مصحفا وقال: أزيلوها من المصحف حتى لا أتلوها)(1)

ومنها ما ذكره ابن كثير في أحداث سنة سنة 323هجرية ـ فقد ذكر أن جماعة من الحنابلة ببغداد اعترضوا على من يجهر بالبسملة في الصلاة، مما جعل الشرطة تتدخل ضدهم، فأمرت بأن لا يُصلي حنبلي بالناس إلا إذا جهر بالبسملة في صلاتي الصبح والعشاء، لكن الحنابلة لم يرتدعوا، واستمروا في عنفهم تجاه الشافعية، ولم يُوقفوا ذلك إلا بعدما أصدر الخليفة الراضي بالله توقيعا عنيفا زجرهم فيه، وهددهم بالقتل والتنكيل، والتشريد وحرق البيوت(1).

ولم يكتف السلفية بكل هذا، بل راحوا يفتون بتحريم الصلاة في كثير من مساجد المسلمين، ووراء كل من عداهم من المسلمين.

نعم سيكذبون ذلك، ويذكرون أن من عقائدهم الصلاة وراء كل بر وفاجر.. وذلك صحيح.. ولكنه لا ينطبق إلا على الصلاة خلف معاوية ويزيد والحجاج بن يوسف أو غيرهم من المجرمين والطغاة والمستبدين.. أما الصلاة وراء البسطاء والمتواضعين من الصوفية والشيعة والأشاعرة والإباضية وكل من عداهم

1() الكامل في التاريخ (8/ 129)

حتى لو كانوا علماء أجلاء فحرام وبدعة وضلالة، وفتاواهم في ذلك أكثر من أن تعد أو تحصر.

وسأضرب أمثلة عن فتاوى كبارهم في ذلك..

فمنها قول الشيخ ابن باز في بعض فتاواه: (الصلاة خلف المبتدع فيها تفصيل، فإذا كان مبتدعاً بدعة مكفرة كالجهمية؛ فهذا لا يُصلى خلفه، والمعتزلي الذي يؤول صفات الله والخوارج لا يُصلى خلفهم، أمَّا إذا كانت بدعته خفيفة لا تفضي إلى الشرك فالأمر في هذا سهل، ولكن إذا تيسر إزالته والتماس إمام من أهل السنة؛ فهذا أمر واجب، ولكن إذا دعت الضرورة أن يُصلى خلفه، كالتي بدعته لا تكفره كالعاصي فهذا يصلى خلفه ما دام مسلماً)(1)

وخطورة هذا الكلام ليس فقط في كون تطبيقه يشمل الأمة جميعا، لأنهم يقصدون بالجهمية كل من لا يقول بإثبات اليدين والعينين والرجلين والحقو والضرس لله.. وذلك يشمل الأمة جميعا.. وإنما خطورته في دعوته إلى إزالة الإمام البدعي باستعمال كل الطرق باعتباره واجبا، وهذا ما يثير الفتن في المساجد.. لأنهم وبمجرد أن يخالفهم الإمام يلصقون به أي تهمة، ويستعملون كل وسيلة لقلعه وإحلال أصحابهم بدله..

ولذلك تمتلئ المساجد التي يزورها السلفية بالفتن والصراعات.. وكيف لا يكون الأمر كذلك وهم رثة الفئة الباغية التي بغت على كل شيء حتى على أئمة المساجد.

ومن تلك الفتاوى فتوى الشيخ ابن عثيمين، والتي يقول فيها: (الصلاة خلف المبتدع، إن كان هذا مما يُغري الناس به، فيثقل ميزانه عند الناس وتقوى بدعته، فلا يجوز أن يُصلى معه مهما كانت البدعة، وإن كان ذلك لا يؤثر، فإن كانت بدعته مكفرة؛ فإنَّه لا يُصلى خلفه، وإن كانت بدعته مفسقة فإنه يُصلى خلفه كسائر العُصاة، ولكن إذا كان هذا يؤدي إلى اغتراره بنفسه واستمساكه ببدعته؛ فإنَّه لا يجوز أن يُصلى خلفه احتقاراً لبدعته ولئلا يضل الناس ببدعته)(2)

وقال في موضع آخر: (سأعطيك قاعدة، كل من صحت صلاته صحَّت إمامته، إلا المرأة للرجال، فحالق اللحية وشارب الخمر ومسبل الإزار، والذي كانت بدعته لا تكفره؛ فإنه يُصلى خلفه، لكن إذا كان صاحب بدعة وفسوق وصليت خلفه فاغتر بنفسه وأعجبته بدعته، أو اغتر به الناس فلا يجوز)(3)

ومن تلك الفتاوى الخطيرة الدالة على أن مرادهم من

---

(1) نور على الدرب 364 ب د25.

(2) نور على الدرب 285.

(3) سلسلة لقاء الباب المفتوح 148.

الجهمية كل المسلمين المنزهين لله عن الجهة والمكان والجسمية فتوى اللجنة الدائمة في السعودية برئاسة الشيخ ابن باز عن سؤال قال صاحبه: (في هذه القرية مسجد مبسط ويجتمع فيه حوالى خمسمائه من المسلمي، ن ولكن للأسف فإن إمام هذا المسجد يعتقد عقيدة فاسدة وحلولية، يعتقد أن الله في كل مكان. وهناك كثير من الخرافات والبدع تقام بهذا المسجد غلبتني نفسي حتى تناقشت مع إمام هذا المسجد وطرحت عليه الأدلة والبراهين بأن الله في السماء مستو على عرشه وفي هذا إذ لانكيف ولانمثل.. وكذلك ذكرت له ليلة الإسراء والمعراج وذكرت له حديث الجارية، وكذلك ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ﴾ [فاطر: 10] ولم يقتنع بل ظل في عتوه وعقيدته هذه وبالعلم أن هناك مسجد آخر في هذه القرية ويحمل نفس الخرافات والبدع، حتى الآن لم أطرح سؤالي، وسؤالي هو، هل يجوز لي أن أصلي خلف هذا الإمام أم لا ومع أني أحب أن أصلي صلاة الجماعة؟)

فمع كون هذه العقيدة هي عقيدة كل المسلمين ما عدا السلفية إلا أن أكبر هيئة سلفية للفتوى أجابت عن ذلك بقولها: (إنهم كفار، ولا تجوز الصلاة خلفهم ولا تصح)(1)

وهكذا سئلت هذه اللجنة عن الصلاة خلف الإباضية، فأجابت: (فرقة الأباضية من الفرق الضالة؛ لما فيهم من البغي والعدوان والخروج على عثمان بن عفان وعلي، ولا تجوز الصلاة خلفهم)(2)

وهكذا سئلت هذه اللجنة التي هي أكبر مجمع لكبار علماء السلفية عن الصلاة خلف رجال الطرق الصوفية، وخصوصا الطريقة التيجانية، والتي تشكل جزءا كبيرا من الأمة الإسلامية وخصوصا في القارة الإفريقية، فأجابت: (الفرقة التجانية من أشد الفرق كفرا وضلالا وابتداعا في الدين لما لم يأذن به الله، فلا تصح الصلاة خلف من هو على طريقتهم وبإمكان المسلم أن يلتمس له إماما غير متبع لطريقة التجانية وغيرها من طرق المبتدعة ممن لا تتسم عباداتهم وأعمالهم بالمتابعة لمحمد بن عبد الله صلوات الله وسلامه عليه، وإذا لم يجد إماما غير مبتدع فيقيم له جماعة في أي مسجد من مساجد المسلمين إذا أمن الفتنة والإضرار به من المبتدع، فإن كان في بلد يتسلط فيها مبتدع فيقيم الجماعة في أهله أو بأي مكان يأمن على نفسه، ومتى أمكنته الهجرة إلى بلد تقام فيها السنة

1() فتاوى اللجنة الدائمة (7/ 365)

2() فتاوى اللجنة الدائمة: (2/ 369)

وتحارب البدع وجب عليه ذلك)(1)

وهكذا سئل ابن باز عن الصلاة خلف من يحتفل بالمولد النبوي الشريف، فأجاب: (هذا فيه تفصيل إن كان مجرد الاحتفال بالموالد من دون شرك فهذا مبتدع فينبغي أن لا يكون إماماً لما ثبت في الحديث الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال: (إياكم ومحدثات الأمور فإن كل محدثة بدعة وكل بدعة ضلالة)، والاحتفال بالموالد من البدع، أما إذا كان يدعو الأموات ويستغيث بهم، أو بالجن، أو غيرهم من المخلوقات فيقول: يا رسول الله انصرني، أو اشف مريضي، أو يقول: يا سيدي الحسين، أو يا سيدي البدوي، أو غيرهم من الأموات، أو الجمادات كالأصنام، المدد المدد، فهذا مشرك شركاً أكبر لا يصلى خلفه، ولا تصح إمامته - نسأل الله العافية - أما إذا كان يرتكب بدعة كأن يحضر المولد ولكن لا يأتي بالشرك، أو يقرأ القرآن عند القبور، أو يصلي عندها، ولا يأتي بشرك فهذا يكون قد ابتدع في الدين فيعلم ويوجه إلى الخير وصلاته صحيحة إذا لم يفعلها عند القبور)(2)

وهم لم يكتفوا بكل هذا، بل راحوا يحرمون الصلاة في المساجد التي تحوي أضرحة أو قبورا حتى لو كان أئمتها من أهل سلفهم الصالح.. وبذلك لم يكتفوا بتحريم الصلاة خلف أئمة المسلمين.. بل أضافوا إلى ذلك تحريم الصلاة في مساجدهم، بل في كثير من مساجدهم (3).. وقد كتب الألباني في ذلك كتابه المعروف [تحذير الساجد من اتخاذ القبور مساجد] الذي أثار من الفتن ما لا يقل عن الفتن التي أثارها كتابه في كيفية صلاة رسول الله ﷺ.. ولو طبقنا مقولتهم هذه فإن أول المساجد التي يحرم عليهم الصلاة فيه هو مسجد رسول الله ﷺ، والذي يحوي أشرف مكان في الكون قبر رسول الله ﷺ.

ومن أمثلة فتاواهم المتداولة في ذلك ما ورد من فتاوى سلف الوهابية كما في [الدرر السنية]: (سئل الشيخ عبد الله بن الشيخ محمد بن عبد الوهاب: عن الصلاة في مسجد فيه قبر؟ فأجاب: إن كان مبنياً قبل أن يجعل فيه قبر، فينبش القبر، ويبعد عن المسجد; فإن كان المسجد لم يبن إلا لأجل القبر، فالمسجد يهدم، ولا يصلى فيه، لأنه ثبت عن رسول الله ﷺ أنه

---

(1) فتاوى اللجنة الدائمة (2/ 342)

(2) مجموع فتاوى ابن باز (9/ 374)

(3) من الأدلة على ذلك قول ابن باديس: (هذه هي حالتنا اليوم معشر مسلمي الجزائر وأحسب غيرنا مثلنا، تجد أكثر أو كثير من مساجدنا مبنية على القبور المنسوب أصحابها إلى الصلاح، ومنهم من كانوا معروفين بذلك ومنهم المجهولون) مجالس التذكير من حديث البشير النذير ص149-156 .

لعن الذين يتخذون المساجد على القبور؛ ولا تصح الصلاة فيه، ولا تجوز الصلاة عند القبور، ولا عليها، لأنه عليه السلام نهى عن الصلاة في المقبرة.. وأجاب أيضاً: المسجد الذي بني على القبور، يجب هدمه، ولا تجوز الصلاة فيه.. وأما القبر الذي وضع في المسجد بعد بنائه، فينقل من المسجد)(1)

وتبعا لذلك أفتت اللجنة الدائمة للفتوى بالسعودية، عن سؤال وردها يقول صاحبه: (هل تجوز الصلاة في مسجد دفن فيه ميت أو أموات لضرورة عدم وجود غيره مع العلم أني إذا لم أصل فيه لم أصل الجماعة ولا الجمعة؟)، فأجابت: (يجب نبش قبر أو قبور من دفن فيه ونقلها إلى المقبرة العامة أو نحوها ودفنهم فيها، ولا تجوز الصلاة به والقبر أو القبور فيه، بل عليك أن تلتمس مسجدا آخر لصلاة الجمعة والجماعة قدر الطاقة)(2)

بل إنهم في فتوى أخرى أوجبت هدم المسجد، وبذلك تهدم أكثر مساجد الأمة العتيقة، بما فيها مسجد رسول الله ﷺ نفسه، فقد ورد في الفتوى: (إذا بني المسجد على قبر أو قبور وجب هدمه؛ لأنه أسس على خلاف ما شرع الله، والإبقاء عليه مع الصلاة فيه إصرار على الإثم في بنائه وزيادة غلو في الدين وفي تعظيم من بني عليه المسجد وذلك مما يفضي إلى الشرك والعياذ بالله، وقد قال تعالى: ﴿لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ﴾، وقد قال ﷺ: (إياكم والغلو في الدين فإنما أهلك من كان قبلكم الغلو في الدين)، أما إذا بني المسجد على غير قبر ثم دفن فيه ميت فلا يهدم، ولكن ينبش قبر من دفن فيه ويدفن خارجه في مقبرة المسلمين؛ لأن دفنه بالمسجد منكر فيزال بإخراجه منه)(3)

ولم يكتف السلفيون ولا لجنتهم الدائمة بتلك الفتاوى المحرضة على الفتن، بل أضافوا إليها هذه الفتوى الخطيرة، التي تشق صف المسلمين شقا لا يمكن رأبه، فقد جاء فيها: (ليس لك أن تصلي الفريضة في بيتك، بل عليك أن تصليها جماعة مع بعض إخوانك في غير المسجد الذي بني على قبر ولو في الفضاء، وعليكم أن تؤسسوا مسجدا على ما شرع الله؛ لتؤدوا فيه الصلوات الخمس؛ عملا بنصوص الشرع، وبعدا عما نهى الله عنه)(4)

وهذا ما حصل في الكثير من المناطق عندما يبدأ أولئك الشباب بحميتهم وفراغ عقولهم في تأسيس مساجد خاصة

---

(1) الدرر السنية: ج4 ص 265.
(2) فتاوى اللجنة الدائمة (1/ 402)
(3) فتاوى اللجنة الدائمة (1/ 409)
(4) فتاوى اللجنة الدائمة (1/ 410)

بهم، يستقطبون لها أمثالهم من أصحاب العقول الفارغة والتدين العدواني، ليحولوا منهم بعد ذلك إلى ميليشيات تزرع الرعب في صفوف المسلمين.. وبذلك تصبح الصلاة أكبر وسيلة للإرهاب والعنف.

المثال الثاني: مخالفة السلفية لسائر المسلمين في مواقيت الإفطار:

لم يكتف السلفية بمخالفة المسلمين في الصلاة، بل راحوا يخالفونهم في الصيام أيضا، وفي أهم ركن فيه، هو الزمن الذي يكون فيه الصوم.

فمع أن الآية القرآنية واضحة في كون الصيام يبدأ من الفجر إلى الليل، كما قال تعالى: ﴿ ثُمَّ أَتِمُّوا الصِّيَامَ إِلَى اللَّيْلِ﴾ [البقرة: 187]

لكن السلفية يرفضون ذلك.. ويكتفون بمجرد غياب قرص الشمس، ولا يعتبرون قول الفلكيين في ذلك.. وهذا يرينا العقل السلفي المستكبر المغرور الذي يترك النص القرآني الواضح في اعتبار بداية الليل هي الأساس للإفطار، ليذهب إلى أوهام توهمها، اعتبرها دينا وخالف كل الأمة على أساسها.

والسلفية لحبهم للصراع والخلاف لا يتورعون في المسألة حرصا على صومهم، بل تجدهم ببلاهة يرقبون قرص الشمس بمجرد أن يغيب بجبل أو بأي شيء ليسرعوا للإفطار، ولو على الملأ يتحدون بذلك مشاعر المسلمين الذين يحترمون مواقيت الإفطار والسحور، فلا يفطروا حتى يؤذن المؤذن.

وكيف لا يفعلون ذلك وشيخهم الألباني هو قدوتهم في ذلك، فقد قال في [السلسلة الصحيحة]: (وهذه من السنن المتروكة في بلاد الشام، ومنها عَمَّان، فإنَّ داري في جبل هملان من جبالها، أرى بعيني طلوع الشمس وغروبها، وأسمعهم يؤذِّنون للمغرب بعد غروب الشمس بنحو عشر دقائق، علماً بأنَّ الشمس تغرب عمن كان في وسط عَمَّان ووديانها قبل أن تغرب عنا!!، وعلى العكس من ذلك فإنهم يؤذِّنون لصلاة الفجر قبل دخول وقتها بنحو نصف ساعة!!، فإنا لله وإنا إليه راجعون)(1)

وهم ينقلون قول ابن القيم في تعريف المبادرة ليفطروا على أساسها، يقول ابن القيم: (والفرق بين المبادرة والعجلة: أنَّ المبادرة انتهاز الفرصة في وقتها ولا يتركها حتى إذا فاتت طلبها، فهو لا يطلب الأمور في إدبارها ولا قبل وقتها، بل إذا حضر وقتها بادر إليها ووثب عليها وثوب الأسد على فريسته، فهو بمنزلة من يبادر إلى أخذ الثمرة وقت كمال نضلها

---

(1) السلسلة الصحيحة 5/300.

وإدراكها)(1)

وهكـذا تـراهم يضـعون أمـامهم مـاء أو طعاما، ثم يرقبـوا الشـمس، فـإذا مـا غيبهـا أي حائـل أسـرعوا كالأسـود إلى فرائسهم، وهم يتصورون أنهم على شيء، وأنهم يحيـون السـنة التي ضـيعها سـائر المسـلمين المسـاكين الـذين يتنظـرون إذن المؤذن لهم بالإفطار.

يقـول الألبـاني: (.. في الحـديث اهتمامـه ﷺ بالتعجيـل بالإفطار بعد أن يتأكد ﷺ من غـروب الشـمس، فيـأمر من يعلـو مكانا مرتفعا، فيخبره بغروب الشمس ليفطر ﷺ، وما ذلـك منـه إلا تحقيقا منه لقوله ﷺ: (لا يزال الناس بخير ما عجلوا الفطر)، وإن من المؤسف حقاً أننا نرى النـاس اليـوم، قـد خـالفوا هـذه السنة، فإن الكثيرين منهم يرون غروب الشمس بـأعينهم، ومـع ذلك لا يفطرون حـتى يسـمعوا أذان البلد، جـاهلين: أولاً: أنـه لا يؤذن فيه على رؤية الغروب، وإنما على التـوقيت الفلكي. ثانيا: أن البلد الواحـد قـد يختلـف الغـروب فيـه من موضـع إلى آخـر بسـبب الجبـال والوديـان، فرأينـا ناسـاً لا يفطـرون، وقـد رأوا الغـروب، وآخـرين يفطـرون والشـمس باديـة لم تغـرب، لأنهم سمعوا الأذان)(2)

وقال في موضع آخر: (.. وهـذه من السـنن المتروكـة في بلاد الشام، ومنها عمان، فـإن داري في جبـل هملان من جبالها، أرى بعيني طلوع الشمس وغروبها، وأسمعهم يؤذنـون للمغـرب بعد غروب الشمس بنحو عشر دقائق، علماً بأن الشمس تغرب عمن كان في وسط عمـان ووديانهـا قبـل أن تغـرب عنا! وعلي العكس من ذلك فإنهم يؤذنون لصلاة الفجـر قبـل دخـول وقتهـا بنحو نصف ساعة فإنا لله وإنا إليه راجعون)(3)

المثـال الثـالث: تبـديعهم لبعض الممارسـات التعبدية الجماعية:

مع أن السلفية لم يكتفوا باعتبار صلاة التراويح سنة فقط، مع كون رسول الله ﷺ لم يفعلها، وإنما ابتدعها عمر بحسب مـا تنص عليه الروايـة الـتي يصـححونها (4)، وإنمـا راحـوا يعتبرونهـا فوق ذلك من عقائد الإسلام حتى يتميزوا بها عن الشيعة الـذين

1() الروح ص258.

2() سلسلة الأحاديث الصحيحة وشيء من فقهها وفوائدها (5/ 118)

3() سلسلة الأحاديث الصحيحة وشيء من فقهها وفوائدها (5/ 301)

4() ففي الحديث عن عبد الرحمن بن عبد القاري أنه قال: خرجت مع عمر بن الخطاب ليلة في رمضان إلى المسجد، فإذا الناس أوزاع متفرقون يصلي الرجل لنفسـه، ويصـلي الرجل فيصلي بصلاته الرهـط، فقـال عمـر: إني أرى لـو جمعت هـؤلاء على قـارئ واحـد لكـان أمثـل، ثم عـزم فجمعهم على أبي بن كعب، ثم خـرجت معـه ليلـة أخـرى والنـاس يصلون بصلاة قارئهم، قال عمر: (نعمت البدعة هذه والتي ينامون عنها أفضـل من الـتي يقومون) يريد آخر الليل، وكان الناس يقومون أوله. صحيح البخاري (3/ 58)

ينكرونها باعتبارها بدعة، يقول أبو عبد الله محمد بن خفيف في (عقيدته): (والتراويح سنة)(1)، ويقول قوام السنة الأصفهاني في عقيدته: (ومن السنة صلاة التراويح في شهر رمضان في الجماعة)(2)، وسئل ابن تيمية عمن يصلي التراويح قبل العشاء الآخرة، فقال: (.. ولكن الرافضة تكره صلاة التراويح، فإذا صلوا قبل العشاء الآخرة لا تكون هي صلاة التراويح، فمن صلاها قبل العشاء فقد سلك سبيل المبتدعة المخالفين للسنة) (3)

لكنهم مع ذلك راحوا إلى كل ما يمارسه المسلمون من اجتماع على ذكر الله وقراءة القرآن الكريم يبدعونه، بل يعتبرونه من بدع الضلالة مع كون النصوص الواردة في هذه المحال مطلقة لا مقيدة.. بحيث تسمح لكل شخص بأن يمارس هذه الأنواع من الشعائر من غير قيود محددة لا بوقت ولا بهيئة ولا بعدد أو نحو ذلك.

بل إن منها ما يدل على مشروعية الأداء الجماعي لها، وهو ما يمكن استنباطه من قوله تعالى: ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ﴾ [البقرة: 152]، وقوله: ﴿الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِهِمْ﴾ [آل عمران: 191]، وقوله: ﴿وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: 35]، وقوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا (41) وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ [الأحزاب: 41، 42]

ووجه الدلالة فيها واضح، وهو أن الله خاطب المؤمنين بصيغة الجمع التي لا تفيد فقط الأمر بأداء المطلوب، وإنما يضم إليه التعاون الجماعي عليه.

ومثل ذلك قوله تعالى: ﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا﴾ [آل عمران: 103]، والأمر فيها واضح في الاعتصام بحبل الله، ومن حبله الذكر.

ومثل ذلك ما ورد من الأحاديث الشريفة التي يوردها الصوفية عادة كدليل على استحباب الذكر الجماعي والحث عليه.

ومنها: قوله ﷺ: (إن لله ملائكة يطوفون في الطريق يلتمسون أهل الذكر فإذا وجدوا قوما يذكرون الله تنادوا: هلموا إلى حاجتكم. قال فيحفونهم بأجنحتهم إلى السماء الدنيا قال: فيسألهم ربهم – وهو أعلم بهم – ما يقول عبادي؟ قال: يقولون يسبحونك ويكبرونك ويحمدونك ويمجدونك قال فيقول هل رأوني؟ قال فيقولون لا والله ما رأوك قال فيقول كيف لو

(1) الفتوى الحموية ص 444.

(2) الحجة في بيان المحجة 2/409.

(3) مجموع الفتاوى 23/120، 121.

رأوني؟ قال يقولون لو رأوك كانوا أشد لك عبادة وأشد لك تمجيدا وأكثر لك تسبيحا اقل يقول فما يسألوني؟ قال يسألونك الجنة قال يقول وهل رأوها؟ قال يقولون لا والله يا رب ما رأوها قال يقول فكيف لو أنهم رأوها؟ قال يقولون لو أنهم رأوها كانوا أشد عليها حرصا وأشد لها طلبا وأعظم فيها رغبة قال: فمم يتعوذون؟ قال يقولون من النار قال يقول وهل رأوها؟ قال يقولون لا والله ما رأوها قال يقول فكيف لو رأوها؟ فقال: يقولون لو رأوها كانوا أشد منها فرارا وأشد لها مخافة قال فيقول فأشهدكم أني قد غفرت لهم قال يقول ملك من الملائكة: فيهم فلان ليس منهم إنما جاء لحاجة قال هم الجلساء لا يشقى بهم جليسهم)(1)

وقد عقب على هذا الحديث الشيخ ابن عليوة في معرض رده على السلفي المخالف بقوله: (فانظر بارك الله فيك هذه الجماعة التي أخبرت بها ملائكة ربّ العالمين، أليست هي نظيرة النكير فيما قال الله سبحانه وتعالى يوسّع على الذاكرين، ويعدهم بما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر، وأنتم قابلتموهم بالنقمة نظير ما قابلهم الله به من رحمة، فما بالك تركت ما أفتى به الحقّ سبحانه وتعالى في أهل مجالس الذكر على لسان رسوله، وبموجب لما وراء ذلك، فأخذت تقابل الشيء بنقيضه، أو ليس هذا منك تحريفا في شرع الله؟)(2)

ومنها قوله ﷺ: (إذا مررتم برياض الجنة فارتعوا قالوا يا رسول الله وما رياض الجنة؟ قال: حلق الذكر)(3)

ومنها ما رواه عبد الرحمن بن سهل بن حنيف قال: نزلت على رسول الله ﷺ وهو في بضع أبياته: ﴿وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ﴾ [الكهف: 28]، فخرج يلتمسهم فوجد قومه يذكرون الله تعالى منهم ثائر الرأس، وجاف الجلد وذو الثوب الواحد فلما رآهم جلس معهم وقال: (الحمد لله الذي جعل في أمتي من أمرني أن أصبر نفسي معهم)(4)

وقد اعتبر الشيخ ابن عليوة هذا الحديث كاف في إثبات سنية ما يفعله الصوفية من الاجتماع على الذكر، فقال في خطابه لعثمان بن المكي السلفي: (ثمّ أقول: ولعلّك قد كنت في غفلة عن هذا فقد يقول الحقّ لك: ﴿فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ

1() صحيح البخاري (8/ 108)
2() ابن عليوة، القول المعروف في الرد على من أنكر التصوف، ص34.
3() سنن الترمذي (5/ 532)
4() مسند البزار (18/ 89)

فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ [ق: 22]،ـ فتأمّل ما جـاءك عن الرسـول إن كنت تزعم أنّك من أمتّه، فحديث واحد يكفيك العمل بـه في مشروعيّة مجالس الذكر، والذي يزيدك يقينا من أنّها كانت على عهد النبّي ﷺ)(1)

ثم ذكر الحديث، وعقب عليه بقوله: (أو لا يكفيـك هـذا في مشروعيّة مجالس الـذكر في زمانـه ﷺ)(2)، ومـا ذكـره الشـيخ ابن عليوة صـحيح، فللأسـف نجـد الكثـير من المسـائل يجوزهـا الفقهاء، وليس لهم من دليـل عليهـا سـوى قيـاس بعيد، أو سـد الـذرائع، فـإذا جـاءوا لمثـل هـذه المسـائل تشـددوا وتحرجـوا وتورعوا ورعا باردا.

ومنها ما رواه أبو سعيد الخـدري أن رسـول اللـه ﷺ قـال: يقول الله عز وجل يوم القيامة: (سـيعلم أهـل الجمـع من أهـل الكـرم) فقيل: ومن أهـل الكـرم يـا رسـول الله؟ قـال: (أهـل مجالس الذكر)(3)

ومنها ما رواه أنس بن مالك قال: كان عبدالله بن رواحة إذا لقي الرجل من أصحاب رسول الله ﷺ قـال: تعـال نـؤمن بربنـا ساعة فقال ذات يوم لرجل فغضب الرجـل فجـاء إلى النـبي ﷺ فقال: يا رسول الله ألا ترى إلى ابن رواحـة يـرغب عن إيمانـك إلى إيمان ساعة فقال النبي ﷺ: (يرحم الله ابن رواحة إنه يحب المجالس التي تتباهى بها الملائكة)(4)

ومنها قوله ﷺ: (يقول الله تعالى: أنـا عنـد ظن عبـدي بي... وإن ذكرني في ملأ ذكرته في ملأ خير منه)(5)

ومنهـا قولـه ﷺ: (لا يقعـد قـوم يـذكرون اللـه عـز وجـل إلا حفتهم الملائكة وغشـــيتهم الرحمـــة ونـــزلت عليهم الســـكينة وذكرهم الله فيمن عنده)(6)

ومنها قوله ﷺ: (ما من قوم اجتمعوا يذكرون الله عـز وجـل لا يريدون بذلك إلا وجهه إلا ناداهم منـاد من السـماء أن قومـوا مغفورا لكم قد بدلت سيئاتكم حسنات)(7)

وبناء على هذه الأحاديث وغيرها جرت الأعراف بأن يجتمـع المسلمون في مسـاجدهم أو زوايـاهم أو بيـوتهم يـذكرون الله، ويصـلون على رسـول اللـه ﷺ، لينعمـوا بالروحانيـة الاجتماعيـة التي تزيد عقد الأخوة بينهم متانة، بل تحـول علاقتهم إلى أخـوة

1() ابن عليوة، القول المعروف: ص37.
2() ابن عليوة، القول المعروف: ص37.
3() مسند أحمد بن حنبل (3/ 68)
4() مسند أحمد بن حنبل (3/ 265)
5() صحيح البخاري (9/ 148)
6() صحيح مسلم (8/ 72)
7() مسند أحمد بن حنبل (3/ 142)

في الله، لا مجرد علاقات اجتماعية عادية.

لكن السلفية لا يحبـون أن يجتمـع المسـلمون على عبـادة الله.. فلذلك لم يكتفوا بقبول الخلاف في المسألة.. ولم يكتفوا بتحريم اجتماعهم فقط.. بل راحوا يحكمون على ذلـك بالبدعة.. وبكونها بدعة ضلالة.. وأن الممارسين لتلك العبادات في النار..

وهم يروون في ذلك عن سلفهم الفضـل بن مهـران قـال: سـألت يحـيى بن معين وأحمـد بن حنبـل قلت: إن عنـدنا قومـاً يجتمعون، فيدعون، ويقرأون القرآن، ويذكرون الله تعـالى، فمـا ترى فيهم؟ قال: فأما يحيى بن معين فقال: يقـرأ في مصـحف، ويدعو بعد الصلاة، ويـذكر اللـه في نفسه، قلت: فـأخ لي يفعـل ذلك. قـــال: أنهه، قلت: لا يقبل، قـــال: عظه. قلت: لا يقبل. أهجـره؟ قـال: نعم. ثم أتيت أحمـد فحكيت لـه نحـو هـذا الكلام فقال لي أحمد أيضاً: يقرأ في المصحف ويـذكر اللـه في نفسـه ويطلب حديث رسول الله. قلت: فأنهاه؟ قال: نعم. قلت: فـإن لم يقبل؟ قـال: بلى إن شـاء الله، فـإن هـذا محـدث، الاجتمـاع والذي تصف)(1)

أمـا المحـدثون منهم، فقـد كـثرت فتـاواهم في ذلك، قـال الشيخ صالح الفوزان: (البدع التي أحـدثت في مجـال العبـادات في هـذا الزمـان كثـيرة، لأن الأصـل في العبـادات التوقيف، فلا يشرع شيء منها إلا بدليل. وما لم يدل عليه دليـل فهـو بدعة... ثم ذكر بعض البدع. وقال: ومنها الذكر الجماعي بعد الصلاة لأن المشروع أن كل شخص يقول الذكر الوارد منفردا)(2)

وقد ورد للجنة الدائمـة هـذا السـؤال: (نـود من سـماحتكم الإفادة عن حكم التكبير في أيـام التشـريق وأيـام عيـد رمضـان المبارك جماعيا، وذلك بأن يقول الإمام بعد كل صلاة: الله أكبر، الله أكبر، الله أكـبر، لا إلـه إلا الله، اللـه أكـبر، اللـه أكـبر وللـه الحمد. ثم يردد الجماعة بصـوت واحـد ومرتفـع بلحن يكررونهـا ثلاث مرات بعد كل صلاة، ولمدة ثلاثة أيام، علما بأن ذلك سـائد في بعض قرى المنطقة الجنوبيـة)، فأجـابت: (التكبـير مشـروع في ليلـــتي العيـــدين، وفي عشـــر ذي الحجـــة مطلقا، وعقب الصـلوات من فجـر يـوم عرفـة إلى آخـر أيـام التشـريق.. لكن التكبير الجماعي بصـوت واحـد ليس بمشـروع بـل ذلـك بدعة.. ولم يفعله السلف الصالح، لا من الصـحابة، ولا من التـابعين ولا تابعيهم، وهم القدوة، والواجب الاتباع، وعدم الابتداع في الدين)(3)

والسلفية لا يراعون في هذا أي واقـع حـتى لـو كـان واقـع

1() الآداب الشرعية (2 / 75)
2() الإرشاد إلى صحيح الاعتقاد (ص 389)
3() فتاوى اللجنة الدائمة (8/ 311)

شعب مستعمر استعمل عدوه معه كل الوسائل ليعزله عن هويته.. فلجأ الأذكياء من أهله إلى إحياء كل المناسبات التي تجمع المسلمين على ذكر الله.

ولهذا كان من أكبر من واجه هذه العادات الطيبة في المجتمع الجزائري إبان الاستعمار هي جمعية العلماء المسلمين الجزائريين نتيجة تبعيتها المطلقة للفكر السلفي والوهابي خصوصا.

ونحب هنا أن نسوق بعض الردود التي ذكرها شيخ كبير من مشايخ الصوفية في الجزائر في ذلك الحين، لنقارن بين الرؤيتين: الرؤية السلفية الحرفية المتحجرة المصطدمة بكل مقاصد الشريعة، وبين الرؤية الأخرى المنفتحة على النصوص جميعا.. وعلى الواقع بجميع أشكاله.

يقول الشيخ مخطابا بأدب مخالفيه من سلفية الجمعية وغيرهم، بعد أن أورد الكثير من النصوص الدالة على استحباب الذكر الجماعي: (وإذا تقرّر لديك ما تقدّم من الترغيب في مجالس الذكر، فقل لي: بالله عليك أين يوجد هذا الاجتماع المرغب فيه؟، هل هو في غير البسيطة، أم هو في غير أمّة محمد ﷺ؟، أم هو يسمع ولا يرى؟)[1]

وهذا رد مهم جدا، وهو يدل على مدى فقه الشيخ ابن عليوة، ذلك أن من حكمة الله أن الدين لا يزال قائما يتمثل في طوائف الأمة جميعا ومذاهبها، فإذا وجدنا أن رسول الله ﷺ حدثنا عن وجود مجالس الذكر – لا التذكير- فهذا يعني أنها موجودة، فنبحث عن مصداقها الواقعي في الأمة، ولا يوجد مصداق واقعي لهذه المجالس إلا عند الصوفية، لأن غيرهم وإن جلس مجالس العلم والوعظ، واعتبرها مجالس ذكر لم يسلم له، فالذكر مصطلح شرعي له دلالته الخاصة، ولا تنفى الدلالة الخاصة بالدلالة العامة، لأن في ذلك نوع من تمييع المصطلحات الشرعية.

ثم رد الشيخ على عثمان بن المكي برد آخر أقوى، وهو ما تحدثه تلك المجالس من وحدة اجتماعية، وألفة روحية تعجز مجالس العلم عن إحداثها، بل لا نرى أكثر مجالس العلم للأسف لا تحدث إلا الشقاق والجدال والتناحر والانقسام، يقول الشيخ ابن عليوة: (وفي ظنّي إنّك احتقرت المنتسبين المجتمعين على الذكر، وإلاّ حسدتهم فيما هم عليه، أليس وهم المتحابّين الذين يقول فيهم الحقّ سبحانه وتعالى يوم القيامة

1() ابن عليوة، أعذب المناهل في الأجوبة والمسائل، نقلا عن: صفحات مطوية في التصوف الإسلامي، ص162.

ويناديهم، فعن معاذ بن جبل، قال: قال رسول الله ﷺ: (يقــول الله عزّ وجلّ: المتحابّون في جلالي لهم منـابر من نــور يغبطهم النبيّيون والشهداء) (1) رواه الإمام أحمد في مسنده، والترمــذي في ســننه، ألم تعلم أن محبّــة اللــه هي عبـارة عن حبّ الــذكر والذاكرين؟، ألم تعلم أنّ الله يغـير على أهـل نسـبته ولـو كـانوا كاذبين؟)(2)

بل إن السلفية ولعـدم فقههم للنصـوص الشـرعية، وعـدم مراعاتهم لمقاصد الشريعة من العبادات راحــوا إلى التلبيــة في الحج يفرضون على الأمة أن تؤديهـا أداء منفـردا لا أداء جماعيا، لأن الأداء الجماعي لها يرمز إلى الوحدة الإسلامية، والسلفية لا يحبون أن تتوحد الأمة إلا عليهم.

فقــد ســئلت اللجنــة الدائمــة للإفتــاء: (مــا حكم التلبيــة الجماعيــة للحجــاج؟ حيث أحــدهم يلــبي والآخــرين يتبعونه؟)، فأجــابت: (لا يجــوز ذلك، لعــدم وروده عن النــبي ﷺ، ولا عن خلفائه الراشدين رضوان الله عليهم، بل هو بدعة)(3)

وقـال الشـيخ محمـد بن صـالح العـثيمين: (بعض الحجـاج يلبون بصوت جماعي، فيتقدم واحد منهم أو يكـون في الوسـط أو في الخلف ويلبي ثم يتبعونه بصـوت واحد، وهـذا لم يـرد عن الصـحابة، بل قـال أنس بن مالـك: كنا مع النـبي ﷺ - يعـني في حجة الــوداع- فمنا المكبّر، ومنا المهلّل، ومنا الملبِّي، وهــذا هو المشروع للمسلمين؛ أن يلبي كـل واحـد بنفسه، وألا يكـون لـه تعلق بغيره)(4)

وسئل: ما حكم التلبية الجماعية للحجـاج؟ فأجـاب: (هـؤلاء أيضا عملهم لا أصل له في السنة، وهو بدعة ينبغي على طـالب العلم أن يبين لهم هذا، وأنه ليس من هدي النبي ﷺ)(5)

وبذلك لم يترك السـلفية وتـراثهم شـيئا من شـعائر الـدين يربـط المسـلمين بعضـهم ببعض إلا سـعوا لهدمه، ليحلـوا بدلـه شعائرهم الممتلئة بالغرور والكبرياء والعتو.

ثانيا ـ أحكام الجوانب الشخصية:

نقصد بالجوانب الشخصية تلك الأمور التي ترتبط بالإنسان ورغباته وطموحاتـه المباحة، والـتي أعطتهـا الشـريعة السـمحة الكثــير من الحرية، حــتى لا تضــيق بالإنســان نفسه، ولا يشــعر بالحرج نتيجة التزامه بدينه.

1() سنن الترمذي (4/ 597)
2() ابن عليوة، القول المعروف في الرد على من أنكر التصوف، ص34.
3() فتاوى اللجنة الدائمة (11/ 358)
4() فقه العبادات ص 343.
5() دليل الأخطاء التي يقع فيها الحاج والمعتمر ص 43.

ولهذا وصف الله تعالى رسوله ﷺ كما بشر به الأنبياء السابقون، فقال: ﴿ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ﴾ [الأعراف: 156 - 157]

ومثله قوله تعالى: ﴿ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ﴾، وقوله تعالى: ﴿رَبَّنَا وَلاَ تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِنَا﴾ [البقرة: 286] يدل على ما كان في الديانات السابقة ـ خاصة اليهودية ـ من أنواع الأغلال التي كلفوا بها بسبب عنتهم وجدلهم مع أنبيائهم، كما قال تعالى: ﴿فَبِظُلْمٍ مِنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ كَثِيرًا﴾ [النساء: 160]،ـ وقال في بيان أنواع من المحرمات عليهم بسبب بغيهم: ﴿وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا كُلَّ ذِي ظُفُرٍ وَمِنَ الْبَقَرِ وَالْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَا إِلاَّ مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَا أَوِ الْحَوَايَا أَوْ مَا اخْتَلَطَ بِعَظْمٍ ذَلِكَ جَزَيْنَاهُمْ بِبَغْيِهِمْ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ﴾ [الأنعام: 146].

بناء على هذا جاءت النصوص الكثيرة تبين حل كل ما يمارسه الناس في جوانبهم الشخصية من أنواع الاختيارات ما دام ذلك لا يضرهم هم ولا مجتمعهم.. بل ورد الأمر بأخذ الزينة والاهتمام بالهندام، كما قال تعالى: ﴿يَا بَنِي آدَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾ (الأعراف: 31)

وقال ـ مخاطبا أولئك المتكلفين الذين يحرمون ما أحل الله ـ: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللّهِ الَّتِيَ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالْطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِي لِلَّذِينَ آمَنُواْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ (الأعراف: 32)

هذه هي الرؤية القرآنية لهذا الجانب الخطير من جوانب الحياة.. أما الرؤية السلفية له، فمختلفة تماما، فهي لا تنشئ إنسانا سويا طبيعيا يمارس تدينه الراقي بلطف ومودة ومحبة، من دون أن يصطدم مع تلك الرغبات الطبيعية التي جعلها الله فيه.. بل هي تنشئ إنسانا مريضا معقدا منفصلا عن نفسه وعن المجتمع.. ولذلك تكثر العقد النفسية عند هذا النوع من المتدينين، وهذا ما يجعلهم فريسة سهلة لتبني الجماعات السلفية المسلحة لهم.

لأن أول ما ينشئه تدينهم فيهم هو السخط على المجتمع الذي لم يستطيعوا أن يجمعوا بين تدينهم وبين التعايش الطبيعي معه.. فلذلك ينقمون عليه.. ولذلك يلجأون إلى الجماعات المسلحة التي تحولهم إلى قنابل موقوتة تهدم بها

أخضر مجتمعهم ويابسه.

بناء على هذا، سنذكر صورة الحياة الشخصية للرجل والمرأة كما يبرزها التراث السلفي، وخاصة الحديث منه:

1 ـ أحكام الرجال:

ينطلق السلفيون في تصورهم لأحكام الرجل من صورة خاطئة ممتلئة بالكثافة والتجسيم لرسول الله ﷺ.. فرسول الله ﷺ عندهم مختصر في تلك الصورة الحسية التي نقلها لهم سلفهم، ومختصرة في ذلك المظهر الذي كان يخرج به إلى الناس، ولذلك تجدهم يحرصون على تبني ذلك المظهر، واختصار السنة فيه.. حتى صارت السنة عندهم مجرد لحية طويلة، ولباس قصير، وعقل فارغ.

والرجل عندهم هو الذي لا يهتم إلا بذلك.. فلا همة له في علم، ولا طموح له في رقي فكري، أو رقي حضاري، أو أن يخترع شيئا يقدمه للإنسانية، أو يكتشف اكتشافا يعز به الإسلام.. بل يحتاج ـ حتى يطبق السنة ليكون سلفيا حقيقيا ـ إلى أن يقتل كل طموحات جيله، ويقبع في بعض المساجد يلقن الناس السنة ويرد على الجهمية والمعطلة وكل الناس.

وحتى لا يكون كلامي هذا مجرد دعوى، فسأنقل هنا من كلام كبارهم من المعاصرين وبياناتهم وفتاواتهم ما يدل على بعض ذلك:

فمن فتاواهم في هذا المجال حرمة تعلم اللغات الأجنبية، لأنها لغات كفار.. وهم يستدلون لهذا بما ذكره ابن تيمية من اعتبار تعلم اللغات الأجنبية تشبها بالكفار، كما قال في كتابه [اقتضاء الصراط المستقيم لمخالفة أصحاب الجحيم]: (.. فإذا نهت الشريعة عن مشابهة الأعاجم؛ دخل في ذلك ما عليه الأعاجم الكفار، قديما وحديثا، ودخل فيه ما عليه الأعاجم المسلمون، مما لم يكن عليه السابقون الأولون، كما يدخل في مسمى الجاهلية العربية ما كان عليه أهل الجاهلية قبل الإسلام، وما عاد إليه كثير من العرب من الجاهلية التي كانوا عليها. ومن تشبه من العرب بالعجم لحق بهم، ومن تشبه من العجم بالعرب لحق بهم، ولهذا كان الذين تناولوا العلم والإيمان من أبناء فارس، إنما حصل ذلك بمتابعتهم للدين الحنيف، بلوازمه من العربية وغيرها. ومن نقص من العرب إنما هو بتخلفهم عن هذا، وإما بموافقتهم للعجم، فيما السنة أن يخالفوا فيه، فهذا وجه.. وأيضا فإن الله تعالى لما أنزل كتابه باللسان العربي، وجعل رسوله مبلغا عنه للكتاب والحكمة بلسانه العربي، وجعل السابقين إلى هذا الدين متكلمين به؛ لم يكن سبيل إلى ضبط الدين ومعرفته إلا بضبط اللسان، وصارت

معرفته من الدين، وصار اعتبار التكلم به أسهل على أهل الدين في معرفة دين الله، وأقرب إلى إقامة شعائر الدين، وأقرب إلى مشابهتهم للسابقين الأولين من المهاجرين والأنصار، في جميع أمورهم)(1)

وبناء على هذا جاءت الفتاوى السلفية تستنكر تعلم اللغات الأجنبية، بل تعتبره من النفاق، يقول ابن العثيمين في شرحه لزاد المستقنع: (.. ومعلوم أن اعتياد التكلم بغير العربية حتى يكون عادة أمر غير مشروع لأن يورث محبة أهل تلك اللغة من الكفرة وهو مخالف لعقيدة الولاء والبراء من الكفار. قال شيخ الإسلام ابن تيمية: (واعلم أن اعتياد اللغة يؤثر في العقل والخلق والدين تأثيرًا قويًا بينًا، ويؤثر أيضاً في مشابهة صدر هذه الأمة من الصحابة والتابعين، ومشابهتهم تزيد في العقل والدين والخلق).. والذي أراه أن الذي يعلم صبيّه اللغة الإنجليزية منذ الصغر سوف يُحاسب عليه يوم القيامة؛ لأنه يؤدي إلى محبة الطفل لهذه اللغة، ثم محبة من ينطق بها من الناس؛ هذا من أدخل أولاده منذ الصغر لتعلم اللغة الإنجليزية أو غيرها من اللغات، فليتق الله من يريد جلب هذه اللغة إلى أبناء المسلمين، والله الله أن يضيع من يعول، وليتذكر قوله ﷺ: (ما من عبد يسترعيه الله رعية يموت يوم يموت وهو غاشٌ لرعيته إلا حرم الله عليه الجنة) رواه مسلم. اللهم هل بلغت؟ اللهم فاشهد)(2)

ومن فتاواهم في هذا المجال حرمة التعلم في المدارس والجامعات المختلطة.. ولو طبقنا فتاواهم في هذا الجانب، فسيحرم كل شاب سلفي من الدراسة في أي ثانوية أو جامعة، لأنهم يشترطون أن تكون هذه الثانويات أو الجامعات غير مختلطة، وهذا لا يكاد يوجد.. ويشترطون أيضا أن لا تعلم علوم الكفار.. أي أنهم في الجغرافيا والفلك لا يجوز أن يذكروا أن الأرض تدور حول الشمس.. لأن ذلك من علوم الكفار.

ولو طبق أي سلفي هذين الضابطين فقط، فإنه سيتوقف عن الدراسة في أي ثانوية أو جامعة..

ومن فتاوى اللجنة الدائمة في هذا: (اختلاط الطلاب بالطالبات والمدرسين بالمدرسات في دور التعليم محرم لما يفضي إليه من الفتنة وإثارة الشهوة والوقوع في الفاحشة، ويتضاعف الإثم وتعظم الجريمة إذا كشفت المدرسات أو

1() اقتضاء الصراط المستقيم لمخالفة أصحاب الجحيم (1/ 449)

2() شرح زاد المستقنع – كتاب النكاح – الشريط الثاني الوجه الثاني، وهو في الكتاب المطبوع مع بعض التغيير، انظر: الشرح الممتع على زاد المستقنع (12/ 43)

التلميذات شيئاً من عوراتهن، أو لبسن ملابس شفافة تشف عما وراءها، أو لبسن ملابس ضيقة تحدد أعضاءهن، أو داعبن الطلاب أو الأساتذة ومزحن معهم أو نحو ذلك مما يفضي إلى انتهاك الحرمات والفوضى في الأعراض)(1)

وسئل الشيخ ابن عثيمين: هل يجوز للرجل أن يدرس في جامعة يختلط فيها الرجال والنساء في قاعة واحدة علماً بأن الطالب له دور في الدعوة إلى الله؟ فأجاب: (الذي أراه أنه لا يجوز للإنسان رجلاً كان أو امرأة أن يدرس بمدارس مختلطة؛ وذلك لما فيه من الخطر العظيم على عفته ونزاهته وأخلاقه، فإن الإنسان مهما كان من النزاهة والأخلاق والبراءة إذا كان إلى جانبه في الكرسي الذي هو فيه امرأة – ولا سيما إذا كانت جميلة ومتبرجة – لا يكاد يسلم من الفتنة والشر، وكل ما أدى إلى الفتنة والشر: فإنه حرام ولا يجوز، فنسأل الله - سبحانه وتعالى - لإخواننا المسلمين أن يعصمهم من مثل هذه الأمور التي لا تعود إلى شبابهم إلا بالشر والفتنة والفساد، حتى وإن لم يجد إلا هذه الجامعة يترك الدراسة إلى بلد آخر ليس فيه هذا الاختلاط، فأنا لا أرى جواز هذا)(2)

وسئل الشيخ ربيع بن هادي المدخلي هذا السؤال: (انتشرت في بلادنا فتوى تحريم الدراسة في المدارس والجامعات المختلطة، فانقطع بعض الإخوة على اختلاف سنهم عن الدراسة ولكنهم تعرضوا لاضطهاد من والديهم يتمثل في الطرد من البيت والضرب والشتم واللعن والسباب فماهي نصيحتكم لهؤلاء الشباب حفظكم الله؟)

فأجاب بقوله: (العلماء يا أخي أفتوا بتحريم الاختلاط لما فيه من المفاسد الكثيرة، وهذا شيء معروف وملموس.. الآن الوظائف الحكومية ما لها قيمة، يتخرج بالشهادة ولا تنفعه، فيضيع دينه ودنياه بدون جدوى، فالأولى له أن يحافظ على دينه، والعوض عند الله في الآخرة، جنة عرضها السموات والأرض أعدت للمتقين، وهذا الذي يحصل دنيا، ويدرس في الاختلاط قد يهلك، يفسد في دينه، ويحرم من الدنيا. فننصح هؤلاء أن يصبروا، يؤذيه أبوه يومين أو ثلاثة وبعدها يتركه، يحاول إقناع أبيه بأن هذا دين الله، وأن الله حرم هذا، والعلماء أفتوا بتحريم هذا، وأنا أتضرر، يفسد ديني ودنياي.. يعني يقتنع، وإذا لم يقتنع يغضب أياماً ثم يرضى، فلابد أن يصبروا، يصبروا ويتعلموا، يطلبون العلم في المساجد على مشايخ العلم.

---

(1) فتاوى إسلامية (3 / 102، 103)
(2) فتاوى إسلامية (3 / 103)

العلم قال الله قال رسوله قال الصحابة ليس بالتمويه

ما العلم نصبك للخلاف سفاهة بين الرسول وبين رأي فقيه(1)

وسئل الشيخ عبيد الجابري: عن الدراسة في المدارس المختلطة بين البنين والبنات؟ فأجاب: (إذا كان ما توجد إلا هذه المدارس فلا تدرس فيها أولادك واجتهد بقدر ما تستطيع في تعليمهم القراءة والكتابة وتحفيظهم القرآن كتاب الله -تبارك وتعالى- هذا هو الذي يجب عليك نحوهم في التعليم، تعلمهم أحكام الشرع، تعلمهم كتاب الله -تبارك وتعالى- وأما بقية العلوم فهي من أمور التوسع فلا يدرسون في هذه المدارس وابحث لهم أو حاول الانتقال إذا ما وجدت في بلدك مدارس أهلية يكون فيها الفصل، حاول الانتقال إلى بلد أخرى، والله -سبحانه وتعالى- هو المعين)(2)

هذا بالنسبة لتحطيم طموحات الرجل السلفي العلمية.. أما تحطيمهم لحبه لتحسين مظهره، فيتجلى في فتاوى كثيرة خصصت لرسم صورة السلفي الذي لا يتجرأ حتى على تهذيب لحيته إذا طالت، أو أن يحلم بأن يلبس من الثياب ما يلبسه أترابه ومجتمعه، أو أن يحلم حتى بتغطية ساقيه إذا ألهبهما صقيع الشتاء، لأنه إن فعل ذلك، فسيصير مبتدعا وضالا، وسيهجره أصحابه، ويصدرون فتاوى تضليله.

ومن تلك الفتاوى ما أجاب به الشيخ محمد صالح المنجد هذا الشاب المسكين الذي جرته قدماه إليه ليسأله هذا السؤال البريء: (أنا شاب في التاسعة عشرة، وقد بدأت لحيتي بالنمو - ولله الحمد - لكنها متجعدة بعض الشيء فيما يلي الأذنين، ووالدتي تكره أن تراها على هذه الصورة، لذلك طلبت مني تقصيرها حتى تذهب تلك التجعدات، غير أني رفضت رغبة مني في إبقائها على ما هي عليه ودون تعرض لها، كما أنها تريدني أن أقصرها قليلاً من الأسفل حتى تتساوى من جميع الجهات. فلا أدري أيهما أولى بالتقديم، طاعتها أم ترك اللحية على ما هي عليه؟ علماً أنني قد استخدمت بعض الزيوت لإزالة تلك التجعدات لكن دون فائدة، ووالدتي تصر على موقفها، فما رأيكم؟)(3)

فأجابه الشيخ بكل غلظة قائلا: (يحرم حلق اللحية، كما يحرم الأخذ منها؛ لأن النبي ﷺ أمر بتوفيرها وإعفائها.. والمختار

(1) فتاوى فضيلة الشيخ ربيع بن هادي المدخلي (2/ 44)

(2) موقع ميراث الانبياء.

(3) انظر: موقع الإسلام سؤال وجواب، الشيخ محمد صالح المنجد، تم النشر بتاريخ: 27-09-2014.

تـرك اللحيـة على حالهـا وألا يتعـرض لهـا بتقصـير شـيء أصلا.. وقال علماء اللجنة الدائمة للإفتاء: (مـا يفعلـه بعض النـاس من حلق اللحيـة أو أخـذ شـيء من طولهـا وعرضـها فإنـه لا يجـوز؛ لمخالفة ذلك لهدي الرسول ﷺ وأمره بإعفائها، والأمـر يقتضـي الوجوب حتى يوجد صارف لذلك عن أصله، ولا نعلم ما يصـرفه عن ذلـك)(1).. وقـال الشـيخ ابن بـاز: (الـواجب: إعفـاء اللحية، وتوفيرها، وإرخاؤها، وعـدم التعـرض لهـا بشـيء، وأمـا مـا رواه الترمـذي عن النـبي ﷺ أنـه كـان يأخـذ من لحيتـه من طولهـا وعرضها. فهو خبر باطل عند أهـل العلم، فلا يجـوز للمـؤمن أن يتعلق بهذا الحديث الباطل، ولا أن يترخص بما يقوله بعض أهـل العلم، فإن السنة حاكمة على الجميـع)(2).. ووجـود جعـودة في بعض المواضع من اللحية ليس سببا للترخص في الأخذ منها، ما دامت لم تصل إلى حـد تشـويه الوجـه وتقبيحه، وتعاهـد اللحيـة بالتسريح، قـد يـذهب بهـذه الجعـودة، أو يخفـف منها، ولا يجـوز لأحد أن يأمر أحدا بحلق لحيته أو تقصيرها، فإن أمر الرسول ﷺ هو الملزم لكـل مسـلم، ولا طاعـة لأحـد إذا أمـر بمعصـية اللـه تعـالى، ومن بـدايات الطريق: أن تـدرب نفسـك على الالـتزام بأحكام الشـريعة، وعليـك بمـداراة والـدتك، والتلطـف في الـرد عليها، وبيان الحكم الشرعي لها بأدب ولطف) (3)

وسألته امرأة هذا السـؤال الـبريء: (زوجـة تـرى أن لحيـة زوجها غير جذابـة ومنظمة، فهـل لهـا أن تطلب منـه أن يزيلها؟ وهل تأثم بذلك؟)

فأجابها بهذه الغلظـة السـلفية: (يحـرم على الرجـل حلـق لحيته، وتقصيرها؛ للأدلة الآمرة بإعفائها.. والواجب على المؤمن أن يسلّم ويذعن لأمر اللـه تعـالى، وأمـر رسـوله ﷺ، وألا يكـون في نفسه حرج أو ضيق من ذلك.. وقـد أحسـن الـزوج بإعفائـه لحيته دون مبالاة بكونها جذابة أو غـير جذابة. ولا يجـوز للزوجـة أن تطلب منه حلقها أو تقصيرها، وتـأثم بـذلك؛ لأنهـا دعـوة إلى المعصية ومخالفـة الشـرع. ونصـيحتنا لهـا أن تتقبـل هـذا الأمـر براحة نفس وانشراح صدر، وأن تعلم أن امتثال أمر الشرع فيه الخير والفلاح والنجاح، وأن من أطلق لحيته فهـو متشـبه بسـيد ولد آدم ﷺ وبالأنبياء قبله، وبالصحابة والتابعين ومن بعـدهم من أهل الخير والفضل، فإن حلق اللحيـة لم يعـرف إلا في الأزمنـة المتأخرة جدا. وإن مما يعينها على قبول هـذا الأمـر أن تعلم أن اللـه يبتلي عبـاده بمـا شـاء من السـراء والضـراء كمـا قـال:

1() فتاوى اللجنة الدائمة (5 / 137)

2() مجموع فتاوى ابن باز (10 / 96-97)

3() انظر: موقع الإسلام سؤال وجواب، الشيخ محمد صالح المنجد، تم النشر بتاريخ: 27-09-2014.

ﱡوَنَبْلُوكُمْ بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَﱠ]الأنبياء: 35[، فإن كـانت تنفـر من اللحية، أولا يعجبهـا مظهـر زوجهـا بها: فلتصـبر على ذلك، وهي مأجورة إن شـاء الله، وحسـبها أن زوجهـا إنمـا أراد طاعة ربه وامتثال أمره)

ومن أعـاجيب فتـاواهم في هـذا المجـال اعتبـارهم حلـق اللحية من الكبائر مع كون مـا ورد فيهـا من الأدلـة لا يـدل على ذلك.. ومع كونهم يعتبرون الكثير من الكبـائر الحقيقـة صـغائر.. فقد سئل الشيخ ابن عثيمين: هل يعتبر حلق اللحية من الكبائر؟ فأجاب: (حلق اللحية من الكبائر باعتبار إصرار الحـالقين، يعـني أن الذين يحلقـون لحـاهم يصـرون على ذلك، ويسـتمرون عليه، ويجـاهرون بمخالفـة السـنة، فمن أجـل ذلـك صـار حلـق اللحى كبيرة من حيث الإصـرار عليه، أمـا الأحـاديث الـواردة في ذلـك فقـد أخـبر النـبيﷺ أنهـا من الفطـرة، أي أن إعفـاء اللحى من الفطـرة، وبنـاء على ذلـك يكـون مَنْ حلقهـا مخالفـاً لمـا فُطِـرَ النـاس عليه. ثانيـاً: أخـبر النـبي ﷺ أن حلـق اللحيـة من هـدي المجــوس والمشــركين، ونحن مــأمورون بمخالفــة المجــوس والمشركين، بل وكل كافر لقول النبي ﷺ: (مَنْ تشبه بقوم فهو منهم).. فالمســألة عظيمــة فنحن نخــاطب جميــع إخواننــا المسلمين أن يتقوا الله عز وجل، وأن يتمسكوا بهدي النــبي ﷺ حتى يؤجروا على ذلك، ويحصل لهم مـع طيب المظهـر باللحيـة التي جمَّل الله بها وجـه الرجـل الطيب المبطن، وطيب القلب، لأن الإنسان كلما ازداد تمسكاً بدين الله ازداد قلبه طيباً)[1]

ومثـل ذلـك اعتـبروا إطالـة الثـوب للرجـال من الكبائر.. فقد سـئل الشـيخ العـثيمين عن حكم إسـبال الثيـاب، فقال: (حكم إسبال الثياب للنساء لا بأس به لأنه ستر لأقدامهنّ وأما إسبال الثياب للرجال فإنه محرم بل هو من كبـائر الـذنوب ويقـع الإسـبال على وجهين: أحـداهما أن يكـون للخيلاء والفخـر والتعاظم فهذا جزاءه أن اللـه تعـالى لا يكلمـه يـوم القيامـة ولا ينظر إليه ولا يزكيه وله عذاب أليم.. أما الوجه الثـاني فـإن يقـع الإسبال لا على وجه الفخر والخيلاء فعقوبته أهون.. فإن صاحبه يعذب عليه بالنار، فيكـون العـذاب على قـدر النـازل من الثـوب على قدر النازل من الثـوب عن الكعـبين، وهـذه العقوبـة أهـون من العقوبـة الأولى، ومن ثم نقـول: إنـه لا يمكن أن يقيـد هـذا الحديث المطلق بالحديث السابق وهو من جـر ثوبـه خيلاء ذلـك لأن العقوبتين مختلفتان، وإذا اختلفت العقوبتان امتنع حمل أحد الحديثين على الآخر لأنه يلزم منه تكذيب أحداهما بالآخر عقوبة هذا كذا وعقوبة هذا كذا مع أن العمل واحد وبهذا نعـرف أن مـا

---

[1] فتاوى نور على الدرب.

يتعلل به بعض الناس إذا نهيته عن إسبال ثوبه أو سرواله أو مشلحه قال أنا لم أفعله خيلاء فهذا التعلل الذي يتعلل به لا وجه له، وذلك لأن العقوبتين مختلفتان فلا يحمل أحدهما على الأخر)(1)

وسئلت اللجنة الدائمة للفتوى هذا السؤال: (نهى النبي ﷺ عن السدل في اللباس، لكن إذا سدل الإنسان من غير عجب ولا كبرياء، فهل هذا حرام أيضا؟ كالملابس الأوربية التي نستعملها الآن، فإذا أنزل السروال عن الكعب قليلا فهل هذا يؤاخذنا الله عليه؟)

فأجابت: (إسبال الإزرة والقميص والسراويل ونحوها من الملابس وسدلها حتى تكون أسفل من الكعبين - حرام مطلقا، سواء قصد الخيلاء والإعجاب بالنفس أم لا؛ لكونه مظنة لذلك)(2)

والسلفية لا يكتفون برفع الثوب فوق الكعب فقط، بل يعتبرون الكمال في أن يصل رفع الثوب إلى نصف الساق.. ولا يهم أن يكون ذلك شتاء أو صيفا.. بل حتى لو كان في القطب الشمالي.. فقد سئلت اللجنة الدائمة للفتوى: (ما هي الحدود في جر الإزار وأين آخر جر الإزار؟)، فأجابت: (جر الإزار حرام على الرجال، ويعزر من يجر إزاره إذا لم يرتدع عن ذلك، وإزار المؤمن إلى نصف ساقيه، وما كان منه بين الساقين والكعبين فجائز، وما كان منه تحت الكعبين فحرام، يستحق فاعله العذاب في الآخرة، والتعزير في الدنيا)(3)

وهم لا يكتفون بتعزير من جر ثوبه فقط، بل يضيفون إليه تكفير من سخر أو ضحك ممن قصر ثوبه أو أطال لحيته.. فقد ورد في بعض فتاوى اللجنة الدائمة: (.. ومَن استهزأ بدين الإسلام، أو بالسنَّة الثابتة عن رسول الله ﷺ، كإعفاء اللحية، وتقصير الثوب إلى الكعبين، أو إلى نصف الساقين، وهو يعلم ثبوت ذلك: فهو كافر، ومن سخِر من المسلم، واستهزأ به، من أجل تمسكه بالإسلام: فهو كافر)(4)

وبذلك أصبح السلفي فتنة بين الناس.. فمن احتقره أو ضحك عليه أو سخر منه لم يعص بذلك فقط، كما هو مع سائر الناس، وإنما يكفر أيضا.. أما إن فعل السلفي ذلك فسخر من الآخرين أو استهزأ بهم، فلا حرج عليه، لأنهم مبتدعة والسخرية من المبتدعة جائزة، بل واجبة، فهي من مقتضيات الولاء والبراء.

---

(1) فتاوى نور على الدرب للعثيمين (22/ 2)
(2) فتاوى اللجنة الدائمة (24/ 6)
(3) فتاوى اللجنة الدائمة (24/ 8)
(4) فتاوى اللجنة الدائمة (2 / 43 ، 44)

ولهذا لا نستغرب تلك الأحقاد التي تملأ قلوب السلفية على المجتمع.. لأنهم ينظرون إلى كل ضحكة أو مزاح أو أي شيء يصدر من غيرهم احتقار للسنة وسخرية من الدين.. لأن السلفي هو الدين، والسخرية منه سخرية من الدين.

ولم يكتف السلفية بكل هذا التضييق.. بل راحوا إلى كل لباس يلبسه سائر الناس يحرمونه ويتشددون في تحريمه، بحجة أنه لم يلبسه السلف، أو لأنه لباس الكفار.. مع العلم أن كل الألبسة العصرية هي ملابس كفار.. فلم يبق من المباح إلا لباس السلف.

فمن تلك الألبسة المحرمة البرنيطة، والتي اعتبرها الشيخ التويجري لبسها من التشبه (بأعداء الله لبس البرنيطة التي هي من لباس الإفرنج ومَن أشبههم من أمم الكفر والضلال، وتسمى أيضًا القبعة، وقد افتُتِن بلبسها كثير من المنتسبين إلى الإسلام في كثيرٍ من الأقطار الإسلامية، ولا سيما البلدان التي فشتْ فيها الحريـة الإفرنجية وانطمست فيها أنوار الشريعة المحمدية.. ومن ذلك الاقتصار على لبس السترة والبنطلون، فالسترة قميصٌ صغيرٌ يبلغ أسفله إلى حدِّ السرَّة أو يزيد عن ذلك قليلاً، وهو من ملابس الإفرنج، والبنطلون اسمٌ للسراويل الإفرنجية، وقد عظمت البلوى بهذه المشابهة الذميمة في أكثر الأقطار الإسلامية.. ومَن جمع بين هذا اللباس وبين لبس البرنيطة فوق رأسه فلا فرق بينه وبين رجال الإفرنج في الشكل الظاهر، وإذا ضمَّ على ذلك حلق اللحية كان أتمَّ للمشابهة الظاهرة، ومَن تشبَّه بقوم فهو منهم) (1)

ثم راح التويجري ينتهج منهج سلفه في الرد على الشبهات المرتبطة بلبس البرنيطة، فقال: (فإن ادَّعى المتشبِّهون بأعداء الله تعالى أنهم إنما يلبسون البرنيطات لتكون وقاية لرؤوسهم من حرِّ الشمس، ويلبسون البنطلونات والقمص القصار لمباشرة الأعمال، قيل: هذه الدعوى حيلة على استحلال التشبُّه المحرَّم والحِيَل لا تُبِيح المحرَّمات، ومَن استحلَّ المحرمات بالحِيَل فقد تشبَّه باليهود)(2)

وهكذا أصبحت البرنيطة والسروال هي علامة اليهودية لا تحويل اليهود إلى مفسرين للقرآن وشارحين للعقيدة، وقد رأينا سابقا كيف أن هذا التويجري نفسه يجيز الرجوع لكتب اليهود للتعرف على صورة الله.

هذه نماذج عن التضييق والتشديد في الأحكام الفقهية المرتبطة بالرجل في التراث السلفي، وهي كما رأينا تنتج

1() الإيضاح والتبيين لما وقع فيه الأكثرون من مشابهة المشركين، ص74.
2() الإيضاح والتبيين لما وقع فيه الأكثرون من مشابهة المشركين، ص74.

شخصية معقدة ممتلئة بالأمراض النفسية، لتصبح فريسة سهلة للجماعات السلفية المسلحة..

2 ـ أحكام النساء:

مهما بلغ تضييق السلفية على الرجل، فإنه لن يبلغ معشار عشر ما ضيقوا به على المرأة.. فالمرأة عندهم عـورة في كـل شيء، ولهـذا فـإن أحسـن محـل لهـا أن تـدفن نفسـها في قـبر الحياة قبل أن يضمها قبر المماة.

وأول دفن لها حرمانها من العلم إلا تلـك العلـوم الشـرعية البسيطة التي تتلقاها من مشايخ السلفية، والتي بموجبها تصبح امرأة سلفية صالحة، ولا يحق لها أن تتجاوز ذلك.

فقـد سـئل الشـيخ محمـد ناصـر الـدين الألبـاني: (نحن مجموعة من طالبـات العلم مشـرفات على مدرسـة كبـيرة في تحفيظ القرآن وتعليم أحكامه، ماهي أهم الوسـائل في نظـركم الـتي يجب الإهتمـام بها، وتعليمهـا للنسـاء، علمـا بـأنهن على مستويات وأعمال مختلفة؟)

فأجاب: (لاشـك أنهن فيمـا يتعلـق بتعليم النسـاء إنمـا هي الأحكام الـتي تتعلـق بعلمهن – بصـفتهن نسـاء- فيعلمن أحكـام الحيض والنفاس وغسل النفاس، ومايتعلق بصـيامهن وصـلاتهن من الأحكام التي تتعلق بهن دون الرجال هذا من جهــة، ويعلمن مــايجب أن تكــون معــاملتهن لرجــالهن من حيث طــاعتهن وخدمتهن بما يتناسب مع قدرتهن، ولايسـتنكفن عن القيـام بمـا فـرض اللـه عليهن من الطاعـة الواجبـةكما جـاء في الحـديث الصـحيح: (إن المــرأةإذا صــلت خمســها، وأحصــنت فرجها، وأطاعت زوجها، دخلت جنة ربها من أي أبـواب الجنـة شـاءت)، فهذا مجمل ماينبغي أن تُعلّم النساء مما يخصـهن دونمـا يتعلـق بسواء ذلك. وخلاصـة الجـواب: أن يعلمن مـايجب عليهن علمـه بخصوصــهن من العلم، وليس العلم الكفــائي الــذي يجب على أهـل العلم فقـط من الرجـال دون النسـاء، أمـا التوسع: فـذلك يعود إلى نشاط المرأة في بيتها وإلى الظروف التي تحيـط بهـا من توفر الكتب والاطلاع عليها فهنا بإمكان المرأة والحالة هـذه أن توسع معلوماتها لمتابعتهـا الشخصـية، وأمـا أن تضـيع قسـما من عمرها قاعدة في دارهـا وبخاصـة إذا كـانت متزوجـة لأجـل العلم الــذي ليس علما، وإنمــا هــو فــرض كفــائي فقيامهــا على خدمة زوجها وخدمة أطفالها إن رزقت شيء من أولادهـا فـذلك أشرع لها وأفضل)(1)

وقال في موضع آخـر ينكـر بعض البـدع الـتي حصـلت في

---

(1) نقلامن جامع مسائل النساء(5-6)

عهده في دمشق: (وما شاع هنا في دمشق في الآونة الأخيرة من إتيان النساء للمساجد في أوقات معينة ليسمعن درسًا من إحداهن ممن يتسمون بالداعيات -زعمن- فذلك من الأمور المحدثة التي لم تكن في عهد النبي ﷺ، ولا في عهد السلف الصالحين، إنما المعهود أن يتولى تعليمهن العلماء الصالحون في مكان خاص كما في هذا الحديث أن رسول الله ﷺ وعظ النساء، أو في درس الرجال حجزة عنهم في المسجد، فإن وجد في النساء اليوم من أوتيت شيئًا من العلم والفقه السليم المستقى من الكتاب والسنة فلا بأس من أن تعقد لهن مجلسًا خاصًا في بيتها أو في بيت أحداهن، ذلك خير لهن، كيف لا والنبي ﷺ قال في صلاة الجماعة في المسجد: (وبيوتهن خير لهن)، فإذا كان الأمر هكذا في الصلاة... ألا يكون العلم في البيوت أولى لهن لاسيما وبعضهن ترفع صوتها وقد يشترك معها غيرها، فيكون دوي في المسجد قبيح ذميم، ثم رأيت هذه المحدثة قد تعدت إلى بعض البلاد)[1]

بالإضافة إلى هذا، فإن فتاواهم المتعلقة بالاختلاط والتي ذكرنا بعضها سابقا تكفي في حرمان المرأة من التعليم، لأنها تحتاج إلى أن تدرس في مدارس خاصة بالإناث ابتداء من التعليم الابتدائي، وذلك غير ميسر في أكثر دول العالم.

وقد سئل الشيخ محمد صالح المنجد هذا السؤال: (أنا فتاة أبلغ من العمر 16 عاماً، انتقلت مؤخراً إلى مدرسة جديدة، هل من الممكن أن تخبرني كيف يجب عليّ أن أتصرف في المدرسة علماً بأن نسبة الذكور إلى الإناث غير متكافئة)، فأجاب بقوله: (وجودك – أختي السائلة - في مدرسة مختلطة حرام في الشرع؛ لأن الخلطة التي وصفتيها تكون عُرضة وسبباً للفساد المفضي إلى الفواحش المنكرة، وقد حذر الرسول ﷺ في كثير من أحاديثه الرجال من فتنة النساء، وعظم أمرهن حتى جعل فتنتهن أشد الفتن وأشد المضرات.. وقال ابن القيم: (ولا ريب أن تمكين النساء من اختلاطهن بالرجال أصل كل بلية وشر وهو من أعظم أسباب نزول العقوبات العامة كما أنه من أسباب فساد أمور العامة والخاصة واختلاط الرجال بالنساء سبب لكثرة الفواحش والزنا وهو من أسباب الموت العام والطواعين المتصلة.. فمن أعظم أسباب الموت العام كثرة الزنا بسبب تمكين النساء من اختلاطهن بالرجال والمشي بينهم متبرجات متجملات ولو علم أولياء الأمر ما في ذلك من فساد الدنيا والرعية قبل الدين لكانوا أشد شيء منعا لذلك)

1() السلسلة الصحيحة) (6/401)

[1].. وفي الخلطـة الـتي ذكرتهـا عـدم التمكن من غض البصر، وفيه مدخل كبير لشهوة النساء للرجـال وشـهوتهم لهن وهـذا لا يجوز بل هو رأس الفساد.. فكيف بنا نسمح لنساء هـذا الزمـان الذي انتشرت فيه أمراض القلوب وقلَّ الوازع الديني أن تجلس المرأة مع الرجل في مكان واحد مع عـدم وجـود المحـرم وفي كل يوم لساعات طوال.. فاتقي الله تعالى يا أخـتي ولا تلتحقي بهذه المدرسة مهما كلف الأمر.. وليس هناك ضرورة تدعو إلى الخلطة، فالدراسة في هذه المدرسة ليست ضرورة مـا دام أن المرأة تستطيع القراءة والكتابة، وتعلم أمور دينهـا فهـذا يكفي؛ لأنها خلقت لهذا، أي: لعبـادة اللـه تعـالى وليس الـذي بعـد هـذا ضرورة)[2]

وسـئلت اللجنـة الدائمـة سـؤالا قريبـا من هـذا، فأجـابت: (اختلاط الطلاب بالطالبـات والمدرسـين بالمدرسـات في دور التعليم محرم لما يفضي إليه من الفتنة وإثارة الشهوة والوقـوع في الفاحشة، ويتضـاعف الإثم، وتعظم الجريمة، إذا كشـفت المدرسـات أو التلميـذات شـيئا من عـوراتهن، أو لبسـن ملابس شـفافة تشـف عمـا وراءها، أو لبسـن ملابس ضـيقة تحـدد أعضاءهن، أو داعبَّن الطلاب أو الأساتذة ومـزحن معهم أو نحـو ذلك مما يفضي إلى انتهاك الحرمـات والفوضـى في الأعـراض) [3]

وقـال الشـيخ بكـر بن عبـد اللـه أبـو زيد: (حُـرِّم الاختلاط، سـواء في التعليم، أم العمل، والمـؤتمرات، والنـدوات، والاجتماعات العامة والخاصة، وغيرها؛ لما يترتب عليه من هتـك الأعراض ومرض القلـوب، وخطـرات النفس، وخنوثـة الرجـال، واسـترجال النسـاء، وزوال الحيـاء، وتقلص العفـة والحشـمة، وانعدام الغيرة)[4]

بل إنه حتى لو توفرت مثل تلك المدارس، فإنهم يحرمـون وجود أساتذة ذكور فيها، فقد سئلت اللجنة الدائمة للفتـوى هـذا السـؤال: (هـل يجـوز أن يعلم الأسـتاذ الطالبـات، وليس بينـه وبينهن حجـاب، بـل يرونه، ويـراهن، وإن كـان لا يـرى وجـوه أكثرهن في الغالب؛ لأنهن مختمرات؟)

فأجابت: (أولاً: الاختلاط بين الرجال والنساء في المدارس أو غيرها من المنكرات العظيمة، والمفاسـد الكبـيرة في الـدين والدنيا، فلا يجوز للمرأة أن تـدرس أو تعمـل في مكـان مختلـط بالرجال والنساء، ولا يجـوز لوليهـا أن يـأذن لهـا بـذلك.. ثانيًا: لا

1() الطرق الحكمية (ص 408)
2() موقع الإسلام سؤال وجواب.
3() فتاوى اللجنة الدائمة (17/ 53)
4() حراسة الفضيلة، ص 97..

يجوز للرجل أن يعلم المرأة وهي ليست متحجبة، ولا يجوز أن يعلمها خاليًا بها، ولو كانت بحجاب شرعي، والمرأة عند الرجل الأجنبي منها كلها عورة، أما ستر الرأس وإظهار الوجه فليس بحجاب كامل.. ثالثًا: لا حرج في تعليم الرجل المرأة من وراء حجاب في مدارس خاصة بالنساء، لا اختلاط فيها بين الطلاب والطالبات، ولا المعلم والمتعلمات، وإن احتجن للتفاهم معه؛ فيكون عبر شبكات الاتصال المغلقة، وهي معروفة ومتيسرة، أو عبر الهاتف، لكن يجب أن يحذر الطالبات من الخضوع بالقول بتحسين الكلام وتليينه)(1)

هذا بخصوص موقفهم من تعليم المرأة، أما موقفهم من حب المرأة للتزين حتى في بيتها ولزوجها، فإنهم يتشددون في ذلك تشددا غريبا، فمن فتاوى الشيخ الألباني حول الماكياج الذي تستعمله المرأة في بيتها ولزوجها، قوله: (لا يجوز للمرأة غير المتحجبة فضلا عن المتحجبة أن تستعمل المكياج الكافر، المكياج الفاسق، متى عرفتم شيء من زينة النساء يسمى باسم ماأنزل الله به من سلطان [المكياج] هذه لغة مانعرفها لا نحن ولا أباؤكم من قبل، وإنما هو لفظة أجنبية تعبر عن زينة لفساق، نساء فاسقات، نساء أوربا، فتشبهت نساؤنا مع الأسف إلا من عصم الله منهن بالتزين بهذه الزينة التي تأثر المجتمع الإسلامي بها ألا وهي المكياج فلا يجوز للمرأة)(2)

وسئل الشيخ مقبل بن هادي الوادعي: (شاع في هذه الأيام بين النساء عند خروجهن حمل حقائب يدوية وأحيانا لا يكون فيها شيء وليست بحاجة إليها، فما حكم هذه العادة، وهل يكن متشبهات بالكافرات أم لا؟)، فأجاب بقوله: (إذا كان هذا الأمر جاء من قبل أعداء الإسلام فهو تشبه بأعداء الإسلام، ومن تشبه بقوم فهو منهم، وكثيرا مايغتر النسوة والشباب بأعداء الإسلام)(3)

وسئلت اللجنة الدائمة للفتوى عن لبس المرأة الكعب العالي، فأجابت: (لبس الكعب العالي لا يجوز؛ لأنه يعرض المرأة للسقوط، والإنسان مأمور شرعا بتجنب الأخطار)(4)

وسئلت: (هل يجوز للمرأة شرعا أن تقص شعرها؟)، فأجابت: (لا يجوز لها أن تقص أو تحلق شعر حواجبها أو شعر رأسها إلا لضرورة تدعو إلى ذلك كعلاج جروح بالرأس أو الحاجب يتوقف علاجها على قص الشعر أو بعضه فيجوز ذلك بقدر الحاجة، ويجب لها أن تزيل شعر وجهها وسائر جسدها

1() فتاوى اللجنة الدائمة (12/ 157)
2() سلسلة الهدى والنور شريط (697)
3() غارة الأشرطة (1/102)
4() فتاوى اللجنة الدائمة (17/ 123)

بنتف أو نورة أو نحو ذلك ما عدا الرأس والحاجبين)(1)

وسئلت عن (القصة ولف الرأس كالعمامة أو سدله على الظهر قرنان)، فأجابت: (جمع المرأة شعرها في أعلى رأسها لا يجوز لتحذير النبي ﷺ من ذلك.. وكذا جمع المرأة شعرها أو لفه حول رأسها حتى يصير كعمامة الرجل لا يجوز لما فيه من التشبه بالرجال، وأما جمعه وجعله قرنا واحدا أو أكثر وسدله على الظهر مضفورا وغير مضفور فلا حرج فيه ما دام مستورا عمن لا يحل لهم)(2)

وسئلت: (ما حكم عمل الرأس فرقة من الجنب وعمله ضفيره واحدة فقط تقصد بذلك التجمل لزوجها أو تقصد إظهارها بالمظهر اللائق؟)، فأجابت: (أما عمل الرأس فرقة من الجنب ففي ذلك تشبه بنساء الكفار، وقد ثبت تحريم التشبه بالكفار عن رسول الله ﷺ وأما عمله ضفيرة واحدة أو أكثر وسدله على ظهرها مضفورا أو غير مضفور فلا حرج فيه ما دام مستورا)(3)

وسئلت: (ما حكم الضفيرة الواحدة، فقد قيل لي إنها لا تجوز وأنها منهي عنها؟)، فأجابت: (جمع المرأة شعر رأسها وسدله وراءها جائز سواء جعلته ضفيرة واحدة أم أكثر أم سدلته وراءها غير مضفور لعدم ورود النهي عن ذلك)(4)

وسئل محمد بن صالح العثيمين: (هل يجوز للمرأة النشرة المائلة أم هي حرام؟)، فأجاب: (النشرة المائلة لا أتصورها لكن إذا كان المقصود فرق الرأس من جانبٍ واحد فإن هذا خلاف السنة أن يكون فرق الرأس من الوسط ليكون الشعر من الجانبين على السواء من جانب اليمين ومن جانب الشمال فهذا هو الذي ينبغي للمرأة أن تفعله أما فرقها من جانبٍ واحد فهذا لا ينبغي لا سيما إن كان يقتضي التشبه بغير المسلمات فإنه يكون حراما)(5)

هذا بالنسبة لشعرها الممتلئ بأصناف العورات، والذي ترتبط به في التراث السلفي الكثير من المحرمات.. أما صوتها.. فهو لا يقل عورة.. والمحرمات المرتبطة به كثيرة جدا، لذلك فإن الأسلم للمرأة أن تسد فمها بأي غراء لاصق، أو بأي وسيلة حتى لا ينبس لسانها بكلمة.

فقد سئلت اللجنة الدائمة للفتوى هذا السؤال: (ما حكم زغاريد النساء في الأفراح؟ وهل تحريمها إن كان ذلك لكون

1() فتاوى اللجنة الدائمة (5/ 201)
2() فتاوى اللجنة الدائمة (5/ 202)
3() فتاوى اللجنة الدائمة (5/ 203)
4() فتاوى اللجنة الدائمة (5/ 203)
5() فتاوى نور على الدرب (22/2)

صوت المرأة عورة أم لكونها زغاريد؟)، فأجابت: (منعت لأنها زغاريد، لا لأن كل صوت للمرأة عورة، بل العورة من صوتها ما كان فيه خضوع بالقول في حديثها؛ لما في ذلك من إغراء الرجال بها، وطمعهم فيها)(1)

وقال الشيخ صالح بن فوزان بن عبد الله الفوزان: (لا يجوز للمرأة رفع صوتها بحضرة الرجال؛ لأن في صوتها فتنة؛ لا بالزغردة، ولا غيرها، ثم إن الزغردة ليست معروفة عند كثير من المسلمين لا قديمًا ولا حديثًا؛ فهي من العادات السيئة التي ينبغي تركها، ولما تدل عليه أيضًا من قلة الحياء)(2)

وسئل عبد المحسن العباد: (هل صوت المرأة عورة؟)، فأجاب: (صوت المرأة إذا كان يتلذذ به فإنه يكون عورة ولا يجوز سماعه، وأما إذا لم يكن كذلك فيجوز للحاجة وعلى قدر الحاجة، ولا يجوز الاسترسال فيه في التلفون ولا في غير التلفون، وإنما عند الحاجة يتكلم مع المرأة في الأمر الذي يقتضي ذلك دون أن يتجاوز إلى ما هو أكثر من الحاجة، وإذا كان الصوت فيه متعة وفيه لذة وفيه فتنة فليس للإنسان أن يسمع ذلك الصوت)(3)

هذا بالنسبة للصوت، والعقد المرتبطة به للتفريق بين العورة منه وغير العورة، لأنهم يشترطون في كونه غير عورة أن يصبح صوتا رجاليا خالصا، لا رقة فيه ولا أنوثة، أو أن تستعمل المرأة بعض الأجهزة لتغيير صوتها حتى يصبح رجاليا.. لأن السلفيين ــ وبسبب هوسهم بالنساء ــ يتأثرون لأدنى المؤثرات.

أما فتاواهم المرتبطة باللباس، وخاصة في مناسبات الفرح المختلفة التي أتاحت فيها الشريعة السمحة الكثير من الحرية للناس، مثل الأعراس ونحوها، فحدث ولا حرج..

وسنذكر هنا فتاواهم مفرقة دون التعليق عليها، لنرى من خلالها حجم التضييق الذي يمارسه الفقهي السلفي على المرأة من دون أن يكون له دليل لا من الكتاب ولا من السنة، بل كل أدلته من باب سد الذرائع..

فمن فتاواهم المتعلقة بهذا تحريم لبس المرأة البياض، فقد سئل الشيخ محمد بن صالح العثيمين: (هل يجوز أن تلبس المرأة اللباس الأسود الشرعي في حالة إحرامها للحج بدل الأبيض؟)، فأجاب: (المرأة إذا أحرمت ليست كالرجل يلبس لباساً خاصاً إزاراً ورداء، بل المرأة تلبس ما شاءت من الثياب

1() فتاوى اللجنة الدائمة (17/ 201)
2() المنتقى من فتاوى الفوزان (60 / 10)
3() شرح سنن أبي داود (101/37)

التي يباح له لبسها قبل الإحرام، فتلبس الأسود أو الأحمر، أو الأصفر، أو الأخضر وما شاءت، أما الأبيض فلا أعلم أن المرأة مطلوب منها أن تحرم بأبيض، بل إن الأبيض في الحقيقة من التبرج بالزينة فإن اللباس الأبيض للمرأة يكسوها جمالاً ويوجب انطلاق النظر إليها، لذلك كونها تلبس اللباس الأسود مع العباءة أفضل لها وأكمل)(1)

وسئل الشيخ محمد بن إبراهيم آل الشيخ: (ما حكم لبس الأَبيض للمرأَة تحت الثياب؟)، فأجاب: (للحاجة لا بأْس. ولغير الحاجة الأَولى تركه، ولا سيما إِذا كانت مشابهة للأَعاجم)(2)

وسئل الشيخ علي فركوس: (ماحكم لبس العروس العباءة البيضاء ليلة الزفاف؟)، فأجاب: (المعروف أنّ لبس الفستان الأبيض والعباءة البيضاء من خصائص أعراس النصارى ومن ألبستهم دينا ودنيا، وإذا كان من حقوق البراء أن لايشارك المسلم الكفار في أعيادهم وأفراحهم ولا يهنئهم عليها لكونها من الزور كما فسر بعض أهل العلم قوله تعالى: ﴿والذين لا يشهدون الزور﴾[الفرقان: 72]، أي أعياد المشركين وأفراحهم، فإنه لايجوز التشبه بهم في صفة أعيادهم وطريقة ألبستهم فيها.. إذ المعهود في المجتمعات الإسلامية خصوصيته بالذكور دون الإناث، والعروس المتزينة بالبياض متشبهة بالرجال، وقد: لعن رسول الله ﷺ المتشبهات من النساء بالرجال، فضلا عن تضمنه للباس الشهرة المنهي عنه لذلك ينبغي تركه والعدول عنه إلى ما يساير اللباس الشرعي الخاص بالإناث على وجه يوافق النصوص ولا يخالفها)(3)

وسئل عن (البرنس الذي تلبسه العروس يوم زفافها)، فأجاب: (الذي يظهر أنّ فيه تشبها بالرجال، لأنه لا يعلم في العادة أنّ المرأة ترتدي (برنس)، بل هو من خصوصيات الرجال - فيما أعلم – ولايجوز للنساء مشاركة الرجال فيما هو من خصوصيّاتهم، ولا يجوز للرجال مشاركة النساء فيما هو من خصوصياتهن)(4)

وسئل عن (الحايك) الذي تغطى به العروس يوم زفافها، فأجاب: (إن كان هذا (الحايك) من باب السترة عن الناس فلا بأس مالم يكن في (الحايك)معتقد فاسد، ففي هذا الحال يجب أن يستغنى عنه ويترك هجرا للمعصية)(5)

وسئل عن كثرة تغيير العروس ملابسها عند التصديرة،

1() مجموع فتاوى ورسائل العثيمين(22/180)
2() مجموع الفتاوى والرسائل (2/167)
3() العادات الجارية في الأعراس الجزائرية (48-49)
4() العادات الجارية في الأعراس الجزائرية (49)
5() العادات الجارية في الأعراس الجزائرية (50)

فأجاب: (الملابس التي تتصدر بها العروس مجلسها فيها من الإسراف والتبذير في اللباس مالايخفى إذا معظم هذه الألبسة يترك استعمالها بعد الدخول فضلا عن كونها مدعاة للافتخار والمباهاة، ومن المفاسد أيضا أنّ المغلاق العمودي أو السلسلة توجد في أعلى ملابسها ووراء فساتينها الأمر الذي يتعذر عليها تغيير ملابسها لوحدها فترى عورتها الواجبة الستر، فالحاصل أنّ هذه الملابس – فضلا- عن تضمّنها الاسراف والتبذير والمباهاة والتفاخر، فإنه يزيد في تأكيد المنع ظهور عورتها حال تغيير ملابسها مع نسائها)(1)

والسلفية لا يكتفون بالتضييق على العروس في يوم عرسها فقط، بل يدخلون معها بيت الزوجية، ليفرضوا عليها فتاواهم المتشددة.. فقد سئل الشيخ محمد بن صالح العثيمين: (ماحكم لبس البنطلون للنساء، خاصة وإن هناك بنطالونات خاصة بالنساء؟)، فأجاب: (لايجوز مطلقا حتى وإن كان أمام الزوج فيوجد بنطالونات ضيقة تكون المرأة كأنها عارية، ولا تفتحوا لهن الباب، وكونها تكون عارية أمام زوجها أحسن من لبسها البنطلون، وإذا كان فيه شهوة سوف يشتهيها وإن لم تلبس البنطلون)(2)

أما بالنسبة لعقدهم المرتبطة بالحجاب، فحدث عنها ولا حرج، فهم لا يكتفون بما ورد في القرآن الكريم من شروط الحجاب البسيطة، والتي لا تضيق بها أي امرأة، فالله تعالى كما أمر بالستر ترك مساحة للعفو والحرية التي لا تضيق بها المرأة الطبيعية، بل أضافوا إلى ذلك الكثير من التشديدات المخالفة للقرآن الكريم والسنة المطهرة ليضيقوا بها على كل امرأة اغترت بمنهجهم، وتتلمذت على مدرستهم.

فمن تلك التشديدات اشتراطهم ــ لكمال الحجاب الشرعي ــ إرخاء المرأة له إلى الأرض حتى يجمع جميع النجاسات، وينظف جميع الطرقات، ويشم جميع الروائح.. فقد سئل الشيخ صالح بن فوزان بن عبد الله الفوزان: (هل إطالة المرأة لثوبها هل هو على سبيل الاستحباب أم الوجوب؟ وهل وضع الشراب على القدمين يكفي مع قصر الثوب بحيث لا يظهر شيء من الساق؟ وكيف تطيل المرأة ثوبها ذراعًا أتحت الكعب أم تحت الركبة؟)، فأجاب: (مطلوب من المرأة المسلمة ستر جميع أجزاء جسمها عن الرجال، ولذلك رخص لها في إرخاء ثوبها قدر ذراع من أجل ستر قدميها، بينما نهي الرجال عن إسبال الثياب تحت الكعبين، مما يدل على أنه

1() العادات الجارية في الأعراس الجزائرية (38-39)
2() الكنز الثمين في سؤالات ابن سنيد لابن عثيمين(146)

مطلوب من المرأة ستر جسمها كاملاً، وإذا لبست الشراب كان ذلك من باب زيادة الاحتياط في الستر، وهو أمر مستحسن، ويكون ذلك مع إرخاء الثوب)(1)

وسئل الشيخ محمد بن صالح العثيمين: (هل يجوز تطويل ثوب المرأة من تحت القدم بحوالي خمسة سم أفيدونا؟)، فأجاب: (نعم يجوز للمرأة أن تنزل ثوبها إلى أسفل من الكعب، بل إن هذا هو المشروع في حقها من أجل أن تستر بذلك قدميها، فإن ستر قدمي المرأة أمرٌ مشروع بل واجبٌ عند أكثر أهل العلم فالذي ينبغي للمرأة أن تستر قدميها إما بثوبٍ سابغ وإما بلباس شرابٍ أو كنادر أو شبهها)(2)

وسئل الشيخ الشيخ محمد صالح المنجد: (إرخاء المرأة لثوبها شبرا ألا يؤدي إلى اتساخ ثيابها، وكيف تصلي به؟)، فأجاب: (إن مجتمع الصحابة كان أحرص ما يكون على الحفاظ على المرأة، وصيانتها، وستر عورتها، والمرأة كلها عورة كما قال النبي ﷺ، فإذا خرجت فالواجب أن تغطي جميع بدنها حتى أقدامها، ولهذا كانت الواحدة منهن تجعل لها ذيلاً- يعني أنها كانت تطيل ثيابها حتى يكون كالذيل خلفها - حتى لا يبدي شيئا من جسمها.. وما ذكرته – وفقك الله – من اتساخ ثوبها فهذا لا قيمة له مع الحفاظ على المرأة، وقطع باب الشر والفتنة عن المجتمع.. واعلم أن الأصل في النساء القرار في بيتها كما قال تعالى: ﴿وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ﴾ [الأحزاب: 33]، فهي لا تخرج إلا لما دعت إليه الحاجة، وأما ما ذكرته من اتساخ ثوبها، وأنه ربما أصابته النجاسة، فهذا وارد، وقد حصل هذا الاستشكال في زمن النبي ﷺ، فعن أم ولد لإبراهيم بن عبد الرحمن بن عوف قالت: كنت أجر ذيلي، فأمر بالمكان القذر والمكان الطيب، فدخلت عليّ أم سلمة فسألتها عن ذلك، فقالت: سمعت رسول الله ﷺ يقول: (يطهره ما بعده)(3)(4)

ومن تلك التشديدات تحريمهم أن تضع المرأة عباءتها على الكتف، فقد سئلت اللجنة الدائمة عن ذلك، فأجابت: (لا يجوز للمرأة وضع العباءة على الكتفين عند الخروج؛ لما في ذلك من التشبه بالرجال، وقد لعن رسول الله ﷺ المرأة تلبس لبسة الرجل، والرجل يلبس لبسة المرأة)(5)

ومن تلك التشديدات وأخطرها وأكثرها تكلفا وأبعدها عن المقاصد الشرعية إيجاب تغطية الوجه والكفين للمرأة مع ورود

1() المنتقى من فتاوى الفوزان(5/334)
2() فتاوى نور على الدرب(22/2)
3() الإمام أحمد (25949)، والترمذي (143)، وابن ماجه (531)
4() انظر موقع الإسلام سؤال وجواب.
5() فتاوى اللجنة الدائمة (17/ 107)

النص القـرآني الصـريح بإباحـة كشـف ذلك، كما قـال تعـالى: ﴿ وَقُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَـارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُـرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا ﴾ [النور: 31]

والتي فسرها سلف السلفية المعتمدين لديهم بأنها الوجـه والكفان، كما قال ابن كثـير في تفسـيره: (وقـال الأعمش، عن سعيد بن جبير، عن ابن عبـاس: ﴿ولا يبـدين زينتهن إلا مـا ظهـر منها﴾ قال: وجهها وكفيها والخاتم. وروي عن ابن عمر، وعطـاء، وعكرمة، وسعيد بن جبير، وأبي الشـعثاء، والضـحاك، وإبـراهيم النخعي، وغيرهم -نحو ذلك)(1)

لكن السـلفية كعـادتهم في الانتقـاء راحـوا يرمـون بـأقوال سلفهم وما ورد في الدلالة عليها من الأحـاديث عـرض الجـدار، فقد سئل الشيخ عبد المحسن العباد: (ما رأيكم في كتاب (الرد المفحم على الذين أوجبوا تغطية الوجـه والكفين للمـرأة) وهـو للشيخ الألباني)

فأجاب: (لم أطلع عليه، ولكني أعرف أن رأي الألبـاني هـو القول بكشف الوجه والكفين، وهو مخطئ في ذلك، والله يغفر له ويتجاوز عنا وعنه، والحـق هـو وجـوب تغطيـة المـرأة وجهها وكفيها، ومعلـوم أن الوجـه هـو محـل زينـة المـرأة، والشـريعة جاءت بإرخاء الثياب حتى تُغطي القدمين، بل وتجر مقدار شـبر على الأرض فمن باب أولى أن تـأمر بتغطيـة الوجه؛ لأنـه محـل الفتنة، ففيه المحاسن والجمال، فالشيخ الألباني نعتقـد أنـه قـد أخطأ في هذا، وأن الصواب مع غيره، وكنت أقول: إن هذا الذي كان الشيخ الألباني يعتني به ويحـرص عليـه لـو كـان حقـاً فإنـه يكون من الحـق الـذي ينبغي إخفائه، ولـو كـان يـرى أن تغطيـة الوجه والكقين ليست بواجبة فإنه ينبغي لـه أن يسـكت، ويـترك الناس على ما هم عليه من الحـرص على السـلامة، والبعـد عن التكشف، والوقوع في أمور لا تنبعي، فنسـأل اللـه تعـالى يغفـر له، وأن يتجاوز عنا وعنه)(2)

وقـال الشـيخ صـالح الفـوزان: (الصـحيح الـذي تـدل عليـه الأدلة: أن وجه المرأة من العورة التي يجب سترها، بل هو أشد المواضـع الفاتنـة في جسـمها؛ لأن الأبصـار أكـثر مـا توجـه إلى الوجه، فالوجــه أعظم عــورة في المــرأة، مــع ورود الأدلــة الشرعية على وجوب ستر الوجه)(3)

وسئل الشيخ محمد بن صالح العثيمين: (إننا نلبس قفازات لليد لونها أسود عندما نكون خارجين من المنزل أو عندما نكون

(1) تفسير ابن كثير (6/ 45)
(2) شرح سنن أبي داود(361/31)
(3) فتاوى المرأة المسلمة(1 / 396، 397)

ذاهبين إلى المدرسة فما حكم لبس مثل هذه القفازات مع العلم أنها تجعل شكل اليد أجمل من شكلها الطبيعي؟)، فأجاب: (إن الذي أرى أن لبس المرأة القفازين من باب تكميل الحجاب والتستر عن الرجال، وقلت قبلاً أرى ألا تلبسه المرأة لأنه يكون لباس شهرة ويوجب لفت النظر إليها، أما الآن وقد كثر والحمد لله لمن يلبسه من النساء فإني أرى أن لبسه من تمام التستر وموجبات الحياء.. ولا شك أنه أستر لليد وأبعد عن الفتنة سواء كان أسود أو أحمر أو أخضر والسواد في رأيي هو اللون المناسب لأنه يكون الأقرب إلى موافقة لون العباءة والخمار فيكون أولى من الألوان الأخرى أولى من البياض ولون الحمرة والخضرة وما أشبه ذلك، فلتسر نساؤنا بهذا وليحتجبن الحجاب الذي يبعدهنّ عن الفتنة)(1)

بل إن السلفية ـ ولحساسيتهم المفرطة تجاه النساء ـ اعتبروا البرقع الذي تغطي به المرأة وجهها فتنة، فقد سئل الشيخ محمد بن صالح العثيمين: (ما حكم البرقع إذا لم يتخذ للزينة وإنما للستر ومع ذلك يوضع غطاء؟)، فأجاب: (البرقع الذي للزينة، ولكن تغطي المرأة به وجهها لا بأس به؛ لأنه لا يشاهد فستغطيه بشيء فوقه، لكن البرقع الذي يظهر ولا يغطى لا نفتي بجوازه؛ لأنه فتنة، ولأن النساء لا يقتصرن على هذا، ولو كانت النساء تقتصر على فتحة العين لقلنا: إن هذا النقاب، وهو معروف في عهد الرسول ﷺ ولا بأس به، لكن ثق أنك إذا قلت: إنه يجوز للمرأة أن تنتقب لعينها وتنظر من وراء النقاب بعينها أنه بعد مدة قليلة سيكون هذا النقاب متسعاً يتسع إلى الجبهة وإلى الخد، ثم لا يزال يتضاءل المغطى من الوجه حتى يكشف كل الوجه، هذا هو المعروف من عادة النساء، فسد الباب أقرب للصواب)(2)

وسئل: (ما قولكم في لبس البرقع للنساء مع هذا التوسع الموجود الآن؟)، فأجاب: (أنا أمتنع عن الفتوى بذلك، وأرى ألا تلبسه المرأة لأنه فتنة، والنساء بعضهن يتهاون، يجعل الفتحة كبيرة بحيث ترى العين والجفن، وبعضهن تخرج العين وهي مكتحلة فتفتن، فأرى أن المرأة تبقى على ما هي عليه فيما سبق؛ تخمر وجهها كاملاً كما تخمر رأسها)(3)

وهكذا يستمر التشدد السلفي حتى مع اضطرار المرأة لاستبدال ثيابها إن زارت أقاربها، أو خلعتها لتقيس أي لباس تريد شراءه، حتى لو كان ذلك في محل مستتر محصن بكل

1() فتاوى نور على الدرب للعثيمين(22/2)
2() لقاء الباب المفتوح(14/49)
3() اللقاء الشهري(65/26)

أنواع الحصون.

فقد سئل الشيخ عبد المحسن العباد: (هل يجوز تغيير ملابس الزوجة في بيت أختها أو أخيها مع الأمن من الفتنة والاختلاط؟)، فأجاب: (إذا احتيج إلى ذلك، بأن تكون مثلاً ماكثة عندهم مدة أسبوع أو قريباً من ذلك أو أقل واحتاجت إلى أن تغير ملابسها فلها أن تغير ما دام أنه لا أحد يراها، ولا مانع من ذلك)(1)

وسئل (إذا خلعت المرأة ثيابها في بيت جارتها لقياس فستان ونحوه)، فأجاب: (الفستان يقاس بدون خلع، فتقيس وعليها ثيابها، وبقاؤها في ثيابها واجب ولا حاجة إلى التعري، فالناس الآن عندما يأتون إلى الخياط لا يتعرون من أجل أن يقيسوا! بل يقيسون وعليهم الثياب)(2)

وسئل: (يوجد في بعض قصور الأفراح غرفة معدة للنساء حيث يقمن بتغيير ملابسهن، ولبس ثياب أخرى من أجل حفل الزواج، فهل يجوز ذلك، علماً بأن ذلك يتم في حشمة وتستر؟)، فأجاب: (هذا لا يجوز، المرأة تخرج من بيتها بلباسها وترجع بلباسها، لا تأتي وتغير وتبدل في تلك الأماكن)(3)

هذه مجرد أمثلة عن الأحكام المتشددة التي يمتلئ بها التراث السلفي الفقهي، كما تمتلئ بها مواقعهم ومنتدياتهم وقنواتهم.. وهي تعطي صورة سيئة عن المرأة تعرض على العالم أجمع باسم الإسلام.. ولذلك لا غرابة أن نعتبر السلفية هي المعول الذي استعمله الشيطان ليهدم الإسلام وكل القيم النبيلة التي جاء بها رسول الله ﷺ.

ولذلك لا غرابة أن نجد في التراث السلفي كتابا بهذا العنوان: (كشف الوعثاء بزجر الخبثاء الداعين إلى مساواة النساء بالرجال وإلغاء فوارق الأنثى)، والذي قال في مقدمته: (ألا وإن من أعظم ما يندى له الجبين، وتثلم به عرى الدين لهي هذه الدعوات من أوباش الخنا وأثمة الخائنين، تلك الدعوة البائرة التي لا تصدر إلا عن أحد اثنين: إما مائع مخنث، وإما دجال خبيث يتظاهر بالدعوة إلى إلغاء فوارق التأنيث، وهو يهدف إلى إشباع شهوته من نساء المسلمين، ويتقاضى من وراء ذلك مبالغ من الأموال عمالة من اليهود أو النصارى على إبعاد المرأة المسلمة عن كتاب ربها وسنة نبيها ﷺ بارتكاب أنواع الفواحش من تبرج واختلاط وخلع جلباب الحياء وغير ذلك من فنون الفساد وحيلها، فيا هول مصيبة المسلمين بهذا وهل

(1) شرح سنن أبي داود(450/19)
(2) شرح سنن أبي داود(450/20)
(3) شرح سنن أبي داود(450/20)

كانت أول فتنة بني إسرائيل وهلاكهم إلا من ذلك.. هذا وليعلم أن الدعوة إلى إلغاء الفوارق بين الذكر والأنثى كفر أكبر مخرج من الملة، لأنه ردٌّ وتكذيبٌ لكتاب الله عز وجل وسنة رسوله ﷺ الثابتة الصريحة التي مبنى هذا البحث عليها)[1]

ثالثا ـ أحكام الجوانب الاجتماعية:

تختلف الرؤية السلفية التي تمتلئ بها كتب التراث السلفي، سواء في قسمه العقدي أو الفقهي، عن الرؤية القرآنية في الجانب الاجتماعي اختلافا جذريا، لا يمكن تكلف التوفيق بينهما بحال من الأحوال إلا إذا تخلينا عن المنطق الصوري، واستبدلناه بالمنطق السلفي المبني على المغالطات.. حينها فقط يمكننا تنزيل القرآن الكريم لينسجم مع الفكر السلفي في هذا الجانب.

ذلك أن القرآن الكريم يدعو إلى التعارف والتعايش بين البشر جميعا، بغض النظر عن أديانهم ومعتقداتهم وأفكارهم وأعراقهم كما قال تعالى: ﴿يَاأَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ [الحجرات: 13]

وهو قائم على الحرية في المعتقد، كما قال تعالى: ﴿ وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ﴾ [الكهف: 29]، وقال: ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ ﴾ [البقرة: 256]

وهو قائم على احترام عقائد الآخر أي آخر كان، وشعائره وطقوسه ومعابده، كما قال تعالى: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا﴾ [الحج: 40]

وهو قائم على أساس أن الله هو الذي يحكم بين عباده يوم القيامة في كل ما اختلفوا فيه، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئِينَ وَالنَّصَارَى وَالْمَجُوسَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا إِنَّ اللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴾ [الحج: 17]، وقال: ﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ (21) لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيْطِرٍ (22)﴾ [الغاشية: 21، 22]

هذه هي الرؤية القرآنية، أما الرؤية السلفية، فتناقضها تماما، لأنها مبنية على تصنيف الناس على أساس عقائدهم.. فمن كان معهم في عقائدهم فروعها وأصولها تعاملوا معه وفق ما يمليه الفقه الإسلامي في جانبه الاجتماعي، ومن لم يكن معهم في تلك العقائد، تعاملوا معهم بغلظتهم وشدتهم وكبريائهم.

---

[1]() كشف الوعثاء، ص3.

وبما أن الناس إما مسلمون أو غير مسلمين.. فسنذكر هنا مواقف التراث السلفي الفقهي من كلا الصنفين:

1 ـ العلاقات الاجتماعية مع المخالفين لهم من المسلمين:

كما ذكرنا مرات كثيرة، فإن السلفية يقسمون المسلمين إلى قسمين: سنة ومبتدعة، والسنة عندهم هم من يقول بتلك العقائد الكثيرة التي سطرها ابن بطة والبربهاري وابن خزيمة.. والتي اعتبروها المحك الذي يوزن بها الناس، أو كما عبر البربهاري عن ذلك بقوله في (شرح السنة): (وجميع ما وصفت لك في هذا الكتاب فهو عن الله تعالى وعن رسوله ﷺ وعن التابعين وعن القرن الثالث إلى القرن الرابع فاتق الله يا عبد الله وعليك بالتصديق والتسليم والتفويض والرضى بما في هذا الكتاب ولا تكتم هذا الكتاب احدا من أهل القبلة فعسى الله أن يرد به حيرانا من حيرته أو صاحب بدعة من بدعته أو ضالا عن ضلالته فينجو به فاتق الله وعليك بالأمر الأول العتيق وهو ما وصفت لك في هذا الكتاب فرحم الله عبدا ورحم والديه قرأ هذا الكتاب وبثه وعمل به ودعا إليه واحتج به فإنه دين الله ودين رسوله وأنه من استحل شيئا خلافا لما في هذا الكتاب فإنه ليس يدين الله بدين وقد رده كله كما لو أن عبدا آمن بجميع ما قال الله عز وجل إلا أنه شك في حرف فقد جميع ما قال الله وهو كافر كما أن شهادة أن لا إله إلا الله لا تقبل من صاحبها إلا بصدق النية وخالص اليقين وكذلك لا يقبل الله شيئا من السنة في ترك بعض ومن خالف ورد من السنة شيئا فقد رد السنة كلها فعليك بالقبول ودع المحال واللجاجة فإنه ليس من دين الله في شيء وزمانك خاصة زمان سوء فاتق الله)(1)

وبناء على هذا، فإن من مقتضيات الولاء والبراء عندهم التعامل مع المسلمين الذين يخالفونهم بما أوصاهم بهم سلفهم الأول.. وهو الشدة والعنف والهجر وتقطيب الجبين ونحو ذلك..

وقد كثرت مؤلفاتهم في هذا الباب وتفاصيله(2) حتى أصبح جزءا أساسيا من حياتهم.. فلا يمكن للسلفي أن يبقى سلفيا، وهو يحتفظ بسلفيته لنفسه، بل لابد أن يبرز بها أمام الملأ، فمن تبعه عليها فهو أخوه، له ما له، وعليه ما عليه، ومن خالفه، فهو عدوه اللدود، وعليه أن يظهر له كل صنوف العداوة، ابتداء من التحذير منه، كما قال ابن تيمية عند بيانه لوجوب النصح لصالح الإسلام والمسلمين: (ومثل أئمة البدع

1() البربهاري، شرح السنة، (ص: 47)

2() من الكتب المؤلفة حولها، وحول كيفية التعامل مع المخالفين على أساسها: تحفة الإخوان للشيخ حمود التويجري، سبيل النجاة، للشيخ حمد بن عتيق، الولاء والبراء، للشيخ محمد سعيد القحطاني، الموالاة والمعاداة للشيخ محمد الجلعود، الولاء والبراء للشيخ عبد الرحمن عبد الخالق، وخمستها مطبوعة.

من أهــل المقــالات المخالفــة للكتــاب والســنة، أو العبــادات المخالفة للكتاب والسنة، فإن بيـان حـالهم وتحـذير الأمـة منهم واجب باتفـاق المسـلمين حـتى قيـل لأحمـد بن حنبل: الرجـل يصـوم ويصـلي ويعتكـف أحب إليـك أو يتكلم في أهـل البـدع؟ فقال: إذا قام وصلى واعتكـف فإنمـا هـو لنفسه، وإذا تكلم في أهل البدع فإنما هو للمسـلمين، هـذا أفضل، فـبيَّن أن نفـع هـذا عام للمسلمين في دينهم من جنس الجهاد في سبيل الله ودينه ومنهاجه وشرعته، ودفع بغي هؤلاء وعـدوانهم على ذلـك واجب على الكفاية باتفاق المسلمين، ولولا من يقيمه الله لـدفع ضـرر هؤلاء لفسد الدين، وكان فساده أعظم من فساد استيلاء العـدو من أهل الحرب، فإن هؤلاء إذا استولوا لم يفسدوا القلوب ومـا فيها من الدين إلا تبعًا، وأما أولئك فهم يفسدون القلوب ابتـداءً)[1]

وبنــاء على هــذا أصــبحت غيبــة المخــالف عنــدهم ســنة مستحبة، بل واجبا شرعيا، لأنه لا يتم أمر السـنة ــ كمـا يفهمهـا السـلفية ــ إلا به.. بــل لا تكفي الغيبــة وحــدها، بــل الســلفي الحقيقي هو الذي يضيف إليهـا النميمـة والتجسـس والتحسـس وكــل مــا ورد في الشــرع النهي عنه.. لأن النهي ــ بتصـورهم ـ خاص بالمؤمنين.. والمؤمنون عندهم هم فقط من يؤمنـون بـأن الله قاعد على عرشه، وله يـدان وعينـان وسـاق.. ومن عـداهم ليسوا سوى جهمية ومعطلة وكفرة.

والســلفية لا يكتفــون بــذلك فقط.. بــل يضــيفون إليــه استعمال كل صنوف الأذى للمخـالف ابتـداء من الأذى النفسي، وانتهاء بالأذى الجسدي.

ونحب أن ننقل هنا كلاما لرجل يعتـبر في نظـر الكثـير من كبار معتدليهم.. لنرى ما يقول معتدلوهم في هذا المجال..

وهذا الرجل هو الشـيخ بكـر بن عبـد الله أبو زيد، والكتـاب الذي ننقل منه هو كتابه [هجر المبتـدع]، وهـو خـاص بخلـق من الأخلاق التي يفرضها الولاء والبراء السلفي.

يقول الشيخ بكر في مقدمة كتابة عند ذكره لدوافع تأليفــه له: (.. إنه في حـال من انفتـاح مـا كـان يخشـاه النـبي ﷺ على أمته.. وانفتـاح العـالم بعضـه على بعض، حـتى كـثرت في ديـار الإســلام الأخلاط، وداهمت الأعــاجم العــرب، وكــثر فيهم أهــل الفرق، يحملون معهم جراثيم المرض العقدي والسلوكي.. وفي وســط من تـداعي الأمم وأمـام هـذا: غيـاب رؤوس أهـل العلم حينًا، وقعودهم عن تبصـير الأمـة في الاعتقـاد أحيانًا، وفي حـال غفلة سرت إلى مناهج التعليم بضعف التأهيل العقـدي، وتثـبيت

[1] () مجموع الفتاوى 28 /231 232.

مسلمات الاعتقاد في أفئدة الشباب، وقيام عوامل الصد والصدود عن غرس العقيدة السلفية وتعاهدها في عقول الأمة، في أسباب تمور بالمسلمين مورًا، يجمعها غايتان: الأولى: كسر حاجز (الولاء والبراء) بين المسلم والكافر، وبين السني والبدعي، وهو ما يسمى في التركيب المولَّد باسم: (الحاجز النفسي)، فيكسر تحت شعارات مضللة: (التسامح) (تأليف القلوب) (نبذ: الشذوذ والتطرف والتعصب)، (الإنسانية)، ونحوها من الألفاظ ذات البريق، والتي حقيقتها (مؤامرات تخريبية) تجتمع لغاية القضاء على المسلم المتميز وعلى الإسلام.. الثانية: فُشو (الأمية الدينية) حتى ينفرط العقد وتتمزق الأمة، ويسقط المسلم بلا ثمن في أيديهم وتحت لواء حزبياتهم، إلى غير ذلك مما يعايشه المسلمون في قالب: (أزمة فكرية غثائية حادة) أفقدتهم التوازن في حياتهم، وزلزلت السند الاجتماعي للمسلم (وحدة العقيدة)، كلٌّ بقدر ما علَّ من هذه الأسباب ونهل، فصار الدخل، وثار الدخن وضعفت البصيرة، ووجد أهل الأهواء والبدع مجالًا فسيحًا لنثر بدعهم ونشرها، حتى أصبحت في كف كل لافظ، وذلك من كل أمر تعبدي محدث لا دليل عليه (خارج عن دائرة وقف العبادات على النص ومورده)، فامتدت من المبتدعة الأعناق، وظهر الزيغ، وعاثوا في الأرض الفساد، وتاجرت الأهواء بأقوام بعد أقوام، فكم سمعنا بالآلاف من المسلمين وبالبلد من ديار الإسلام يعتقدون طرقًا ونحلًا محاها الإسلام. إلى آخر ما هنالك من الويلات، التي يتقلب المسلمون في حرارتها، ويتجرعون مرارتها، وإن كان أهل الأهواء في بعض الولايات الإسلامية هم: مغمورون، مقموعون، وبدعهم مغمورة مقهورة، بل منهم كثير يؤوبون لرشدهم، فحمدًا لله على توفيقه، لكن من ورائهم سرب يحاولون اقتحام العقبة، لكسر الحاجز النفسي وتكثيف الأمية الدينية في ظواهر لا يخفى ظهور بصماتها في ساحة المعاصرة وأمام العين الباصرة. والشأن هنا في تذكير المسلم بالأسباب الشرعية الواقعية من المد البدعي، واستشرائه بين المسلمين، والوعاء الشامل لهذه الذكرى: القيام بواجب الدعوة إلى الله تعالى على بصيرة، والتبصير في الدين، وتخليص المنطقة الإسلامية من شوائب البدع والخرافات والأهواء والضلالات، وتثبيت قواعد الاعتقاد السلفي المتميز على ضوء الكتاب والسنة في نفوس الأمة)(1)

وبعد أن ذكر كل هذا، ذكر الحل الذي وضعه أسلافه لهذه النازلة الخاطرة، فقال: (ومن أبرز معالم التميز العقدي فيها،

(1) هجر المبتدع، ص3.

وبالغ الحفاوة بالسنة والاعتصام بها، وحفظ بيضة الإسلام عما يدنسها: نصب عامل (الولاء والبراء) فيها، ومنه: إنزال العقوبات الشرعية على المبتدعة، إذا ذكروا فلم يتذكروا، ونهوا فلم ينتهوا، إعمالًا لاستصلاحهم وهدايتهم وأوبتهم بعد غربتهم في مهاوي البدع والضياع، وتشييدًا للحاجز بين السنة والبدعة، وحاجز النفرة بين السني والبدعي، وقمعًا للمبتدعة وبدعهم، وتحجيمًا لهم ولها عن الفساد في الأرض، وتسرب الزيغ في الاعتقاد، ليبقى الظهور للسنن صافية من الكدر، نقية من علائق الأهواء وشوائب البدع، جارية على منهاج النبوة وقفو الأثر، وفي ظهور السنة أعظم دعوة إليها ودلالة عليها، وهذا كله عين النصح للأمة. فالبصيرة إذًا في العقوبات الشرعية للمبتدع: باب من الفقه الأكبر كبير، وشأنه عظيم، وهو رأس في واجبات الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وأصل من أصول الاعتقاد بدلالة الكتاب والسنة والإجماع، ولهذا تراه بارز المعالم في كتب الاعتقاد السلفي (اعتقاد أهل السنة والجماعة)، كل هذا تحت سلطان القاعدة العقدية الكبرى (الولاء والبراء) التي مدارها على الحب والبغض في الله تعالى، الذي هو (أصل الدين) وعليه تدور رحى العبودية)(1)

ثم ذكر أنواع العقوبات التي شنها سلفه على مخالفيهم، فقال: (وهذه العقوبات الشرعية التي كان يتعامل بها السلف مع أهل البدع والأهواء، متنوعة ومتعددة في مجالات: الرواية، والشهادة، والصلاة خلفهم وعليهم، وعدم توليتهم مناصب العدالة كالإمامة والقضاء، والتحذير منهم ومن بدعهم وتعزيرهم بالهجر، إلى آخر ما تراه مرويًا في كتب السنة والاعتقاد، مما حررت مجموعه في (أصول الإسلام لدرء البدع عن الأحكام) (2)

ثم بين غايته من رسالته، وهي إحياء سنة الهجر، فقال: (وما في هذه الرسالة هو في خصوص (الزجر بالهجر للمبتدع ديانة) لأهميته في: التميز، والردع، وعموم المطالبة به، ولأنه أصبح في الغالب من السنن المهجورة) (3)

ثم بين في خلال الكتاب كيف يتم الهجر، أو مظاهره، أو ـ مفرداته كما عبر الشيخ السلفي المعتدل جدا ـ وهي: (1 - عدم مجالسته.. 2 - الابتعاد عن مجاورته.. 3 - ترك توقيره 5.ـ ترك مكالمته.. 4 - ترك السلام عليه.. 5 - ترك التسمية له.. 6 - عدم بسط الوجه له مع عدم هجر السلام والكلام.. 7 - عدم سماع كلامه وقراءته.. 8 - عدم مشاورته.. وهكذا من الصفات

1() هجر المبتدع، ص3.
2() هجر المبتدع، ص4.
3() هجر المبتدع، ص5.

التي يتأدى بها الزجر بالهجر، وتحصل مقاصد الشرع)(1)

وما ذكره هذا السلفي المعتدل هو نفس ما ذكره كل سلفه الأول في كتب عقائدهم التي اختلطت فيها الفروع بالأصول، كما اختلط المقدس بالمدنس، فمما ذكره إمامهم الكبير أبو إسماعيل الصابوني (توفي 449 هـ) عن خصائص أهل السنة المتمسكين بهدي السلف قوله: (ويبغضون أهل البدع الذين أحدثوا في الدين ما ليس منه، ولا يحبونهم ولا يصحبونهم، ولا يسمعون كلامهم، ولا يجالسونهم ولا يجادلونهم في الديني، ولا يناظرونهم، ويرون صون آذانهم عن سماع أباطيلهم التي إذا مرت بالآذان قَرّت بالآذان وقرت بالقلوب ضرّت وجرّت إليها من الوساوس والخطرات الفاسدة ما جَرَّت، وفيه أنزل الله عز وجل قوله: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ وَإِمَّا يُنْسِيَنَّكَ الشَّيْطَانُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرَى مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ [الأنعام: 68]) (2)

ثم ذكر علامات أهل البدع، وعلامات أهل السنة، ثم قال: (واتفقوا مع ذلك على القول بقهر أهل البدع وإذلالهم وإخزائهم وإبعادهم وإقصائهم، والتباعد منهم ومن مصاحبتهم ومعاشرتهم والتقرب إلى الله عز وجل بمجانبتهم ومهاجرتهم...) (3)

وما ذكره الصابوني هو ما مارسه ودعا إليه سلفهم الأول الذين جعلوهم بدائل لرسول الله ﷺ وأولئك الطاهرين الصادقين من ورثته المحافظين على هديه..

فلهذا يتركون الاستدلال بالقرآن الكريم الذي يدعو إلى الإخوة الإيمانية والإنسانية، ويتركون هدي رسول الله ﷺ الممتلئ بالسماحة، ليرووا لأتباعهم قول الفضيل بن عياض: (من جلس مع صاحب بدعة فاحذره، ومن جلس مع صاحب البدعة لم يُعطَ الحكمة، وأحب أن يكون بيني وبين صاحب بدعة حصن من حديد، آكل مع اليهودي والنصراني أحب إليَّ من أن آكل مع صاحب البدعة)(4).

ويروون عنه قوله: (من أتاه رجل فشاوره فدله على مبتدع فقد غش الإسلام، واحذروا الدخول على صاحب البدع فإنهم يصدون عن الحق)(5)

ويروون عن ابن المبارك قوله: (وإياك أن تجالس صاحب

---

(1) هجر المبتدع، ص13.

(2) عقيدة السلف أصحاب الحديث: 100، 112.

(3) عقيدة السلف أصحاب الحديث: 100، 112.

(4) الحلية لأبي نعيم 8/103.

(5) شرح أصول اعتقاد أهل السنة برقم 261.

بدعة)(1)

ويـروون عن سـفيان الثـوري قوله: (من أصـغى بإذنـه إلى صاحب بدعة خرج من عصمة الله ووكل إليها يعـني إلى البـدع)(2)

ويــروون عن ابن أبي الجــوزاء قوله: (لأن يجـاورني قــردة وخنـازير، أحب إليَّ من أن يجـاورني أحــد منهم يعـني أصـحاب الأهواء)(3)

ويروون من أفعال السلف المثبتة لـذلك مـا حـدث بـه ابن زرعة عن أبيه قال: (لقـد رأيت صـبيغ بن عسـل بالبصـرة كأنـه بعـير أجــرب يجيء إلى الحِلَق، فكلمــا جلس إلى حلقــة قــاموا وتركـوه، فـإن جلس إلى قـوم لا يعرفونـه نـاداهم أهـل الحلقـة الأخرى: عزمة أمير المؤمنين)(4)

ويروون عن طاوس أنه (جعل إصبعيه في أذنيه لمــا ســمع معتزليًا يتكلم)(5)

وعن عبـد الـرزاق أنـه (امتنـع من سـماع إبـراهيم بن أبي يحيى المعتزلي، وقال: لأن القلب ضعيف وإن الــدين ليس لمن غلب)(6)

وعن وعبد الله بن عمر السرخسـي أن ابن المبـارك هجـر رجلا مدة لما أكل عند صاحب بدعة(7).

وقال سلاَّم: وقال رجل من أصحاب الأهواء لأيوب: أسـألك عن كلمة، فولى أيوب وهو يقول: ولا نصف كلمة، مرتين يشــير بإصبعيه(8).

هكذا يتعامل سلف السـلفية وخلفهم مـع المخـالفين لهم.. وعلى هذا تنص مصادرهم ومراجعهم وسـلوكاتهم.. وهـذا يكفي للتعرف على نمط المجتمع الذي يسيطر عليـه الفقـه السـلفي، والعقل السلفي.

ونحب أن نختم هذا الغثاء الذي نقلناه من مصادر السـلفية بذكر هـدي بعض صـالحي الأمـة الـذين فقهـوا جـوهر العلاقـات الاجتماعية كما ينص عليها القرآن الكريم، وكما ينص عليها هدي النبوة، وهدي آل بيت النبوة، كما عـبر عنهم جميعـا الإمـام علي في عهده لمالك الأشتر لما ولاه مصر، فقال: (.. وأشـعر قلبـك الرحمـة للرعيـة والمحبـة لهم واللطـف بهم، ولا تكـونن عليهم

1() الآجري في الشريعة 1/64.

2() البربهاري في شرح السنة /60.

3() شرح أصول اعتقاد أهل السنة برقم 231.

4() شرح أصول اعتقاد أهل السنة 3/636.

5() ابن بطة في الإبانة 1/40.

6() ابن بطة في الإبانة 1/40.

7() شرح أصول اعتقاد أهل السنة برقم 274.

8() شرح أصول اعتقاد أهل السنة برقم 291.

سبعاً ضارياً تغتنم أكلهم، فإنهم صنفان إما أخ لك في الـدين، أو نظـير لـك في الخلق، يفـرط منهم الزّلل، وتعـرض لهم العلل، ويـؤتى على أيـديهم في العمـد والخطأ، فـأعطهم من عفـوك وصفحك مثل الذي تحب أن يعطيك الله من عفوه وصفحه)(1)

ونبدأ بالشيخ جمال الـدين القاسـمي (1332هـ)، وهـو من علماء الحديث والتفسير، ولا يمكن للسلفية أن يزايدوا عليه في ذلك.. ولكنهم طبعا يرفضونه، ويتشددون في رفضه(2)، أولا لأنه أنكر على ابن تيمية تكفيره لابن عربي ونصير الطوسي، فقـال: (لا عـبرة بـرمي شـيخ الإسـلام ابن تيميـة وابن القيم وأمثالهمـا رحمهم الله بالإلحاد مثـل النصـير الطوسـي وابن عـربي وبعض الأشاعرة المتأولين لآيات الصفات وآثارهـا فـإن ذلـك منـه ومن أمثاله حمية مذهبية وغيرة على نصرة ما قـوي لديه. وقـد عهـد في العالم الغيور الذي لا يتسع صدره لخلاف الخصـم أن يحمـل عليه أمثال هذا وأعظم. وإلا فالنصير قد علم أن له مؤلفات في فن الكلام خـدمت وشـرحت، وكلهـا ممـا يبرئـه عن الإلحـاد والزندقة. وعقيدته ومشربه وترجمته المحفوظة تبرئه من مثـل ذلك. وابن عربي حق الباحث معـه المنكـر عليـه أن ينكـر عليـه موضعا لا يحتمل التأويل، ويقول ظاهره إلحاد. إلا أن الرجل لـه عقيدة نشـرها أولا، ومـذهب في الفقـه حسن. فمثلـه لا يسـوغ رميه بالإلحاد)(3)

وثانيا لكونه من دعـاة الـترفع على الأحقـاد، والتعامـل مـع الناس بإنسـانية لا بمـا يقتضـيه ولاؤهم وبـراؤهم، فمن مقولاتـه في ذلك: (من المعروف في سنن الاجتماع أن كل طائفـة قـوي شـأنها، وكـثر سـوادها، لا بـد أن يوجـد فيهـا الأصـيل والـدخيل، والمعتدل والمتطرف، والغالي والمتسامح، وقد وجد بالاستقراء أن صوت الغـالي أقـوى صـدى، وأعظم اسـتجابة، لأن التوسـط منـزلة الاعتدال، ومن يحرص عليه قليـل في كـل عصـر ومصر، وأمـا الغلـو فمشـرب الأكـثر، ورغيبـة السـواد الأعظم، وعليـه درجت طوائـف الفـرق والنحل، فحـاولت الاسـتئثار بالـذكرى، والتفرد بالدعوى، ولم تجد سـبيلاً لاسـتتباع النـاس لهـا إلا الغلـو بنفسها، وذلـك بالحـط من غيرها، والإيقـاع بسـواها، حسـب مـا تسـنح لهـا الفـرص، وتسـاعدها الأقـدار، إن كـان بالسـنان، أو اللسان)(4).

ويقـول مـدافعا عن المتهمين بالبدعة: (ولكن لا يسـتطيع

1() نهج البلاغة: 53.

2() انظر أقـوال الشـيخ ربيـع بن هـادي في جمـال الـدين القاسـمي في [بيـان مـافي نصيحة إبراهيم الرحيلي من الخلل والإخلال] ص (١٤-١٥)]

3() نقلا عن: كتاب جمال الدين القاسمي وعصره ص ٢٧٤.

4() الجرح والتعديل ـ ص4.

أحـد أن يقـول: أنهم تعمـدوا الانحـراف عن الحق، ومكافحـة الصواب عن سوء نية، وفساد طوية، وغاية ما يقال في الانتقـاد في بعض آرائهم: إنهم اجتهدوا فيه فأخطـأوا، وبهـذا كـان ينتقـد على كثـير من الأعلام سـلفاً وخلفـاً لأن الخطـأ من شـأن غـير المعصوم، وقد قالوا: المجتهـد يخطئ ويصـيب: فلا غضاضـة ولا عار على المجتهد أن أخطأ في قـول أو رأي، وإنمـا الملام على من ينحـرف عن الجـادة عامـداً معتمـداً، ولا يتصـور ذلـك في مجتهد ظهر فضله، وزخر علمه)[1].

ويذكر ثمرة التعامل الطيب مع المخالفين بحسب ما يدعو إليه القرآن الكريم والسنة المطهرة، فيقول: (قال بعض علمـاء الاجتماع: يختلف فكر عن آخر بـاختلاف المنشـأ والعـادة والعلم والغاية، وهـذا الاختلاف طـبيعي في النـاس، ومـا كـانوا قـط متفقين في مسائل الدين والدنيا، ومن عـادة صـاحب كـل فكـر أن يحب تكثير سواد القائلين بفكره، ويعتقد أنـه يعمـل صـالحاً، ويسدي معروفاً، وينقذ من جهالة، ويزع عن ضلالة، ومن العـدل أن لا يكون الاختلاف داعياً للتنافر ما دام صاحب الفكر يعتقد ما يدعو إليه، ولو كان على خطأ في غيره، لأن الاعتقاد في شــيء أثـر الإخلاص، والمخلص في فكـر مـا إذا أخلص فيـه ينـاقش بالحسـنى، ليتغلب عليـه بالبرهـان، لا بـالطعن وإغلاظ القـول وهجر الكلام، وما ضر صاحب الفكر لو رفق بمن لا يوافقه على فكـره ريثمـا يهتـدي إلى مـا يـراه صـواباً، ويـراه غـيره خطأ، أو يقـرب منه، وفي ذلـك من امتثـال الأوامـر الربانية، والفوائـد الاجتماعية، ما لا يحصى، فإن أهل الوطن الواحد لا يحيون حيـاة طيبة إلا إذا قل تعاديهم، واتفقت على الخـير كلمتهم، وتناصـفوا وتعاطوا، فكيف تريد مني أن أكون شريكك ولا تعاملني معاملـة الكفؤ على قدم المساواة!! [2].

ويقول: (دع مخالفـك ـ إن كنت تحب الحـق ـ يصـرح بمـا يعتقد، فإمـا أن يقنعـك وإمـا أن تقنعـه ولا تعاملـه بالقسـر فمـا انتشر فكر بالعنف أو تفاهم قـوم بـالطيش والرعونة. من خـرج في معاملة مخالفه عن حد التي هي أحسن يحرجه فيخرجه عن الأدب ويحوجـه إليـه لأن ذلـك من طبـع البشـر مهمـا تثقفت أخلاقهم وعلت في الآداب مراتبهم. وبعد فإن اختلاف الآراء من سنن هذا الكون، وهو من أهم العوامل في رقي البشر، والأدب مع من يقول فكره باللطف قاعدة لا يجب التخلف عنها في كل مجتمع. والتعادي على المنازع الدينية وغيرها من شأن الجاهلين

---

[1] الجرح والتعديل ـ ص10.
[2] الجرح والتعديل ـ ص37.

لا العالمين، والمهوسين لا المعتدلين)(1)

وهكذا قال قبله صالح بن مهدي المقبلي (1087هـ)، فقد قال: (فأقول اللهم إنه لا مذهب لي إلا دين الإسلام، فمن شمله فهو صاحبي وأخي، ومن كان قدوة فيه عرفت له حقه، وشكرت له صنعه، غير غالٍ فيه ولا مقصر، فإن استبان لي الدليل، واستنار لي السبيل، كنت غنياً عنهم في ذلك المطلب، وإن ألجأتني الضرورة إليهم وضعتهم موضع الإمارة على الحق، واقتفيت الأقرب في نفسي إلى الصواب بحسب الحادثة، بريئاً من الانتساب إلى إمام معين، يكفيني أني من المسلمين، فإن ألجأني إلى ذلك الله، ولم يبق لي من إجاباتهم بد، قلت: مسلم مؤمن، فإن مزقوا أديمي، وأكلوا لحمي، وبالغوا في الأذى، واستحلوا البذا، قلت: ﴿سَلامٌ عَلَيْكُمْ لا نَبْتَغِي الْجَاهِلِينَ﴾ [القصص: 55]، ﴿لا ضَيْرَ إِنَّا إِلَى رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ﴾ [الشعراء: 50]، وأجعلك اللهم في نحورهم، وأعوذ بك من شرورهم، رب نجني مما فعله المفرقون لدينك، وألحقني بخير القرون من حزب أمينك ﷺ)(2)

وقبلهما بزمن طويل، وفي عهد السلف الأول للسلفية قال عمرو بن مرة الجملي (118هـ) ما رواه عنه مسعر بن كدام قال: (ما أدركت من الناس من له عقل كعقل ابن مرة، جاءه رجل فقال: ـ عافاك الله ـ جئت مسترشداً، إنني رجل دخلت في جميع هذه الأهواء فما أدخل في هوى منها إلا القرآن أدخلني فيه ولم أخرج من هوى إلا القرآن أخرجني منه حتى بقيت ليس في يدي شيء، فقال له عمرو بن مرة: الله الذي لا إله إلا هو جئت مسترشداً؟ فقال: والله الذي لا إله إلا هو لقد جئت مسترشداً. قال: نعم أرأيت هل اختلفوا في أن محمداً رسول الله وأن ما أتى به من الله حق؟ قال: لا. قال: فهل اختلفوا في القرآن أنه كتاب الله؟ قال: لا. قال: فهل اختلفوا في دين الله أنه الإسلام؟ قال: لا. قال: فهل اختلفوا في الكعبة أنها قبلة؟ قال: لا. قال: فهل اختلفوا في الصلوات أنها خمس؟ قال: لا. قال: فهل اختلفوا في رمضان أنه شهرهم الذي يصومونه؟ قال: لا. قال: فهل اختلفوا في الحج أنه بيت الله الذي يحجونه؟ قال: لا. قال: فهل اختلفوا في الزكاة أنها من مائتي درهم خمسة؟ قال: لا. قال: فهل اختلفوا في الغسل من الجنابة أنه واجب؟ قال: لا. قال مسعر: فذكر هذا وأشباهه، ثم قرأ: ﴿ هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ

1() الجرح والتعديل ـ ص38.

2() العلم الشامخ في تفضيل الحق على الآباء والمشايخ، المقبلي، صالح بن المهدي، ص7 ـ 8،

الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ [آل عمران: 7]، فهل تدري ما المحكم؟ قال: لا، قال: فالمحكم ما اجتمعوا عليه والمتشابه ما اختلفوا فيه شد نيتك في المحكم وإياك والخوض في المتشابه. فقال الرجل: الحمد لله الذي أرشدني على يديك فوالله لقد قمت من عندك وإني لحسن الحال. قال: فدعا له وأثنى عليه[1].

هؤلاء هم السلف الذين كان على السلفية أن يتمسكوا بهم، وبهديهم، إن أبوا إلا أن يختاروا لأنفسهم سلفا.. لكن النفوس العدوانية، والقلوب الممتلئة بالأحقاد لا ترضى أن تتدين تدينا مسالما، فلذلك تختار من العدوانيين من يلبون لها رغباتها، ويشرعون لها أحقادها وأمراضها.

2 ـ العلاقات الاجتماعية مع المخالفين لهم من غير المسلمين:

سبق وأن تحدثنا في الفصل الأول من هذا الكتاب على الأسس التي تقوم عليها تصورات السلفية للعلاقة بين المسلمين وغير المسلمين في المجتمع الإسلامي أو غيره من المجتمعات، والتي تقوم على مبدأ [الولاء والبراء]، وكيف حرفوا القرآن الكريم لتستقيم لهم دعاواهم.

ونحب أن نضيف هنا بعض ما كتبوه في تراثهم الفقهي حول ذلك.. خاصة ما كتبه ابن القيم في كتابه عن أحكام أهل الذمة، وهو أكبر كتاب ممتلئ بالعنصرية التي كان الإسلام أول من حاربها.

وهي أحكام تتناقض مع القرآن الكريم والسنة المطهرة، بل تتناقض مع كل القيم الإنسانية التي يؤمن بها كل إنسان عاقل.

فمع أن القرآن الكريم نص على أن لكل دين الشرائع المرتبطة به، والتي لا يصير الإنسان متدينا إلا بالتقيد بها، كما قال تعالى: لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ [المائدة: 48]

بل صرح بأن الحرية مكفولة للأقليات في ممارسة ما يمليه عليه دينها في هذا الباب إلا إذا شاء هؤلاء أن يتحاكموا إلى قوانين المسلمين، فلهم ذلك، قال تعالى: فَإِنْ جَاءُوكَ فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ وَإِنْ تُعْرِضْ عَنْهُمْ فَلَنْ يَضُرُّوكَ شَيْئًا وَإِنْ حَكَمْتَ فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ (42) وَكَيْفَ يُحَكِّمُونَكَ وَعِنْدَهُمُ التَّوْرَاةُ فِيهَا حُكْمُ اللَّهِ ثُمَّ يَتَوَلَّوْنَ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَمَا أُولَئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ (43) [المائدة: 42، 43]

---
(1) أحسن التقاسيم ص366.

فهذه الآيات الكريمة تصرح بعدم جواز التدخل مطلقــا في الشؤون الخاصة بالمعتقدات والأديان، بل تكفـل لهـذه الأقليـات نوعا من الحكم الذاتي لشؤونها الخاصة بشرط ألا يتعارض ذلك مع المصالح العامة.

لكنا عندما نذهب إلى السلفية وإلى إمامهم ابن القيم نجـد الأمـر مختلفـا تماما، حيث نجـد الفـروع الفقهيـة تتـدخل تـدخلا مباشرا في الكثير من الأحكام الخاصـة بغـير المسـلمين، وكـأن مفتي المسلمين يريـد أن يفـرض نفسـه كمفت للملـل والنحـل الأخـرى، ومن أمثلـة ذلـك مـا رواه ابن القيم عن ضـمرة قـال: كتب عمر بن عبدالعزيز أن (امنعوا النصارى من رفـع أصـواتهم في كنائسهم، فإنها أبغض الأصوات إلى الله عز وجل وأولاها أن تخفض) (1)

ومن ذلك هذه الفتوى الخطيرة التي ينص عليهــا ابن القيم بقوله: (وللإمام أن يستولي على كل وقف وقف على كنيسة أو بيت نار أو بيعة كما له أن يستولي على ما وقـف على الحانـات والخمارات وبيوت الفسق بل أولى فإن بيوت الكفـر أبغض إلى الله ورسوله من بيوت الفسق وشعار الكفـر أعظم من شـعائر الفسـق وأضـر على الـدين. وإن كنـا نقـر بيـوت الكفـر الجـائز إقرارها ولا نقر بيوت الفسق فما ذاك لأنها أسـهل منهـا وأهـون بل لأن عقد الذمة اقتضى إبرارهم عليهـا كمـا نقـر الكـافر على كفــره ولا نقــر الفاســق على فســقه فللأمــام أن ينــتزع تلــك الأوقاف ويجعلها على القربات)(2)

وهــذه الفتــوى تتنــاقض تمامــا مــع مــا ورد في النصــوص السابقة من إتاحة الحريـة الدينيـة لهم، والقيـاس على الفسـقة قياس مع الفارق، فالفاسق لم يقر في أي دين على فسقه، بل اعتبر في حال نشره الرذائل محاربا لله ورسوله بخلاف الكتابي المتعبد، فإن أمره إلى الله، وقد منعنا الله من التعرض له.

ووجــه الاســتدلال الــذي اســتدل بــه ابن القيم في هــذه المسـألة يـدل على مـدى تغليب المواقـف والفهـوم الشخصـية والقياسات البعيدة على النصوص القطعية.

ولم يكتف ابن القيم وسلفه بهذا، بـل نـراهم يتـدخلون في كـل صـغيرة وكبـيرة تتعلـق بالمجـاورين لهم من أهـل الكتـاب، فممــا ذكــره ابن القيم من أحكــامهم قوله: (أمــا حكم أبــنيتهم ودورهم فإن كانوا في محلة منفردة عن المسلمين لا يجـاورهم فيها مسلم تركوا وما يبنونه كيف أرادوا، وإن جاوروا المسـلمين لم يمكنوا من مطاولتهم في البناء سواء كـان الجـار ملاصـقا أو

1() أحكام أهل الذمة (3/ 237)
2() أحكام أهل الذمة (1/ 340)

غير ملاصق بحيث يطلق عليه اسم الجار قرب أو بعد) (1)

وعلل هذا الحكم بقوله: (وهذا المنع لحق الإسلام لا لحق الجار حتى لو رضي الجار بذلك لم يكن لرضاه أثر في الجواز.. وليس هذا المنع معللا بإشرافه على المسلم بحيث لو لم يكن له سبيل على الإشراف جاز، بل لأن الإسلام يعلو ولا يعلى) (2)

وبين عموم هذا الحكم على كل الأحوال، فقال: (والذي تقتضيه أصول المذهب وقواعد الشرع أنهم يمنعون من سكنى الدار العالية على المسلمين بإجارة أو عارية أو بيع أو تمليك بغير عوض، فإن المانعين من تعلية البناء جعلوا ذلك من حقوق الإسلام واحتجوا بالحديث وهو قوله: (الإسلام يعلو ولا يعلى)(3) (4)

ولسنا ندري علاقة الحديث الشريف بالموضوع، فالحديث في حال صحته يدل على علو المسلم بأخلاقه وقيمه الرفيعة، وهذا العلو يدل على المعاني لا على المحسوسات، فالمسلم يعلو بخلقه وعلمه وتفكيره ومنهجه في الحياة، لا بالتطاول بالبنيان على غيره.

وللأسف نجد التطبيق الخاطئ لهذا الحديث ساريا في الكثير من المسائل حتى في المجالس التي يجلسون فيها، قال ابن القيم: (واحتجوا بأن في ذلك إعلاء رتبة لهم على المسلمين وأهل الذمة ممنوعون من ذلك.. ولهذا يمنعون من صدور المجالس ويلجؤون إلى أضيق الطرق فإذا منعوا من صدور المجالس والجلوس فيها عارض فكيف يمكنون من السكنى اللازمة فوق رؤوس المسلمين) (5)

وهكذا نرى ابن القيم وسلفه وخلفه يتدخلون في حرية لباس أهل الكتاب، كما تدخلوا في حرية لباس المسلمين، فقد نقل عن أبي القاسم قوله: (وجوب استعمال الغيار لأهل الملل الذين خالفوا شريعته صغارا وذلا وشهرة وعلما عليهم ليعرفوا من المسلمين في زيهم ولباسهم ولا يتشبهوا بهم)(6)

ومن مقتضيات هذا الغيار الذي هو نوع من التمييز العنصري منعهم من اللباس الطيب الجميل، فقال: (ولا يترك أهل الذمة يلبسون طيالسهم فوق عمائمهم، لأن هذا يفعله أشراف المسلمين وعلماؤهم للتمييز عمن دونهم في العلم والشرف وليس أهل الذمة أهلا لذلك فيمنعون منه)(7)

1() أحكام أهل الذمة (3/ 225)
2() أحكام أهل الذمة (3/ 226)
3() سنن الدارقطني ، ج4، ص371.
4() أحكام أهل الذمة (3/ 226)
5() أحكام أهل الذمة (3/ 226)
6() أحكام أهل الذمة (3/ 249)
7() أحكام أهل الذمة (3/ 262)

ومن مقتضياته أن (تكون نعالهم مخالفة لنعال المسلمين ليحصل كمال التمييز وعدم المشابهة في الزي الظاهر ليكون ذلك أبعد من المشابهة في الزي الباطن فإن المشابهة في أحدهما تدعو إلى المشابهة في الآخر بحسبها وهذا أمر معلوم بالمشاهدة)(1)

ومن مقتضياته ما نقله ابن القيم عن عمر بن عبد العزيز أنه كتب إلى أمصار الشام: (لا يمشي نصراني إلا مفروق الناصية ولا يلبس قباء ولا يمشي إلا بزنار من جلد ولا يلبس طيلسانا ولا يلبس سراويل ذات خدمة، ولا يلبس نعلا ذات عذبة ولا يركب على سرج ولا يوجد في بيته سلاح إلا انتهب ولا يدخل الحمام يوم الجمعة يهودي ولا نصراني حتى تصلى الجمعة)(2)

أما المرأة، فينقل ابن القيم عن أبي القاسم الطبري هذا الاجتهاد الغريب، الذي عبر عنه بقوله: (وأما المرأة إذا خرجت فيكون أحد خفيها أحمر حتى يعرف بأنها ذمية)(3)

والعجب ليس في كون الخف أحمر، ولكن العجب في كون أحد الخفين أحمر، بينما الآخر بلون مختلف.

بل إن الأمر لم يقتصر على الشروط المرتبطة باللباس، بل تعداه إلى شؤون خاصة جدا كتسريحة الشعر، فقد عقد ابن القيم فصلا حول أحكام شعر أهل الذمة جاء فيه: (والمقصود أن أهل الذمة يؤخذون بتميزهم عن المسلمين في شعورهم إما بجز مقادم رؤوسهم وإما بسدلها، ولو حلقوا رؤوسهم لم يعرض لهم)(4)

وهكذا نراهم ــ كما حرموا أبناء المسلمين من التعلم بسبب الاختلاط وغيره ــ يحرمون أبناء غير المسلمين في مجتمعهم من تعلم اللغة العربية، فمما ذكره ابن القيم مؤيدا له من اجتهادات في هذا الباب قوله تعليقا على ما ورد في المعاهدة العمرية: (ولا نتكلم بكلامهم): (هذا الشرط في أهل الكتاب الذي لغتهم غير لغة العرب كنصارى الشام والجزيرة إذ ذاك وغيرهما من البلاد دون نصارى العرب الذين لم تكن لغتهم غير العربية، فمنعهم عمر من التكلم بكلام العرب لئلا يتشبهوا بهم في كلامهم كما منعوا من التشبه بهم في زيهم ولباسهم ومراكبهم وهيئات شعورهم فألزمهم التكلم بلسانهم ليعرفوا حين التكلم أنهم كفار فيكون هذا من كمال التميز مع ما في ذلك من تعظيم كلام العرب ولغتهم حيث لم يسلط عليها الأنجاس والأخابث بذلونها ويتكلمون بها.. كيف وقد أنزل الله

1() أحكام أهل الذمة (3/ 257)
2() أحكام أهل الذمة (3/ 254)
3() أحكام أهل الذمة (3/ 269)
4() أحكام أهل الذمة (3/ 261)

بها أشرف كتبه ومدحه بلسان عربي.. فصان أمير المؤمنين هذا اللسان عن أهل الجحيم وغار عليه أن يتكلموا به، وهذا من كمال تعظيمه للإسلام والقرآن والعرب الذين نزل القرآن بلغتهم وبعث الله ورسوله من أنفسهم مع ما في تمكينهم من التكلم بها من المفاسد التي منها جدلهم فيها واستطالتهم على المسلمين)(1)

ولسنا ندري كيف يفهم هؤلاء الذين طولبنا بدعوتهم بالقرآن الكريم، وهم لا يعرفون العربية، ثم نجد من يحرم الترجمة، مع أن القرآن الكريم في أكثر خطابه يخاطب الإنسان مجردا من أي دين أو مذهب.

بل إن الأمر تعداه إلى ما هو أخطر من ذلك، حيث أن من الفقهاء من ذهب إلى حرمة تعلمهم القرآن الكريم، قال الباجي: (ولو أن أحدا من الكفار رغب أن يرسل إليه بمصحف يتدبره لم يرسل إليه به، لأنه نجس جنب ولا يجوز له مس المصحف، ولا يجوز لأحد أن يسلمه إليه ذكره ابن الماجشون، وكذلك لا يجوز أن يعلم أحد من ذراريهم القرآن، لأن ذلك سبب لتمكنهم منه، ولا بأس أن يقرأ عليهم احتجاجا عليهم به، ولا بأس أن يكتب إليهم بالآية ونحوها على سبيل الوعظ)(2)

بل إن ابن القيم وسلفه يضعون من الشروط المجحفة المميزة بين الأكثرية والأقلية ما يسميه بشرط الضيافة، وهو شرط لم يدل عليه أي نص من النصوص القطعية، وقد عبر ابن القيم عن أدلته والأحكام المرتبطة به، فقال: (وهذا الضيافة قدر زائد على الجزية، ولا تلزمهم إلا بالشرط.. واحتج الفقهاء بالشروط العمرية وأوجبوا اتباعها. هذا هو الصحيح.. كما أن شرطه عليهم في الجزية مستمر وإن لم يجدده عليهم إمام الوقت، وكذلك عقد الذمة لمن بلغ من أولادهم وإن لم يعقد لهم الإمام الذمة) (3)

ومن التفاصيل المرتبطة بهذا ما نقله عن الشافعي من أنه (وتقسم الضيافة على عدد أهل الذمة وعلى حسب الجزية التي شرطها فيقسم ذلك بينهم على السواء. وإن كان فيهم الموسر والمتوسط والمقل قسطت الضيافة على ذلك.. قال الشافعي: ويذكر ما يعلف به الدواب من التبن والشعير وغير ذلك.. قال: ويشترط عليهم أن ينزلوا في فضول منازلهم وكنائسهم ما يكنون فيه من الحر والبرد منها إذ الضيف محتاج إلى موضع يسكن فيه ويأوي إليه ما يحتاج إلى طعام يأكله) (4)

1() أحكام أهل الذمة (3/ 270)
2() المنتقى، ج3، ص165.
3() أحكام أهل الذمة (3/ 285)
4() أحكام أهل الذمة (3/ 285)

ولو أن مثل هذه الشروط طبقت على المسلمين إذا نــزل عليهم أهــل الكتــاب لكــان في ذلــك نوعــا من العدالة، لكن المؤسف قصر ذلك على الـذميين بحيث يتحملـون رغم أنـوفهم طول السنة وحدهم كل ضيف يمر عليهم، ليس وحده، بل حـتى بهائمه.

بل إن الشروط أكثر من ذلك، قـال ابن القيم: (ومن نـزل بهم لم يخـل من ثلاثـة أحـوال: الأول إمـا أن يـنزل بهم وهـو مريض، الثاني أو ينزل بهم وهو صحيح، الثالث أو ينزل بهم وهو صحيح فيمـرض. فـإن نـزل بهم وهـو مـريض فـبرىء فيمـا دون الثلاث فهـذا يجـري مجـرى الضـيف وكمـا يجب عليهم إطعـام الضيف وخدمته يجب عليهم القيام على المريض ومصالحه فإنه أحوج إلى الخدمة والتعاهـد من الصـحيح. فـإن زاد مرضـه على ثلاثة أيام ولـه مـا ينفـق على نفسـه لم يلـزمهم القيـام بنفقته، ولكن تلزمهم معونته وخدمتـه وشـراء مـا يحتـاج إليـه من ماله، وإن لم يكن له ما ينفق على نفسه لزمهم القيـام عليـه إلى أن يبرأ أو يموت. فإن أهملوه وضيعوه حتى مات ضمنوه)(1)

وهذا يجعل من الذميين مجرد عبيـد مسـخرين للمسـلمين الذين يفدون عليهم شاءوا أم أبوا.

رابعا: أحكام الجوانب السياسية:

لا تختلــف التناقضــات الموجــودة في المواقــف الفقهيــة الســلفية في الجــوانب السياســية عن غيرهــا من الجــوانب الأخرى، بل لعلها أخطر، لأن السياسة لا تتعلق بآحاد الأفراد، ولا بآحاد المجتمعات، بل تتعلـق بالأمـة جميعا، ولـذلك فـإن الخطـأ فيها تتحمله الأمة جميعا.

وقد وضع السلفية ـ سـلفهم وخلفهم ــ المسـائل الفرعيـة المرتبطــة بالسياســة في كتب الفقــه والعقيــدة، وهم فيهــا لا ينظرون لأي مشروع سياسي يمكن أن تطبقـه الأمة، لتنفـذ من خلاله القيم القرآنيـة السـامية، ولتحقيـق العدالـة الـتي هي من أكبر غايات الرسل عليهم الصلاة والسلام.

وإنما كل ما وضعوه فيها هو إما تأييد مطلق للسلطة مهما كــان نوعهــا وظلمها، حــتى لــو تمــردت على كــل قيم الأمة، وحاربت كل صالحيها وأوليائها.

وإمــا معارضــة مطلقة.. لا بسـبب مواقـف تلـك السـلطة العملية، وعدم عدالتها، وعدم قيامها بمصالح الأمة، وإنما بسبب كون السلطان يميـل إلى الجهميـة أو المعتزلة.. أو كونـه أسـاء لبعض أهل الحديث.. أو فعل شيئا لا يرضيهم.

ولـذلك كـان السـلفية ــ سـلفهم وخلفهم ــ مركبـا سـهلا

(1) أحكام أهل الذمة (3/ 286)

للسلطان، يمكنه من خلالهم أن يمرر ما شاء من مشاريع، ويفعل ما يشاء من ظلم.. وليس عليه ليكونوا له سندا، بل ليعتبروه هاديا مهديا سوى أن يقرب رجلا مثل كعب الأحبار أو الإمام أحمد أو ابن باز أو العثيمين أو أبي بكر جابر، أو يؤسس هيئة لكبار العلماء، لتصدر له بعض الفتاوى التي تزكيه، وتحث الرعية على الطاعة المطلقة له، وتحرم من الجنة كل من انتقده أو عارضه.

وهو ـ إن أراد أن يكون أكثر جاذبية ـ لا يحتاج سوى تحقيق مشروعهم السياسي الكبير، وهو هدم كل أثر قديم، وقطع كل شجرة تاريخية، ليصبح رسولا من رسلا التوحيد، لا يكتفى بطاعته، بل يسبح بحمده بكرة وعشيا.

وحينذاك يمكنه أن يستعمل أولئك الذين ضمهم إلى بلاطه لضرب من شاء من خصومه من أهل البلاد الأخرى ليصدروا له فتاوى التكفير، وتعقبها فتاوى التحريض، وتعقبها فتاوى الدعوة للجهاد والنفير العام.

هذه هي قصة السلفية مع السياسة.. وسنذكر هنا باختصار بعض الأمثلة الدالة على ذلك من خلال التراث الفقهي والعقدي السلفي، وقد قسمناها إلى نوعين بحسب التناقض الموجود في مواقف السلفية السياسية: الولاء المطلق للسلطة، والمعارضة المطلقة لها.

1 ـ الولاء المطلق للسلطة:

ينطلق السلفية في هذا النوع من المواقف من الكثير من النصوص التي يروونها عن رسول الله ﷺ، والتي تدعو إلى الخضوع المطلق للسلطة مهما كان نوعها، ومهما ظلمت وعتت وطغت، وأكثر هذه النصوص يروونها عن أبي هريرة وغيره من الصحابة الذين كانوا تحت عين ورضى البلاط الأموي، وهي تتناقض تماما مع ما ورد في القرآن الكريم من عدم الركون للذين ظلموا، ومن الدعوة إلى القسط والعدالة، والتي يرويها السلفية أيضا، ولكنهم يستعملونها لضرب خصوم السلطة التي يخضعون لها.

فمن الأحاديث التي يروونها في هذا الجانب ما رووه عن أبي هريرة عن عن النبي ﷺ قال: (من أطاعني فقد أطاع الله، ومن عصاني فقد عصى الله، ومن أطاع أميري فقد أطاعني، ومن عصى أميري فقد عصاني)[1]، ويروونه عنه أنه روى عن النبي ﷺ قوله: (عليك السّمعُ والطّاعةُ في عُسْرِك، ويُسرِك، ومَنشطك ومَكرهك، وأثرةٍ عليكَ)[2].

---

[1] () البخاري، برقم 7137، ومسلم، برقم 1835.

[2] () مسلم، برقم 1836.

ويروون عن نافع قال: لما خلع أهل المدينة ـ وقد كانوا من الصحابة وأبناء الصحابة ـ يزيد بن معاوية جمع ابن عمر حشمه وولده، فقال: إني سمعت النبي ﷺ يقول: (ينصب لكل غادر لواء يوم القيامة)، وإنا قد بايعنا هذا الرجل على بيع الله ورسوله، وإني لا أعلم غدرا أعظم من أن يبايع رجل على بيع الله ورسوله ثم ينصب له القتال، وإني لا أعلم أحدا منكم خلعه، ولا بايع في هذا الأمر إلا كانت الفيصل بيني وبينه[1].

وبناء على هذا نص السلفية على الطاعة المطلقة للسطان حتى لو كان عاصيا، وقد ذكر ابن تيمية الخلاف الواقع في الأمة حول طاعة ولي الأمر الفاسق والجاهل، وذكر أنهم اختلفوا على ثلاثة أقوال: (1) أنه يطاع وينفذ حكمه.. 2) أنه لا يطاع في شيء ولا ينفذ شيء من حكمه.. 3) التفريق بين الإمام الأعظم ونوابه، فالإمام يطاع لأنه لا يمكن عزله إلا بقتال وفتنة، أما نوابه من حاكم وقاض... فلا يطاعون لأنه يمكن عزلهم بدون قتال ولا فتنة[2].

ثم قال: (وأصحها عند أهل الحديث وأئمة الفقهاء هو القول الأول، وهو أن يطاع في طاعة اللّه مطلقا.. وأضعفها عند أهل السنة هو رد جميع أمره وحكمه وقسمه)[3]

وما ذكره ابن تيمية هو ما ذكره الكثير من أئمة السلف في عقائدهم، وخصوصا فيما يتعلق بما يسمونه الجهاد معه، والذي لا يعني الجهاد الشرعي المعروف، لأن أكثر ما حصل من حروب في الأمة كان صراعا داخليا توسعيا، ففي عقيدة سفيان الثوري – كما رويت عنه–: (والجهاد ماض إلى يوم القيامة، والصبر تحت لواء السلطان جائر أو عدل) [4]، وقال الإمام أحمد بن حنبل في اعتقاده: (والغزو ماض مع الأمراء إلى يوم القيامة البر والفاجر لا يترك) [5]، وقال محمد بن أبي زمنين: (ومن قول أهل السنة أن الحج والجهاد مع كل برٍّ أو فاجر من السنة والحق.. وأعلمنا بفضل الجهاد في غير موضع من كتابه، وقد علم أحوال الولاة الذين لا يقوم الحج والجهاد إلا بهم، فلم يشترط ولم يبين وما كان ربك نسياً) [6]

وقال عبد الله بن حبيب (توفي 238هـ): (سمعت أهل العلم يقولون: لا بأس بالجهاد مع الولاة، وإن لم يضعوا الخُمس موضعه، وإن لم يُوفوا بعهد إن عاهدوا، ولو عملوا ما عملوا،

1() البخاري برقم 7111، برقم 1735/ 10.

2() منهاج السنة النبوية 2/ 86

3() منهاج السنة النبوية 2/ 86

4() أخرجه شرح أصول اعتقاد أهل السنة1/154.

5() أخرجه شرح أصول اعتقاد أهل السنة1/160.

6() أصول الدين لابن أبي زمنين ص 288.

ولو جاز للناس ترك الغزو معهم بسوء حالهم لاستذل الإسلام، وتخيفت أطرافه، واستبيح حريمه، ولعَلى الشرك وأهله) (1)

وقال ابن تيمية: (وقد استفاض وتقرر في غير هذا الموضع ما قد أمر به ﷺ، من طاعة الأمراء في غير معصية الله، ومناصحتهم، والصبر عليهم في حكمهم، وقسمهم، والغزو معهم، والصلاة خلفهم، ونحو ذلك من متابعتهم في الحسنات التي لا يقوم بها إلاَّ هُم؛ فإنه من باب التعاون على البر والتقوى، وما نهى عنه من تصديقهم بكذبهم، وإعانتهم على ظلمهم، وطاعتهم في معصية الله ونحو ذلك، مما هو من باب التعاون على الإثم والعدوان)(2)

وهكذا نجد هذه العقيدة في جميع التراث السلفي العقدي، حيث نجدها عند علي بن المديني (3)، والطحاوي (4)، وابن بطة (5)، والبربهاري (6)، والصابوني (7)، وابن قدامة في اللمعة (8)، وابن تيمية (9) وغيرهم.

وقد وضح المرجع السلفي المعروف الشيخ عبد الرحمن بن ناصر السعدي كيفية تطبيق هذه العقيدة في الواقع، فقال: (وأما النصيحة لأئمة المسلمين: وهم ولاتهم من السلطان الأعظم إلى الأمير إلى القاضي، فهؤلاء لمّا كانت مهماتهم وواجباتهم أعظمَ من غيرهم، وجب لهم من النصيحة بحسب مراتبهم ومقاماتهم، وذلك باعتقاد إمامتهم، والاعتراف بولايتهم، ووجوب طاعتهم بالمعروف، وعدم الخروج عليهم، وحث الرعية على طاعتهم، ولزوم أمرهم الذي لا يخالف أمر الله ورسوله ﷺ، وبذل ما يستطيع الإنسان من نصيحتهم، وتوضيح ما خفي عليهم مما يحتاجون إليه في رعايتهم، كل أحد بحسب حاله، والدعاء لهم بالصلاح والتوفيق؛ فإن صلاحهم صلاح لرعيتهم، واجتناب سبِّهم، والقدح فيهم، وإشاعة مثالبهم؛ فإن في ذلك شرّاً، وضرراً، وفساداً كبيراً، فمن نصيحتهم الحذر والتحذير من ذلك، وعلى من رأى منهم ما لا يحل أن ينبههم سرّاً لا علناً، بلطفٍ وعبارة تليق بالمقام، ويحصل بها المقصود؛ فإن هذا هو المطلوب في حق كل أحد، وبالأخص ولاة الأمور؛ فإن تنبيههم على هذا الوجه فيه خير كثير، وذلك علامة الصدق والإخلاص،

1() أخرجه ابن أبي زمنين في أصول السنة ص 289.

2() فتاوى شيخ الإسلام، 35/20-21.

3() انظر: أصول السنة للالكائي 1/167.

4() انظر شرح الطحاوية 2/555.

5() انظر الإنابة الصغرى ص 278.

6() انظر: شرح السنة للبربهاري ص 51.

7() انظر عقيدة السلف للصابوني ص 294.

8() انظر لمعة الاعتقاد ص 37.

9() انظر: مجموع الفتاوى 28/260، 35/38.

واحذر أيها الناصح لهم - على هـذا الوجـه المحمـود - أن تفسـد نصيحتك بالتمدح عنـد النـاس فتقـول لهم: إني نصـحتهم، وقلت وقلت؛ فإن هـذا عنـوان الريـاء، وعلامـة ضـعف الإخلاص، وفيـه أضرار أخر معروفة)[1]

ومن أهم فـروع هـذه العقيـدة عـدم التعـرض للسـلطة الحاكمة بالنقد أو التجريح أو الإساءة أو حتى النصح العلني.. بل يذكرون فقط ومن باب سد العتب ما يسمونه [النصح السري]، ولست أدري من هذا الحـاكم الـذي يسـمح لهم بـأن يختلـوا بـه لينصحوه سرا.

يقول الشـيخ عبـد العزيـز بن عبـد اللـه بن بـاز: (ليس من منهج السلف التشهير بعيوب الولاة وذكر ذلك على المنـابر؛ لأن ذلك يفضي إلى الانقلاب، وعدم السمع والطاعة في المعـروف، ويفضي إلى الخروج الذي يضرّ ولا ينفع، ولكن الطريقة المتبعـة عند السلف النصيحة فيمـا بينهم وبين السـلطان، والكتابـة إليه، أو الاتصال بالعلمـاء الـذين يتصـلون بـه حـتى يوجـه إلى الخـير، وإنكار المنكر يكون من دون ذكر الفاعل، فينكـر الـزنى، وينكـر الخمر، وينكـــر الربا، من دون ذكـــر من فعله، ويكفي إنكـــار المعاصي والتحذير منها من غير ذكر أن فلاناً يفعلها: لا حاكم ولا غير حاكم..)[2]

ولكن هـذه القـوانين الـتي يضـعونها ليسـت عامـة تشـمل جميع الحكام، بل هي خاصة بمن يرضون عنهم، أو يرضى عنهم مشايخهم.. وتزداد تلك الطاعة بقدر مـا يكـون الحـاكم مسـاندا لهم في تكفير المخالفين وإذيتهم أو هدم الأضرحة ونحوهـا ممـا يعتبرونه شركا.

ولهذا نجد لسلف السلفية تعظيما كبـيرا للخليفـة المتوكـل العباسي بـالرغم من جرائمـه الكثـيرة الـتي ذكرهـا المؤرخـون، ولكن بسبب مواجهته للمعتزلة والشيعة، وهدمه لضـريح الإمـام الحسـين وغـيره من الأضـرحة، نـال عنـدهم مكانـة رفيعة، غـير ملتفتين لاستبداده وظلمه.

قال الحـافظ خليفة بن خياط: (استخلف المتوكـل فــأظهر السنة، وتكلـم بها في مجلسه، وكتب إلى الآفـاق برفـع المحنة، وبسط السنة، ونصر أهلها)[3]

وقال الذهبي: (وفي سنة 234 هـ أظهر المتوكـل السـنة، وزجر عن القول بخلـق القـرآن، وكـتـب بذلـك إلى الأمصـار، واسـتقدم المحدثـين إلى سـامراء، وأجـزل صـلاتهم، ورووا

[1] () الرياض الناضرة والحدائق النيرة الزاهرة، ص38-49.

[2] () انظر: فتوى الشيخ مطبوعة في آخر رسالة (حقوق الـراعي والرعيـة)، ص27-28، وانظـر: فوائـد الآداب مـع السـلطان لنصـيحته: الآداب الشـرعية للإمام محمد بن مفلح المقدسي، 1/196-208.

[3] () سير أعلام النبلاء (12/ 32)

أحاديث الرؤية والصفات)[1]

وهكذا صار الحاكم الصالح عندهم هو الذي يستقدم المحدثين ليحدثوا الناس بأحاديث التشبيه والتجسيم، ولا يكفي ذلك بل يحتاج إلى أن يغضب على المخالفين أيضا، قال الذهبي: (وغضب المتوكل على أحمد بن أبي دؤاد، وصادره وسجن أصحابه، وحمل ستة عشر ألف درهم، وافتقر هو وآله)[2]

وقال ابن كثير: (وكان المتوكل محببا إلى رعيته، قائما في نصرة أهل السنة، وقد شبهه بعضهم بالصديق في قتله أهل الردة لأنه نصر الحق، ورده عليهم، حتى رجعوا إلى الدين، وبعمر بن عبد العزيز حين رد مظالم بني أمية، وقد أظهر السنة بعد البدعة، وأخمد أهل البدع وبدعتهم بعد انتشارها واشتهارها، فرحمه الله، وقد رآه بعضهم في المنام بعد موته وهو جالس في نور، قال: فقلت: المتوكل؟! قال: المتوكل. قلت: فما فعل بك ربك؟ قال: غفر لي. قلت: بماذا؟ قال: بقليل من السنة أحييتها)[3]

ولهذا نجد ملوك السعودية ـ الذين درسوا حياة المتوكل جيدا ــ يعرفون كيف يقتنصون علماء السلفية، فليس عليهم سوى أن يطلقوا أيديهم في المساجد ليحدثوا الناس عن اليد والساق، ويطلقوا أيديهم على كل الآثار، وخاصة الآثار النبوية ليهدموها، ويخفوا معالمها.

بالإضافة إلى ذلك يسمحون لهم باستعمال كل الوسائل لإلحاق الإذية بخصومهم، مثلما فعل سلف السلفية مع خصومهم في عهد المتوكل، فقد روي البيهقي في [مناقب أحمد] عن محمد بن أحمد بن منصور المروذي أنه استأذن على أحمد بن حنبل، فأذن له، فجاء أربعة رسل المتوكل يسألونه فقالوا: الجهمية يستعان بهم على أمور السلطان قليلها وكثيرها أولى أم اليهود والنصارى؟ فقال أحمد: (أما الجهمية فلا يستعان بهم على أمور السلطان قليلها وكثيرها، وأما اليهود والنصارى فلا بأس أن يستعان بهم في بعض الأمور التي لا يسلطون فيها على المسلمين حتى لا يكونوا تحت أيديهم، قد استعان بهم السلف)، قال محمد بن أحمد المروذي: أيستعان باليهود والنصارى وهما مشركان، ولا يستعان بالجهمي؟ قال: (يا بني يغتر بهم المسلمون وأولئك لا يغتر بهم المسلمون) [4]

ولأجل هذا نجد الشيخ محمد بن عبد الوهاب وأبناءه

1() سير أعلام النبلاء (21/ 34) .
2() سير أعلام النبلاء (12/ 36)
3() البداية والنهاية (10/ 387)
4() نقلا عن الآداب الشرعية والمنح المرعية (1/ 256)

وتلاميذه ومدرسته جميعا يقفون في صف آل سعود على الرغم من كونهم خرجوا على الحاكم الذي كانوا يرون شرعيته، لأن آل سعود عرفوا من أين تؤكل كتفهم.

يقول الشيخ محمد بن عبداللطيف بن عبدالرحمن في رسالة كتبها مخاطبا الرعية الخاضعة قهرا في ذلك الوقت لآل سعود: (واشكروه أيضاً على ما منّ به في هذا الزمان من ولاية هذا الإمام الذي أسبغ الله عليكم على يديه من النعم العظيمة ودفع به عنكم من النقم الكثيرة وخولكم مما أعطاه الله وتابع عليكم إحسانه صغيركم وكبيركم، وقام بما أوجب الله عليه حسب الطاقة والإمكان، ونظره في مصالح المسلمين وما يعود نفعه عليهم، ودفع المضار عنهم وحسم مواد الشر أولى من نظركم، والكمال لم يحصل لمن هو أفضل منه، فالذي يطلب الأمور على الكمال وأن تكون على سيرة الخلفاء فهو طالب محالاً، فاسمعوا له وأطيعوا وراعوا حقه وولايته عليكم واحذروا غرور الشيطان وتسويله وخدعه ومكره، فإنه متكئ على شماله يدأب بين الأمة بإلقاء الشحناء والعداوة، وتفريق الكلمة بين المسلمين عادة له مذ كان ولا يسلم من مَكْرِه إلا من راقب الله في سره وعلانيته، ووقف عند أقواله وأعماله وحركاته وسكناته وتفكر في عاقبة ما يصير إليه في مآله، وراجع أهل البصائر والمعرفة من أهل العلم الذين لهم قدم راسخ في المعرفة والفهم، فإن كان أحد ممن يدعي العلم زين لكم ذلك وألقى عليكم التشكيكات والتشبيهات، وحسن لكم طريقة أهل البدع والضلالات فاعلموا أنه منفاخ سوء يبدي لكم ما يخفيه كيره ويلبس عليكم دينكم، فإن كان يدعي أن معه دليلاً من الكتاب والسنة في الطعن على الأئمة والولاة وعلمائهم، فليبرز إلينا بما لديه فنحن له مقابلون ومناظرون بالحجج القاطعة والبراهين الساطعة من كتاب الله وسنة نبيه محمد ﷺ وسيرة الخلفاء المهديين التي تجلو عن القلب عماه وترد المعارض عن انتكاسه، فوالله ثم والله إنا لا نعلم على وجه الأرض شرقاً وغرباً وشمالاً وجنوباً شخصاً أحق وأولى بالإمامة منه، ونعتقد صحة إمامته وثبوتها لأن إمامته إمامة إسلامية وولايته ولاية دينية، فلو نعلم أن عليه من المثالب والمطاعن شيئاً يوجب مخالفته ومنابذته لكنا أولى منكم بالنصح له وتحذيره ومراجعته، فإنه ولله الحمد يقبل الحق ممن جاء به ولا يستنكف من الناصح، ومقاماته ونصحه ومدافعته عن الإسلام وأهله وبذل إحسانه وعفوه وعدم انتقامه شهيرة بين الورى لا يجحدها إلا معاندٌ مماحلٌ)(1)

(1) الدرر السنية (7/ 282)

وكتب الشيخ سعد بن حمد بن عتيق: (ومما انتحله بعض هؤلاء الجهلة المغرورين الاستخفاف بولاية المسلمين والتساهل بمخالفة إمام المسلمين، والخروج عن طاعته، والافتيات عليه بالغزو وغيره، وهذا من الجهل والسعي في الأرض بالفساد بمكان، يعرف ذلك كل ذي عقل وإيمان، وقد علم بالضرورة من دين الإسلام أنه لا دين إلا بجماعة، ولا جماعة إلا بإمامة، ولا إمامة إلا بسمع وطاعة، وإن الخروج عن طاعة ولي أمر المسلمين من أعظم أسباب الفساد في البلاد والعباد والعدول عن سبيل الهدى والرشاد - ثم قال - ومن ذلك ما وقع من غلاة هؤلاء من اتهام أهل العلم والدين، ونسبتهم إلى التقصير وترك القيام بما وجب عليهم من أمر الله سبحانه وتعالى، وكتمان ما يعلمون من)(1)

وفي رسالة كتبها الشيخ عبدالله بن عبدالعزيز العنقري: (وقد بلغنا أن الذي أشكل عليكم أن مجرد مخالطة الكفار ومعاملتهم بمصالحة ونحوها وقدومهم على ولي الأمر؛ لأجل ذلك أنها هي موالاة المشركين المنهي عنها في الآيات والأحاديث، وربما فهمتم ذلك من الدلائل التي صنف الشيخ سليمان بن عبدالله بن الشيخ، ومن سبيل النجاة للشيخ حمد بن عتيق.. أولاً: نبين لكم سبب تصنيف الدلائل فإن الشيخ سليمان صنفها لما هجمت العساكر التركية على نجد في وقته وأرادوا اجتثاث الدين من أصله، وساعدهم جماعة من أهل نجد من البادية والحاضرة وأحبوا ظهورهم، وكذلك سبب تصنيف الشيخ حمد بن عتيق سبيل النجاة هو لما هجمت العساكر التركية على بلاد المسلمين وساعدهم من ساعدهم حتى استولوا على كثير من بلاد نجد، فمعرفة سبب التصنيف مما يعين على فهم كلام العلماء، فإنه بحمد الله ظاهر المعنى فإن المراد به موافقة الكفار على كفرهم، وإظهار مودتهم ومعاونتهم على المسلمين، وتحسين أفعالهم وإظهار الطاعة والانقياد لهم على كفرهم، والإمام وفقه الله لم يقع في شيء مما ذكر فإنه إمام المسلمين، والناظر في مصالحهم، ولابد له من التحفظ على رعاياه وولايته من الدول الأجانب، والمشائخ - رحمهم الله - كالشيخ سليمان بن عبدالله والشيخ عبداللطيف والشيخ حمد بن عتيق إذا ذكروا موالاة المشركين فسروها بالموافقة والنصرة والمعونة والرضى بأفعالهم، فأنتم وفقكم الله راجعوا كلامهم تجدوا ذلك كما ذكرنا)(2)

1() الدرر السنية (7/302)

2() الدرر السنية (7/ 309)

وفي رسالة كتبها مجموعة من العلماء من سعد بن حمد بن عتيق وسليمان بن سحمان وصالح بن عبدالعزيز وعبدالعزيز بن عبد اللطيف وعمر بن عبداللطيف وعبدالرحمن بن عبداللطيف ومحمد بن إبراهيم: (.. فأشرفنا على كتابكم الذي أرسلتم إلى الإمام عبدالعزيز – سلمه الله تعالى - ذكرتم في آخره أنا لا نجتمع وإياك إن خالفت شيئاً مما ذكرنا إلا كما يجتمع الماء والنار، وهذه كلمة ذميمة وزلة وخيمة، تدل على أنكم أضمرتم شراً وعزمتم على الخروج على ولي أمر المسلمين، والتخلف عن سبيل أهل الهدى، وسلوك مسلك أهل الغي والردى، ونحن نبرأ إلى الله من ذلك وممن فعله أو تسبب فيه أو أعان عليه، لأنا ما رأينا من الإمام عبدالعزيز ما يوجب خروجكم عليه ونزع اليد من طاعته، وإذا صدر منه شيء من المحرمات التي لا تسوغها الشريعة فحسب طالب الحق الدعاء له بالهداية وبذل النصيحة على الوجه المشروع، وأما الخروج ونزع اليد من طاعته فهذا لا يجوز، وأنتم تزعمون أنكم على طريقة مشائخكم وأنكم ما تخالفونهم في شيء يرونه لكم، ولا ندري من هؤلاء المشائخ أهم مشائخ المسلمين أم غيرهم؟ ممن سلك غير سبيلهم، ويريد فتح باب الفتن على الإسلام والمسلمين، أين الخط الذي قد شرفتمونا عليه؟ أين السؤال الذي سألتمونا عنه وأفتيناكم فيه؟ أين الأمر الذي شاورتمونا عليه؟ حتى الخط الذي تدعون أنكم تنصحون الإمام عبدالعزيز عن أمور يفعلها أنتم مشائخ أنفسكم تحللون وتحرمون على أنفسكم، ولا ترفعون لنا خبراً في شيء، ودعواكم أنكم على طريقة المشائخ يكذبه ما صدر منكم، وقد علمتم حقيقة ما عندنا وما نعتقده من حين ما حدث منكم الخوض وكثرت منكم الخطوط والمراسلات للإمام، وعرفناكم بما عندنا، وما نعتقده وندين الله به، وهو وجوب السمع والطاعة لمن ولاه الله أمر المسلمين، ومجانبة الوثوب عليه، ومحبة اجتماع المسلمين عليه، والبغض لمن رأى الخروج عليه ومعاداته.. والذي نرى لكم التوبة إلى الله سبحانه والاستغفار وعدم التمادي والاسترسال مع دواعي الجهل والغي والضلال، وأن تلتزموا ما أوجبه الله عليكم من القيام بالواجبات واجتناب المحرمات وملازمة طاعة من ولاه الله أمركم) (3)

وبناء على هذا، فإن الحاكم الذي يعرف كيف يجر هؤلاء إلى صفه يستطيع من خلالهم أن يعقد أي صفقة مع أي كان، بل يستطيع أن يبيع بلده بأهلها ومالها، لأنه لا يسأل عما يفعل،

---

(3) الدرر السنية (7/ 321)

ومن يتعرض له، سيفتي العلماء بكونه من الخـوارج، أو يضـيفوا إليه بعض العقائد ليكفروه على أساسها، وليضحوا به كما ضحى سلفهم بالجعد بن درهم.

ولهذا نرى الفتاوى السياسية لهيئـة كبـار علمـاء السـعودية تتماشى تماما مـع طموحـات وأحلام المجـرمين من آل سـعود، الذين خربوا بلادهم وجميع بلاد العالم الإسلامي بما نشـــروه من فوضى.

ومن الأمثلـة القريبـة على ذلـك فتـاواهم الكثـيرة بجـواز الاستعانة بالأمريكان لضرب العراق، وقـد قـدموا لـذلك بتكفـير صـدام حسـين.. ثم أصـدروا الفتـاوى الكثـيرة تسـتجدي أمريكـا لضرب العراق.

يقـول الشـيخ ابن بـاز: (وأمـا مـا اضـطرت إليـه الحكومـة السـعودية من الأخـذ بالأسـباب الواقيـة من الشـر والاسـتعانة بقـوات متعـددة الأجنـاس من المسـلمين وغـيرهم للـدفاع عن البلاد وحرمـات المسـلمين وصـد مـا قـد يقـع من العـدوان من رئيس دولة العراق فهو إجراء مسدد وموفق وجائز شرعا، وقــد صدر من مجلس هيئة كبار العلماء- وأنا واحد منهم- بيـان بتأييـد ما اتخذته الحكومة السـعودية في ذلك، وأنهـا قـد أصـابت فيمـا فعلته، عملا بقوله سبحانه: ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُـوا خُـذُوا حِـذْرَكُمْ ﴾ [النسـاء: 71] وقولـه سـبحانه: ﴿وَأَعِـدُّوا لَهُمْ مَـا اسْـتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ ﴾ [الأنفال: 60] ولا شك أن الاستعانة بغـير المسـلمين في الدفاع عن المسلمين وعن بلادهم وحمايتها من كيد الأعداء أمر جائز شـرعا بـل واجب متحتم عنـد الضـرورة إلى ذلـك لمـا في ذلـك من إعانــة للمسـلمين وحمـايتهم من كيـد اعـدائهم وصـد العدوان المتوقع عنهم)(1)

وهكذا كان علماء السلفية يدا طيعـة بيـد أسـيادهم من آل سـعود، يصـدرون لهم كـل حين مـا شـاءوا من الفتـاوى.. كمـا سنرى في العنوان التالي.

2 ـ المعارضة المطلقة للسلطة:

بنـــاء على أن الفقـــه السياســـي الســـلفي لا ينطلـــق من مشروع الدولة، وإنمـا ينطلـق من شـخص الحـاكم، فلـذلك من السهولة على من يريـد أن يخـرب بلـدا أن ينشـر بعض الوثـائق الحقيقية أو المزورة التي تثبت أن حاكم ذلك البلـد تلفـظ لفـظ كفر، أو قصر في صلاة، أو أهان رجلا من أهل الحـديث، وبعـدها مباشرة تصدر الفتاوى، ويصدر الأمر لأذناب السلفية المنتشرين في كل مكان ليشيعوا الفوضى، وينشروا الخراب.

ومن الأمثلة القريبة على ذلك موقـف علمـاء السـلفية من

(1) مجموع فتاوى ابن باز (6/ 134)

القذافي حاكم ليبيا في ذلـك الحين، والـذين كـانت لـه خلافـات كبــيرة مــع آل ســعود الــذين لجــأوا إلى أدواتهم الطيعــة من السلفية لتكفير القذافي، وتشريع الخروج عليه.

فقد صدر عن مجلس هيئـة كبـار العلمـاء بدورتـه التاسـعة عشرة المنعقدة في الفترة ابتداء من يوم 11- 5- 1402هـ هذا البيــان: (.. وفي طليعــة هــذه الطوائــف المنحرفــة والموجهــة طاغية ليبيا معمر القذافي ذلك الرجل الذي نـذر نفسـه لخدمـة الشر وإشاعة الفوضى وإثارة الشـغب والتشـكيك في الإسـلام، لقد اسـتعرض المجلس أطـوار هـذا الرجـل وسـرعة اسـتجابته لعناصر الشر والكيد والحسد حيث صار يهذي في أجهزة إعلامه بما يستحي من ذكره من له ذوق سليم أو عقل مستقيم، يتضح ذلك في أقواله وأفعاله وتقلباته في جميع ميـادين عملـه داخـل بلاده وخارجها وفي مقدمة ذلك تعرضه للعقيدة الإسلامية. فلقد أقبر هذا الرجـل السـنة النبويـة وسـخر من الحج إلى بيت اللـه الحــرام ومن المسـلمين الـذين يقفـون في عرفـات وصـدرت بتفنيذه فتاوى شرعية من هيئـات ومجـالس إسـلامية عليـا ومـع ذلـك لا يـزال هـذا المسـكين يتخبـط في متاهـات من الزيـف والضلال تعطي القناعة التامة إنـه ضـال ملحد. إن مجلس هيئـة كبـار العلمـاء وهـو يسـتنكر تمـادي هـذا الـدعي على الإسـلام والمسـلمين ليقـرر ويؤكـد أنـه بإنكـاره لسـنة رسـول اللـه ﷺ واستفتاءه بالحج واسـتهانته ببعض التعـاليم الإسـلامية واتجاهاتـه الآثمة الباطلة يعتبر بذلك كافراً وضالاً مضـلاً. فضـلاً عن ظلمـه وطغيانه واجرامه وتجـريح عبـاد اللـه ورميـه إيـاهم زوراً وبهاتـاً بالصفات الذميمة)(1)

بل إن الألباني الذي يفتي بحرمـة المظـاهرات لأنهـا تشـبّه بالكفار، والذي يُفتي بحرمة الخـروج على الحـاكم الجـائر الـذي لم يظهر منه الكفر البواح، أو (الكافر) إنْ لم تتوفّر القدرة على الخروج عليه؛ إلا أنه كفر القذافي، بل أفتى بوجوب الهجرة من ليبيـا حـتى إنـه قـال في بعض دروسه: (يجب الهجـرة من هـذه البلدة (ليبيا) حـتى ولـو إلى دولـة كـافرة كـأي دولـة من الـدول الأخرى الـتي فيهـا شـيء من الحريـة الدينية، أو - كمـا يقولـون اليوم في العصر الحاضر – الديمقراطية)(2)

وقد ذكر بعضـهم أن شـاباً ليبيّـاً حضـر إلى الشـيخ ليُحـاول إقناعه بالتراجع عن فتواه بوجوب الهجرة من ليبيـا بسـبب ظلم طاغيتها، فأخبره أن الصورة التي وصلت إليه عن الواقع الليــبي مبــالَغٌ فيها، وأن فتــواه كــانت متعجّلة، فطلب الشــيخ منــه أن

1() الرد الشافي على مفتريات القذافي: ص99.
2() شريط (521) من سلسلة الهدى والنور.

يضعه في الصورة الحقيقية، وحين أخبره بها علّق الشيخ قـائلاً: (ما تذكره عن ليبيا أسـوأ من بريطانيـا وأسـوأ من ألمانيا، فهـذا السـوء يجعـل الهجـرة واجبـة على من لم يتمكن من إقامـة الشعائر الدينية والدعوة الإسلامية)(1)

وهكذا كان الأمر مع صدام حسـين الـذي أصـدروا الفتـاوى الكثيرة بتكفيره، بل اعتبره ابن باز أكفـر من اليهـود والنصـارى وأضل منهم، فقد سئل: هـل حـاكم العـراق كـافر ويجـوز لعنه؟ فأجاب: هو كافر وإن قال لاإله إلا الله، حـتى ولـو صـلى وصـام مادام لم يتبرأ من المبادىء البعثية الالحادية ويعلن أنه تاب إلى الله منها وماتدعو إإليه (2).

وهم عنـدما يـذكرون هـذه الفتـاوى التحريضـية لا يـتركون للحاكم أي فرصة للإصلاح، لأنهم أصـلا لا يؤمنـون بالإصـلاح، ولا بالانتخابات ولا بالديمقراطيـة ولا بالمؤسسـات.. وإنمـا يؤمنـون فقط بالحـاكم الـذي يقـرب مشـايخهم ويـذبح الجهميـة ويشـرد الصوفية وينكل بالقبورية ويدمر كل أثر، ويهدم كل ضريح.

1() شريط رقم 726 من سلسلة الهدى والنور.

2() .مجموع فتاوي ومقالات متنوعة تأليف الشيخ ابن باز: 6/152.

من المعارف التي اهتم بها التراث السلفي، وخصص لها جزءا كبيرا من مؤلفاته، واشتهر بها الكثير من أعلامه المعارف التاريخية، سواء ما ارتبط منها بسيرة رسول الله ﷺ، أو سير الأنبياء عليهم الصلاة والسلام من قبله أو التاريخ عموما.

لكنا عندما نطلع على تلك الدراسات التي تمتلئ بها عشرات المجلدات المسندة وغير المسندة نجد مخالفات صريحة للمنهج القرآني في الدراسات التاريخية.

ذلك أن المنهج القرآني في هذا النوع من الدراسات يقوم على دعامتين أساسيتين:

الدعامة الأولى: التحقق من الأحداث التاريخية، بحيث لا نقبلها إلا من مصادر أمينة موثوقة، لأن التاريخ ليس مجرد أحداث، بل هو أحداث تنبني عليها مواقف وعبر، والخطأ في التعرف على الأحداث بدقة سيجر لا محالة إلى الخطأ في الاعتبار والموقف.

ولهذا نهى الله تعالى المؤمنين في سورة الكهف عن البحث عن تفاصيل أخبار فتية أهل الكهف، لعدم وجود مصادر أمينة موثوقة يمكنها أن تعرف بحقيقتهم، أو تدل على الأحداث المرتبطة بهم، كما قال تعالى: ﴿سَيَقُولُونَ ثَلَاثَةٌ رَابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْمًا بِالْغَيْبِ وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ قُلْ رَبِّي أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِمْ مَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَاءً ظَاهِرًا وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِمْ مِنْهُمْ أَحَدًا﴾ [الكهف: 22]

فقد اعتبر القرآن الكريم مجرد الحديث عن عددهم من غير بينة رجما بالغيب، وهو من أعظم الكذب والزور والبهتان.

وهكذا الأمر عندما ذكر مدة لبثهم في الكهف، كما قال تعالى: ﴿ وَلَبِثُوا فِي كَهْفِهِمْ ثَلَاثَ مِائَةٍ سِنِينَ وَازْدَادُوا تِسْعًا (25) قُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا لَهُ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَبْصِرْ بِهِ وَأَسْمِعْ مَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَدًا ﴾ [الكهف: 25، 26]

وهكذا الأمر في كل الحقائق التي مصدرها الخبر، فلا يكفي فيها النقل من أي كان، كما قال تعالى: ﴿ يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا أَنْ تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَى مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ ﴾ [الحجرات: 6]

وهذه الآية الكريمة تشير إلى ناحية خطيرة تتعلق بالأحداث التاريخية، وهي ما عبر عنه القرآن الكريم بـ ﴿أَنْ

تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَى مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ ﴾، فالأحداث التاريخية تنشأ عنها مواقف، وتلك المواقف يحاسب عليها الإنسان، لأن الظلم واحد سواء للحي أو للميت.

وبناء على هذا كله يذكرنا القرآن الكريم بحقيقة البحث في أي مسألة من المسائل سواء ما تعلق منها بالتاريخ أو غيره، وهي الآية الجامعة لكل مناهج البحث العلمي: ﴿ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا ﴾ [الإسراء: 36]

الدعامة الثانية: الاعتبار وأخذ الموعظة من الأحداث التاريخية وإعطاء المواقف الصحيحة حولها، وقد أشار القرآن الكريم إلى هذه النواحي في آيات كثيرة، منها قوله تعالى في الدعوة للبحث في التاريخ والاستفادة من تجارب السابقين وأخذ العبرة مما حصل لهم بسبب تكذيبهم وعتوهم وظلمهم: ﴿قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ ﴾ [آل عمران: 137]

وقال تعالى مخبرا عن عاقبة الذين كذبوا الرسل، أو حرفوا ما جاءوا به: ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ رُسُلًا إِلَى قَوْمِهِمْ فَجَاؤُوهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَانْتَقَمْنَا مِنَ الَّذِينَ أَجْرَمُوا وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الروم: 47]

وقال تعالى مخبرا عن الغاية من ذكر قصة فرعون وما حصل له: ﴿ فَكَذَّبَ وَعَصَى (21) ثُمَّ أَدْبَرَ يَسْعَى (22) فَحَشَرَ فَنَادَى (23) فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى (24) فَأَخَذَهُ اللَّهُ نَكَالَ الْآخِرَةِ وَالْأُولَى (25) إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِمَنْ يَخْشَى﴾ [النازعات: 21 - 26]

وهكذا عندما ذكر أخبار جملة من الأمم الذين كذبوا أنبياءهم وسخروا منهم، فقد ختم كل قصة من قصصهم بقوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾ [الشعراء: 8]

وسر هذا الاعتبار أن سنة الله في التعامل مع المجتمعات جميعا واحدة، لأن ذلك من مقتضيات عدالته المطلقة، ولهذا يخاطب الله تعالى قوم النبي ﷺ بأنهم ليسوا أحسن حالا ولا أجمل موقعا من غيرهم من الكفار الذين أخبر عنهم، كما قال تعالى: ﴿ أَكُفَّارُكُمْ خَيْرٌ مِنْ أُولَئِكُمْ أَمْ لَكُمْ بَرَاءَةٌ فِي الزُّبُرِ ﴾ [القمر: 43]

وهكذا ذكر القرآن الكريم وجوب الاستفادة من التاريخ في جانبه الجميل المشرق المتمثل في رسل الله وأوليائه، كما قال تعالى: ﴿ وَكُلًّا نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ وَجَاءَكَ فِي هَذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [هود:

120]، وقال: ﴿ وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَى مَا كُذِّبُوا وَأُوذُوا حَتَّى أَتَاهُمْ نَصْرُنَا وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ وَلَقَدْ جَاءَكَ مِنْ نَبَإِ الْمُرْسَلِينَ ﴾ [الأنعام: 34]

وقد أشار القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿ لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ [يوسف: 111] إلى كلا الدعامتين: التحقق من الأحداث، وأخذ العبرة منها.

بناء على هذا المنهج القرآني في التعامل مع الأحداث التاريخية، سنحاول في هذا الفصل إبراز أهم الأخطاء التي وقع فيها التراث السلفي في هذا الجانب.

أولا ـ جانب التحقق من الأحداث التاريخية:

من أبرز مخالفات التراث السلفي في الجانب التاريخي هو تلك الاستهانة بالتحقق من الأحداث التاريخية، حيث شحنوا أسفارهم الكثيرة بكل ما هب ودب من الأخبار، وبنوا عليها أسوارا من الأوهام والمواقف، مع كونها جميعا لا تستند إلى ركن متين من الحقيقة، بل إنها فوق ذلك مملوءة بالكذب والدجل والخرافة.

ولم يكتفوا بذلك، بل راحوا بمنهجهم الانتقائي الذي مارسوه مع كل العلوم والمعارف، ينتقون من الأحداث والرواة ما يضربون به خصومهم، فاستعملوا التاريخ كما استعملوا العقيدة والفقه والحديث وغيرها من العلوم لطرد من يشاءون من الأمة أو تشويهه أو تخوينه.

انطلاقا من هذا سنذكر هنا بعض الأمثلة عن أهم النواحي التي وقع فيها الخلل في التراث السلفي في جانبه التحققي:

1 ـ التساهل مع الرواة:

لقد كانت البداية في أكثر ما كتب من المدونات التاريخية القديمة من لدن سلف السلفية الأوائل الذين رضوا عنهم، وانتقوهم من دون غيرهم من السلف، فقد صنف عبيد بن شرية الجرهمي كتابه في تاريخ ملوك اليمن القدامى، وأمره معاوية أن يصنف له كتابا في تاريخ العرب أسماه (كتاب الملوك وأخبار الماضين).. وهكذا كتب وهب بن منبه كتابه (التيجان وملوك حمير) الذي اعتبر بعد ذلك من أهم المصادر في تاريخ اليمن.

وهكذا نجد أكثر الكتب في السيرة النبوية المسندة قد ألفت من طرف سلف السلفية الأوائل من أمثال أبان بن عثمان بن عفان (ت 105هـ) الذي تتلمذ على يديه كثير من المحدثين الأوائل كابن شهاب الزهري وابن إسحاق المطلبي،

ومن الأمور التي تقدمه لدى السلفية مشاركته في وقعة الجمل في حرب الإمام علي، وتوليه إمارة المدينة في أيام عبدالملك بن مروان[1].. ولهذا نال الحظوة لدى السلفيين باعتباره مصدرا من مصادر السيرة النبوية المطهرة، فقد قال ابن سعد وهو يترجم للمغيرة بن عبدالرحمن بن الحارث: (كان ثقة قليل الحديث، إلا مغازي رسول الله ﷺ أخذها عن أبان بن عثمان)[2]

ومثله عروة بن الزبير بن العوام (ت 93هـ)، والذي كانت له صلة وثيقة ببني أمية، وقد نقل لنا الطبري نصوصاً من كتاباته إلى عبدالملك بن مروان الخليفة الأموي[3].. وقد قال عنه الواقدي: (كان عروة فقيهاً عالماً حافظاً ثبتاً حجة عالماً بالسير، وهو أول من صنف في المغازي)[4]

وبعدهما كان ابن شهاب الزهري (ت 124هـ) الذي كان محل احترام كبير من طرف الأمويين، فقد أمر الخليفة هشام بن عبدالملك اثنين من كتابه بمرافقة ابن شهاب الزهري فرافقاه عاماً في مجالسه التي يحاضر فيها، ثم أودع ذلك النقل خزانة هشام[5].

وبعد ذلك بفترة ظهر ابن إسحاق (ت 151هـ) صاحب السيرة النبوية، والذي يعتبر من كبار من كتب فيها، وأكثر مصادر السيرة ترجع إليه، مع أن الذهبي قال عنه: (إنه أول من دون العلم بالمدينة قبل مالك وذويه، وكان في العلم بحراً عَجَّاجاً، ولكنه ليس بالمجود كما ينبغي)[6]، وذكر أنه أهل الجرح والتعديل اعتبروه صدوقا يدلس.

ويظهر ذلك بوضوح لمن طالع سيرته، حيث أنه يعتمد على مجهولين في أسانيده، فيقول مثلا: (حدثني بعض أهل العلم) أو (حدثني بعض أهل مكة) أو (حدثني من لا أتهم)، وإذا ما شك في صحة الرواية عبر عن ذلك بقوله: (فيما يذكرون) أو (فيما يزعمون).. كما أنه يجمع الروايات أحياناً مع بعضها دون تمييز لها، ويقدم لها بذكر الأسانيد مجموعة، ويسوق ملخصها.

هذا استعراض مختصر لأهم مصادر السيرة النبوية، والتي يبدوا فيها التساهل والنبرة الطائفية واضحة لا يمكن سترها، ذلك أن الأمويين الذين كانوا يسيطرون في ذلك الحين على الأمة، حاولوا أن يضعوا التاريخ، وخصوصا أحداث السيرة منه بما يتناسب مع أمزجتهم، فلهذا عزلوا عن الكتابة تلاميذ

1() الطبقات لابن سعد، 5/152.
2() الطبقات لابن سعد، 5/210..
3() تاريخ الأمم والرسل للطبري، 2/328، 421، 422.
4() نقلا عن: البداية والنهاية لابن كثير، 9/101.
5() حلية الأولياء لأبي نعيم الأصفهاني، 3/361.
6() سير أعلام النبلاء للذهبي، 7/53.

الصحابة السابقين الذين أحسنوا الصحبة، واستبدلوهم بالطلقاء ومن رضي عنهم الطلقاء.

وقـد أشـار أكـرم ضـياء العمـري إلى ذلـك التسـاهل في الرواية، فقال: (أما اشتراط الصحة الحديثيـة في قبـول الأخبـار التاريخية التي لا تمس العقيـدة والشـريعة ففيـه تعسُّـف كثـيرٌ، والخطر الناجم عنـه كبـير؛ لأن الروايـات التاريخيـة الـتي دوَّنهـا أسلافنا المؤرخون لم تُعامَل معاملة الأحاديث، بـل تمَّ التسـاهل فيها، وإذا رفضـنا منهجهم فـإن الحلقـات الفارغـة في تاريخنـا ستمثِّل هوَّة سحيقة بيننا وبين ماضينا، مما يولد الحيرة والضياع والتمــزق والانقطـــاع... لكن ذلـــك لا يعـــني التخلي عن منهج المحدثين في نقد أسانيد الروايـات التاريخية؛ فهي وسـيلتنا إلى الترجيح بين الروايات المتعارضة، كما أنها خـير مُعين في قبـول أو رفض بعض المتون المضـطربة أو الشـاذة عن الإطـار العـام لتـاريخ أمتنا، ولكن الإفـادة منهـا ينبغي أن تتم بمرونة، آخـذين بعين الاعتبار أن الأحـاديثِ غـير الروايـات التاريخية، وأن الأُولى نـالت من العنايـة مـا يمكِّنهـا من الصـمود أمـام قواعـد النقـد الصارمة)(1)

وأشار إلى ذلك كـذلك الشـيخ حسـن بن فرحـان المـالكي في كتابه (نحـو إنقـاذ التـاريخ الإسـلامي) الـذي أثـار ردود فعـل شـديدة من لـدن السـلفيين، فقـال: (.. لكن التـاريخ الاسـلامي ابتلي بكثير من أبنائـه الـذين لم يفهمـوا الاهـداف الحقيقيـة من دراسـته، ولم يقفـوا على جـواهر فوائـده، ولم يعرفـوا المنهج الصحيح في الاستفادة منه، تلك الاستفادة الـتي تتصـاحب فيهـا معرفة الاخطاء وبدايات الانحراف مع معرفة الايجابيات وجوانب الاشـراق. التـاريخ الاسـلامي مبتلى بأعدائه، الـذين يعممـون الخـاص، ويخصصـون السـائد، وينشـرون المثـالب الظالمـة في ثيـاب عـدل وتحقي!!. التـاريخ الاسـلامي مبتلى بكثـير من الصـالحين، الـذين يجمعـون بين العاطفـة الصـادقة والجهـل المركب، وقديما قال بعفى السـلف (لم نر الصـالحين في شـئ أكـذب منهم في الحـديث)!! ويقصـد القائـل ذلـك الصـلاح (العاطفي) الـذي لم يتسـلح بسـلاح العلم فـانطلت على هـؤلاء الصـالحين أكـاذيب الكـذابين وأخطـاء الجـاهلين وأوهـام النقلـة فأصـبحوا يرددونهـا وتجـري بهـا ألسـنتهم وهم لا يعرفـون أنهـا أباطيل، ولا يهتدون لمواطن الضـعف فيها، منخـدعين بشـيوعها وانتشارها، محسنين الظن بكـل ما سـمعوا.. التـاريخ الاسـلامي مبتلى ببعض العلمـــاء الـــذين يجـــازفون بإصـــدار الاحكـــام المستعجلة، حول الاحداث، والمواقف، والشخصـيات، والنتـائج،

(1) دراسات تاريخية: ص27..

متناسين الطريقة الصحيحة والمثلى، في البحث عن الحقيقة، ذلك البحث الذي يحترم العلم، ويلتزم النقل الصحيح، ويحترم العقل، ولا يهمل الاستيفاء في جمع شتات المادة، العلمية، من مختلف المصادر. ثم يتبع ذلك بتصنيف هذه المادة، من حيث القبول والرد ذلك التصنيف، الذي يبحر في مناهج المحدثين وأهل العلم من محدثين وأصوليين ومؤرخين، ويغوص في دلائل القواعد والالفاظ، ويستوعب الاقوال في الراوي الواحد، ثم يجتهد في معرفة القول الصحيح، المتفق مع سبر مرويات الراوي وأحاديثه، وما يتفق معها من مرويات الاخرين ثم وزن ذلك بميزان العدل فلا هضم لجوانب الخير ولا مجاملة لنوازع الشر، ثم ياتي بعد ذلك مرحلة التحليل والاستنتاجات، وجمع ملخص المادة ومتفرقات المعرفة، وتقديم هذا كله ليسهم في تصحيح معرفتنا بهذا التاريخ، ثم تنمية هذه المعرفة وزيادتها ومتابعتها ونقدها، لتسهم هذه المعرفة بدورها في علاج مشاكلنا المعاصرة، ونسترشد بها في استشراف المستقبل، وبالتالي وضع الحلول (الوقائية) للقضايا والمشكلات المتوقعة)(1)

وهكذا نجد الانتقادات الكثيرة توجه للمنهج الذي كتبت به السيرة والتاريخ، وإهمال التحقيق فيهما مع أهميتهما وخطرهما.

ومن الأمثلة على ذلك أن ابن حجر بالرغم من موقفه المتشدد مع ابن إسحق الذي قال فيه: (إمام في المغازي صدوق يدلّس)(2)، وقوله في الواقدي: (متروك مع سعة عمله)(3) وقوله في سيف بن عمر (ضعيف في الحديث عمدة في التاريخ)(4)

إلا أنه اعتبرهم في السيرة والروايات التاريخية حتى لو تناقضت رواياتهم مع الثقاة الذين يعتمدهم، ففي (كتاب المغازي، باب غزوة العشيرة) ذكر عدد غزوات الرسول ﷺ وعدد بعوثه وسراياه، وعدد الغزوات التي وقع فيها القتال، فاستشهد بأقوال أهل السير مثل ابن إسحاق والواقدي وابن سعد وذكر خلافهم، وجمع بين أقوالهم وأقوال من هم أوثق منهم من رواة الصحيح (5).

وهكذا جعل رواية ابن إسحاق جامعة بين الروايات رغم مخالفتها لما في الصحيح الذي يعتمده، وذلك عند حديثه عن مقتل أبي جهل يوم بدر فقد قال: (فهذا الذي رواه ابن إسحاق يجمع بين الأحاديث، لكنه يخالف ما في الصحيح من حديث

1() نحو إنقاذ التاريخ الإسلامي، ص5 .
2() ابن حجر: طبقات المدلسين، ص 51..
3() ابن حجر: التقريب، ج2، ص 194.
4() ابن حجر: التقريب، ج1، ص 344.
5() فتح الباري ج 7، ص 279-280..

عبدالرحمن بن عوف أنه رأى معاذاً ومعوذاً شدّا عليه جميعاً حتى طرحاه – يعني أبا جهل)(1)

وهكذا في حديثه عن قصة بني النضير ومتى كان حصارهم، فقد نقل عن ابن إسحاق أنها كانت بعد أحد، وبعد استشهاد القرّاء في بئر معونة. وذكر أن الذي في البخاري عن عروة أنها كانت على رأس ستة أشهر من وقعة بدر، أي قبل أحد، لكن ابن حجر مال إلى ترجيح رواية ابن إسحاق برغم إيراده سبباً للغزوة غير الذي ذكره ابن إسحاق وصححه، بقوله: (فهذا أقوى مما ذكر ابن إسحاق من أن سبب غزوة بني النضير طلبه ﷺ أن يعينوه في دية الرجلين، لكن وافق ابن إسحاق جل أهل المغازي)(2)

بناء على هذا، سنذكر هنا راوية اعتمد المؤرخون السلفيون عليه كثيرا في الأحداث المرتبطة بالفتنة وغيرها مع كون أهل الجرح والتعديل منهم يتهمونه.. ولكن مع ذلك قبلوه، ولا يزالون يرددون رواياته، لأن أخباره تجري بحسب ما تهوى سفن أهوائهم.

فقد أخرج له الطبري كتابيه (الفتوح) و(الجمل) موزعا على حوادث السنين في تاريخه أكثر من (800 رواية) وأخرج له ابن عساكر موزعا على تراجمه دون ذكر لتآليفه، وأخرج له الذهبي في تاريخه الكبير مع التصريح باسم تآليفه في المقدمة، ومثله ابن عبد البر في التمهيد.

وهكذا استخرج المهتمون بتراجم الصحابة أسماء كثيرة من أساطيره وترجموا لتلك الأسماء ضمن تراجم الصحابة كابن عبد البر وابن الأثير وابن حجر والذهبي وغيرهم.

واستخرج الحموي أيضا من أساطيره أسماء أماكن وترجمها في معجمه والحميري وترجمها في الروض ومن الحموي اخذ عبد المؤمن.

وهكذا دخل سيف بن عمر كل الدواوين على الرغم من المواقف المتشددة من أهل الجرح والتعديل حوله، يقول حسن بن فرحان المالكي في الرد على السلفية الذين بنوا الكثير من أوهامهم على هذا الراوية، وحاولوا كل جهدهم أن يلتمسوا أي سبيل لتوثيقه: (أود أن أقول انه قد أجمع المحدثون الذين ترجموا أو تكلموا عن سيف بن عمر على ضعفه وتفاوتت عباراتهم في جرحه بين (ضعيف) و(متروك) و(يضع الحديث) و(متهم بالزندقة) و(مخالفة الاجماع).. ولم يوثقه أحد منهم كما

1() فتح الباري، ج 7، ص 292..
2() فتح الباري، ج 7، ص 329-332..

توهم البعض من بعض عبارات الحافظ بن حجر أو الذهبي)[1]

ثم ساق أقوال العلماء الجرح والتعديل فيه، ومنها[2]:

1. إمام اهل الجرح والتعديل يحيى بن معين (232 ﻫ) قال عن سيف: (فلس خير منه) وقال في موضع آخر (ضعيف)
2. الإمام أبو زرعة الرازي (264 ﻫ) قال: (ضعيف الحديث)
3. الإمام أبو داود (275 ﻫ) (صاحب السنن) قال في سيف (ليس بشئ) وهذا جرح شديد.
4. الإمام أبو حاتم الرازي (277 هـ) قال: (متروك يشبه حديثه حديث الواقدي)
5. الإمام يعقوب بن سفيان الفسوي (277 هـ) قال عن سيف: (حديثه وروايته ليس بشئ)
6. الإمام النسائي (303 ﻫ) (صاحب السنن) في كتابه (الضعفاء والمتروكين) وقال عنه: ضعيف.
7. الإمام الطبري (310 هـ). مع أن الطبري قد روى عن سيف مثلما روى عن غيره من الضعفاء ورغم أن الطبري لم يورد في تاريخه أقوالا في الجرح والتعديل إلا في النادر ولم يجرح الضعفاء الذين يروي عنهم إلا أنه صرح بضعف سيف بن عمر فذكر مخالفة سيف للاجماع في أكثر من موضع مع أن الطبري لم يذكر هذا عن رواة آخرين ضعفاء كأبي مخنف والواقدي، فيعد الطبري من مضعفي سيف بن عمر، أما روايته عنه فقد روى عن غيره من المؤرخين الضعفاء من باب جمع المادة أو جمع أمثل ما رواه هؤلاء المؤرخون يظهر ذلك من كلامه في المقدمة ثم قد روى للكلبي وأبي مخنف والواقدي والهيثم بن عدي والهذلي وغيرهم من الضعفاء والمتروكين فليس روايته عن سيف استثناء من هولاء.
8. العقيلي (322 ﻫ) صاحب كتاب الضعفاء الكبير قال في سيف (لا يتابع على كثير من حديثه)
9. الإمام عبد الرحمن بن أبي حاتم (327 ﻫ) صاحب كتاب الجرح والتعديل قال في سيف (متروك الحديث)
10. ابن السكن (353 ﻫ) قال عنه: سيف بن عمر ضعيف. وأقره الحافظ ابن حجر.
11. ابن حبان (354 ﻫ) أورد سيفا في كتابه (المجروحين) وقال عنه (يروي الموضوعات عن الاثبات وقالوا: انه كان يضع الحديث وكان قد اتهم بالزندقة)
12. الإمام ابن عدي (365 س) أورده في كتابه (الكامل في ضعفاء

---

[1] إنقاذ التاريخ الإسلامي، ص52.

[2] إنقاذ التاريخ الإسلامي، ص53.

الرجـال) وقـال (بعض أحـاديث سـيف مشـهورة وعامتهـا منكـرة) يعـني أكثرها، ولا يوجـد كـذاب في الـدنيا إلا وبعض أحاديثه صحيحة لكنها قلة نسبة إلى الغرائب (المكذوبة)، ولا يستطيع الكذاب أن يكذب في كل أقواله، هذا مستحيل.

13. الإمـام الـدارقطني (385 هـ) صـاحب العلـل قـال عن سـيف: (متروك) وقال مرة (ضعيف)
14. الإمـام الحـاكم (405 هـ) صـاحب المسـتدرك قـال في سـيف (متهم بالزندقة وهو في الرواية ساقط)
15. البرقاني (425 هـ) قال (متروك) وتابع الدارقطني على هذا.
16. أبو منصور الصيرفي عد سيفا من الضـعفاء والمـتروكين، اتفـق مع الدارقطني والبرقاني في ذلك.
17. ابن نمير (234 هـ): نقل عنـه الـذهبي وابن حبـان قولـه (سـيف الضبي تميمي وكان جميع يقول: حدثني رجـل من بـني تميم وكان سيف يضع الحديث وكان قد اتهم بالزندقة.
18. ذكره ابن الجوزي (571 هـ) في (الضعفاء)
19. الذهبي (748 هـ) قال في الكاشف (1 / 371): (تركوه واتهم بالزندقة)
20. الحافـظ بن حجـر (852 هـ) في التقـريب (ضـعيف في الحـديث عمدة في التـاريخ) واللفـظ الأخـيرة ممـا تمسـك بـه موثقـو سـيف من السـلفية المعاصـرين، وهـذه اللفظـة لا تعـني التوثيق، كيف وابن حجر نفسه قد ضـعف سـيفا في روايـات تاريخية بحتة، ويعد المتساهل الوحيد في الإكثار من روايـات سيف مع حكمه عليه بالضـعف. وهـو ينقـل عن ضـعفاء غـير سيف مثل الكلـبي وأبي مخنف والهيثم بن عـدي مـع حكمـه عليهم بالضـعف والـترك أيضا. لكنـه يجتهـد في اختيـار بعض الاختيار من رواياتهم.
21. المحدث محمد العربي التبـاني (تـوفي نحو 1390 هـ) في كتابـه القيم (تحذير العبقري من محاضرات الخضـري): (سـيف بن عمر الوضـاع المتهم بالزندقـة المتفـق على أنـه لا يـروي إلا عن المجهـولين)[1]، وقـال: (وقـد اتفـق أئمـة النقـد على أن سـيفا لا يـروي إلا عن المجهـولين وعلى طرحـه) [2]، وقـال: (وهذا التدافع والتخبط والطعن في الصـحابة قـد اسـتقريناه في كـل خـبر يرويـه الطـبري عن سـيف بن عمـر المتهم بالزندقـة الـذي لا يـروي إلا عن المجهـولين)[3]، وأشـار أنـه بسبب روايات سيف بن عمر اتهم أبو ذر بالاشتراكية، فقـال

1() تحذير العبقري من محاضرات الخضري (1 / 275)
2() تحذير العبقري من محاضرات الخضري (1 / 272)
3() تحذير العبقري من محاضرات الخضري (1 / 256)

في رده على الذين يوثقون سيفا في التاريخ دون الحديث قال الشيخ المحدث محمد العربي: (وإذا كان وضع الاخبار الكثيرة على النبي ﷺ سهلا على الوضاعين فالوضع على الصحابة والتابعين يكون أسهل) [1]

22. قام بعض الباحثين بدراسات خاصة عن سيف بن عمر ضمن أبحاثهم ومؤلفاتهم في التاريخ الاسلامي واعتقد أن من قام بدراسة عن الرجل أولى بقبول الرأي ممن لم يقم بذلك ومن هؤلاء الدكتور عبد العزيز بن صالح الهلابي وقد توصل إلى نتائج تتفق مع أحكام أهل الحديث المضعفة لسيف بن عمر بل المتهمة له بالكذب واختلاق الروايات.

هذه أحكام علماء الجرح والتعديل في هذا الرجل الذي يعتبره السلفيون مصدرا في الكثير من الأحداث الخطيرة المرتبطة بالأمة، وخاصة بطائفة محترمة منها هي الشيعة، حيث أنهم من خلال راوايته عن عبد الله بن سبأ بنى السلفية كل مواقفهم من الشيعة، وراحوا يرجمون كل حين بمرويات هم أنفسهم وبناء على منهجهم في الجرح والتعديل يعتقدون كذبها.

وقد ختم المالكي تلك النصوص التي جمعها من علماء الجرح والتعديل بقوله: (وخلاصة هذا.. أنك قد رأيت أن المحدثين قديما وحديثا قد أجمعوا على ضعف سيف بن عمر، وأنه قد يضع الأحاديث ويكذب على النبي ﷺ ومن كذب على النبي ﷺ فكيف ينتظر منه ان يصدق في أخبار الجمل والقعقاع بن عمرو؟! كما رأيت ان الدراسات المعاصرة تتفق مع ما اتفق عليه المحدثون.. وكنت أظن ان الدراسات (الأكاديمية) قد طوت صفحة سيف منذ زمن فلم تعد أباطيله تنطلي على أحد ولا تخدع ذا لب وإذا بنا نفاجأ من وقت لآخر بكتابات تتهم (المحدثين) بدلا من (سيف) وتجعلهم (متحيزين) وتجعل من سيف (معتمدا لهم)، فكيف نجمع بين (تحيزهم ضده) و(اعتمادهم عليه)؟ وهكذا نستخرج سيفا من أحكامهم كما تستخرج الشعرة من العجين ولتبقى أحكامهم صالحة ضد بقية المؤرخين كالواقدي وأبي مخنف، فالمحدثون (معتدلون) في الحكم عليهم، لكنهم (متحيزون) في حكمهم على سيف بن عمر، وهكذا فلتكن العلمية والمقالات الاكاديمية المتخصصة؟ وبهذا تبدأ الازدواجية، ولا تنتهي عن سيف بن عمر ومروياته)[2]

ثم بين الشيخ حسن بن فرحان المالكي ناحية أخرى مهمة تبين مدى ازدواجية السلفية في المعايير وفي التعامل مع

1() تحذير العبقري من محاضرات الخضري (1 / 272)
2() إنقاذ التاريخ الإسلامي، ص59.

الرواة وكل شيء، وأن هدفهم الأول والأخير هو الوصول إلى غايتهم، لا ما يفرزه التحقيق العلمي من نتائج، فالغاية عندهم تبرر الوسيلة، يقول ـ مخاطبا ذلك السلفي الذي راح يلتمس كل السبل لتوثيق سيف بن عمر من أجل أن يصحح أكاذيبه حول عبد الله بن سبأ: (وهب أننا وافقناه على قوله واتهمنا المحدثين بدلا من سيف وقلنا بأن سيف بن عمر (ثقة ثبت حافظ حجة إمام)، وجعلناه بمرتبة البخاري أو الإمام احمد، فإننا بعد هذا كله لن نستطيع توثيق روايات سيف بن عمر فإنها ستبقى ضعيفة أيضا.. لأن الأسانيد لا تصح إلى سيف ولا تصح روايته عن شيوخه.. لأن تلميذ سيف المتخص في نقل مروياته هو شعيب بن ابراهيم الكوفي وهو (مجهول) و(في رواياته منكرات وتحامل على السلف) وانظر ترجمته في الميزان للذهبي وقبله في الكامل في الضعفاء لابن عدي فهو أخو سيف في الضعف والمنكرات؟ وشعيب هذا قد روى أكثر من 90 من روايات سيف بن عمر وانفرد بكثر هذه النسبة فقد روى 730 رواية من أصل 800 رواية - أو أكثر بقليل - هي كل ما رواه الطبري في تاريخه سيف بن عمر. كما ان الكتاب المحقق الذي أخرجه السامرائي كله عن طريق (شعيب عن سيف)؟! فلو كان هذا الكتاب للبخاري لما أمكن الوثوق في رواياته لان (ضعف التلميذ) لا يزيله (صدق الشيخ) والعكس صحيح أيضا. ومعنى هذا كله أننا نقول للروايات الـ (730) وللكتاب المحقق السلام عليكما ونلقيهما في مهملات التاريخ ومنكراته اللهم إلا روايات معدودة في تاريخ الطبري) [1]

وقد ذكر الشيخ حسن بن فرحان المالكي السر الذي جعل السلفية يميلون إليه مع كونه يطعن في كبار الصحابة والتابعين، فقال: (سيف مغرم بالطعن في بعض الصحابة والتابعين الذين كانت لهم مواقف من بني أمية كعمار بن ياسر وأبي ذر الغفاري وزيد بن صوحان والاشتر والاسود بن يزيد وأمثالهم، فأنت تجد في رواياته أن أباذر وعمار بن ياسر من تلاميذ عبد الله بن سبأ يسلط الأول على معاوية ويحرض الثاني ضد عثمان وكلاهما (أبو ذر وعمار) آذان صاغية وأيد منفذة لهذا اليهودي النكرة؟ سبحان الله، أين الولاء والبراء؟ أين عقيدة عمار وأبي ذر؟ هل كل هذا من أجل يهودي يلعب بهما كيف شاء، ويسخرهما لطاعته.. سبحان الله، (أصدق الناس لهجة أبو ذر) يردد أكاذيب هذا اليهودي (والطيب المطيب عمار) يتلوث بهذه الافكار اليهودية.. يتحولان بعد صحبة النبي ﷺ وشهادته لهما بالجنة إلى متآمرين مع اليهود ضد المسلمين.. هذه ردة

1() إنقاذ التاريخ الإسلامي، ص62.

فـإن من نـواقض (لا إلـه إلا اللـه) مظـاهرة المشـركين ضـد المسلمين.. فهل يريد سـيف أن يطعن فيهمـا بهـذا الطعن ممـا يصلح للاستدلال به على اتهامه بالزندقة، فهـو يطعن في هـؤلاء الأخيار بينما يدافع عن معاوية وزياد بن أبيـه وسـعيد بن العـاص والوليد بن عقبة (الفاسق) وأبي الاعور السـلمي وبسـر بن أبي أرطأة (السفاك) ومروان وأمثـالهم.. فكيـف يتهم سـيف الـبرئ ويبرئ المتهم إلا لهوى وفساد عقل ودين) (1)

بالإضـافة إلى تلـك المواقـف من السـابقين من الصـحابة الذين شهد لهم رسول الله ﷺ بالصدق والثبـات، والـذي لا يجـد السـلفية حرجـا في الطعن فيهم بسـبب مـواقفهم من حـبيبهم وخالهم معاوية، يذكر الشيخ حسن بن فرحان عـاملا آخـر مهمـا على أساسه يتعامل السلفية مـع الـرواة والعلمـاء وكـل شـيء، وهو ما عبر عنه بقوله: (.. من طالع روايات سيف يجـده أمـوي النزعة وتجده يبني (الأمـوي) من عهـد النـبي ﷺ ويـذكر لـه من الأمجاد والبطولات وحسـن الـرأي مـا يجعـل القـارئ يتمـنى أن يصـل ذلك (الأمـوي) للحكم، ولـذلك أكـثر عنـه أمويـو عصـرنا كمحب الدين الخطيب وأمثاله.. فسـيف يفعـل مـا سـبق، بينمـا يطعن في مخـالفي الأمـويين.. طـالعوا أي شخصـية أمويـة في تاريخ الطبري واستخرجوا أخبارها وقارنوا مـا كتبـه سـيف عنهـا ومـا كتبهـا غـيره وسـتجدون العجب، خـذوا أي شخصـية أموية، معاوية مثلا، الوليد بن عقبة، زيـاد بن أبيه،.. في المقابـل خـذوا أي شخصية معادية لبني أميـة أو لبعضـهم أو لهم مواقـف معهم كأبي ذر وعمار وقارنوا أخبارهم في كتب الحـديث والتـاريخ مـع ما كتبه سيف ستجدون غاية العجب وغاية الخبث فعمار وأبو ذر من أتباع ابن سبأ عند سـيف بن عمر، وجنـدب بن زهـير شـاهد زور لأنه ضد الوليد بن عقبة، وزيد بن صـوحان إنما قطعت يـده في السرقة عند سـيف، ولم تقطـع في الجهـاد في سـبيل الله، وهكـذا لانـه كـان ضـد بـني أمية.. فمن خـالف بـني أميـة أو له مواقف معهم نجد سيفا يجدعـه تجـديعا ويظهـره بهـذا المظهـر المزري، هـذه أقـوال سـيف في عمـار وأمثالـه فكيـف بالأشـتر وغيره من التابعين الذين كـانوا مـع علي فنحن في هـذا العصـر خاصة مغرمون بالرد على المذهب الشيعي، وبالتالي قبول كــل ما يخالفه وإن كان باطلا، ورد كل ما يوافقه وإن كان حقا، وهذا خطأ منهجي كبير يقع فيه كثير من المؤرخين بعلم أو بجهل) (2)

هذا هو موقف الشـيخ حسـن بن فرحـان المـالكي، والـذي تتلمذ على أيدي أساتذة المدرسة السلفية لكن صدقه وتحقيقـه

1() إنقاذ التاريخ الإسلامي، ص71.
2() إنقاذ التاريخ الإسلامي، ص72.

جعله يتحري إلى أن يصل إلى الحقيقة في هذا الباب، كما وصل إليها في أبواب كثيرة، لأن أول طريق الحقيقة هي التحرر من سلطة الطائفة والمذهب والعشيرة، وقد لاقى بسبب ذلك من الأذى ما يلاقيه كل متحرر.

هذا مجرد نموذج عن المكاييل المزدوجة التي يتعامل بها السلفية مع الرواة، والذي رأينا بعض الأمثلة عنه في منهجهم في علم الحديث.. لكنهم في هذا المجال خصوصا تركوا لأنفسهم العنان لتنتقي ما تشاء، وخاصة فيما يرضي نزواتهم التضليلية والتكفيرية.

2 ـ الكذب على المخالفين:

بناء على ما سبق، فإن السلفية يتخذون من التاريخ مطية ووسيلة لضرب المخالفين لهم وتجريحهم والحط من شأنهم، مثلما يفعلون في العقائد والفقه عندما يكذبون على كل مخالف لهم، ويتهمونه بالبدعة.

والأمثلة على ذلك أكثر من أن تحصر، ولكني سأسوق هنا مثالا يردده الكثير من المعاصرين، ويبنون عليه جدرا كثيرة من الأوهام والأحكام الجزافية مع كون الحادثة لو صحت كما ذكروا لا تعدو أن تكون مرتبطة بأصحابها، ولا يحق لأحد من الناس أن يعمم ما فعل الفرد والفردان لطائفة محترمة من الأمة.

والمثال هو ما يذكره السلفية قديما وحديثا من قصة ابن العلقمي ونصير الدين الطوسي وطعنهما لسائر المسلمين في الظهر.. ثم يبنون على هذا أن كل الشيعة خونة وجند للشيطان ليستأصل الفرقة الناجية والطائفة المنصورة.. ولم يكلف أحد منهم نفسه بالتحقيق في مدى صدق الروايات التاريخية المرتبطة بهذا.

وبناء عليه سأسوق هنا ما ذكره السلفية حول تلك الأحداث، ثم أسوق ما يذكره غيرهم من المؤرخين حولها، لنرى الإزدواجية والكذب الذي تعلمه السلفية من أساتذتهم القدامى من اليهود.

أما السلفية، فقد عبر ابن تيمية عنهم بقوله ــ متحدثا عن تلك الحادثة، ومتهما بها الشيعة جميعا سلفهم وخلفهم ــ: (هم يستعينون بالكفار على المسلمين، فقد رأينا ورأى المسلمون أنه إذا ابتلي المسلمون بعدو كافر كانوا معه على المسلمين، كما جرى لجنكزخان ملك التتر الكفار، فإن الرافضة أعانته على المسلمين، وأما إعانتهم لهولاكو ابن ابنه لما جاء إلى خراسان والعراق والشام فهذا أظهر وأشهر من أن يخفى على أحد، فكانوا بالعراق وخراسان من أعظم أنصاره ظاهرا وباطنا، وكان وزير الخليفة ببغداد الذي يقال له ابن العلقمي منهم، فلم

يزل يمكر بالخليفة والمسلمين، ويسعى في قطع أرزاق عسكر المسلمين وضعفهم، وينهى العامة عن قتالهم، ويكيد أنواعا من الكيد، حتى دخلوا فقتلوا من المسلمين ما يقال: إنه بضعة عشر ألف ألف إنسان، أو أكثر أو أقل، ولم ير في الإسلام ملحمة مثل ملحمة الترك الكفار المسمين بالتتر، وقتلوا الهاشميين وسبوا نساءهم من العباسيين وغير العباسيين، فهل يكون مواليا لآل رسول الله ﷺ من يسلط الكفار على قتلهم وسبيهم وعلى سائر المسلمين؟)(1)

هذا كلام ابن تيمية، ومثله كلام جميع السلفية حول الحادثة، والتي تفنن المعاصرون في صناعة سيناريوهاتها، كمثل هذا السيناريو الذي رسمه ناصر بن عبد الله بن علي القفاري في كتابه (أصول مذهب الشعية الإمامية الإثني عشرية عرض ونقد)، فقد صور فيه الحادثة كما يلي: (وملخص الحادثة أن ابن العلقمي كان وزيراً للخليفة العباسي المستعصم، وكان الخليفة على مذهب أهل السنة، كما كان أبوه وجده، ولكن كان فيه لين وعدم تيقظ، فكان هذا الوزير الرافضي يخطط للقضاء على دولة الخلافة، وإبادة أهل السنة، وإقامة دولة على مذهب الرافضة، فاستغل منصبه، وغفلة الخليفة لتنفيذ مؤامراته ضد دولة الخلافة، وكانت خيوط مؤامراته تتمثل في ثلاث مراحل: المرحلة الأولى: إضعاف الجيش، ومضايقة الناس.. حيث سعى في قطع أرزاق عسكر المسلمين، وضعفتهم: قال ابن كثير: "وكان الوزير ابن العلقمي يجتهد في صرف الجيوش، وإسقاط اسمهم من الديوان، فكانت العساكر في أخر أيام المستنصر قريباً من مائة ألف مقاتل.. فلم يزل يجتهد في تقليلهم، إلى أن لم يبق سوى عشرة آلاف)(2).. المرحلة الثانية: مكاتبة التتار: يقول ابن كثير: (ثم كاتب التتار، وأطمعهم في أخذ البلاد، وسهل عليهم ذلك، وحكى لهم حقيقة الحال وكشف لهم ضعف الرجال)(3).. المرحلة الثالثة: النهي عن قتال التتار وتثبيط الخليفة والناس، فقد نهى العامة عن قتالهم وأوهم الخليفة وحاشيته أن ملك التتار يريد مصالحتهم، وأشار على الخليفة بالخروج إليه والمثول بين يديه لتقع المصالحة على أن يكون نصف خراج العراق لهم، ونصفه للخليفة)(4)

هذا هو الكلام الذي يردده السلفية كثيرا يذكرنا بموقفهم الآن من غزو العراق وأفغانستان، فمع أن الطائرات الأمريكية وغيرها كانت ترتفع من القواعد الخليجية لضرب تلك البلاد

1() منهاج السنة النبوية (5/ 155)
2() البداية والنهاية: 13/202.
3() البداية والنهاية: 13/202.
4() أصول مذهب الشعية الإمامية الإثني عشرية عرض ونقد (3/ 1159)

الإسلامية، ومع أن الفتاوى صدرت من هيئة كبار العلماء بذلك، ومع أن كل شيء طبخ بتنسيق بين أولي الأمر ممن يسمون أنفسهم زورا وبهتانا [أهل السنة] وأعدائهم، وبفتاوى كبار العلماء الذين يستند إليهم السلفية، ومع ذلك.. وبعد فترة قصيرة، صار السلفية يرددون بأن العراق وأفغانستان ضربت من الشيعة بحجة أن بعض التصريحات صدرت من إيرانيين من أنه لولاهم لما تمكنت أمريكا من غزو العراق ولا أفغانستان.. ولسنا ندري أيهما نصدق: هل تلك الطائرات والقواعد التي لا تزال جاثمة على أرض الجزيرة تمطر كل حين بلاد العالم الإسلامي بأنواع القتل والدمار، أم نصدق تلك التصريحات التي أسيء فهمها، أو استغلت استغلالا خاطئا.

وهكذا حصل مع ابن العلقمي ونصير الدين الطوسي.. فقد برأ السلفية الخليفة وبرأو قادة الجيش، وبرأت جميع أجهزة الحكم، ثم بحث عن رجل واحد كان من الشيعة لتلصق جميع التهم به، وكأنهم كانوا بين يديه مجرد دمى يحركها كيف يشاء.

بناء على هذا سأذكر هنا بعض النصوص التاريخية من مصادر متعددة، ويمكن للقارئ أن يعود إليها ليحقق فيها جيدا، ليرى مدى صدق ما يقوله السلفية في هذا، وكأنه حقائق قطعية لا جدل فيها.

يقول أبو الفداء (المتوفى: 732هـ): (ولما مات المستنصر اتفقت آراء أرباب الدولة مثل الدوادار والشرابي على تقليد الخلافة ولده عبد الله ولقبوه المستعصم بالله، وهو سابع ثلاثينهم وآخرهم، وكنيته أبو أحمد بن المستنصر بالله منصور، وكان عبد الله المستعصم ضعيف الرأي فاستبد كبراء دولته بالأمر، وحسنوا له قطع الأجناد، وجمع المال ومداراة التتر، ففعل ذلك وقطع أكثر العساكر)(1).

وقال القلقشندي: (وأبطل أكثر العساكر، وكان التتر من أولاد جنكزخان قد خرجوا على بلاد الإسلام على ما تقدم، وملكوا أكثر بلاد الشرق والشمال... وكان عسكر بغداد قبل ولاية المستعصم مائة ألف فارس، فقطعهم المستعصم ليحمل الى التتر متحصل إقطاعاتهم! فصار عسكرها دون عشرين ألف فارس)(2)

وقال الذهبي في تاريخه: (وكان المستنصر بالله(والد المستعصم)قد استكثر من الجند حتى بلغ عدد عساكره مائة ألف فيما بلغنا، وكان مع ذلك يصانع التتار ويهاديهم ويرضيهم)(3)

---

(1) تاريخه/804.
(2) مآثر الإنافة:2/89.
(3) تاريخه:48/34.

وهذه النصوص تدل على أنه لا علاقة لابن العلقمي بحل الجيش، بل هناك من الوثائق التاريخية المعتبرة لدى السلفية ما يدل على أن ابن العلقمي حاول أن يعيد تشكيل الجيش فلم يسمعوا له، وقد شهد الذهبي وغيره بذلك عن غير قصد، كما شهدوا بأن الخليفة وقائد (جيشه) لم يكونا يسمعان لابن العلقمي قال: (كان وزيراً كافياً، قادراً على النظم، خبيراً بتدبير الملك ولم يزل ناصحاً لمخدومه حتى وقع بينه وبين حاشية الخليفة وخواصه منازعة فيما يتعلق بالأموال والإستبداد بالأمر دونه، وقويت المنافسة بينه وبين الدويدار الكبير وضعف جانبه حتى قال عن نفسه:

وزيرٌ رضي من بأسه وانتقامه بِطَيِّ رُقاعٍ حشوُها النظمُ والنثرُ

كما تسجع الورقاءُ وهي حمامةٌ وليس لها نهيٌ يطاعُ ولا أمرُ)(1)

لكن ابن كثير السلفي المتعصب لم يستسغ هذا، فراح يضع كل شيء في عنق ابن العلقمي، فقال: (فأحاطوا ببغداد من ناحيتها الغربية والشرقية وجيوش بغداد في غاية القلة ونهاية الذلة، لا يبلغون عشرة آلاف فارس وهم وبقية الجيش كلهم قد صرفوا عن إقطاعاتهم، حتى استعطى كثير منهم في الأسواق وأبواب المساجد، وأنشد فيهم الشعراء قصائد يرثون لهم، ويحزنون على الإسلام وأهله! وذلك كله عن آراء الوزير ابن العلقمي الرافضي)(2)

يقول الكوراني تعليقا على هذا النص: (فاعجب لتعصبهم على ابن العلقمي الذي لم يكن يملك شيئاً من القرار، وتبرئتهم للمجرمين الحقيقيين الخليفة المستنصر والمستعصم وقادة الجيش الأتراك الذين أصروا على حل الجيش، وفرضوا خليفة ضعيفاً يطيعهم في استمرار حل الجيش وتوفير ميزانيته، بينما كان خطر المغول واضحاً للعيان)(3)

وقد شهد ابن الطقطقي المعاصر لهم بنزاهة ابن العلقمي وبراءته، قال: (وكان مؤيد الدين الوزير عفيفاً عن أموال الديوان وأموال الرعية متنزهاً مترفعاً. قيل إن بدر الدين صاحب الموصل أهدى إليه هدية تشتمل على كتب وثياب ولطائف قيمتها عشرة آلاف دينار، فلما وصلت إلى الوزير حملها إلى خدمة الخليفة، وقال: إن صاحب الموصل قد أهدى لي هذا واستحييت منه أن أرده إليه، وقد حملته وأنا أسأل

1() تاريخه:48/290.

2() البداية والنهاية:13/234.

3() كيف ردَّ الشيعة غزو المغول: دراسة لدور المرجعين نصير الدين الطوسي والعلامة الحلي في رد الغزو المغولي، علي الكوراني العاملي،ص61.

قبوله فَقَبل. ثم إنه أهدى إلى بدر الدين عوض هديته شيئاً من لطائف بغداد قيمته اثنا عشر ألف دينار، والتمس منه ألا يهدي إليه شيئاً بعد ذلك! وكان خواص الخليفة جميعهم يكرهونه ويحسدونه! وكان الخليفة يعتقد فيه ويحبه وكثروا عليه عنده فكفَّ يده عن أكثر الأمور ونسبه الناس إلى أنه خامر(تآمر مع هولاكو) وليس ذلك بصحيح)(1).

بل قد ورد في الروايات التاريخية أن ابن العلقمي حاول إنقاذ الخلافة فمنعوه، ذلك أنه عندما اقتربت حملة المغول استشار الخليفة وزيره ابن العلقمي فأشار عليه أن يرسل الى طاغيتهم هولاكو هدايا وفيرة، ويطمئنه بأنه يعترف به سلطاناً كالسلطان البويهي والسلجوقي، ليعترف هولاكو بالخليفة ولا يهاجم بغداد! وقد اقتنع الخليفة بهذا الرأي وأمرهم فباشروا بتهيئة الهدايا والرسل، لكن القائد السني الدويدار وبقية البطانة استكثروا الهدية ومنعوا الخليفة من إرسالها فأطاعهم، وأحبطوا بذلك محاولة إنقاذ الخلافة، كما ذكر ابن العبري ذلك، فقال: (وفيها في شهر شوال رحل هولاكو عن حدود همذان نحو مدينة بغداد، وكان في أيام محاصرته قلاع الملاحدة قد سيَّر رسولاً إلى الخليفة المستعصم يطلب منه نجدة، فأراد أن يسيِّر ولم يقدر، لم يمكنه الوزراء والأمراء وقالوا: إن هولاكو رجل صاحب احتيال وخديعة وليس محتاجاً إلى نجدتنا، وإنما غرضه إخلاء بغداد عن الرجال فيملكها بسهولة. فتقاعدوا بسبب هذا الخيال عن إرسال الرجال! ولما فتح هولاكو تلك القلاع أرسل رسولاً آخر إلى الخليفة وعاتبه على إهماله تسيير النجدة، فشاوروا الوزير فيما يجب أن يفعلوه فقال: لا وجه غير إرضاء هذا الملك الجبار ببذل الأموال والهدايا والتحف له ولخواصه. وعندما أخذوا في تجهيز مايُسَيِّرونه من الجواهر والمرصعات والثياب والذهب والفضة والمماليك والجواري والخيل والبغال والجمال، قال الدويدار الصغير وأصحابه: إن الوزير إنما يدبر شأن نفسه مع التاتار وهو يروم تسليمنا إليهم فلا نمكنه من ذلك! فأبطل الخليفة بهذا السبب تنفيذ الهدايا الكثيرة، واقتصر على شئ نزر لا قدر له، فغضب هولاكو وقال: لا بد من مجيئه هو بنفسه أو يسيِّر أحد ثلاثة نفر: إما الوزير وإما الدويدار وإما سليمان شاه. فتقدم الخليفة إليهم بالمضي فلم يركنوا إلى قوله، فسيَّر غيرهم مثل ابن الجوزي وابن محيي الدين، فلم يُجديا عنه)(2)

وقال الذهبي: (وفي سنة خمس(655)سار هولاكو من همدان قاصداً بغداد، فأشار ابن العلقمي الوزير على الخليفة

______

1() الآداب السلطانية/233.

2() تاريخ مختصر الدول/240.

ببذل الأموال والتحف النفيسة إليه، فثناه عن ذلك الدويدار وغيره وقالوا: غرض الوزير إصلاح حاله مع هولاكو فأصغى إليهم وبعث هدية قليلة مع عبد الله بن الجوزي فتنمر هولاكو، وبعث يطلب الدويدار وابن الدويدار وسليمان شاه فما راحوا، وأقبلت المُغُل كالليل المظلم. وكان الخليفة قد أهمد حال الجند وتعثروا وافتقروا وقطعت أخبازهم، ونظم الشعر في ذلك! فلا قوة إلا بالله)(1)

يقول الكوراني تعليقا على هذا النص: (فلماذا يتعامى أتباع الخلافة عن حقيقة أن مركز القرار والميزانية كانا بيد الخليفة وبطانته، ويضعون المسؤولية على شيعي مدني لايملك القرار؟! ولماذا لايُدينون الخليفة البخيل المنهار الذي عرف أن المغول قصدوا العراق فأرسل معتمده محتسب بغداد الفقيه السني ابن الجوزي الى هلاكو ليسلمه الأهواز التي كانت خاضعة للخليفة مباشرة! قال الذهبي: (وقد أرسله المستعصم إلى خراسان إلى هولاكو ثم رجع وأخبر بصحة عزمه على قصد العراق في جيش عظيم، فلم يستعدوا للقائه! ولما خرج المستعصم إليه طلب منه أن ينفذ إلى خورستان من يسلمها، فنفذ شرف الدين هذا بخاتم الخليفة فتوجه مع جماعة من المغول وعرفهم حقيقة الحال)(2)، ومع كل ذلك ظل(الخليفة)مستغرقاً في خمره حتى عندما أحاط جيش هولاكو بقصره وأصابت سهامهم راقصته، فكان جوابه أن قال: قتلوا راقصتي فكثِّفوا الستائر، قال ابن كثير: (وأحاطت التتار بدار الخلافة يرشقونها بالنبال من كل جانب حتى أصيبت جارية كانت تلعب بين يدي الخليفة وتضحكه، وكانت من جملة حظاياه وكانت مولَّدَةً تسمى عَرَفة، جاءها سهم من بعض الشبابيك فقتلها وهي ترقص بين يدي الخليفة، فانزعج الخليفة من ذلك وفزع فزعاً شديداً! وأحضر السهم الذي أصابها بين يديه فإذا عليه مكتوب: إذا أراد الله إنفاذ قضائه وقدره أذهب من ذوي العقول عقولهم)! فأمر الخليفة عند ذلك بزيادة الإحتراز وكثرة الستائر(الجُدُر) على دار الخلافة)(3))(4)

هذا هو الخليفة السني المنشغل بالراقصة في تلك الأيام الشديدة، والذي أقام السلفية الدنيا من أجله، واعتبروا كل الشيعة خونة بسبب ذلك الوزير المسكين الذي ابتلي بالوزارة في دولة العابثين والراقصين والماجنين، وكأنه هو الذي حال

1() تاريخه:48/32.
2() سير أعلام النبلاء:23/374.
3() البداية والنهاية:13/233.
4() كيف ردَّ الشيعة غزو المغول: دراسة لدور المرجعين نصير الدين الطوسي والعلامة الحلي في رد الغزو المغولي، علي الكوراني العاملي،ص65.

بين الخليفة وبين صيرورته زعيما حقيقيا، أو صيرورة قادة الجند أبطالا شجعانا.. لكن العقل السلفي يقبل كل شيء، ويكذب على كل شيء.

ونحن لا ندافع هنا عن ابن العلقمي، ولا عن غيره.. ولكنا نتعجب من تلك العقول الممتلئة بالأحقاد، فلذلك تصدق كل ما يردها من دون تحليل ولا تحقيق ولا ورع.

ثم لا تكتفي بالتعامل مع الحادثة، وكأنها حادثة فردية، بل تعممها على طائفة كبيرة محترمة، فإذا ما ذكر المخالف لهم قائدا أو حاكما أو وزيرا سنيا قام بخيانة في وقت من الأوقات ذكروا له أن ذلك الوزير لا يمثل إلا نفسه.. فكيف يستقيم أن يمثل الوزير السني نفسه فقط، بينما يمثل الوزير الشيعي جميع الشيعة في كل زمان ومكان؟

هذا مجرد مثال وقريب منه مثال العلامة الكبير نصير الدين الطوسي الذي راح ضحية الأكاذيب والتضليلات السلفية الكثيرة، والتي تدل الحقائق التاريخية على عكسها تماما.

فقد قال ابن تيمية عنه: (هذا الرجل قد اشتهر عند الخاص والعام أنّه كان وزيراً الملاحدة الباطنية الاسماعيليّة في الالموت، ثمّ لمّا قدم الترك المشركون إلى بلاد المسلمين، وجاؤوا إلى بغداد دار الخلافة، كان هذا منجّماً مشيراً لملك الترك المشركين هولاكو، أشار عليه بقتل الخليفة وقتل أهل العلم والدين، واستبقاء أهل الصناعات والتجارات الذين ينفعونه في الدنيا، وأنّه استولى على الوقف الذي للمسلمين، وكان يعطي منه ما شاء الله لعلماء المشركين وشيوخهم من البخشية السحرة وأمثالهم. وأنّه لمّا بنى الرصد الذي بمراغة على طريقة الصابئة المشركين، كان أبخس الناس نصيباً منه من كان إلى أهل الملل أقرب، وأوفرهم نصيباً من كان أبعدهم عن الملل، مثل الصابئة المشركين ومثل المعطلة وسائر المشركين)(1)

هذا كلام ابن تيمية عنه، ولسنا ندري من أين نقله لأن كل الذين عايشوا الحادثة، وعاصروها لم يذكروها مع كونهم من الثقاة لدى السلفية.

فممن عاصر الحادثة الشيخ ابن الفوطي الحنبلي البغدادي (المتوفى 723 هـ)، والذي ترجم له الذهبي قائلاً: (ابن الفوطي العالم البارع المتفنّن المحدّث المفيد، مؤرخ الافاق، مفخر أهل العراق، كمال الدين أبوالفضائل عبدالرزاق بن أحمد بن محمّد بن أبي المعالي الشيباني ابن الفوطي، مولده في المحرّم سنة 642 ببغداد، وأُسر في الوقعة وهو حَدَث ــ أُسر في الوقعة:

1() منهاج السنة النبوية (3/ 445)

وقعة بغداد ـ ثمّ صار إلى أستاذه ومعلّمه خواجة نصير الدين الطوسي في سنة 660ـ، فأخذ منه علوم الأوائل، ومهر على غيره في الأدب، ومهر في التاريخ والشعر وأيام الناس، وله النظم والنثر، والباع الأطول في ترصيع تراجم الناس، وله ذكاء مفرط، وخط منسوب رشيق، وفضائل كثيرة، سمع الكثير، وعني بهذا الشأن)(1)

وقال صاحب فوات الوفيات ابن شاكر الكتبي: (الشيخ الامام المحدّث المؤرّخ الاخباري الفيلسوف)(2)

أمّا ابن كثير، فقد قال عنه: (الامام المؤرّخ كمال الدين ابن الفوطي أبوالفضل عبدالرزاق، ولد سنة 642 ببغداد، وأسر في واقعة التتار، ثمّ تخلّص من الأسر، فكان مشرفاً على الكتب بالمستنصريّة، وقد صنّف تأريخاً في خمس وخمسين مجلّداً، وآخر ـ أي كتاباً آخر ـ في نحو عشرين، وله مصنّفات كثيرة، وشعر حسن، وقد سمع الحديث من محي الدين ابن الجوزي، وتوفي في ثالث المحرّم في السنة التي ذكرناها)(3)

فهذا المؤرّخ، بشهادة أعلام السلفية ومؤرخيهم شاهد الحادثة، وهو إمام مؤرّخ معتمد، وله كتاب الحوادث الجامعة الذي تعرّض فيه لسقوط بغداد على يد هولاكو، ومع ذلك لم يذكر أي علاقة لنصيرالدين بذلك مع أنه ألّف كتابه هذا بعد الحادثة بسنة واحدة، أي سنة 657 تاريخ تأليف كتاب الحوادث الجامعة.

ولعل من أسباب حنق ابن تيمية عليه بالإضافة إلى تشيعه هو اهتماماته العلمية الكثيرة بالرياضيات والفلك وغيرها، والتي كان السلفية ولا زالوا يقفون منها موقفا متشددا.

فقد ذكر محمد بن شاكر في كتابه (فوات الوفيات) أن للطوسي مؤلفات قيمة في الرياضيات، ولعل كتاب (شكل القطاع(أجلها، فهو كتاب وحيد في نوعه ترجمه الغربيون إلى اللاتينية والفرنسية والإنجليزية، وبقي قروناً عديدة مصدراً لعلماء أوروبا يستقون منه معلوماتهم في المثلثات الكرية والمستوية، وقد اعتمد عليه (ريجيو مونتانوس) كثيراً عند وضعه كتاب المثلثات، ونقل عنه (عن كتاب شكل القطاع) بعض البحوث والموضوعات.

وقد أحكم الطوسي ترتيب موضوعات هذا الكتاب وتبويب نظرياته والبرهنة عليها، ووضع كل هذا في صورة واضحة لم يسبق إليها، والطوسي أول من استعمل الحالات الست للمثلث

1() تذكرة الحفاظ 4/1493.
2() فوات الوفيات 2/319.
3() البداية والنهاية 14 / 106.

القائم الزاوية، وقد أدخلها في كتابه الذي نحن الآن بصدده، ومن يطالع هذا الكتاب يجد فيه ما يجده في أحسن الكتب الحديثة في المثلثات.

وله كتاب (تحرير إقليدس) الذي أظهر فيه براعة فائقة ولاسيما عند البحث في بعض القضايا التي تتعلق بالمتواليات.

وفي كتاب (التذكرة) أدخل الطوسي بعض الأعمال الهندسية فقد برهن المسألة الآتية: دائرة تمس أخرى من الداخل قطرها ضعف الأولى، تحركتا في اتجاهين متضادين وبانتظام بحيث تكونان دائماً متماستين وسرعة الدائرة الصغيرة ضعف سرعة الدائرة الكبرى، برهن على ان نقطة الدائرة الصغرى تتحرك على قطر الدائرة الكبرى.

ولهذا يعترف (سارطون) في كتابه (مقدمة لتاريخ العلم) بأن الانتقاد الذي وضعه نصير الدين للمجسطي يدل على عبقريته وطول باعه في الفلك ويتضح من مؤلفاته في الهيئة أنه أضاف إليها إضافات مهمة، فقد تمكن من إيجاد مبادرة الاعتدالين ومن استنباط براهين جديدة لمسائل فلكية عويصة، كما حاول أن يوضح بعض النظريات، لكنه لم يوفق في تبسيطها وهذا هو السبب في كثرة الشروح التي وضعها علماء المسلمين والعرب لأزياجه ورسائله، ويتبين من مؤلفاته أنه انتقد كتاب المجسطي، وأنه اقترح نظاماً جديداً للكون أبسط من النظام الذي وضعه بطليموس، ويؤكد (سارطون) أن هذا الانتقاد يدل على عبقرية وطول باع في الفلك، وهو في الواقع خطوة تمهيدية للإصلاحات التي تقدم بها (كوبر نيكس) في ما بعد (1).

وأحب قبل أن أختم هذا العنوان أن أشيد بباحث سعودي متحرر هو أ. د. سعد بن حذيفة الغامدي أستاذ التاريخ الإسلامي ودراساته الشرقية في كلية الآداب قسم التاريخ جامعة الملك سعود الذي رد على الكثير من الأوهام التي يتعلق بها السلفية هذا الجانب، وذلك في كتابه (سقوط الدولة العباسية ودور الشيعة بين الحقيقة والإتهام)، والذي نال بسببه حظه من النقد والطرد والحرمان السلفي الذي لا يفرق في الطرد بين المسائل العقدية والتاريخية.. ولو أن الذي صنفوا الكتب الأولى في العقائد عادوا إلى الوجود لوضعوا قصة ابن العلقمي والطوسي من ضمن العقائد التي يكفر جاحدها.. ولو عاش علماء الجرح والتعديل ورأوا أهمية سيف بن عمر وغيره من

1() انظر: إسهامات العلماء العرب والمسلمين في تقدم الحضارة الإنسانية، الدكتور محمود الحمزة، وغيره.

الكتبة الكذبة لحولوه ثقة عدلا ضابطا لا يتكلم فيه إلا مبتدع.

ومن أمثلة ذلك ما كتبه سليمان بن صالح الخراشي في منتدى صيد الفوائد وردا على كتاب الدكتور الغامدي فقد كتب مقالا بعنوان: (دكتور في جامعة الملك سعود يردد أكذوبة شيعية)، ومما جاء فيه: (سقوط الدولة العباسية ودور الشيعة بين الحقيقة والإتهام) كتابٌ للأستاذ الدكتور سعد بن حذيفة الغامدي أحد منسوبي جامعة الملك سعود قسم التاريخ، صدر قريبًا وكتب على طرته (دراسة جديدة لفترة حاسمة من تاريخ أمتنا)وهذا ما أغراني لاقتنائه منتظرًا ماسيجود به قلم الدكتور من جديد في هذه القضية، إلا أنني تفاجأت عندما رأيته يردد ما ردده الشيعة الرافضة من تكذيب لأي خيانة لأسلافهم، وهو ما تتابع عليه ثقات المؤرخين، فهذا الجديد عنده، يقول الدكتور محاولاً دفع تهمة الخيانة عن الرافضة: (ومع هذا فإن سؤالاً يتبادر إلى الذهن وهذا السؤال هو: هل كان هولاكو محتاجاً إلى مساعدة المسلمين الشيعة ضد المسلمين السنة حتى نقبل أنهم كانوا أحد العوامل التي أدت إلى سقوط بغداد؟ في الحقيقة لم يكن هولاكو محتاجاً إلى مساعدة من أي فرد شيعياً كان أم سنياً، لذلك فإننا نجد كما يظهر لنا أنه من غير المحتمل إن لم يكن من المستحيل أن يكون لهذه الطائفة من المسلمين أي دور فعال، سواء من داخل أو من خارج بغداد في هجوم المغول ضد العاصمة العباسية بغداد وخلافتها السنية)

ومما ذكره هذا الباحث الفاضل المتحرر: (إن للمرء أن يقول بأن هذه الإتهامات لاأساس لها من الصحة؛ إذ لم تدعم أو تثبت بأي دليل قاطع، يقوم أساساً على تقرير شاهد عيان معاصر؛ كما أنها لم تظهر هذه الإتهامات أو الشائعات بمعنى أدق إلا بعد سنوات طوال من بعد سقوط العاصمة بغداد، وانقراض أسرتها الحاكمة العباسية، جاءت هذه الإتهامات التي وجهت ضد أتباع المذاهب الشيعي عامة ووزير الخليفة المستعصم ابن العلقمي خاصة، في جميع المراجع السنية تقريباً والتي تسنى لنا الرجوع إليها، والتي كتبها مؤرخونا أولئك الذين جاؤا فيما بعد. إذ نجد أن كل مؤرخ يأخذ عن المؤرخ الذي سبقه ثم يضيف كما سبقت الإشارة إلى هذه الحقيقة إلى ما نقله من سلفه، ثم إضافة كلام من عنده هو إشاعات أكثر منه حقيقة تاريخية ثابتة، ولكننا نجد أن هذه الإتهامات تظهر أيضاً في مؤلف لمؤرخ غير مسلم وهذا المؤرخ هو المكين بن العميد جرجس المسيحي الديانة، حيث يقول بتآمر الوزير مع المغول ضد الخلافة العباسية، وقد أخذ بعض مؤرخينا الحديثين رواية ابن العميد تلك على أنها دليل قاطع بلا ريب أو شك عندهم،

على أن الوزير مذنب! كان ابن العميد مؤرخاً مسيحياً معاصراً عاش في مصر وكتب تاريخه باللغة العربية عن بني أيوب. ولكننا عندما نرجع إلى حقيقة ما قاله ابن العميد في هذا الشأن فإن المرء سيجد أن هذا المؤرخ لم يكن على علم بما وقع فعلاً وأنه لم يكن يروي في كتابته عن هذه المسألة إلا مجرد شائعات وأقاويل جارية لم يثبتها تقرير من شاهد عيان، وفي هذا الخصوص يقول ابن العميد ما يلي: وقيل إن وزير بغداد كتب إلى هولاؤون(يعني بذلك هولاكو) بأن يصل إلى بغداد ويأخذ البلاد)[1]

3 ـ تقبل الخرافة:

ذكرنا مرات عديدة وخاصة في كتاب [هكذا يفكر العقل السلفي] أن السلفية من أكثر الناس قبولا للخرافة، بل لا يكاد يعدلهم أحد في تسليمهم لها حتى لو ناقضت كل المعارف والعلوم، بل حتى لو ناقضت كل العقول، فيكفي أن تنسبها لأحد من سلفهم ليسجد لها السلفي خاضعا، فإن أبى عقله الصغير أن يسلم لها ضرب به عرض الجدار.

وبناء على ذلك كان التاريخ السلفي، والذي يبدأ من آدم عليه السلام كله مبنيا على الوهم والخرافة والأساطير، لأن الذين نقل عنهم ذلك، وسلم لهم في ذلك كانوا أكثر الناس كذبا وزورا وبهتانا.

وأحب أن أضع هنا ملخصا تاريخيا مختصرا للبشرية جميعا في هذه الصفحات المحدودة، للذين يتلهفون لقراءة التاريخ كما ينقله سلف السلفية حتى لا يقعوا في البدع والمحدثات، وخاصة تلك المحدثات التي جلبتها العلوم العصرية الكثيرة كعلم الآثار ونحوه.. والذي يعود بالبشرية إلى أحقاب تاريخية بعيدة تتناقض مع ما ورد عن السلف الصالح بشأنها.. فتاريخ البشرية جميعا من مبتدئه إلى منتهاه بحسب التقويم السلفي لا يتعدى سبعة آلاف سنة..

وسأستعير هذا الملخص من كتاب بعنوان [أعلام النبوة] ألفه رجل سلم عقله تسليما كاملا لكل ما ذكره الطبري وغيره من المؤرخين، وهو أبو الحسن علي بن محمد بن محمد الماوردي (المتوفى: 450هـ)

والعنوان الذي ذكر فيه هذا الملخص بإيجاز شديد عنونه بـ [الباب الخامس في مدة العالم وعدة الرسل]، وقد قال في مدته جازما غير مستثن ولا رادا علم ذلك لله: (مدة الدنيا من ابتداء خلق العالم إلى انقضائه وفنائه سبعة آلاف سنة على ما جاءت به التوراة المنزلة على موسى عليه السلام وذكره أنبياء

1() نقلا عن: [دكتور في جامعة الملك سعود يردد أكذوبة شيعية !!] موقع صيد الفوائد.

بني إسرائيل، وقد وافق عليه من قال بتسيير الكواكب، وأنها مسير الكواكب السبعة فسير كل كوكب منها ألف سنة، وقد روي عن رسول الله ﷺ أنه قال: (الدنيا سبعة آلاف سنة أنا في آخرها ألفا) وقال ﷺ: (بعثت والساعة كهاتين)، وجمع بين أصبعيه الوسطى والسبابة يعني أن الباقي منها كزيادة الوسطى على السبابة، وروى سلمة بن عبد الله الجهنى عن أبى مسجعة الجهني عن أبي رحاب الجهني أنه قال للنبي ﷺ رأيتك على منبر فيه سبع درجات وأنت على أعلاها فقال: (الدنيا سبعة الاف سنة أنا في آخرها ألفا)، وروى أبو نضرة عن أبي سعيد الخدري قال: سمعت رسول الله ﷺ بعد صلاة العصر يقول: (أيها الناس إن الدنيا خضرة حلوة وأن الله مستخلفكم فيها فناظر كيف تعملون)، وأخذ في خطبته إلى أن قال: (لأعرفن رجلا منعته مهابة الناس أن يتكلم بحق إذا رآه وشهده) ثم قال: (وقد أزف غروب الشمس أن مثل ما بقي من الدنيا فيما مضى منه كبقية يومكم هذا فيما مضى منه يوفى بكم سبعون أمة قد توفي تسع وستون وأنتم آخرها)، فصارت هذه المدة القدرة في عمر الدنيا سبعة آلاف سنة متفقا عليها فيما تضمنته الكتب الإلهية ووردت به الأنباء النبوية مع ما سلك به الموافق من تسيير الكواكب السبعة، وإن كان المعول في المغيب على الأنباء الصادقة الصادرة عن علام الغيوب الذي لم يشرك في غيبه إلا من أطلعه عليه من رسله فخلق العالم في ستة أيام ابتداؤها يوم الأحد وانقضاؤها يوم الجمعة)(1)

وبناء على هذا الدجل والخرافة والكذب المنسوب زورا وبهتانا لرسول الله ﷺ أخذ الماوري ينقل آراء السلف الصالح في بداية التاريخ، وذكر لذلك ثلاثة أقوال(2):

القول الأول: وهو قول طائفة من السلف كالشعبي، وهو أن الله تعالى بدأ (بخلق الأرض في يوم الأحد والاثنين لقول الله تعالى: ﴿قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَنْدَادًا ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ [فصلت: 9]، وخلق الجبال في يوم الثلاثاء، وخلق الماء والشجر في يوم الأربعاء، وخلق السماء في يوم الخميس، وخلق الشمس والقمر والنجوم والملائكة وآدم في يوم الجمعة.. قال الشعبي: (ولذلك سمي يوم الجمعة لأنه جمع فيه خلق كل شيء) (3)

القول الثاني: وهو قول فريق آخر من السلف وهو (أنه

1() أعلام النبوة: (1/53)
2() أعلام النبوة: (1/53)
3() أعلام النبوة: (1/53)

بدأ بخلق السموات قبل الأرض في يوم الأحد والاثنين لقول الله تعالى: ﴿فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَى فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا﴾ [فصلت: 12] في ثلاثة أوجه: أحدها: أسكن في كل سماء ملائكتها. والثاني: خلق في كل سماء ما أودعه فيها من شمس وقمر ونجوم. والثالث: أوحى إلى أهل كل سماء من الملائكة ما أمرهم به من العبادة ثم خلق الأرض والجبال في يوم الثلاثاء والأربعاء وخلق ما سواهما من العالم في يوم الخميس والجمعة) (1)

القول الثالث: وهو قول سلف آخرين، وهو أنه خلق السماء دخانا قبل الأرض ثم فتقها سبع سموات بعد الأرض لقول الله تعالى: ﴿ ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ﴾ [فصلت: 11]، فيه ثلاثة تأويلات: أحدها: أي أعطيا الطاعة في السير المقدر لكما باختيار أو إجبار قاله سعيد ابن جبير. والثاني: أخرجا ما فيكما طوعا أو كرها. والثالث: كونا كما أردت أن تكونا، وفي قولهما ذلك وجهان: أحدهما: أن ظهور الطاعة منهما قام مقام قولهما. والثاني: أنه خلق فيهما كلاما نطق بذلك. قال أبو النضر السكسي: فنطق من الأرض موضع الكعبة ونطق من السماء بحيالها فوضع الله فيها حرمة) (2)

هذه بداية الكون حسب الرؤية السلفية التي استمدوها من سلفهم الأول.. ولذلك لا مكان هنا لكل تلك النظريات التي يتعب علماء الفلك أنفسهم في الدلالة عليها بسبب تفريطهم في علوم السلف، واحتقارهم لهم.. ولو أنهم جلسوا بين أيديهم لأغلقوا كل مراصدهم ومختبراتهم.. فلا حاجة بهم إليها.

أما آدم، فقد ذكر السلف الأول أنه آخر ما خلق الله تعالى في يوم الجمعة، (خلقه من تراب الأرض، ونفخ في أنفه من نسمة الحياة، فهو أنفس من كل ذي حياة)(3)

أما حواء فلم تخلق أصالة، وإنما خلقت فقط لأجل أن تؤنس آدم، فلذلك هي ــ حسب النظرة السلفية ــ نعمة من النعم التي أسديت لآدم مثل نعمة الطعام والشراب ونحوهما، فلذلك كفر الحجوري السلفي كما ذكرنا كل من يقول بمساواة الذكر بالأنثى، وكيف يتساوى المخلوق أصالة والمخلوق تبعا، ذلك أنه ـ كما ينص السلف ــ (لما تكامل خلق آدم استوحش فخلق له حوّاء) (4)

وقد اختلف السلف كعادتهم في الوقت الذي خلقت فيه

1() أعلام النبوة: (1/54)
2() أعلام النبوة: (1/54)
3() أعلام النبوة: (1/55)
4() أعلام النبوة: (1/55)

على قولين: (الأول: أنها خلقت منه في الجنة بعد أن استوحش من وحدته وهذا قول ابن عباس وابن مسعود.. والقـول الثـاني: أنها خلقت من ضلعه قبل دخوله الجنة ثم أدخلا معا إليها) (1)

ويذكر السلف الحزن الشديد الذي أصاب آدم عليه السلام عندما خرج من الجنة، وهو حزن لا يرتبط بالله، وإنمـا يرتبـط بـ (ما كانا فيه من النعيم في الجنة إلى ما صارا إليه من النكد في الأرض فحزن آدم حين أهبـط إلى الأرض وبقي في حزنـه مائـة سنة لا يقرب فيه حوّاء، ثم غشيها فولدت له بعـد المائـة قابيـل ثم غشيها فولدت له هابيل فقتل هابيل قابيل فحـزن آدم لـذلك حزنا شديدا وقيل أنه جعل حزنه جزاء على معصيته في الأكل.. ثم خف حزنه فغشى حوّاء فولدت له شيثا) (2)

وقـد اختلـف سـلف السـلفية من أهـل الكتـاب في علاقـة الموت بآدم، وهل (هل خلـق في ابتدائـه قـابلا للمـوت أو جعـل الموت عقوبة لـه على معصـيته.. فقـال بعضـهم: خلـق آدم في ابتداء نشـأته على الطبيعـة الباقيـة والطبيعـة الميتـة ليكـون إن مــال إلى الشــهوات الجســمانية وآثرهــا وقــع في التغــايير الجسمانية وناله الموت، وإن آثر فضائل النفس الأمـارة بـالخير نال البقاء الذي سعدت به الملائكة فلم يمت فلمـا عصـى بأكـل الشجرة عدل إلى التغايير فناله المـوت، واستشـهدوا عليـه من التوراة بما ذكر فيها أنك إن أكلت من الشجرة يـوم تأكـل منهـا فموتـا تمـوت فلم يجـز أن يتوعـده بـالموت عنـد معاقبتـه وهـو يموت لو لم يعاقب.. وقـال آخـرون منهم وهـو أشـبه بمقتضـى العقول أنه خلق في ابتداء إنشائه قابلا للموت في الدنيا وإن لم يعص لأنه أحوجه إلى الغـذاء كذريتـه وليس شـيء من الجـواهر الـتي لا ينالهـا المـوت محتاجـة إلى الغـذاء ولم يجعـل المـوت عقوبـة على المعصـية ولـذلك لم يمت من عصـى من الملائكـة وإن في التوراة مكتوبا أن مد يده في الجنة إلى شـجرة الحيـاة وأكل منها حـيي الـدهر كلـه فـدل على أنـه مطبـوع على قبـول الموت) (3)

ويذكر السلف أن آدم عليه السلام بقي مدبرا لأولاده مــدة حياته حتى مات بعد تسـعمائة وثلاثين سـنة من عمـره، ثم قـام بالأمر من بعده شيث ابن آدم فبرع في الحكمـة وفـاق في علم النجوم بما أخـذه عن أبيـه آدم وبمـا اسـتفاده بالتجربـة ومـرور الزمان.

وقد ولد بعد مائتين وثلاثين سنة من عمر أبيــه آدم، ومـات

1() أعلام النبوة: (1/56)
2() أعلام النبوة: (1/57)
3() أعلام النبوة: (1/57)

وله تسعمائة واثنتا عشرة سنة، فكـان قيامـه بـالأمر بعـد مـوت آدم مائتين وإثنتي عشرة سنة.. ثم قام بالأمر بعـد شـيث ولـده أنوش بن شيث، وكـان مولـده بعـد مـائتين وخمسـين سـنة من عمر شيث ومـات أنـوش ولـه تسـعمائة وخمسـون سـنة فكـان قيامه بالأمر بعد شيث مائتين وثماني وثمانين سنة.

ثم قام بالأمر بعد أنوش ولـده قينـان بن أنـوش وولـد بعـد مائة وتسعين سنة من عمر أنـوش ومـات قينـان ولـه تسـعمائة وعشرون سنة فكان قيامه بالأمر بعد أنوش مائة وتسعين سنة.

ثم قام بالأمر بعد قينان ولده معلاييـل وولـد بعـد ثمانمائـة وخمس وسبعين سنة فكان قيامه بالأمر بعد قينان مائـة وعشـر سنين.

ثم قام بالأمر بعد مهلاييل ولده يارد بن مهلاييل، وولـد بعـد مائـة وخمس وسـتين سـنة من عمـر مهلاييل، ومـات يـارد ولـه تسعمائة وإثنان وستون سـنة فكـان قيامـه بـالأمر بعـد مهلاييـل مائتين وإثنين وخمسين سنة.

ثم قام بالأمر بعد يارد ولـده أخنـوخ بن يـارد وهـو ادريس، وولد بعد مائة وإثنين وستين سـنة من عمـر يـارد وهـو نـبي في قول جميع أهل الملل.

ويروي سلف السلفية أن الناس افترقوا بعد ادريس وزادوا إلى زمن نوح بن لمك بن متوشلخ بن أخنوخ وهوإ وهو آخر نـبي بعث قبـل الطوفـان على قـول من زعم أن شـيثا نـبي ونـزل الطوفان بعد ستمائة سنة (20) من عمره وأنذر قومـه فكـذبوه وصنع السفينة فسخروا منه وأمـره اللـه تعـالى أن يصـنعها في طول ثلاثمائة ذراع وعـرض خمسـين ذراعـا وعلـو ثلاثين ذراعـا وتكون ثلاث طبقات ليركب فيها هو وأهله ويأخـذ من كـل جنس من الحيوان زوجين ذكرا وأنثى ليكونوا أصولا لنسلهم فيحيا بهم العـالم ثم وعـده أن يسـتمطره بعـد سـبعة أيـام أربعين يومـا وأربعين ليلـة فلم يبـق في الأرض ذو روح إلّا من ركبهـا وغـاض الطوفان بعد مائة وخمسـين يومـا فاسـتوت على الجـودي وهـو جبل بأرض الجزيرة شهرا وسمي الماء طوفانا لأنـه طفـا فـوق كل شيء.

وقد اختلف سلف السلفية كعادتهم في العمر الذي عاشـه نوح بعد الطوفان (فقال الأكثرون ثلاثمائة وخمسـين سـنة وهـو ظاهر ما نزل به القرآن، وقال آخرون سـتمائة وخمسـون سـنة لأنه لبث تسعمائة وخمسـين سـنة داعيـا لقومـه وكـان لـه قبـل دعائه ثلاثمائة سنة) (1)

واختلفـوا أيضـا في المـدة بين هبـوط آدم من الجنـة إلى

1() أعلام النبوة: (1/61)

مجيء الطوفان (فقال اثنان وسبعون حبرا من بني إسرائيل نقلوا التوراة إلى اليونانية بينهما ألفان ومائتان وإثنتان وأربعون سنة ثم تبلبلت الألسن بعد الطوفان بستمائة وسبعين سنة فافترق إثنان وسبعون لسانا في اثنتين وسبعين أمة.. قال وهب بن منبه منها في ولد سام بن نوح تسعة عشر لسانا، وفي ولد حام سبعة عشر لسانا. وفي ولد يافث ستة وثلاثون لسانا من تبلبل الألسن إلى مولد إبراهيم الخليل عليه السلام أربعمائة وأحد عشر سنة ومن مولد إبراهيم إلى موسى بن عمران عليه السلام أربعمائة وخمس وعشرون سنة وأخرج بني إسرائيل من مصر بعد ثمانية سنة ودبر أمرهم أربعين سنة ومات وله مائة وعشرون سنة فصار من هبوط آدم إلى وفاة موسى ثلاثة آلاف وثمانمائة وثماني وستين سنة)(1)

وذهب آخرون إلى غير هذا القول، فقد رووا عن أبي أمامة أن رجلا قال: (يا رسول الله أنبيٌّ كان آدم؟ قال: نعم، مكلَّم، قال: فكم كان بينه وبين نوح؟ قال: عشرة قرون)(2)

أما تاريخ الأنبياء بعد نوح عليه السلام، فهكذا يعبرون عنه: (أول نبي بعد نوح إبراهيم، وهو أول من قص شاربه واستحد واختتن وقلم أظفاره واستاك وتمضمض واستنشق واستنجى بالماء، وأول من أضاف الضيف وأطعم المساكين وثرد الثريد. وكان داعيا إلى عبادة الله تعالى وتوحيده) (3)، وهم يقصدون إبراهيم عليه السلام، ويختصرون كل صفاته في تلك الصفات.

ثم يليه (إسحاق بن إبراهيم، ولد له عيصو ويعقوب توأمين في بطن واحد فخرج عيصو ثم خرج بعده يعقوب ويده عالقة على عقبه فسمي يعقوب، فعيصو أبو الروم وكان أصفر اللون فلذلك سميت الروم بني الأصفر، ويعقوب هو إسرائيل أبو الأسباط، وأيوب بن بولص كان أبوه ممن آمن بإبراهيم يوم أحرق وكان في زمن يعقوب وكان صهره زوجه يعقوب بنته ليا وهي التي ضربها بالضغث) (4)

أما أول نبي من بني إسرائيل فهو ــ كما ينص سلف السلفية ــ (موسى وآخرهم عيسى وكانت نبوة يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم ومن بعده من ولده قبل موسى مقصورة على أنفسهم حتى دعا موسى إلى نبوّته بني إسرائيل ومن وفاة موسى إلى ملك بختنصر تسعمائة وثمان وسبعون سنة،

1() أعلام النبوة: (1/61)
2() رواه ابن حبان في صحيحه (14 /ـ 69) والحاكم (2/262) وقال صحيح على شرط مسلم ووافقه الذهبي، وقال ابن كثير في البداية والنهاية (1 /ـ 94): هذا على شرط مسلم ولم يخرجه ..
3() أعلام النبوة: (1/61)
4() أعلام النبوة: (1/62)

وإلى ملك الاسكندر ألف وأربعمائة وثلاث عشرة سنة) [1]

أما المسيح عليه السلام، فقد ولد (ليلة الأربعاء الخامس والعشرين من كانون الأول لسبعمائة وتسع وثلاثين سنة من ملك بختنصر ولثلاثمائة وأربع سنين من ملك الاسكندر. ومن ملك بختنصر إلى ابتداء الهجرة ألف وثلثمائة وتسع وستون سنة، ومن ملك الاسكندر إلى ابتداء الهجرة ألفان وثلثمائة وسبع وأربعون سنة فكان بين موت موسى وابتداء الهجرة ألفان وثلثمائة وسبع وأربعون سنة ومولد عيسى بعد ألف وسبعمائة وسبع عشرة سنة من موت موسى وقيل بعد ستمائة وثلاثين سنة من ابتداء الهجرة) [2]

هذه خلاصة موجزة جدا لتاريخ البشرية الذي بثه سلف السلفية لخلفهم، والذي تمتلئ به أسفارهم، ورواياتهم الكثيرة..

وبناء على تلك الحسابات التي ذكرناها، وبناء على عمر الدنيا الذي لا ينبغي أن يتجاوز سبعة آلاف سنة راح الماوردي يحسب المدة الباقية، مستعملا كل مهاراته العقلية، فقال في فصل بعنوان [فصل في عمر الدنيا إلى قيام الساعة]: (فإذا تقرر ما ذكرناه من مدة الدنيا أنها مقدرة في الكتب الإلهية بسبعة آلاف سنة كان الماضي منها إلى ابتداء الهجرة محمولا على ما قدمناه من اختلاف أهل التوراة فيكون على القول الأول المأخوذ عن الأحبار الناقلين لها إلى اليونانية ستة آلاف ومائتين وست عشرة سنة والباقي من عمر الدنيا على قولهم بعد الهجرة سبعمائة وأربعا وثمانين سنة وهو موافق لقول رسول الله ﷺ: (الدنيا سبعة آلاف سنة بعثت في آخرها ألفا)، ويكون الماضي منها على القول الثاني المأخوذ عن التوراة العبرانية أربعة آلاف وثمانمائة وإحدى وأربعين سنة والباقي من عمر الدنيا على هذا القول بعد الهجرة ألفين ومائة وتسعا وخمسين سنة وقيل أنهم قالوا ذلك ليكون رسول الله ﷺ في خامسها ألفا فيدفعوه بنقصان التاريخ عن صفته في التوراة أنه مبعوث في آخر الزمان، ويكون الماضي على القول الثالث في توراة السامرة خمسة آلاف ومائة وسبعا وثلاثين سنة والباقي من عمر الدنيا على هذا القول بعد الهجرة ألفا وثمانمائة وثلاثا وثلاثين سنة ليكون الرسول في سادسها ألفا لما قيل من سنيه) [3]

وبناء على هذا قام بعضهم ببعض الحسابات البسيطة التي يمكن من خلالها التعرف على ما بقي من الدنيا، أو من [عمر

---

[1] أعلام النبوة: (1/62)
[2] أعلام النبوة: (1/62)
[3] أعلام النبوة: (1/64)

الأمة] كما يعبر، وقد استخرج ذلك من كتب الحديث التي يعتمد عليها السلفية.

فقد رووا عن عبد الله بن عمر قال: سـمعت رسـول اللـه ﷺ وهو قائم على المنبر يقول: (إنما بقاؤكم فيمـا سـلف قبلكم من الأمم، كمـا بين صـلاة العصـر إلى غـروب الشـمس، أعطي أهل التوراة التوراة، فعملوا بها حتى انتصـف النهـار ثم عجـزوا، فأعطوا قيراطاً قيراطاً، ثم أعطي أهل الإنجيل الإنجيل، فعملوا به حتى صـلاة العصـر ثم عجـزوا، فـأعطوا قيراطـاً قيراطـاً، ثم أعطيتم القـرآن، فعملتم بـه حـتى غـروب الشـمس، فـأعطيتم قيراطين قيراطين. قال أهل التوراة: ربنا هؤلاء أقلّ عملاً وأكثر أجراً؟ قال: هل ظلمتكم من أجركم من شيء؟ قالوا: لا، فقال: فذلك فضلي أوتيه من أشاء)(1).

ورووا عن أبي موسـى الأشـعري، عن النـبي ﷺ أنـه قـال: (مثل المسلمين واليهود والنصارى، كمثـل رجـل اسـتأجر قوما، يعملون له عملا إلى الليل، فعملـوا إلى نصـف النهـار فقـالوا: لا حاجة لنا إلى أجرك، فاستأجر آخرين، فقال: أكملوا بقية يومكم ولكم الذي شـرطت، فعملـوا حـتى إذا كـان حين صـلاة العصر، قالوا: لك مـا عملنا، فاسـتاجر قوما، فعملـوا بقيـة يـومهم حـتى غابت الشمس، واستكملوا أجر الفريقين)(2)

وبما أن عمر اليهود (من الفجر حـتى منتصـف النهـار) قـد اتفـق عليـه المؤرخـون بأنـه من 2000 -ـ 2100 سـنة.. قـال القرطبي (واختلف في قـدر مـدة تلـك الفـترة فـذكر محمـد بن سعد في كتاب الطبقات عن ابن عباس قـال: كـان بين موسـى بن عمران وعيسى بن مريم عليهما السلام ألف سنة وسبعمائة سنة ولم يكن بينهما فترة وأنه أرسل بينهما ألـف نـبي من بـني إسرائيل سـوى من أرسـل من غـيرهم وكـان بين ميلاد عيسـى والنبي ﷺ خمسمائة سـنة وتسـع وتسـعون سـنة)(3)، وقـال ابن حجر: (وقد اتفق أهل النقل على أن مدة اليهود إلى بعثة النــبي ﷺ كانت أكثر من ألفي سنة ومدة النصارى من ذلك ستمائة)(4)

أما عمر النصارى (من منتصف النهار حتى صـلاة العصـر)، فقد ورد في الحديث في البخاري عن سـلمان قـال: (فـترة بين عيسى ومحمد ﷺ ستمائة سنة)(5)

فالنتيجة هي أن عمر أمة الإسلام = عمر اليهود (2000 أو 2100) - عمر النصارى (600) = (1400 أو 1500)

1() أحمد 2/121 (6029) وفي 2/129 (6133) والبخاري: [1/146 (557)

2() البخاري (1/146 و3/118)

3() تفسير القرطبي (6 / 121)

4() فتح الباري (4 / 449)

5() البخاري (3732)

إذا عمر أمة الإسلام ـ بحسب الحسابات السلفية ـ يتراوح من 1400 سنة إلى 1500 كحد أقصى.

وللسلفية طرق أخرى في الحساب كلها تستند لروايات صححها الألباني أو غيره من المحدثين، ومنها ما ذكره بعضهم في كتابه الذي خصصه عن عمر الأمة، فذكر أنه (صحّ عن أبي هريرة موقوفا أنه قال، في قوله تعالى: ﴿ لَابِثِينَ فِيهَا أَحْقَابًا﴾ [النبأ: 23]: (الحَقْبُ ثمانون عاما اليوم منها كسدس الدنيا)[1]

وقد علق الطبري على هذا الحديث بقوله: (فبيّن في هذا الخبر أن الدنيا كلها ستة آلاف سنة، وذلك أن اليوم الذي هو من أيام الآخرة إذا كان مقداره ألف سنة من سنيِّ الدنيا وكان اليوم الواحد من أيام (الحقب) سدس الدنيا كان معلوما بذلك أن جميع الدنيا ستة أيام من أيام الآخرة وذلك ستة آلاف سنة)[2]

لكن هذا لا يتفق مع ما رووا عن ابن عباس من أن يهودًا كانوا يقولون: (مدة الدنيا سبعة آلاف سنة)[3]

لكن السلفية عرفوا كيف يتجاوزون هذا الخلاف، فذكروا أن هذا المنقول عن ابن عباس بسند حسن عن أهل الكتاب هو خلاف ما صحَّ عن أبي هريرة من أنها 6000 سنة مما يدل على اختلاف المصدر عندهما. والراجح ما رواه أبو هريرة موقوفا وله حكم الرفع. وقد روى الفقرة الأولى منه عبد الله بن مسعود وهو ممن لم يعرف بالرواية عن أهل الكتاب.

وهناك طريقة لجأوا إليها، وهي الجمع بين القولين (قول ابن عباس وقول أبي هريرة) بأن يحمل قول أبي هريرة بأن عمر الدنيا (6000 سنة) أي دون الزيادة ودون يوم القيامة، والزيادة مقدارها نصف يوم (500 سنة) ويوم القيامة مقداره نصف يوم (500 سنة) ويحمل قول ابن عباس (7000 سنة) على فنائها.

وهم يستدلون لهذه الزيادة بحديث يرفعونه إلى رسول الله ﷺ يقول فيه: (إني لأرجو أن لا تعجز أمتي عند ربها أن يؤخرهم نصف يوم... قيل لسعد: كم نصف يوم، قال: خمسمائة سنة)[4]

1() رواه عبد بن حميد وابن جرير في التاريخ بلفظه مرفوعا وفي إسناده مقال، وفي التفسير بمعناه موقوفا.ورواه البزار مرفوعا مقتصرا على الفقرة الأولى منه.وروى الفقرة الأولى منه الحاكم في المستدرك 2/556 عن عبد الله بن مسعود وصححه ووافقه الذهبي.

2() تاريخ الطبري ج1 ص17.

3() رواه ابن جرير وابن أبي حاتم والواحدي من طريق ابن اسحق قال حدثنا محمد بن أبي محمد مولى آل زيد بن ثابت عن سعيد بن جبير عن عكرمة أو عن ابن عباس به.وحسَّن هذا الطريق الإمام السيوطي في الإتقان 2/242 والحافظ ابن حجر في الفتح 7/332 ..

4() رواه أحمد وأبو داود والحاكم وأبو نعيم في الحلية.وهو في صحيح الجامع برقم

بناء على هذا، فإن عمر الدنيا = 7000 سنة.. وبما أنهم رووا عن رسول الله ﷺ أنه قال: (كان عمر آدم ألف سنة. قال ابن عباس: وبين آدم ونوح ألف سنة وبين نوح وإبراهيم ألف سنة وبين إبراهيم وموسى 700 سنة وبين موسى وعيسى 1500 سنة وبين عيسى ونبينا 600 سنة)(1)

وبناء على هذا فإن جملة المدد من آدم عليه السلام إلى محمد ﷺ = 4800 سنة

وبناء على أن (انتهاء عمر أمة الإسلام) يبدأ من طلوع الشمس من مغربها، وهو إلى قيام الساعة وهو 120 سنة، كما رووا عن عبد الله بن عمرو قال: (يمكث الناس بعد طلوع الشمس من مغربها 120 سنة)(2)

وباعتبار أن المدة بين النفختين = 40 سنة، كما رووا عن رسول الله ﷺ: (بين النفختين أربعون)(3)

وباعتبار أن المدة التي يمكثها الناس شخوصا إلى السماء ينتظرون فصل القضاء 40 سنة كما رووا عن رسول الله ﷺ: (يجمع الله الأولين والآخرين لميقات يوم معلوم أربعين سنة شاخصة أبصارهم إلى السماء ينتظرون فصل القضاء وينزل الله في ظلل من الغمام)(4)

وبناء على أن مقدار يوم القيامة = 500 سنة، كما رووا عن رسول الله ﷺ: (يوم يقوم الناس لربّ العالمين: مقدار نصف يوم)(5)

بهذه الاعتبارات جميعا، فإن مجموع المدد من طلوع الشمس من مغربها إلى انقضاء الحساب = 700 سنة

وحيث أن: جملة عمر الدنيا (من بعثة آدم وإلى انقضاء الحساب) = جملة الماضي من عمر الأمم إلى بعثة محمد ﷺ + عمر أمة محمد ﷺ + المدة من انتهاء عمر أمة محمد ﷺ (طلوع الشمس من مغربها تقريبا) إلى انقضاء الحساب..

إذن: 7000 = 4800 + عمر أمة محمد 700 + ﷺ.

إذن: عمر امة محمد = 700 – 4800 - 7000 = ﷺ 1500 سنة.

وقد أشار إلى هذه الحسابات جميعا الحافظ ابن رجب في

2481 و1811 قال الألباني: صحيح.

1() رواه الحاكم من حديث ابن عباس موقوفا وصححه الحاكم ووافقه الذهبي وقال على شرط البخاري.والفقرة الأخيرة من الحديث صحّت من حديث سلمان عند البخاري) (ونقله عن السيوطي في الدر 2/248)

2() رواه أحمد وابن أبي شيبة وعبد الرزاق والطبراني وقال الهيثمي رجاله ثقات ..

3() متفق عليه عن أبي هريرة.

4() ذكره الإمام الذهبي في العُلوّ وحسّن إسناده عن ابن مسعود.وكذلك الألباني.انظر مختصر العلو للألباني ص 110 - 111..

5() انظر صحيح الجامع برقم 8076 ..

شرحه لحديث (إنما بقاؤكم فيما سلف قبلكم من الأمم كما بين صلاة العصر إلى غروب الشمس)[1] فقال: (إنما أراد به - والله أعلم - أتباع موسى وعيسى عليهما السلام.... وإنما قلنا: إن هذا هو المراد من الحديث، لأن مدة هذه الأمة بالنسبة إلى مدة الدنيا من أولها إلى آخرها لا يبلغ قدر ما بين العصر إلى غروب الشمس بالنسبة إلى ما مضى من النهار بل أقل من ذلك بكثير)[2]

وقال: (وقد قدمنا أن المراد بهذا الحديث مدة أمة محمد ﷺ مع مدة أمة موسى وعيسى عليهم السلام. فمدة هذه الأمم الثلاث كيوم تام ومدة ما مضى من الأمم في أول الدنيا كليلة هذا اليوم فإن الليل سابق للنهار وقد خُلق قبله على أصح القولين وتلك الليلة السابقة كان فيها نجوم تضيء ويُهتدى بها وهم الأنبياء المبعوثون فيها، وقد كان - أيضا - فيها قمر منير وهو إبراهيم الخليل عليه السلام إمام الحنفاء ووالد الأنبياء وكان بين آدم ونوح ألف سنة وبين نوح وإبراهيم ألف سنة وبين إبراهيم وموسى ألف سنة قال ذلك غير واحد من المتقدمين.. وأما ابتداء رسالة موسى عليه السلام فكانت كابتداء النهار فإن موسى وعيسى ومحمدا ﷺ هم أصحاب الشرائع والكتب المتبعة... فكانت مدة عمل بني إسرائيل إلى ظهور عيسى كنصف النهار الأول، ومدة عمل أمة عيسى كما بين الظهر والعصر، ومدة عمل المسلمين كما بين العصر إلى غروب الشمس) [3]

بناء على هذا كله، فإن الحسابات السلفية تنذر البشرية بأنه لم يبق بيننا وبين القيامة إلا بعض العقود من السنين.. وهي عقود ستحصل فيها جميع علامات الساعة، بما فيها الدجال وغيره.. وبعدها مباشرة ستقع القيامة بكل تفاصيلها.

هذه هي النتيجة المنطقية للتاريخ السلفي الذي لا يكتفي فقط بالكذب على الماضي، بل يضيف إليه الكذب على المستقبل، ويجعل من نهاية التاريخ نهاية مأساوية فاشلة يتحقق فيها المشروع الشيطاني، ويخيب المشروع الرباني..

وذلك كله نتيجة ذلك العقل المغلق الذي راح يسلم للسلف كل الخرافات والأحلام والأوهام التي كانوا يفسرون بها القرآن الكريم، ويشرحون بها الحديث، بل يرفعونها إلى رسول الله ﷺ.. وفي الكتب التي يعتبرونها أصح كتاب بعد كتاب الله.. وهم في الحقيقة لا يقصدون سوى بعدية الشرف، أما بعدية

1() رواه البخاري عن ابن عمر.

2() فتح الباري لابن رجب حديث رقم 557 ص 333 ..

3() فتح الباري لابن رجب، ص 339 - 340.

الرتبة، فالبخاري عندهم أدق من كتاب الله، لأن الله تعالى قال عن القيامة: ﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا (42) فِيمَ أَنْتَ مِنْ ذِكْرَاهَا (43) إِلَى رَبِّكَ مُنْتَهَاهَا (44) إِنَّمَا أَنْتَ مُنْذِرُ مَنْ يَخْشَاهَا (45) كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَاهَا ﴾ [النازعات: 42 - 46]

بينما إذا ذهبنا إلى البخاري وغيره من كتب الحديث نستطيع أن نعرف بدقة كل شيء، حتى الساعة وزمان رسوها.

4ـ الولع بالتفاصيل:

من خصائص العقل الخرافي الفضول والتطلع للتفاصيل الكثيرة التي لا حاجة له في معرفتها إلا أنه يتصور لسذاجته أنه بقدر علمه بها يكون علمه، وبقدر حفظه لتفاصيلها تكون منزلته، وقد شرحنا سابقا أن هذه الخاصية من أهم خصائص العقل السلفي، وبناء عليها كتب أكثر تراثه في المجالات المختلفة.

وبما أن التاريخ أحد هذه المجالات التي رأينا فيها عشرات بل مئات من كتب سلف السلفية الأوائل، فقد كان من الطبيعي أن تمتلئ هذه الأسفار الضخمة بالكثير من أنواع التفاصيل الغريبة التي يحتار العقل فيمن سجلها أو حفظها.

وسأذكر هنا لبعض العقول التي تحب هذا النوع من العلم بعض التفاصيل التي استطاع العقل السلفي أن يكتشفها مع أنها في العصور الغابرة البعيدة.. وذلك كله بفضل تمسكه بالسلف الصالح من أصحاب القرون الثلاثة الأولى.. الذين هم أعلم القرون.

فمن تلك التفاصيل التاريخية التفاصيل المرتبطة بقوله تعالى: ﴿وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ آيَةَ مُلْكِهِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ التَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِمَّا تَرَكَ آلُ مُوسَى وَآلُ هَارُونَ تَحْمِلُهُ الْمَلَائِكَةُ﴾ [البقرة: 248]، فقد ذكر مؤرخو السلفية من أمثال ابن جرير، والبغوي، وابن كثير، وغيرهم الكثير من الأخبار عن الصحابة والتابعين، وعن وهب بن منبه، وغيره من أهل الكتاب في وصف التابوت، وكيف جاء، وعلام يشتمل، وعن السكينة وكيف صفتها[1].

فقد ذكروا في شأن التابوت: أنه كان من خشب الشمشاد، نحوا من ثلاثة أذرع في ذراعين، كان عند آدم إلى أن مات، ثم عند شيث، ثم توارثه أولاده، إلى إبراهيم، ثم كان عند إسماعيل، ثم يعقوب، ثم كان في بني إسرائيل، إلى أن وصل إلى موسى عليه السلام فكان يضع فيه التوراة ومتاعا من

1() انظر على سبيل المثال: تفسير الطبري (5/ـ 321)، تفسير البغوي (1/ـ 334)، تفسير الثعلبي = الكشف والبيان عن تفسير القرآن (2/ 210) وغيرها.

متاعه، فكان عنده إلى أن مات، ثم تداوله أنبياء بني إسرائيل إلى وقت شمويل، وكان عندهم حتى عصوا، فغلبوا عليه؛ غلبهم عليه العمالقة.

أما السكينة فهي ـ كما يروون عن مجاهد ـ عبارة عن حيوان كالهر، لها جناحان، وذنب، ولعينيه شعاع، إذا نظر إلى الجيش انهزم، وقال محمد بن إسحاق، عن وهب بن منبه: السكينة: رأس هرة ميتة، إذا صرخت في التابوت بصراخ هر أيقنوا بالنصر، وعن وهب بن منبه: السكينة: روح من الله تتكلم، إذا اختلفوا في شيء تتكلم، فتخبرهم ببيان ما يريدون، وعن ابن عباس: السكينة طست من ذهب، كانت تغسل فيه قلوب الأنبياء، أعطاه الله موسى عليه السلام.

أما كيفية مجيء التابوت، فقد ذكروا أقوالا كثيرة منها أن التابوت كان بأريحاء، وكان الذين استولوا عليه وضعوه في بيت آلهتهم: تحت صنمهم الأكبر، فأصبح التابوت على رأس الصنم، فأنزلوه، فوضعوه تحته، فأصبح كذلك، فسمروه تحته، فأصبح الصنم مكسور القوائم، ملقى بعيدا، فعلموا أن هذا أمر من الله لا قبل لهم به، فأخرجوا التابوت من بلدهم فوضعوه في بعض القرى، فأصاب أهلها أمراض في رقابهم، فتحيروا في الأمر، فقالت لهم امرأة كانت عندهم من سبي بني إسرائيل، من أولاد الأنبياء: لا تزالون ترون ما تكرهون ما دام هذا التابوت فيكم، فأخرجوه عنكم، فأتوا بعجلة، بإشارة تلك المرأة، وحملوا عليها التابوت، ثم علقوها على ثورين، وضربوا جنوبهما، فأقبل الثوران يسيران، ووكل الله بهما أربعة من الملائكة يسوقونهما، فأقبلا حتى وقفا على أرض بني إسرائيل، فكسرا نيريهما، وقطعا حبالهما، ووضعا التابوت في أرض فيها حصاد بني إسرائيل، ورجعا إلى أرضهما، فلم يرع بني إسرائيل إلا التابوت، فكبروا، وحمدوا الله تعالى.

هذا مجرد مثال عن ولع سلف السلفية بالتفاصيل، ومن شاء المزيد يمكنه أن يرجع إلى تلك الأسفار الكثيرة التي يدعون إلى قراءتها والاكتفاء بها حتى لا يقع السلفي في خرافات المؤرخين والباحثين وعلماء الآثار وجميع علماء الدنيا.. فما ترك السلف لغيرهم بعدهم كلاما.

ثانيا ـ جانب العبرة من الأحداث التاريخية:

كما استطاع السلفية أن يتجاوزوا التاريخ الذي أمروا بالسير في الأرض للبحث عنه والتحقيق فيه لأجل العظة والعبرة بتلك الأساطير التي نقلوها عن سلفهم، والتي حالت بينهم وبين الاستفادة والاعتبار منها، فقد وضعوا أسوارا كثيرة من الكذب تحول بين المؤمن والاعتبار بتاريخ المسلمين

باعتبارهم له تاريخا مقدسا، والحديث فيه غيبة ونميمة.

فإذا ما أراد عقل من العقول أن يفكر في جذور الخلل التي حولت خير أمة أخرجت للناس إلى هذه الحالة المزرية من التخلف والانحدار والضعة والذلة قيل له: ﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [البقرة: 134]

فإذا قيل لهم بأن رسول الله ﷺ نفسه تحدث عن ذلك، وأخبر عن وقوع الفتن بعده، وعين مواضعها، وذكر أسماء أصحابها وجرائمهم.. فكيف نرغب عن سنة رسول الله ﷺ.. قيل لهذا العقل: نحن نتقيد بسنة رسول الله ﷺ بحسب فهم السلف.. وما دام السلف لم يلتفتوا لتلك السنن، فنحن أولى بألا نلتفت لها.

وهكذا يفحم السلفي خصمه، لأنه لا يعود للعقل، ولا للنص المقدس، بل يحكي له ما قال سفيان ووهب وكعب والطبري وابن تيمية.. ليخرسه بهذه الأسماء جميعا.

وكمثال بسيط على ذلك ما ورد من النصوص المقدسة في أن الأمة ستنحرف عن قريب، وأن الحكم فيها سيتحول إلى ملك عضوض، وقد ذكرت بدقة تواريخ ذلك ومدده، ففي الحديث عن حذيفة بن اليمان قال رسول الله ﷺ: (تكون النبوة فيكم ما شاء الله أن تكون ثم يرفعها إذا شاء أن يرفعها ثم تكون خلافة على منهاج النبوة فتكون ما شاء الله أن تكون ثم يرفعها إذا شاء الله أن يرفعها ثم تكون ملكا عاضّاً فيكون ما شاء الله أن يكون ثم يرفعها إذا شاء أن يرفعها ثم تكون ملكا جبرية فتكون ما شاء الله أن تكون ثم يرفعها إذا شاء أن يرفعها ثم تكون خلافة على منهاج النبوة ثم سكت)(1)

وعن سفينة أبي عبد الرحمن مولى رسول الله ﷺ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: (الخلافة ثلاثون سنة ثم يكون بعد ذلك ملكا)، قال سفينة: (فخذ، سنتين أبو بكر، وعشرا عمر، واثنتي عشرة عثمان، وستا علي)(2)

لكن السلفية مع ذلك يصرون على تسمية فترات الحكم الإسلامي التي سماها رسول الله ﷺ ملكا عاضا، بالخلافة.. ثم يدافعون عن كل أنواع الاستبداد التي مارسها بنو أمية أو بنو العباس أو غيرهم من الذين ابتلي بهم تاريخ المسلمين نتيجة إعراضهم عن وصايا رسول الله ﷺ.

وليس هذا خاصا فقط بالسلفية العلمية، بل حتى السلفية

______

1() مسند أحمد (4ت:273) ومسند الطيالسي (58ـ 59رقم 438)

2() سنن الترمذي: 4/436، سنن أبي داوود: 5/36، فضائل الصحابة- للامام أحمد بن حنبل ص 17، مسند احمد بن حنبل ج 5 ص 221.

الحركية، أو الـذين تصـوروا أنفسـهم قـد تحـرروا وتنـوروا لكن عقولهم التي لا تـزال مقيـدة بالسـلف حـالت بينهم وبين البحث التاريخي الجاد الذي يجتهد في البحث عن مكـامن العلـل ليجـد من خلال تشخيصه لها الدواء الذي أنزله اللـه، لا الـذي اخترعـه البشر.

ومن الأمثلة على ذلك شخصيتان علميتان لهما وزنهمـا في البحث التاريخي، ولكنهما نتيجـة القيـود السـلفية الـتي قيـدتهما راحا يحولان بتكلف عجيب من كل أنواع الاستبداد والظلم الـتي مر بها المسلمون في تاريخهم عدالة ورحمة وإنسانية رغم أنف كل تلك الأحـاديث الـتي أخـبرت عن وقـوع الاسـتبداد في هـذه الأمة، وذكرت أن السلطان والقرآن يفترقان.

وهاتـــان الشخصـــيتان هما: الـــدكتور عبد الحليم عـــويس، والأستاذ المؤرخ محمود شاكر، وسـأنقل ببعض التصـرف مقـالا في الرد عليهما كتبه الشيخ حسـن بن فرحـان المـالكي بحرقـة وهو يرى كيف يتلاعب هذان المؤرخان بالتاريخ وبالحقائق لأجـل زخرفة المشوه، وتبييض المسود.

يقول الشيخ المالكي: (يا أصحاب الحديث: انقـذوا التـاريخ الاسـلامي! لا تنقـذوه من تلفيقـات المستشـرقين وأذنـابهم من المستغربين، بل من بعض المـؤرخين الاسـلاميين الـذين دخلـوا ميدان التحقيـق العلمي للتـاريخ بلا سـلاح ورفعـوا لـواء (إعـادة كتابة التاريخ الاسـلامي)، وهم يفتقـدون أبسـط أركـان التحقيق العلمي. يا علماء الحديث: لقد سئمنا من الردود على المؤرخين المستغربين الذين يؤرخون بأقلامهم ما تمليه أهواؤهم وعقولهم فان هؤلاء المستغربين لن يجدوا عند المسلمين إلا آذانـا صـماء وأعينا عمياء، والقارئ المسلم الواعي لن ينجـرف في تيـاراتهم ولن تخدعه ترهاتهم فقد طـويت دونهم الكشـوح منـذ زمن فلم تعد أبـاطيلهم تنطلي على أحد.. ولكن الانكى عنـدما (يـؤتى من مأمنه الحذر) فقـد نشـأ في زمننا الحاضـر كثـير من المـؤرخين الإسلاميين الذين يريدون تنقية تاريخنا الاسـلامي من الشـوائب، فأتوا بالعجائب، وطمسـوا الحقـائق، وأدخلـوا أنفسـهم في علم الحديث تصـحيحا وتضـعيفا وضـعفوا الثقـات، ووثقـوا الهـالكين، وأحجموا أنفسهم بين رفض النقل، وتحكيم العقل، وفتحوا بذلك شرخا عميقـا في منهج أهـل الحـديث - ولهـذا جئت مسـتنجدا - فإن لم يتدارك هذا الأمر أهل الاختصاص فسيؤول بنا الامـر إلى رفض المؤرخين العقلانيين (ومن سار في ركبهم) للمنهج الـذي وصلنا عن طريقه كتاب الله وسنة رسوله ﷺ)(1)

ثم أخذ يتحدث عن اللغة السلفية الجديدة في التعامل مـع

1() إنقاذ التاريخ الإسلامي، ص 18.

الأحداث التاريخية، والتي تلغي كل أدوات البحث التي يتصور السلفية أنها لهم وحدهم، فقال: (وقد بدت بوادر هذه المجازفات فرأينا في هذه الايام من الاساتذة المؤرخين أو تلاميذهم من يتلاعبون بتاريخنا الاسلامي، فيصححون الضعيف، ويضعفون المتواتر لأن العقل - بزعمهم - يعقل هذا ولا يعقل ذاك، مع ادعائهم بأنهم رجال ثغور التاريخ، وأنه يقع على عواتقهم تنقية هذا التاربخ وإعادة كتابته وتصحيحه.. فإذا حاولت أن تبحث عن منهجهم وجدته (يعقل، ولا يعقل) و(ممكن، ولا أظن)، ويبدأون تحقيقاتهم بـ (لست أدري، ومما يخيل إلي) لكنهم ينتهون بـ (من المؤكد) وبفعلهم هذا يكونون قد هدموا ما بناه المحدثون منذ القرون الاولى مع أنهم ــ أي المؤرخون - يتفقون نظريا مع أهل الحديث في أن (أفضل منهج لكتابة التاريخ الاسلامي هو منهج أهل الجرح والتعديل وأن هذا المنهج هو المعيار الحقيقي لقبول الخبر أو رده).. وهذه حقيقة لا جدال فيها ولا يشك فيها منصف، لكن المؤرخين الاسلاميين هم أبعد الناس عن هذا المنهج عن التطبيق العملي الواقعي مع اعترافهم بالمنهج نظريا، ومؤلفاتهم شاهدة تنضح بما ذكرت من تناقضاتهم، فهم يدعون إلى تطبيق منهج المحدثين، وبدعوتهم هذه يكونون قد جعلوا على مؤلفاتهم صبغة أهل الحديث ظاهريا)[1]

وبعد هذه المقدمة الخطابية المهمة التي تنبئ عن الحرقة التي أصابت صاحبها نتيجة ذلك العبث والازدواجية التي يمارسها التراث السلفي، أخذ يضرب الأمثلة على ذلك مما مارسه هذان المؤرخان الكبيران، ومثلهما أكثر مؤرخي السلفية.

ومن تلك الأمثلة ما يردده كل السلفية، ومثلهم من الحركيين المغرمين ببني أمية، وخصوصا بمعاوية، والذين عبر على لسانهم عبد الحليم عويس، فقال: (لا يعقل قبول ما يشاع عن بني أمية من أنهم كانوا يسبون عليا كرم الله وجهه على المنابر لأن ذلك يتنافي مع طبيعة البيئة الإسلامية)

ثم رد عليه بقوله: (فأنتم ترون أنه هنا يتحاكم إلى العقل ولم يبحث عن النص في الصحاح الستة وكتب المحدثين والفقهاء التي أغفلت من بعض المؤرخين، ولو رجع إلى بعض منها لوجد في أكثرها ما يخالف قوله أو نفيه السابق، وحتى لا يكون اتهامي له أو ردي عليه عائما فتعال معي أخي القارئ لنفتش في الكتب الستة وبعض كتب المحدثين والفقهاء حتى لا نتهم باغفالها ولا نغفلها كما أغفلها الدكتور لنرى الحق الذي

1() إنقاذ التاريخ الإسلامي، ص 18.

فيها هل يتوافق مع قوله السابق أم لا في هذه القضية)(1)

ثم أرود بعض النصـــوص الدالـــة على ذلك، والـــتي من العجيب أن يغفل عنها مؤرخ لتلك الفترة:

النص الأول: وقد ورد في صـحيح البخـاري والـذي يكفـر السلفية لأجـل الحـديث الواحـد منـه الطوائـف من المسـلمين، ففيه هـذا الحـديث (عن عبـد العزيـز بن أبي حـازم عن أبيـه أن رجلا دعا سهل بن سعد فقـال: هـذا فلان أمـير المدينـة يـدعوه عليا عند المنبر).. الحديث

وقد فسر ابن حجر هذا القول برواية أخرى عند الطــبراني من وجه آخر عن عبد العزيز نفسه، وهي (يدعوك لتسب عليا!)(2)

النص الثــاني: وقــد ورد في صــحيح مســلم (عن عبــد العزيـز بن أبي حـازم عن أبي حـازم عن سـهل بن سـعد قـال: اسـتعمل على المدينـة رجـل من آل مـروان قـال (أبـو حـازم): فدعا سهل بن سعد فأمره أن يشتم عليا قال: فأبى سهل فقال له (الامير) أما إذا أبيت فقل لعن الله أبا الـتراب، فقـال سـهل: ما كان لعلي اسم أحب إليه من أبي التراب، وما سماه إلا النبي ﷺ.. الحديث(3).

وقد علق حسن بن فرحـان المـالكي على النصـين بقوله: (فهذا صحيح مسلم يفسر رواية البخاري بأن والي المدينة وهــو مروان بن الحكم في زمن معاوية كان يسب ويـأمر بسـب علي على المنـابر، هـذه حقيقة تاريخيـة ثابتة.. فـأين الـتزام الـدكتور بالنقـل الصـحيح، فلابد من قبـول الحـق وإن كـان مـرا، فأنـا لا يهمني ثبوت التهمة ضـد بـني أمية أو غـيرهم، ولا يهمـني نفيها، بقدر ما يهمني حمايـة المنهج - منهج كتابـة التـاريخ الاسـلامي - وتبرئته من الخلل الذي قد يصيبه بتحكيم العقل بعيدا عن النقل الصــحيح. والمؤرخــون يخلطــون - غالبــا - بين (ما وقــع على الحقيقة) و(ما يجب أن يكون)، وهناك فرق بين (ما نحب) و(مـا حصل فعلا) فليس التاريخ روايـة مسـرحية خياليـة نشـكلها كمـا نريد!! بل من كمـال وصـدق وموضـوعية التـاريخ الاسـلامي أن نذكر الحق ولا نجامل فيه أحدا)(4)

النص الثالث: عن عامر بن سعد بن أبي وقاص عن أبيــه قال (عامر): أمر معاويـة سـعدا فقـال: ما منعـك أن تسـب أبـا تراب.. الحديث (5)

1() فتح الباري (7 / 70) ..
2() انظر فتح الباري (7 / 70) .
3() صحيح مسلم (7 / 124)
4() إنقاذ التاريخ الإسلامي، ص 23.
5() وقد روى مسلم هذا الحديث أيضا واتفـق مـع الترمـذي سـندا ومتنـا، وقـال الالبـاني

النص الرابع: ما ورد في سنن ابن ماجه عن عامر بن سعد عن أبيه قدم معاوية في بعض حجاته فدخل عليه سعد فذكروا عليا فنال منه فغضب سعد وقال: تقول هذا لرجل سمعت رسول الله ﷺ يقول فيه: من كنت مولاه فعلي مولاه.. الحديث، قال الالباني: صحيح(1).

وهكذا نجد النصوص الكثيرة الصحيحة تدل على هذا، ومع ذلك لا يزال يصر السلفية على تنزيه بني أمية، وتنزيه معاوية خصوصا، لأنهم لو طبقوا عليه مقاييسهم في سب الصحابة لكان أول من يكفرونه، لأنه لم يكن يكتفي بالسب، بل كان يضيف إليه اللعن.. ولم يكن يكتفي بفعل نفسه، بل كان يدعو إلى ذلك ويحرض عليه.. ولكن الإمام علي لا قيمة له عندهم، فلذلك يرضون أن يسب ويلعن وعلى المنابر ولا يرضون أن يمس معاوية بشعرة.. بل يفتدونه بالبخاري ومسلم وكل كتاب الصحاح التي ملأوا الدنيا صراخا لمن مسها ببنت شفة.

يقول الشيخ حسن بن فرحان المالكي مخاطبا عبد الحليم عويس بعد إيراده لتلك النصوص وغيرها: (كيف نقول بكل سهولة (لا يعقل) ونضرب بهذه الصحاح عرض الحائط من أجل تبرئة بعض الناس بلا وجه حق، أليست هذه هي الصحاح وكتب المحدثين التي يدعو الدكتور بعدم إغفالها.. من المتهم الآن بإغفالها؟ ثم إن تعليل الدكتور لدعواه هذه (بأن هذا يتنافى مع طبيعة البيئة الاسلامية) دعوى هلامية عائمة، لأنه بهذا التعليل المطاط يمكن أن ننكر أن الرسول ﷺ أقام الحد على من زنا (لأن الزنا يتنافى مع طبيعة البيئة الاسلامية)، ويمكن أن نقول إن الرسول ﷺ لم يقطع يد المخزومية، ولا جلد شارب الخمر، لأن هذه الذنوب (تتنافى مع طبيعة البيئة الاسلامية ولا تطيقها)، وهكذا هلم جرا. بل يمكن أن ننكر جميع (المخالفات) التي حدثت في عهد الصحابة بهذا التعليل المطاط الذي لا يقوله من يعرف حقيقة التاريخ الاسلامي وفوائد دراسته) (2)

بعد هذا يطرح الشيخ حسن تساؤلا مهما حول الفائدة في إثبات أو نفي مثل هذه الزلات في تاريخنا)، ثم يجيب عليها بقوله: (ليست القضية بهذه السهولة، لأن القضية ليست اتهام فلان أو تبرئة فلان بقدر ما هي حماية للمنهج الذي تسير عليه الأمة والاستفادة من حقائق تاريخنا كما وقعت لا كما كنا نحب أن تقع، ثم إن أبدى المؤرخون آراءهم ونفوا بعقولهم روايات ثابتة في الصحيحين وجعلوا الحكم مجرد (تخمينات العقل) فهذا

صحيح، انظر: صحيح مسلم (7 / 120)

1() انظر صحيح سنن ابن ماجه للالباني (1 / 26)

2() إنقاذ التاريخ الإسلامي، ص 27.

(يهدم القاعدة) من أساسها ونصبح هكذا (كل في فلك) نشـرق بروايـات ونغـرب بـأخرى وننفي مـا نشـاء ونثبت مـا نشـاء دون ضابط يحكم قولنا وتفكيرنا.. فالقضـية أعظم ممـا قـد يتصـوره بعض الإخوة الفضلاء من تبرئة أو إتهام) [1]

ثم يـذكر سـببا آخـر يعتـبره السـلفيون من أسـباب كتم الحقائق أو تشويهها أو تحريفها، وهو مـا عـبر عنـه بقوله: (وقـد يقـول قائل: إن كلامـك هـذا قـد يفـرح بـه بعض أهـل الاهـواء ويتخذونه سلاحا ضدنا في معركة لسنا بحاجة إليها، أقـول: وهل كلامي هـذا جديد؟ فصـحيح البخـاري ومسـلم موجـودان منـذ القـرون الاولى يقرأهمـا الخاصـة والعامة، الصـديق والعـدو، وقضـية سـب بـني أميـة لعلي لا تخفى على العامـة فضـلا عن الخاصة. فكيف تخفى على المؤرخين من الخاصة، ثم نحن أمام خيارات ثلاثة: أما نجعل التاريخ الاسلامي مسجلا للحقـائق نافيـا للأكاذيب، ونترك اللعب على الأذقان ونثبت الروايـات الصـحيحة ومـا يقتضـيه مضـمونها، ثم نوجههـا التوجيـه السـليم، وهـذه الروايات ليست بدعا من عندنا فقد عقلها البخاري ومسلم وابن تيمية وابن باز والائمة المحدثون قديما وحـديثا.. الخيـار الثـاني: أن نترك التاريخ كليـة ولا نـبرئ زيـدا ولا نتهم عمـرا ولا ندرسـه في مدارسنا ولا في جامعاتنا ونرمي به في البحـر أو ندسـه في التراب.. وهذا لا يقوله عاقل لكن هذا يضمن لنا إلا نتهم أو نثبت خطـأ أحـد السـابقين كمـا يريـد منـا البعض أن نتعسـف ونفعـل ذلك.. وإذا لم نرض بهذا - وعدم الرضا بـه حـق - فأمامنـا خيـار ثـالث باطـل وهـو أن نؤلـف من (عنـدياتنا) تاريخـا محببـا إلى نفوسنا ونعجنه كما نشاء ونذكر فيه أن يزيـد بن معاويـة مبشـر بالجنة، وأن الحجاج صحابي جليل، وهكذا كما لا ننسى أن ناخـذ حبرأ أسـود ونطمس الروايـات الصـحيحة في الصـحيحين الـتي تدين بعض نقاط الضعف في تاريخنا الاسـلامي ونـذعي أن هـذا يشوه التاريخ، وبهذا لا نتحاكم إلى الصحاح السـتة ولا العشـرة، وهذا ظاهر البطلان فلم يبق إلا الخيار الأول) [2]

ومثلما توجه الشيخ حسن بن فرحان بنقـده لـذلك التلاعب بالصـحاح والسـنن من أجـل بـني أمية.. انتقـد المـؤرخ الكبـير الأسـتاذ محمـود شـاكر الـذي تخلى عن وظيفتـه في التحقيـق التاريخي ليصبح محاميا عن الطلقـاء وأبنـاء الطلقـاء، ولـو على حساب السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار..

يقول الشيخ حسن بن فرحان المالكي: (والأسـتاذ محمـود شـاكر من المبـدعين في كتابـه (التـاريخ الحـديث) و(همـوم

1() إنقاذ التاريخ الإسلامي، ص 27.
2() إنقاذ التاريخ الإسلامي، ص 29.

المسلمين والاقليات في العالم الاسلامي) لكنـه حين دخـل في ميدان تحقيق التاريخ الاسلامي في العهود السابقة لم نجـد هـذا الابداع إذ رأيناه يفند التهم الموجهة لبني أمية وبـني العبـاس بلا منهج بل يفندها يمنة ومجمرة تـارة بــ (لا يعقـل) وأخـرى بــ (لا يمكن) وكلهـا أخـف وطـاة من زعمـه بأنهـا (ليس لهـا إسـناد معـروف ومعظمهـا مجهـول المصـدر ممـا يـدل على كـذبها)، فألفيت كتابه (العهد الاموي) مفتقـدا لشـررط التحقيـق الـتي لا تخفى حتى على نجباء الطلبة) (1)

ثم ضـرب مثـالا على ذلـك بمـا كتبـه في كتابـه (العهـد الاموي)، والذي يقـول فيه: (واتهم معاويـة بادعـاء زيـاد بن أبيـه ونسبته إلى أبي سفيان.. فكيـف قبـل زيـاد هـذا الكلام أمامه؟! وكيـف قبـل معاوية؟ وكيـف رضـي المسـلمون بهـذه المخالفـة الصريحة من الامام؟ فهل ضاع الاحساس وضاع الدين ولا يزال الصحابة أحياء؟)(2)

ثم يعلق عليه بقوله: (مهلا مهلا يا أستاذنا الجليل! ما هكـذا تورد الابل؟ أهذا هو التحقيق الـذي تـدعو إليه؟ أيكـون التحقيـق مجرد اسـتفهامات انكارية؟!، ألسـت القائـل (وإذا أخـذنا بمنهج أهل الحديث في الجرح والتعديل وهو أفضل منهج للوصول إلى صحة الخبر..) ما الذي أخرك - يا أستاذي - هنا في تطـبيق هـذا المنهج الذي تثني عليه؟!، تعال معي لنطبق معا ونرى هـل ثبت استلحاق زياد في الروايات الصحيحة أم لا؟)(3)

ثم أخذ يسرد عليه الروايات الصحيحة من البخـاري وغـيره الدالة على ذلك، والتي لا حاجة بنا إلى ذكرها هنا، لأن غايتنا من كـل هـذا، هـو البرهنـة على تلـك الازدواجيـة في المعـايير الـتي يتعامل بها السلفية مع كل شيء.

فعندما كان الأمر متعلقا بـابن العلقمي، وهـو مجـرد وزيـر في دولة كبيرة مملوءة بالقادة والأمراء صبت كل اللعنات عليـه لأنه شـيعي تـآمر على الخلافـة السـنية، وعلى الخليفـة السـني وعلى الراقصـة السـنية الـتي كـانت تـرقص لـه قبـل أن يقتلهـا الظلمـة من التـتر وأعـوانهم من الـروافض، ويفجعـوا بهـا قلب الخليفة، ومعه قلوب أهل السنة.

أما عندما يتعلق الأمر بمعاوية أو غيره من الظلمة، فيمكن أن تسـتعمل كـل الحيـل والخـدع والمكـر ولـو على حسـاب مـا يسمونه أصح كتاب في الدنيا بعد كتاب الله.

1() إنقاذ التاريخ الإسلامي، ص30.
2() (العهد الاموي) من ص 24 - 27.
3() إنقاذ التاريخ الإسلامي، ص 30.

التراث السلفي.. والعلوم العقلية

نريد بالعلوم العقلية هنا العلوم التي تستخدم العقل إما استخداما مجردا لفهم القضايا وتحليلها واتخاذ المواقف منها، أو تستخدم العقل لتفهم به النقل، أو لتوفق بينه ويبن العقل، أو لتجمع به بين ما اختلف فيه من النقل، وخاصة في التمييز بين المحكم والمتشابه.

وعندما نطبق هذا المفهوم على التراث الإسلامي نجد أن كل طوائف الأمة استعملته، حيث نجد عقلا كثيرا عند فلاسفة المسلمين ومناطقتهم ومتكلميهم، بل حتى فقهائهم وصوفيتهم.. فكل هؤلاء استعملوا العقل في خطاباتهم وتحليلاتهم ومواقفهم.

وكمثال على ذلك نجد أبا حامد الغزالي، وهو رجل جمع بين الفقه والكلام والتصوف وغيرها، يستعمل العقل في كل شيء: إما استعمالا مجردا، كما استعمله في مباحثه الفلسفية، أو استعمالا ممزوجا بالنقل، كما استعمله في مباحثه الكلامية والأصوليه، أو ممزوجا بالتجربة كما استعمله في التصوف والأخلاق، فقد راح في كتبه الصوفية يحلل الأخلاق تحليلا علميا عقليا استفاد بعضه من الفلاسفة السابقين، وأضاف بعضه من خلال تجربته ونظره المتدبر في النصوص.

وهكذا الأمر عند فرق المسلمين جميعا حيث نجد عقلا كثيرا عند الشيعة والإباضية والزيدية والمعتزلة والأشاعرة والماتريدية وغيرهم، فكتبهم العقدية والفقهية وغيرها تستعمل العقل وتعتبره مصدرا أساسيا للمعرفة لا يمكن أن يستغنى عنه.

وهكذا نجد الجميع يشيدون بالعقل ويحترمونه، ويحاولون قدر ما استطاعوا مراعاته، باعتباره أداة أساسية لفهم الشرع، كما قال الغزالي في كتابه [معارج القدس في مدارج معرفه النفس] تحت فصل مهم عنونه بـ (تظاهر العقل والشرع وافتقار أحدهما الى الآخر)، قال فيه: (اعلم أن العقل لن يهتدي إلا بالشرع، والشرع لم يتبين إلا بالعقل، فالعقل كالأس، والشرع كالبناء، ولن يغني أس ما لم يكن بناء، ولن يثبت بناء ما لم يكن أس.. وأيضا فالعقل كالبصر والشرع كالشعاع، ولن يغني البصر ما لم يكن شعاع من خارج ولن يغني الشعاع ما لم يكن بصر.. وأيضا فالعقل كالسراج والشرع كالزيت الذي يمده فما لم يكن زيت لم يحصل السراج وما لم يكن سراج لم يضىء الزيت، وعلى هذا نبه الله سبحانه بقوله: ﴿اللَّهُ نُورُ

السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ مُبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُورٌ عَلَى نُورٍ [النور: 35]، فالشرع عقل من خارج والعقل شرع من داخل وهما متعاضدان بل متحدان ولكون الشرع عقلا من خارج سلب الله تعالى اسم العقل من الكافر في غير موضع القرآن نحو قوله تعالى: صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ [البقرة: 171] ولكون العقل شرعا من داخل قال تعالى في صفة العقل: فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ [الروم: 30]، فسمى العقل دينا ولكونهما متحدين قال: نُورٌ عَلَى نُورٍ [النور: 35] أي نور العقل ونور الشرع، ثم قال: يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَنْ يَشَاءُ [النور: 35] فجعلها نورا واحدا، فالشرع إذا فقد العقل لم يظهر به شيء وصار ضائعا ضياع الشعاع عند فقد نور البصر، والعقل إذا فقد الشرع عجز عن أكثر الأمور عجز العين عند فقد النور) (1)

هذه مقتطفات من كلام الغزالي، وهي كما رأينا كلمات مضمخة بعطر القرآن الكريم الممتلئ بالدعوة لإعمال العقل والفكر وكل ما أتيح للإنسان من وسائل التعرف على الحقائق، لأنه لا يمكن أن يعرف الله ولا الوجود، ولا أي شيء، من لم يستعمل ما أتيح له من تلك الأدوات المقدسة.

لكن السلفية وحدهم ــ من بين الأمة جميعا ــ من وقف موقفا سلبيا من العقل، ومن البحث العقلي، وذلك لأنهم رأوا من خلال التجربة، ومن خلال احتكاكهم بطوائف الأمة المختلفة أنهم لو جادلوا بالعقل لهزموا وبهتوا.. ولذلك كان الأسلم لهم هو ترك العقل والاكتفاء بالنقل.. فإن صعب هضم النقل ـ بالمفهوم السلفي ـ على العقل، قيل له: أمروه كما جاء.. أو ابلعوه كما هو بلحمه وعظمه.

وبهذا الاعتبار يمكن تقسيم الأمة الإسلامية إلى طائفة كبيرتين: طائفة عقلانية تقبل تدخل العقل في فهم النص، وتستعمله في تحليل القضايا ونحوها، وطائفة أخرى لا ترى استعمال العقل، لا استعمالا مجردا، ولا استعمالا ممزوجا.

وكمثال يبرهن على هذه القسمة لطوائف الأمة بهذا الاعتبار أننا نجد في تراث الأمة جميعا بمدارسها المختلفة منطقا، وتحليلات منطقية، بل نجد المنطق نفسه مقررا في مدارسها، وقد وضعت له المصنفات المختلفة التي تيسر على الطلبة تعلمه واستعماله إلا عند المدرسة السلفية، فهي وحدها

1() معارج القدس في مدارج معرفه النفس (ص: 57)

التي شذت، فنظـرت إلى المنطـق نظـرة سـلبية سـاخرة، كمـا نظرت إلى غيره من العلوم والأدوات التي تحتاج إلى العقل.

بنـاء على هـذا كـان الـتراث السـلفي في العلـوم العقليـة معـدوما، أو في حكم المعـدوم، ومـا كتبـه بعضـهم حـول هـذه العلوم العقلية لا يعدو أن يكون محاولة لنقضـها، أو إثبـات عـدم الحاجة إليها.

ولم يكتـف السـلفية بهـذا.. بـل ذهبـوا إلى اتخـاذ مواقـف سلبية من كل العلوم المرتبطـة بالعقل، حـتى لـو كـانت علومـا آلية مجردة.

بناء على هذا سـنحاول في هـذا الفصـل أن نـذكر مواقـف السلفية سلفهم وخلفهم من أربع طوائـف في الأمة، اسـتعملت العقل إما استعمالا مجردا أو اسـتعمالا ممزوجا، وهم المناطقـة والفلاسفة والمتكلمون والعقلانيون، والتسمية الأخيرة استحدثها السلفية، ويقصدون بها المعاصرون من الـذين ينتقـدون الـتراث الإسلامي بسبب معارضته للعقل.

أولا ـ التراث السلفي والمنطق:

كمـا ذكرنـا سـابقا فـإن الأمـة جميعـا بمختلـف مدارسـها وقراءاتهـا للإسـلام اتفقت على اعتبـار المنطـق معيـارا صـالحا للتحـاكم إليـه في المسـائل العقلية، ولـذلك أدخلتـه في أكـثر المعـارف والعلـوم، واسـتعملته كوسـيلة لتيسـير التواصـل بين العقلاء، كما كـان النحـو وغـيره من العلـوم الآليـة وسـيلة لفهم الكلام.

ولهذا نـرى أبـا حامـد الغـزالي يضـع في مقدمـة كتابـه في أصوال الفقه [المستصفى] مقدمة منطقية بعنوان [بيـان حصـر مـدارك العلـوم النظريـة في الحـد والبرهـان]، ثم يـذكر سـبب وضعها في هذا الكتاب الأصولي، فيقول: (وليست هذه المقدمة من جملـة علم الأصـول ولا من مقدماتـه الخاصـة به، بـل هي مقدمة العلوم كلها، ومن لا يحيط بهـا فلا ثقـة لـه بعلومـه أصلا، فمن شاء أن لا يكتب هذه المقدمة فليبـدأ بالكتـاب من القطب الأول فـإن ذلـك هـو أول أصـول الفقـه وحاجـة جميـع العلـوم النظرية إلى هذه المقدمة لحاجة أصول الفقه)(1)

وهكذا نرى اهتمام علماء الأمة جميعا بمختلف تخصصـاتهم بوضع كتب أو مقدمات لهذا العلم حتى تعصم العقل من الوقوع في الزلل، وحـتى يتـدرب طلبـة العلم على اسـتخدام عقـولهم أثناء البحث والمناقشة والتحليل والنقد.

ففي مدرسـة الأشـاعرة: نجـد الغـزالي (ت 505هــ) الــذي ألف (معيــار العلم في فن المنطــق)، و(محــك النظــر)،

1() المستصفى (ص: 10)

و(القسطاس المستقيم)، وبعض فصول من مقدمة مقاصد الفلاسفة، ومقدمة المستصفى من علم الأصول، ومقدمة الاقتصاد في الإعتقاد، ومثله الرازي (ت 606هـ) الذي ألف في المنطق كتابه (المنطق الكبير)، و(الملخص في الحكمة والمنطق)، و(المباحث المشرقية)، ومن كتبه الكلامية التي خلط فيها علم الكلام بالمنطق وغيره من العلوم العقلية (محصل أفكار المتقدمين والمتأخرين)، و(المطالب العالية في العلم الإلهي).. ومثلهما الآمدى (ت 631هـ) صاحب كتاب (دقائق الحقائق في المنطق)، والخونجي (ت646هـ) صاحب كتاب (مختصر صغير في المنطق)، وهو مشهور له انتشار واسع، وعليه شروح كثيرة، و(الموجز) وهو مختصر آخر، و(كشف الأسرار في المنطق)، و(ملخص المطالب العالية)، وغيرهم كثير..

وهكذا نجد أعلام **المدرسة الماتريدية** الذين تركوا الآثار الكثيرة في المنطق، ومن أبرزهم التفتازاني (ت 792هـ) صاحب (تهذيب المنطق والكلام)، و(شرح الرسالة الشمسية) كلاهما في المنطق، وخلط علم الكلام بالمنطق والفلسفة في (مقاصد علم الكلام)، و(شرح المقاصد).. ومنهم الشريف الجرجاني (ت816هـ) صاحب كتاب (تعريف العلم في المنطق).. ومجد الدين الرازي الملقب (مصنفك) (ت875 هـ) صاحب حاشية على حاشية الجرجاني على(المطالع)، وغيرهم كثير.

وهكذا نجد أعلام **المدرسة الصوفية** كالغزالي الذي سبق ذكره، والسهروردي المقتول (سنة 587هـ)، فقد ذكر المنطق في كتابه (حكمة الإشراق) و(اللمحات) و(التلويحات)، وابن سبعين (ت669هـ) في كتابه (بد العارف وعقيدة المحقق المقرب الكاشف، وطريق السالك المتبتل العاكف)

وهكذا نجد أعلام **مدرسة الشيعة الإمامية**، فمنهم نصير الدين الطوسي (ت672هـ) صاحب كتاب (تجريد الاعتقاد) وهو مثل كتاب (المواقف) و(المقاصد)، الثلاثة الأولى في الفلسفة والمنطق، والثلاثة الأخيرة في النبوة والإمامة والمعاد.. ونجد ابن المطهر الحلي (ت726هـ) صاحب (كشف المراد في شرح تجريد الاعتقاد)، و(الجوهر النضيد في شرح التجريد في المنطق)، و(القواعد الجلية في شرح الرسالة الشمسية)، وغيرها كثير.

هذه مجرد أمثلة بسيطة عن اهتمام طوائف الأمة بالمنطق، وتأليفهم فيه، ودراستهم له.. لكني لم أجد عند السلفية مع كثرة مؤلفاتها وكتبها كتابا في المنطق، أو أي

اهتمام به اللهم إلا الكتب التي تشنع عليه وتحاول أن تنقضه أو تبين أنه لا قيمة له، والتي يفتخر بها السلفية كثيرا، ويتصورون أن إمامهم الأكبر ابن تيمية استطاع بذكائه الحاد أن يقضي على المنطق، ويبين عدم الحاجة إليه، وأنه لا ثمرة فيه، ولهذا نراهم يرددون دائما مقولته المعروفة في مقدمة رده على المناطقة: (فإني كنت دائما أعلم أن المنطق اليوناني لا يحتاج إليه الذكي ولا ينتفع به البليد ولكن كنت أحسب أن قضاياه صادقة لما رأيت من صدق كثير منها، ثم تبين لي فيما بعد خطأ طائفة من قضاياه وكتبت في ذلك شيئا ثم لما كنت بالإسكندرية اجتمع بي من رأيته يعظم المتفلسفة بالتهويل والتقليد فذكرت له بعض ما يستحقه من التجهيل والتضليل. واقتضى ذلك أني كتبت في قعدة بين الظهر من الكلام على المنطق ما علقته تلك الساعة. ثم تعقبته بعد ذلك في مجالس إلى أن تم ولم يكن ذلك من همتي فإن همتي إنما كانت فيما كتبته عليهم في الإلهيات. وتبين لي أن كثيرا مما ذكروه في أصولهم في الإلهيات وفي المنطق هو من أصول فساد قولهم في الإلهيات، مثل ما ذكروه من تركيب الماهيات من الصفات التي سموها ذاتيات وما ذكروه من حصر طرق العلم في ما ذكروه من الحدود والأقيسة البرهانية بل وفيما ذكروه من الحدود التي يعرف التصورات بل ما ذكروه من صور القياس ومواده اليقينيات. فأراد بعض الناس أن يكتب ما علقته إذ ذاك من الكلام عليهم في المنطق فأذنت في ذلك لأنه يفتح باب معرفة الحق، وإن كان ما فتح من باب الرد عليهم يحتمل أضعاف ما علقته تلك الساعة)(1)

وقد اكتفى السلفية بهذه الجلسة التي راح ابن تيمية فيها يرد ما شاء، ويقبل ما شاء من غير تثبت ولا تحقيق، ومن غير إدراك منه لغايات المنطق.. ومثله في ذلك مثل رجل مر على قوم يتعلمون النحو.. فراح يسخر منهم، ويرى عدم أهمية ما يتعلمونه، غير مدرك للثمار العملية من ذلك.

وقد سئل ابن تيمية ـ كما في مجموع الفتاوى ــ عن (كتب المنطق)، فأجاب: (أما (كتب المنطق) فتلك لا تشتمل على علم يؤمر به شرعا وإن كان قد أدى اجتهاد بعض الناس إلى أنه فرض على الكفاية وقال بعض الناس: إن العلوم لا تقوم إلا به كما ذكر ذلك أبو حامد فهذا غلط عظيم عقلا وشرعا. أما (عقلا) فإن جميع عقلاء بني آدم من جميع أصناف المتكلمين في العلم حرروا علومهم بدون المنطق اليوناني. وأما (شرعا) فإنه من المعلوم بالاضطرار من دين الإسلام أن الله لم يوجب تعلم هذا

1() الرد على المنطقيين (ص: 3)

المنطق اليوناني على أهل العلم والإيمان. وأما هو في نفسه فبعضه حق وبعضه باطل والحق الذي فيه كثير منه أو أكثره لا يحتاج إليه والقدر الذي يحتاج إليه منه فأكثر الفطر السليمة تستقل به والبليد لا ينتفع به والذكي لا يحتاج إليه ومضرته على من لم يكن خبيرا بعلوم الأنبياء أكثر من نفعه؛ فإن فيه من القواعد السلبية الفاسدة ما راجت على كثير من الفضلاء وكانت سبب نفاقهم وفساد علومهم)(1)

وهكذا نجد ابن قيم الجوزية يسير على خطى شيخه في ذم المنطق في كثير من كتبه كـ (مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية أهل العلم والإرادة) و(إغاثة اللهفان من مصائد الشيطان) و(الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة)، وغيرها، وخلاصة فكرته في هذا ـ والتي يتبناها السلفية جميعا، ويرددونها كل حين ليمنعوا أتباعهم من النظر العقلي أو التفكير المنطقي ـ هي أن من كيد الشيطان على المتكلمين المنزهة (وتحيله على إخراجهم من العلم والدين: أن ألقى على ألسنتهم أن كلام الله ورسوله ظواهر لفظية لا تفيد اليقين، وأوحى إليهم أن القواطع العقلية والبراهين اليقينية فى المناهج الفلسفية، والطرق الكلامية، فحال بينهم وبين اقتباس الهدى واليقين من مشْكاة القرآن، وأحالهم على منطق يونان، وعلى ما عندهم من الدعاوى الكاذبة العريَّة عن البرهان، وقال لهم: تلك علوم قديمة صقلتها العقول والأذهان، ومرت عليها القرون والأزمان، فانظر كيف تلطف بكيده ومكره حتى أخرجهم من الإيمان والدين، كإخراج الشعرة من العجين)(2)

وهو يردد بفخر وجزم ما يردده السلفية من قدرة شيخهم على نقض المنطق، فيقول: (وزعم أرسطو وأتباعه أن المنطق ميزان المعانى، كما أن العروض ميزان الشعر، وقد بين نظار الإسلام فساد هذا الميزان وعوجه، وتعويجه للعقول، وتخبيطه للأذهان. وصنفوا فى رده وتهافته كثيرا. وآخر من صنف فى ذلك شيخ الإسلام ابن تيمية، ألف فى رده وإبطاله كتابين، كبيرا، وصغيرا، بين فيه تناقضه وتهافته وفساد كثير من أوضاعه)(3)

وقد عبر عن موقفه هذا في قصيدته التي يحفظها السلفية، ويعتنون بها كثيرا(4):

وعجبا لمنطق اليونان　　　كم فيه من إفك ومن بهتان

1() الفتاوى الكبرى لابن تيمية (5/ 87)
2() (إغاثة اللهفان من مصايد الشيطان (1/ 119)
3() إغاثة اللهفان من مصايد الشيطان (2/ 260)
4() ابن قيم الجوزية: مفتاح دار السعادة، ج1 ص: 158 .

مخبّط لجيد الأذهان ومفسد لفطرة الإنسان
مضطرب الأصول على شفا هار بناه
أحوج ما كان إليه العاني يخونه في السر
يمشي به اللسان في مشي مقيّد على
متصل العثار والتواني كأنه السراب بالقيعان
بدا لعين الظمى فأمه بالظن والحسبان
يرجو شفاء علة الظمآن فلم يجد ثمّ سوى
فعاد بالخيبة والخسران يقرع سن نادم حيران
قد ضاع منه العمر في وعاين الخفة في

وبناء على هذا أفتوا بحرمة تعلمه، وقد حكى ابن تيمية ذلك ـ كعادته ـ عن علماء الأمة وأئمتها، وكأن الغزالي وابن حزم وغيرهما كثير لم يكونا من علماء الأمة، يقول في ذلك: (ما زال علماء المسلمين وأئمة الدين يذمونه ويذمون أهله، وينهون عنه وعن أهله، حتى رأيت للمتأخرين فتيا فيها خطوط جماعة من أعيان زمانهم من أئمة الشافعية والحنفية وغيرهم، فيها كلام عظيم في تحريمه وعقوبة أهله، حتى إن من الحكايات المشهورة التي بلغتنا أن الشيخ أبا عمرو بن الصلاح أمر بانتزاع مدرسة معروفة من أبي الحسن الآمدي، وقال: أخذها منه أفضل من أخذ عكا. مع أن الآمدي لم يكن أحد في وقته أكثر تبحرا في العلوم الكلامية والفلسفية منه، وكان من أحسنهم إسلاما، وأمثلهم اعتقادا)(1)

وابن تيمية هنا يشيد بتشدد ابن الصلاح وبفتواه الخطيرة التي حرم فيها المنطق، والتي يرويها السلفية كثيرا، وكأنها نص قرآني معصوم، أو كأنها حديث من أحاديث أبي هريرة التي رواها البخاري.

وسأنقل هنا الفتوى كما وردت في فتاواه، فقد سئل عمن (يشتغل بالمنطق والفلسفة تعليما وتعلما وهل المنطق جملة وتفصيلا مما أباح الشارع تعليمه وتعلمه والصحابة والتابعون والأئمة المجتهدون والسلف الصالحون ذكروا ذلك أو أباحوا الاشتغال به أو سوغوا الاشتغال به أم لا، وهل يجوز أن يستعمل في إثبات الأحكام الشريعة الاصطلاحات المنطقية أم لا وهل الأحكام الشرعية مفتقرة إلى ذلك في إثباتها أم لا وما

(1) مجموع الفتاوى (9/8)

الواجب على من تلبس بتعليمه وتعلمه متظاهرا به ما الذي يجب على سلطان الوقت في أمره وإذا وجد في بعض البلاد شخص من أهل الفلسفة معروفا بتعليمها وإقرائها والتصنيف فيها وهو مدرس في مدرسة من مدارس العلم فهل يجب على سلطان تلك البلاد عزله وكفاية الناس شره)(1)

فأجاب بقوله: (الفلسفة رأس السفه والانحلال ومادة الحيرة والضلال ومثار الزيغ والزندقة، ومن تفلسف عميت بصيرته عن محاسن الشريعة المؤيدة بالحجج الظاهرة والبراهين الباهرة، ومن تلبس بها تعليما وتعلما قارنه الخذلان والحرمان واستحوذ عليه الشيطان، وأي فن أخزى من فن يعمي صاحبه أظلم قلبه عن نبوة نبينا ﷺ كلما ذكره ذاكر وكلما غفل عن ذكره غافل مع انتشار آياته المستبينة ومعجزاته المستنيرة حتى لقد انتدب بعض العلماء لاستقصائها، فجمع منها ألف معجزة وعددناه مقصرا إذا فوق ذلك بأضعاف لا تحصى فإنها ليست محصورة على ما وجد منها في عصره ﷺ، بل لم تزل تتجدد بعده ﷺ.. وأما المنطق فهو مدخل الفلسفة ومدخل الشر شر، وليس الاشتغال بتعليمه وتعلمه مما أباحه الشارع ولا استباحه أحد من الصحابة والتابعين والأئمة المجتهدين والسلف الصالحين وسائر من يقتدي به من أعلام الأئمة وسادتها وأركان الأمة وقادتها قد برأ الله الجميع من مغرة ذلك وأدناسه وطهرهم من أوضاره.. وأما استعمال الاصطلاحات المنطقية في مباحث الأحكام الشرعية فمن المنكرات المستبشعة والرقاعات المستحدثة، وليس بالأحكام الشرعية والحمد لله افتقار إلى المنطق أصلا، وما يزعمه المنطقي للمنطق من أمر الحد والبرهان فقعاقع قد أغنى الله عنها بالطريق الأقوم والسبيل الأسلم الأطهر كل صحيح الذهن لا سيما من خدم نظريات العلوم الشرعية، ولقد تمت الشريعة وعلومها وخاض في بحار الحقائق والدقائق علماؤها حيث لا منطق ولا فلسفة ولا فلاسفة، ومن زعم أنه يشتغل مع نفسه بالمنطق والفلسفة لفائدة يزعمها فقد خدعه الشيطان ومكر به) (2)

ولم يكتف ابن الصلاح بهذه الحملة الشديدة على المنطق، بل راح يحرض السلطان على المناطقة كما حرضه سلفه على الجهمية والمعتزلة، يقول في ذلك: (فالواجب على السلطان أعزه الله وأعز به الإسلام وأهله أن يدفع عن المسلمين شر هؤلاء المشائيم ويخرجهم من المدارس ويبعدهم ويعاقب على

1() فتاوى ابن الصلاح (1/ 209)

2() فتاوى ابن الصلاح (1/ 209)

الاشتغال بفنهم ويعرض من ظهر منه اعتقاد عقائد الفلاسفة على السيف أو الاسلام لتخمد نارهم وتنمحي آثارها وآثارهم يسر الله ذلك وعجله، ومن أوجب هذا الواجب عزل من كان مدرس مدرسة من أهل الفلسفة والتصنيف فيها والإقراء لها ثم سجنه وإلزامه منزله ومن زعم أنه غير معتقد لعقائدهم فإن حاله يكذبه والطريق في قلع الشر قلع أصوله وانتصاب مثله مدرسا من العظائم جملة والله تبارك وتعالى ولي التوفيق والعصمة وهو أعلم) (1)

هذه هي فتوى ابن الصلاح، وقد طبقها ـ كما ذكر ابن تيمية ـ مع العلامة الكبير أبي الحسن الآمدي (المتوفى 631هـ) بسبب طرحه المسائل العقدية بطريقة عقلانية، لأن العقيدة لا ينبغي أن تطرح في الرؤية السلفية إلا عبر الرواية عن كعب اليمني، لا الرواية عن أرسطو اليوناني.

ثانيا ـ التراث السلفي والفلسفة:

نريد بالفلسفة هنا كل عمل عقلي تحليلي للقضايا بعيدا عن استخدام النقل، وهو منهج في التفكير، ولا حرج فيه ولا ضرر منه، لأن للعقل مجاله وللنقل مجاله.. ولكن السلفية يضعون ألف مشكلة ومشكلة في هذا ابتداء من سلفهم الأول.

حتى أنهم وضعوا من القواعد التي يجرح على أساسها الرواة استخدامهم التفلسف ـ كما يسمونه ـ ولهذا جرح الحافظ يحيى بن معين (ت ق: 3ه) أحمد بن صالح المصري المعروف بابن الطبري، بقوله: كذاب يتفلسف (2).. ومثله قال الحافظ ابن ناصر السلامي البغدادي(ق: 6ه) في الفقيه محمد بن زبيبة البغدادي (ت511ه): كان على عقيدة الفلاسفة لا تجوز الرواية عنه (3).

وقال شمس الدين الذهبي عن ابن سينا (ت 428ه): (ما أعلم أنه روى شيئا من الحديث، ولو روى ما حلت الرواية عنه، لأنه فلسفي النحلة، ضال لا رضي الله عنه) (4)

وهكذا سار الخلف على درب السلف، وبناء على هذا لم يكن في تراث السلفية جميعا أي كتب فلسفية اللهم إلا الكتب التي حاول ابن تيمية أن ينظر بها للعقائد التجسيمية، وعلى أساسها استخرج حكمته المعروفة بالمكان العدمي، ونحو ذلك، وقد ذمه بسببها الذهبي ذما شديدا، فقال في رسالته [بيان زغل العلم والطلب]: (فإن برعت في الأصول وتوابعها من

1() فتاوى ابن الصلاح (1/ 210)

2() الذهبي: السير، ج12 ص 165.

3() الذيل على طبقات الحنابلة، ص 323 .

4() ميزان الاعتدال، ج2 ص 294.

المنطق والحكمة والفلسفة وآراء الأوائل ومحارات العقول، واعتصمت مع ذلك بالكتاب والسُّنّة وأصول السلف، ولفقت بين العقل والنقل، فما أظنك في ذلك تبلغ رتبة ابن تيمية ولا والله تقاربها، وقد رأيتَ ما آل أمره إليه من الحطّ عليه والهجر والتضليل والتكفير والتكذيب بحقّ وبباطل، فقد كان قبل أن يدخل في هذه الصناعة منوَّرًا مضيئًا على مُحَيَّاه سِيْمَا السلف، ثم صار مظلما مكسوفا عليه قتمة عند خلائق من الناس، ودجّالاً أفّاكًا كافرًا عند أعدائه، ومبتدعًا فاضلاً محقّقًا بارعًا عند طوائف من عقلاء الفضلاء) (1)

بناء على هذا نرى ذلك الانغلاق الشديد من السلفية عن كل فلسفة وفكر شأنهم شأن أسلافهم الأوائل، فهم لا يقفون موقفا سلبيا من الفلك والعلوم الحديثة فقط، بل يقفون موقفا سلبيا من كل نشاط فكري بشري، لعدم ثقتهم في عقائدهم التي يمكن أن تزعزعها أي فكرة أو فلسفة.

وسأنقل هنا نصوصا مهمة لباحث درس الواقع السعودي وموقفه من الفلسفة، وقد اختار هذا الواقع باعتباره امتدادا لفكر ابن تيمية، وقد سمى بحثه هذا [الحكمة المصلوبة]، ومما جاء في مقدمته قوله: (تتجاوز أهمية هذا البحث مجرد كونه عرضاً لموقف ابن تيمية من الفلسفة إلى توضيح آثار هذا الموقف على الواقع العلمي والثقافي في السعودية، فبسبب هذا الموقف توجد في السعودية قرابة عشر جامعات وعشرات الكليات لا تحوي بين جنباتها قسماً واحداً لدراسة الفلسفة، واعتماداً على نظرة ابن تيمية إلى الفلسفة التي تراها كفراً وضلالاً لم تتجرأ أي جامعة سعودية على فتح قسم للفلسفة في أيٍ من كلياتها، ولا على تدريس مواد فلسفية، وإن مرَّ ذكر الفلسفة عَرَضاً فينبغي وصفها بالكفر والضلال، والتأكيد على أن تحكيم العقل هو طريق الهلاك)(2)

وهو يذكر أن هذا الموقف لا يقتصر على المواقف الدينية البسيطة، بل تجاوزتها إلى الدراسات المتلبسة بقشرة أكاديمية، وقد عرض للتمثيل لذلك ثلاث دراسات يجمع بينها أنها مكتوبة من قبل ثلاثة من الأكاديميين ينتمون إلى جامعة واحدة من جامعات السعودية، بل إلى كلية واحدة وقسم واحد، وهي: جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، كلية أصول الدين، قسم العقيدة والمذاهب المعاصرة.

أما الدراسة الأولى، فعنوانها [موقف شيخ الإسلام ابن

1() انظر نص الرسالة كاملا في (السيف الصقيل رد ابن زفيل) السبكي - هامش ص 211- 219 - مكتبة زهران - ومعه تكملة الرد على نونية ابن القيم بقلم: محمد زاهد بن الحسن الكوثري - تقديم: لجنة من علماء الأزهر.

2() الحكمة المصلوبة: ص6.

تيمية من آراء الفلاسفة ومنهجه في عرضها]، وقد ذكر مؤلفها أن من أسباب اختياره للموضوع (أن من يسمون بفلاسفة الإسلام قد أدخلوا على الأمة شراً عظيماً، بما انتحلوه من أفكار فلسفية ضالة، عملوا جهدهم في تقريبها من دين الإسلام؛ لكي تُقبل في أوساط المسلمين، وقد ابتلينا في هذا الزمان بمن يبرر هذه الأفكار الفلسفية من بعض المنتسبين إلى الإسلام والمستشرقين وغيرهم، على أنها تمثل فكر الإسلام الحقيقي ومنهجه الواقعي)[1]

وقد ذكر النتائج التي وصل إليها بحثه فكان منها: (كان لشيخ الإسلام اطلاع واسع على كتب الفلسفة، ومعرفة دقيقة بآراء الفلاسفة متقدميهم والمتأخرين، حتى إن خصومه منهم، ومن غيرهم، قد اعترفوا له بذلك، فصاروا يرجعون إليه في بيان دقائق مذاهبهم، وكشف خفايا أقوال أئمتهم)[2]، ويقول: (أرسطو لم يسلك مسالك الأساطين من الفلاسفة المتقدمين: كتاليس، وفيثاغورس، وسقراط، وأفلاطون، فإن هؤلاء كانوا يقولون بحدوث العالم، ويثبتون معاد الأبدان، وكانوا يثبتون الصفات والأمور الاختيارية للباري عز وجل. أما أرسطو فكان مشركاً، يعبد الأوثان، وهو أول من قال من الفلاسفة بقدم العالم، وسبب هذا الفرق بينه وبينهم هو أن أولئك المتقدمين كانوا يهاجرون إلى أرض الأنبياء بالشام، ويتلقون عن لقمان الحكيم، ومن بعده من أصحاب داود وسليمان، وأن أرسطو لم يسافر إلى أرض الأنبياء، ولم يكن عنده من العلم بآثار الأنبياء ما عند سلفه، والفلاسفة المنتسبون إلى الإسلام إنما نقلوا فلسفة أرسطو، وبآرائه تأثروا، فإنه كان معلمهم الأول)[3]. هذا بعض ما جاء في هذه الرسالة التي نال بها صاحبها درجة الدكتوراه مع مرتبة الشرف الأولى[4].

أما الدراسة الثانية، فعنوانها [الآثار العقدية للوثنية اليونانية] وقد ذكر الباحث من نتائج بحثه هذا، أن من آثار الوثنية اليونانية في بلاد المسلمين (ما جلبه علينا المغرضون من بذر الخلاف بين المسلمين، وإحداث البدع والضلالة فيهم حتى وجد بين أهل الإسلام بدعٌ كفرية، تمثلت في كثير من الفرق والمقالات والمناهج كالفلسفة، والباطنية، والجهمية، والرافضة، وغلاة التصوف، وفروع كل منها.. ومنها ما نراه ونسمع به من آثار القوم مما يسمى بالدورة الأولمبية دورة الألعاب الأولمبية، والتي هي امتداد لأعياد الوثنيين ومناسباتهم

1() موقف شيخ الإسلام ابن تيمية من آراء الفلاسفة ومنهجه في عرضها ص، د، من المقدمة.

2() موقف شيخ الإسلام ابن تيمية من آراء الفلاسفة ومنهجه في عرضها ، ص 590.

3() المرجع نفسه.

4() الحكمة المصلوبة، ص7.

الدينية، وأيضاً الثعبان الملتوي على كأس والذي أضحى علماً على الصيدليات، وربما المستشفيات الصغيرة والكبيرة.. يجب التنبيه والتحذير من السفر إلى تلك البلاد، لأنه ما زالت باقية معالم تلك الأمة الوثنية، في معابدها وملاعبها وتماثيل آلهتها ومساكنها ومواطن أعيادها، كما أن المتأخرين منهم قد اعتنوا بذلك وعدوه تراثاً وآثاراً مهمة لهم فحفظوها في متاحفهم وأماكن خاصة، ليرتادها الناس لا سيما السياح منهم –حيث بلاد اليونان من أكبر مراكز الاستقطاب السياحي في العالم) [1]

وأما الدراسة الثالثة: فهي [حقيقة الحضارة الإسلامية]، وقد كتب المؤلف بحثه هذا وهو معيد في قسم العقيدة والمذاهب المعاصرة، في كلية أصول الدين، وقد كفَّر واتهم بالزيغ والضلال كل فلاسفة الإسلام والمشتغلين منهم بعلوم الكيمياء والفلك ونحوها، وذكر أن هذا البحث إنما هو (جواب عمن جعل حضارة الإسلام هي النبوغ في علوم الفلاسفة والملاحدة وجعلها هي تشييد المباني وزخرفة المساجد، وجعل علماء الإسلام هم الملاحدة كابن سينا والفارابي ونحوهم، ويقول عن الفلسفة أنها: (منبع الضلالة، ومنجم الباطل، وقد عشَّش به الشيطان وضرب فيه قبابه، حرَّمه جميع المحققين من العلماء، ومن أدمن النظر فيه لم يسلم من الإلحاد، ودين أهل هذا العلم هو الكفر بالله**)** [2]

ثالثا ـ التراث السلفي وعلم الكلام:

قد يعذر السلفية في موقفهم من الفلسفة، باعتبارها بحثا عقليا مجردا عن النقل، ولكنهم لا يعذرون أبدا في موقفهم من علم الكلام، لأنه علم يحترم النقل، ويرجع إليه، بل هو يحاول أن يطبق تلك الآيات الكريمة الكثيرة التي تدعو إلى النظر والفكر وإعمال العقل للوصول إلى الحقائق، والبرهنة عليها.

وقد وضح أبو محمد البربهاري البغدادي الحنبلي (ت 329هـ) في قانونه الذي وضعه للسلفية في كتابه [شرح السنة] سبب تشددهم في علم الكلام، فقال: (إذا أردت الاستقامة على الحق وطريق أهل السنة قبلك فاحذر الكلام، وأصحاب الكلام، والجدال والمراء، والقياس، والمناظرة في الدين، فإن استماعك منهم - وإن لم تقبل منهم - يقدح الشك في القلب، وكفى به قبولا فتهلك، وما كانت زندقة قط، ولا بدعة، ولا هوى، ولا ضلالة، إلا من الكلام، والجدال، والمراء، والقياس، وهي أبواب البدعة، والشكوك والزندقة.. فالله الله في نفسك، وعليك بالأثر، وأصحاب الأثر، والتقليد؛ فإن الدين

[1] () الآثار العقدية للوثنية اليونانية ص 83.

[2] () الحكمة المصلوبة، ص8.

إنمــا هــو بالتقليد، ومن قبلنــا لم يــدعونا في لبس، فقلــدهم واسترح، ولا تجـاوز الأثر، وأهـل الأثر، وقـف عنـد المتشـابه، ولا تقس شيئا، ولا تطلب من عندك حيلة ترد بهـا على أهـل البـدع، فإنك أمرت بالسكوت عنهم، ولا تمكنهم من نفسك)(1)

ثم نقـل بعض مواقـف سـلفه في الصـمت عن المنـاظرة والكلام فقال: (أمـا علمت أن محمـد بن سـيرين في فضـله لم يجب رجلا من أهل البدع في مسألة واحـدة، ولا سـمع منـه آيـة من كتاب الله، فقيل له، فقال: أخاف أن يحرفها فيقع في قلبي شيء) (2)

وهذا يدل على ما ذكرنـاه سـابقا من أن السـلفية يـدركون البنيـان الهش الـذي تقـوم عليـه عقائـدهم التجسـيمية، فلـذلك يصـمون آذانهم عن أي تسـاؤل أو إشـكال يطـرح عليهم، يقـول البربهاري: (وإذا سألك أحـد عن مسـألة في هـذا الكتـاب، وهـو مسترشد فكلمه، وأرشده، وإذا جـاءك ينـاظرك، فاحـذره، فـإن في المناظرة المراء، والجدال، والمغالبة، والخصومة، والغضب، وقد نهيت عن هذا جـدا، بخرجـان جميعـا من طريـق الحق، ولم يبلغنا عن أحد من فقهائنا، وعلمائنا أنه ناظر أو جادل أو خاصم) (3)

وليؤكد هذا المعنى لم يرجع ـ كعادته ـ إلى القـرآن الكـريم الممتلئ بأصناف المناظرات، وإنمـا رجع لسـلفه، فقـال: (قـال الحسن: الحكيم لا يماري ولا يـداري، حكمتـه ينشـرها، إن قبلت حمد الله، وإن ردت حمد الله.. وجـاء رجـل إلى الحسـن فقـال له: أناظرك في الدين؟ فقـال: الحسن: أنـا عـرفت ديـني، فـإن ضل دينك فاذهب فاطلبه) (4)

وهكذا نجد الحافظ أبو الحسن اللاكـائي (ت418هــ) يعتـبر من البدع الحادثة الخطـيرة ظهـور المتكلمين، فقـال في كتابـه [شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة]: (فمضت على هــذه القرون ماضون، الأولون والآخرون، حتى ضرب الـدهر ضـرباته، وأبـدى من نفسـه حدثاته، وظهـر قـوم أجلاف زعمـوا أنهم لمن قبلهم أخلاف، وادعــوا أنهم أكــبر منهم في المحصــول، وفي حقائق المعقول، وأهدى إلى التحقيق، وأحسـن نظـرا منهم في التدقيق، وأن المتقدمين تفادوا من النظر لعجزهم، ورغبــوا عن مكالمتهم لقلة فهمهم، وأن نصـرة مـذهبهم في الجـدال معهم، حتى أبـدلوا من الطيب خبيثا، ومن القـديم حـديثا، وعـدلوا عمـا كان عليه رسول الله - ﷺ - وبعثه الله عليه، وأوجب عليه دعوة

1() شرح السنة للبربهاري (ص: 124)
2() شرح السنة للبربهاري (ص: 124)
3() شرح السنة للبربهاري (ص: 124)
4() شرح السنة للبربهاري (ص: 125)

الخلق إليه، وامتن على عباده إتمـام نعمتـه عليهم بالهدايـة إلى سبيله، فقال تعالى: ﴿وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمَا أَنْـزَلَ عَلَيْكُمْ مِنَ الْكِتَابِ وَالْحِكْمَةِ يَعِظُكُمْ بِهِ﴾ [البقـرة: 231] فوعـظ اللـه - عز وجل - عباده بكتابه، وحثهم على اتبـاع سـنة رسـوله، وقـال في آيــة أخــرى: ﴿ادْعُ إِلَى سَــبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَــةِ وَالْمَوْعِظَــةِ الْحَسَنَةِ﴾ [النحل: 125] لا بالجـدال والخصـومة، فرغبـوا عنهمـا وعولوا على غيرهما، وسلكوا بأنفسهم مسلك المضلين وخاضوا مع الخايضين، ودخلوا في ميدان المتحيرين، وابتدعوا من الأدلة مـا هـو خلاف الكتـاب والسـنة؛ رغبـة للغلبـة وقهـر المخـالفين للمقالة، ثم اتخذوها دينا واعتقادا بعد ما كانت دلايل الخصومات والمعارضات، وضللوا من لا يعتقد ذلك من المسلمين، وتســموا بالســنة والجماعة، ومن خــالفهم وســموه بالجهــل والغبــاوة، فأجابهم إلى ذلك من لم يكن لـه قـدم في معرفـة السـنة، ولم يسـع في طلبها؛ لمـا يلحقـه فيهـا من المشـقة، وطلب لنفسـه الدعــة والراحة، واقتصــر على اســمه دون رســمه لاســتعجال الرياسة، ومحبة اشتهار الذكر عند العامة، والتلقب بإمامـة أهـل السنة، وجعل دأبه الاستخفاف بنقلة الأخبار، وتزهيـد النـاس أن يتدينوا بالآثار؛ لجهله بطرقها، وصعوبة المـرام بمعرفـة معانيها، وقصور فهمه عن مواقع الشريعة منها، ورسوم التدين بها، حتى عفت رســوم الشــرائع الشــريفة، ومعــاني الإســلام القديمة، وفتحت دواوين الأمثال والشبه، وطويت دلايل الكتـاب والسـنة، وانقرض من كـان يتـدين بحججها؛ للأخـذ بالثقة، ويتمسـك بهمـا للضنة، ويصون سمعه عن هـذه البـدع المحدثة، وصـار كـل من أراد صاحب مقالة وجد على ذلك الأصحاب والأتباع، وتـوهم أنـه ذاق حلاوة السنة والجماعة بنفـاق بدعته، وكلا أنـه كمـا ظنـه أو خطر بباله، إذ أهـل السـنة لا يرغبـون عن طـرايقهم من الاتبـاع وإن نشروا بالمناشـير، ولا يستوحشـون لمخالفـة أحـد بزخـرف قول من غرور، أو بضرب أمثال زور)(1)

ثم ذكــر النتــائج الخطــيرة الــتي أدت إليهــا منــاظرة [المبتدعة]، فقال: (فما جـني على المسـلمين جنايـة أعظم من مناظرة المبتدعة، ولم يكن لهم قهـر ولا ذل أعظم ممـا تـركهم السـلف على تلـك الجملـة يموتـون من الغيـظ كمـدا ودردا، ولا يجدون إلى إظهار بدعتهم سبيلا، حتى جـاء المغـرورون ففتحـوا لهم إليهــا طريقا، وصــاروا لهم إلى هلاك الإســلام دليلا، حــتى كثرت بينهم المشاجرة، وظهرت دعـوتهم بالمنـاظرة، وطـرقت أسـماع من لم يكن عرفهـا من الخاصـة والعامة، حـتى تقـابلت الشبه في الحجج، وبلغوا من التدقيق في اللجج، فصاروا أقرانـا

1() شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة (1/ 17)

وأخـدانا، وعلى المداهنـة خلانـا وإخوانا، بعـد أن كـانوا في اللـه أعـداء وأضـدادا، وفي الهجـرة في اللـه أعوانا، يكفـرونهم في وجـوههم عيانا، ويلعنـونهم جهـارا، وشـتان مـا بين المنزلـتين، وهيهات ما بين المقامين)[1]

وهم يستدلون لهذا التشدد بمواقف ينسبونها لأئمـة الفقـه وغيرهم لسنا ندري مدى صحتها، فمن الروايـات الـتي يرددونهـا كل حين[2]: أن أبا حنيفة سئل عما أحدث النـاس من الكلام في الأعـراض، والأجسـام فقـال: مقـالات الفلاسـفة عليـك بـالأثر وطريقة السلف وإياك، وكل محدثة فإنها بدعة.. وقال: لعن الله عمرو بن عبيد إنه فتح للنـاس الطريـق إلي علم الكلام.. وقـال محمد بن الحسن: كان أبو حنيفـة يحثنـا على الفقه، وينهانـا عن الكلام.. وقـال أبـو يوسف: العلم بـالكلام، والخصـومة جهل، والجهل بالكلام علم.. وقـال: من طلب الـدين بـالكلام تزنـدق.. وقال عبد الرحمن بن مهـدي: من طلب الكلام فـآخر أمـره إلي الزندقة.. ودخل رجل على مالـك بن أنس، فسـأله عن القـرآن. فقال لعلك من أصـحاب عمـرو بن عبيد، لعن اللـه عمـراً، فإنـه ابتـدع هـذه البـدع من الكلام، ولـو كـان الكلام علمـاً لتكلم فيـه الصحابة، والتابعون كما تكلمـوا في الأحكـام، والشـرائع، ولكنـه باطل يدل على باطل.. وقال: إيـاكم وأهـل البـدع فقيل: يـا أبـا عبد الله، وما البدع؟ قال: أهل البدع الذين يتكلمون في أسـماء الله، وصفاته، وكلامه، وعلمه، وقدرته، ولا يسكتون عمـا سـكت عنـه الصـحابة والتـابعون لهم بإحسـان.. وقـال الشـافعي: لقـد اطلعت من أهل الكلام على شيءٍ واللـه مـا توهمتـه قط، ولأن يبلى المرء بما نهى الله عنه خلا الشرك بالله خـير من أن يبتلى بالكلام.. وقـال: حكمي في أصـحاب الكلام أن يضـربوا بالجريد، ويحملوا على الإبل، ويطاف بهم في العشـائر، والقبائل، ويقـال هذا جزاء من ترك الكتاب، والسنة، وأخذ الكلام.

وغيرهـا من الروايـات الكثـيرة الـتي يتصـور السـلفية أنهم بمجـرد روايتهم لهـا يكونـون قـد قضـوا على علم الكلام قضـاء نهائيا لا حياة له من بعده.

ولم يكتف السلفية بتلك التحذيرات التي يوردونها كل حين في ذم المتكلمين الـذين يسـتعملون عقـولهم في فهم عقائـد الـدين.. وإنمـا راحـوا يسـتعملون أسـلحتهم المختلفـة في مواجهتهم، وأولها سلاحهم الذي استعملوه من أيام معاوية، وهو الاستعانة بالظلمة والمستبدين.

وسأنقل هنا نصوصا تاريخية لبعض الصراع الذي حصل بين

1() شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة (1/ 19)

2(1) الآثار التي ننقلها هنا كلها رواها العجلي في ذم الكلام وأهله ج1ص85، فما بعدها.

المتكلمين المنزهين، والسلفية المجسمين، وحتى لا أتهم بالتحيز، فإني سأنقل الأحداث كما ذكرها باحث أكاديمي من النمط الذي يحاول أن يجمع جهده بين السلفية والأكاديمية.. فيزين تلك الأباطيل السلفية ببعض الزخارف الأكاديمية [1].

أما النص الأول، فقد صور فيه كيف انتصرت الطائفة المجسمة المنصورة على الطائفة المنزهة المخذولة، وكيف استطاع أبو يعلى الفراء الحنبلي البغدادي(ت 458هـ) وكتابه التجسيمي الخطير [إبطال التأويلات] أن ينتصر على ما كتبه المتكلم المنزه أبو بكر بن فورك الأصبهاني الأشعري (ت 406هـ) الذي صنف كتابا في تأويل النصوص المتشابهة، سيرا على نهج المتكلمين.

وقد اتهمه الأشاعرة كما هو واضح في كتابه بتجسيم الله تعالى وتشبيهه بمخلوقات، وكان ذلك سنة 429هـ [2].

ثم تجدد النزاع في سنة 432هـ، وجرت بينهما مناقشات حول ما جاء في كتاب أبي يعلى، وكثر حوله الكلام، فتدخل الخليفة القائم بأمر الله (422-467هـ)، وطلب الكتاب ليطّلع عليه، فقرأه ورده لمؤلفه، وأمر بعقد اجتماع للنظر فيما حدث بين المتنازعين من خصام، فاجتمع الفقهاء ودرسوا المسألة وناقشوها، وانتهوا إلى تأييد القاضي أبي يعلى الفراء، وكتبوا في ذلك محضرا نصروه فيه، كان في مقدمتهم الزاهد أبو الحسن القزويني (ت 442هـ)، كتب فيه: (هذا قول أهل السنة، وهو اعتقادي، وعليه اعتمادي)، ثم أخرج الخليفة الاعتقاد القادري الذي كتبه والده القادر بالله، تأييدا وموافقة لمذهب أبي يعلى الفراء[3]، وهو اعتقاد يعجب به السلفية كثيرا لأنه يرضي نزواتهم التجسيمية.

ويعلق الأكاديمي السلفي على هذا الانتصار العظيم الذي نصرهم الله به، بقوله: (ويُعد هذا الاحتجاج أول محاولة جماعية علنية معروفة، قام بها الأشاعرة، انتصارا لمعتقدهم، ووقوفا في وجه الحنابلة وأهل الحديث، الذين وجدوا الدعم المطلق من الخليفة العباسي القائم بأمر الله.. لكن هذه التسوية لم يرض بها الأشاعرة-رغم تظاهرهم بها-، فأظهروا احتجاجهم مرة أخرى على نفس الكتاب سنة 445هـ، فتدخل الخليفة القائم مرة أخرى وعقد اجتماعا للمتنازعين بدار الخلافة، حضره القضاة والأعيان، وتم الصلح بين الطرفين المتنازعين، وأعلن

1() وذلك من كتاب [الأزمة العقيدية بين الأشاعرة وأهل الحديث - خلال القرنين:5-6 الهجريين- مظاهرها، آثارها، أسبابها، والحلول المقترحة لها] للباحث الدكتور خالد كبير علال - حاصل على دكتوراه دولة في التاريخ الإسلامي من جامعة الجزائر -.

2() الكامل في التاريخ، وابن تيمية: مجموع الفتاوى، ج 6 ص: 54.

3() أبو الحسين بن أبي يعلى: طبقات الحنابلة، ج 2 ص: 197، 198 .

إن القرآن كلام الله تعالى، وإن الصفات تُمر كما جاءت، وخـرج القاضي أبو يعلى مرة أخـرى منتصـرا[1].. وإعلانهم هـذا هـو رد على الأشعرية وإن لم يُسمها، فقـولهم إن القـرآن الكـريم كلام الله، يعـني إنـه ليس هـو حكايـة ولا عبـارة عنه، على حـد قـول الأشعرية، وقولهم (إن أخبار الصفات تُمر كما جاءت)، يعني إنها لا تُـؤوّل على طريقـة الأشـاعرة، وإنمـا تُثبت على ظاهرهـا بلا تشـبيه. وواضـح أيضـا إن هـذا الصـلح هـو أيضـا لم يـرض بـه الأشاعرة، لكنهم أُجبروا على قبوله والتظـاهر به، لأن الاجتمـاع لم يكن في صالحهم ورد عليهم. وهو أيضا- أي الصلح- لم يضـع حدا للأزمة العقيدية القائمة بين أهل الحـديث والأشـاعرة، ممـا يعني مزيدا من المصادمات والفتن)[2]

أما النص الثـاني، فينقـل البـاحث الأكـاديمي السـلفي فيـه حادثة أخـرى، يمجـد فيهـا سـلفه الـذين وقفـوا بشـدة في وجـه المتكلمين، وكيـف اسـتثمروا العـوام في ذلـك كمـا اسـتثمروا السلطات الحاكمة، فيقول: (الحادثة الثالثة: خصام بين الحنابلـة والأشاعرة داخـل جـامع المنصـور ببغـداد (سـنة: 461ه) انفـرد المؤرخ أبو علي ابن البناء الحنبلي، بذكر هذه الحادثة عن غـيره من المؤرخين –الذين طالعت مصـنفاتهم-، ومفادهـا إن مدرسـا أشعريا جلس ذات يوم بجـامع المنصـور ببغـداد، سـنة 461هــ، فشرع في التعريض بأهـل السـنة من الحنابلـة وأهـل الحـديث، وأشــار إلى فضــل أبي الحســن الأشــعري ومن وافقه، وأوهم الحاضرين بأن أصحاب الأثر –أي أهل الحديث- يُشبّهون صــفات الله تعالى بصفات البشر، فقام إليه بعض أهل الحـديث، وأنزلـه من على الكرسي، لكنـه عـاد إليه، فقـاموا إليـه ثانية، وكسـروا كرسيه، وعوّضوه برجل منهم[3].. ولم يـذكر ابن البنـاء تفاصـيل هــذه الحادثة، واكتفى بــالعرض الإجمــالي لها، وهي تعبــير عن الأزمة التي كانت قائمة بين مذهبي السلف والخلف، وهي أيضا محاولـة تـدخل ضـمن مسـاعي الأشـاعرة الراميـة إلى الجهـر بمقـالتهم، وإثبـات ذاتيتهم ولتحـدي الحنابلـة وأصـحاب الحـديث الــذين فرضــوا الاعتقــاد القــادري على طوائــف بغــداد بقــوة السـلطة، دون أن يجـرؤوا على الاعـتراض عليـه علانية، لكنهم كانوا يتحينون الفرص المناسبة لنصرة مذهبهم بطرقهم الخاصة الــتي تناســبهم، وقــد جــاءتهم الفرصــة الذهبيــة الــتي كــانوا ينتظرونها، فعندما تُوفي الخليفة القادر باللـه سـنة 467ه، كـان الوزير السلجوقي نظام الملـك (ت 485ه)، قـد تـولى الـوزارة

1() طبقات الحنابلة،، ج 2 ص: 198.

2() الأزمة العقيدية بين الأشاعرة وأهل الحديث، ص18.

3() ابن البناء: يوميات ابن البنا،، نشرها جورج مقدسي، في مجلة مدرسة الدراسات الشرقية والافريقية، بجامعة لندن مج19 ص 15.

في الدولة السلجوقية، وكان هو أشعري المذهب، تغيّر حالهم –بدعمه لهم- وتمكّنوا من التعبير عن مذهبهم علانية، في فتنة ابن القشيري التي أدخلت الأزمة العقدية- التي عصفت بالمذهب السني- طورا جديدا، أكثر حدة وعمقا واتساعا)(1)

أما النص الثالث، فيذكر فيه الباحث الأكاديمي السلفي حادثة عنونها بهذا العنوان الذي يصور المتكلمين الدعاة إلى تنزيه الله بكونهم أصحاب فتنة [فتنة الواعظ أبي الفتوح الإسفراييني ببغداد]

وعبر عن العمل الدعوي الذي قام به هذا المتكلم انتصارا للتنزيه في وجه التشبيه والتجسيم الذي كان ينشره السلفية بين العوام، فقال: (دخل المتكلم الواعظ أبو الفتوح محمد الإسفراييني الأشعري (ت 538هـ) بغداد سنة 515، ومكث بها مدة طويلة، فحدثت بسببه فتن كثيرة كبيرة، بينه وبين الحنابلة، لأنه جعل شعاره إظهار مذهب الأشعري وذم الحنابلة والتهجم عليهم، وفي أحد الأيام مرّ بأحد شوارع بغداد مع جم غفير من أصحابه، وفيهم من يصيح ويقول: (لا بحرف ولا بصوت، بل عبارة)، فرجمه العوام، ثم تراجموا فيما بينهم وحدثت مصادمات عنيفة أدت إلى حدوث فتنة كبيرة لم تصلنا تفاصيلها)(2)

ثم علق على هذه الحادثة بقوله: (وهذا الواعظ كان متكلما، لذا وجدنا في أصحابه من يردد مقولة أشعرية كلامية، وهي: (لا بحرف ولا بصوت، بل عبارة)، ومعناها –عند الأشعرية- إن القرآن الكريم ليس كلام الله على الحقيقة، وليس بحرف ولا بصوت، بل هو عبارة وحكاية عن كلام الله النفسي القديم الذي لا يتعدد ولا يتبعّض، ولا ينفصل عن الذات الإلهية على ما تقوله الأشعرية، وهذه المسألة هي من أسباب الأزمة العقدية التي عصفت بالمذهب السني، وهي مرتبطة بقضية الصفات، فأصبح العوام يخوضون فيها، ويرددونها كشعار للأشاعرة، وإغاضة للحنابلة وأهل الحديث، الذين يُعارضونهم في ذلك)(3)

وهكذا ذكر الأحداث الكثيرة، والتي لعب فيها العوام دورا كبيرا بسبب تلك التحريضات التي كان السلفية يقومون بها ضد المتكلمين..

ومن الأمثلة التي ذكرها على منهجه في رد اللوم على المتكلمين، واعتبارهم سبب الفتنة: (أن أحمد بن محمد سبط بن فورك (توفي قرن: 5هـ)، وعظ بالمدرسة النظامية، وكان

1() الأزمة العقدية بين الأشاعرة وأهل الحديث، ص20.

2() العبر في خبر من خبر ج 4 ص: 105.

3() الأزمة العقدية بين الأشاعرة وأهل الحديث، ص25.

أشعريا داعية لمذهبه، فتسبب في حدوث فتن بين الحنابلة والأشاعرة)[1]

ومنها أن (المتكلم عيسى بن عبد الله الغزنوي الشافعي، دخل بغداد سنة 495هـ وعظ بها وأظهر الأشعرية، فمن ذلك إنه وعظ ذات يوم بجامع المنصور وأظهر مذهب الأشعري، فمال إليه بعض الحاضرين، واعترض عليه الحنابلة، فنشب عراك بين الجماعتين داخل المسجد)[2]

ومنها أن (هذا الرجل-أي الغزنوي- مرّ ذات يوم برباط شيخ الشيوخ أبي سعد الصوفي ببغداد ليذهب إلى بيته، فرجمه بعض الحنابلة من مسجد لهم هناك، فهب أصحابه لنجدته والتفوا حوله)[3]

ومنها أن (الفقيه أبا الحسن برهان الدين علي بن الحسن البلخي الحنفي (ت 548ه)، شيخ الحنفية ببلده، قدم دمشق سنة 510ه، وعقد بها مجلس وعظ وتذكير، وأظهر فيه خلافه للحنابلة وتكلم فيهم، فتصدوا له وتعصبوا عليه، فترك دمشق وتوجه إلى مكة المكرمة)[4]

ومنها أن (الواعظ الحسن بن أبي بكر النيسابوري الحنفي، دخل بغداد مع السلطان السلجوقي مسعود (ما بين سنتي: 515-530هـ)، فجلس للوعظ بجامع القصر ولعن أبا الحسن الأشعري علانية، وكان يقول: (كن شافعيا ولا تكن أشعريا، وكن حنفيا ولا تكن معتزليا، وكن حنبليا ولا تكن مشبها)[5]

ومنها أن (الواعظ المتكلم أبا الفتوح حمد بن الفضل الاسفراييني الأشعري (ت 538هـ)، دخل بغداد سنة 515هـ، وتفرّغ للوعظ واتخذه وسيلة لإظهار مذهب الأشعري والدعوة إليه، ومهاجمة خُصومه، وقد مارس ذلك علانية وبالغ في التعصب للأشعرية والحط على الحنابلة، فكثُرت بينه وبينهم اللعنات والفتن، وفي سنة 5ـ21ه رجمه العوام أكثر من مرة في الأسواق، ورموا عليه الميتات، ولعنوه وسبوه، لمبالغته في إظهار الأشعرية والدعوة إليها، فلما سمع بذلك الخليفة العباسي المسترشد بالله، منعه من الوعظ، وأمر بإخراجه من بغداد.. لكنه لما تُوفي الخليفة رجع إلى بغداد واستوطنها، وعاد إلى عادته القديمة، فأظهر الأشعرية وذم الحنبلية، وعادت الفتن واللعنات كما كانت عليه من قبل، فأخرج ثانية من بغداد،

1() ابن حجر: لسان الميزان، ج 1 ص: 304.

2() ابن الجوزي: المنتظم، ج 9 ص: 131.

3() ابن الجوزي: المنتظم، ج 9 ص: 131.

4() ابن عساكر: تاريخ دمشق، ج 41 ص: 339.

5() ابن الجوزي: المنتظم،، ج 10 ص: 110.

وألزم بالمكوث ببلده)(6)

رابعا ـ التراث السلفي والعقلانية:

مثلما وقف سلف السلفية ذلك الموقف المتشدد من المتكلمين، فقد وقف خلفهم والمعاصرون منهم ممن يسمونهم من باب التنابز بالألقاب [عقلانيين]، وقد يسمون بعضهم [قرآنيين] نتيجة دعوتهم إلى التحاكم إلى القرآن الكريم عند الخلاف، أو [تقريبيين] نتيجة دعوتهم إلى الوحدة والتقارب بين المذاهب الإسلامية.

ومن هؤلاء المشايخ الكبار الذين تمتلئ المكتبة الإسلامية بتراثهم في الدعوة إلى الرجوع إلى الإسلام الإلهي بدل الإسلام البشري، والذين لقوا حملة شديدة من لدن السلفية: جمال الدين الأفغاني (1254 – 1315هـ)، ومحمد عبده (1266هـ – 1323هـ)، ومحمد رشيد رضا (1282-1354هـ) وعبد الرحمن الكواكبي (1270-1320هـ) وعبد القادر المغربي (1284-1376هـ) وعبد الوهاب النجار (1278-1360هـ) ومحمد مصطفى المراغي (1298 -ـ 1364هـ) وعبد المجيد سليم (1299-1374هـ) وشكيب أرسلان (1286 ـ 1366هـ) ومحمد أبو زهرة (1316-1394هـ) وعلى الخفيف (1308-1398هـ) ومحمد فريد وجدي (1295/1373هـ) وعباس العقاد (1306-1383هـ) ومحمد الغزالي (1335-1416هـ) ومحمد إقبال (1289-1307هـ) وغيرهم من علماء مدرسة الإحياء والتجديد.

ومن الأمثلة على هذه المواقف موقف المحدث السلفي الكبير الشيخ أبي عبدالرحمن مقبل بن هادي الوادعي، فقد وجه له بعضهم هذا السؤال: (نسمع كثيراً من الشيوخ يتكلمون عن محمد عبده وجمال الدين الأفغاني بأنهما قدما للإسلام خدمات جليلة، بينما البعض الآخر يقدح فيهما بأنهما ضد الإسلام وأنهما عار وشنار عليه وأنهما أصحاب المدرسة العقلية، نرجو منكم أن تعطونا صورة عنهم وعن المدرسة العقلية وحتى يكون الشباب على بينة من أمرهم؟)

فأجاب الشيخ المحدث السلفي الجليل، وكأنه يستعيد مواقف سلفه الأبطال كابن بطة والبربهاري وابن تيمية وغيرهم: (.. فجمال الدين الأفغاني قيل: إن أصله من إيران، وأنه متأفغن وليس أفغانياً بل أراد أن يلبس على الناس حتى لا يُعلم أنه إيراني، لعلمه بأن المجتمع الإسلامي يَكره الرافضة، وهو يعتبر دسيسة على الإسلام، فله مواقف سيئة، وربما بقي في روسيا وفي غيرها من البلاد الكفرية أعواماً، وهو الذي أنشأ

6() ابن الجوزي: المنتظم، ج10 ص: 110 .

مدرسة الهوى، لا أقول المدرسة العقلية، وإن كنت لعلي قد كتبت في (ردود أهل العلم على الطاعنين في حديث السحر) المدرسة العقلية، ولكني تفكرت فيما بعد، فإذا العقل الصحيح لا يخالف النقل الصحيح، فهي مدرسة الهوى، و(جمال الدين الأفغاني) و(محمد عبده المصري)، وتبعهما على ذلك (محمد رشيد رضا) نقضوا عرى الإسلام عروة عروة.. وكان (جمال الدين الأفغاني) و(محمد عبده) عملاء لأعداء الإسلام في الإطاحة بالدولة العثمانية - على ما فيها من البلاء - فهي دولة إسلامية.. وهناك كتاب بعنوان (المدرسة العقلية وأثرها في التفسير)، وكتاب (جمال الدين الأفغاني في ميزان الإسلام)، وقد ذكرت نبذة طيبة في كتاب (ردود أهل العلم في الطاعنين في حديث السحر، وبيان بُعد محمد رشيد رضا عن السلفية)، وقد حذف هذه الجملة الأخيرة صاحب المطبعة لغرض دنيوي.. والحمد لله قد عرف هذا الشباب المصري، وعرفنا أنهم لأن يلقبوا بمجددي الضلال أولى من أن يلقبوا بمجددي الإسلام، وبعض الناس يقولون: إن (جمال الدين الأفغاني) و(محمد عبده المصري) دخلا في الماسونية من أجل أن يعرفا ما فيها، وبعض الناس يقولون: إنهما دخلا في الماسونية ثم تابا، فأين الأدلة على هذا وذاك، إنهزاميان، أقل أحوالهما أنهما انهزاميان، ولا أقول أنهما انهزاميان، بل ضالان مضلان، وآله لأعداء الإسلام في هدم الإسلام)(1)

ويقول في موضع آخر مبينا موقفه المتشدد من الشيخ محمد رشيد رضا على الرغم من كونه يشاركه في تعظيم السلف، وفي الاهتمام بالحديث، وفي الموقف السلبي من الوحدة الإسلامية والتعايش بين المذاهب الإسلامية: (هذا ومما ينبغي أن يعلم أنه ليس بيني وبين محمد رشيد عداوة دنيوية، فهو شاميّ وأنا يمنيّ، وكلانا يجمعنا الإسلام، ولكني رأيت له ولجمال الدين الأفغاني ولمحمد عبده ومن سلك مسلكهم أخطاءً اشمأز منها قلبي، ورأيت أنه لا يجوز السكوت عليها، وأنا بحمد الله أعلم أنه ردّ على كثير من المبتدعة، منهم الرافضة فقد رأيت الرافضي الأثيم محسن أمين العاملي في كتابه (كشف الارتياب في أتباع محمد بن عبد الوهاب) ذلك الكتاب الذي يدعو إلى الوثنيّة، رأيته فيه يرد على محمد رشيد رضا، ويتوجع من ردود محمد رشيد رضا عليهم، لكني أريد أن أبيّن أن الرجل ليس ملتزمًا بمذهب السلف الذي هو قبول ما جاء عن الله وعن رسوله ﷺ، من غير تأويل ولا تحريف ولا تعطيل ولا تضعيف لأحاديث صحيحة، ولا تصحيح لأحاديث ضعيفة، وقد

(1) تحفة المجيب ص 211.

تقدمت بعض الآيات وتحريفها عما يخرجها عن تفسير السلف.. فإن قلت: أيهم أضر على الإسلام محمد عبده وجمال الدين الأفغاني، أم محمد رشيد رضا؟ قلت: محمد رشيد رضا، لأنه عالم بعلم الحديث، فهو يستطيع أن يلبّس على الجهال بعلم السنة ولذا فقد أكثر النقل عنه أبوريّة في ظلماته، ولما سئل عن ذلك قال ما معناه: إن محمد رشيد رضا عالم كبير ومشهور بالسلفية فأحب أن يكون كلامي مقبولاً)(1)

ويذكر من أسباب تهجمه عليه: (قدحه في كعب الأحبار ووهب بن منبه (2) وهو لم يسبق إلى هذا، اللهم إلا قول معاوية رضي الله عنه في كعب الأحبار: إنه يكذب، ولكنه مؤول على أنه بمعنى الخطأ، كما في الفتح(3).. ووهب وثقه أبوزرعة والنسائي، وقال عمرو بن علي: كان ضعيفًا كما في تهذيب التهذيب، ووهب من رجال الشيخين، وكعب الأحبار روى له البخاري تعليقًا، ومسلم موصولاً، كما ذكره الحافظ في تهذيب التهذيب) (4)

وهكذا لا ينجو من معاول الهدم السلفية أي أحد حتى لو شاركهم في كل شيء، وخالفهم في شيء واحد، وخاصة إن كان ممن يستعمل عقله، فإنه لا محالة سيصطدم معهم طال الزمن أو قصر.

ثم يذكر الشيخ الوادعي آثار الحملة السلفية على دعاة الإحياء والتجديد، فيقول: (وفي هذا الزمن شاع وذاع أن جمال الدين الأفغاني، ومحمد عبده المصري، ومحمد رشيد رضا، من المجددين وأنّهم علماء الفكر الحر، فقام غير واحد من المعاصرين ببيان ضلالهم وأنّهم مجدّدون للضلال وترهات الإعتزال فعلمت حقيقتهم، وصدق الله إذ يقول: ﴿فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ﴾ [الرعد: 17]، فصارت معرفة ضلالهم كلمة إجماع بين أهل السنة، لكن محمد رشيد رضا لم يوفّ حقه واغترّ بعض الناس ببعض كلماته في الردود على بعض أهل البدع، وما يدري أن عنده من البدع والضلال ما يقاربهم، ولقد صدق مروان بن محمد الطاطري إذ يقول كما في ترجمته من (ترتيب المدارك) للقاضي عياض: ثلاثة لا يؤتمنون: الصوفي والقصاص والمبتدع يرد على المبتدعة)(5)

ثم يذكر بعض النماذج التي أخرج الشيخ رشيد رضا بسببها

1() قمع المعاند 2 / 332.
2() المنار (ج9 ص480)
3() الفتح (ج13 ص346)
4() قمع المعاند 2 / 332.
5() قمع المعاند 2 / 333.

من السلفية والسنية، فقال: (وكون محمد رشيد خالف أستاذه بعد وفاة أستاذه كما ذكره في المنار[1].. فهل أقصر عن رد الأحاديث التي لا توافق هواه؟ الجواب: لا، فقد انتهى شيخه محمد عبده عند تفسير: ﴿ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُحِيطًا ﴾ [النساء: 126] ثم مشى على تضعيف ما لم يوافق هواه، وهل تراجع عن الأحاديث التي وافق شيخه على تضعيفها، وكان الواجب عليه أن ينبّه في أثناء التفسير وعند مناسبات المواضيع من الأحاديث)[2]

وهو يذكر جهاده كجهاد إخوانه من السلفية في الرد على العقلانيين فيقول: (كنت أحذر من أئمة الضلال وذكرت منهم جمال الدين الإيراني المتأفغن، ومحمد عبده المصري، ومحمد رشيد رضا، وكان ذلك بمسجد (النزيلي) بصنعاء، وبعد أيام التقيت بأخ محب للخير فنصحني أن لا أذكرهم فإنّهم قدموا خدمات جليلة للإسلام، ولم يكن الوقت متسعًا لتفهيم الأخ ببعض ضلالهم.. وفى أخرى كتب إليّ من مصر بعض الإخوة يقول: إنه قيل له: لم ذكرت محمد رشيد في الصحيح المسند من دلائل النبوة؟ وشاركته مع أولئك في الضلال، وهو معروف بالسلفية، فكتبت للأخ: إقرأ كتابه المنار الذي هو بالظلام أشبه، وكذا مجلة المنار، وستقول إن شاء الله: أف لهذه السلفية، ستجده بعيدًا عن السلفية، والسلفية بعيدة عنه، فأنا أحيل طلبة العلم الذين قد عرفوا الحق من الباطل أن يرجعوا إلى كتبه، وأنا متأكد أنّهم سيعلمون أنه بريء من السلفية، والسلفية بريئة منه)[3]

هذه بعض مواقف شيخ واحد من مشايخ السلفية.. ولتأكيد هذا سأنقل مواقف شيخ آخر لا يزال حيا يرزق، ولا يزال أتباعه الكثيرون يجثون على بابه في كل بلاد العالم الإسلامي، يشيدون به وبمآثره في إحياء التجريح السلفي، الذي حاول البعض إماتته بمعايير الموازنات وتحمل الأخطاء.

وهذا العلم الكبير هو الشيخ ربيع بن هادي عمير المدخلي (ولد عام 1351 هـ)، وقد لقي من السلفية بسبب ردوده الكثيرة على الكثير من الأعلام حتى من المدرسة السلفية نفسها إقبالا شديدا، فقد كتب في الرد على سيد قطب وحده بسبب فكره العقلاني الكثير من الكتب منها (أضواء إسلامية على عقيدة سيد قطب وفكره)، و(مطاعن سيد قطب في أصحاب رسول الله ﷺ)، و(العواصم مما في كتب سيد قطب

(1) المنار ص(16)
(2) قمع المعاند 2 / 332.
(3) قمع المعاند 2 / 332.

من القواصم)

وكتب في الرد المتشدد على غيره حتى لو كانوا سلفية (الحد الفاصل بين الحق والباطل حوار مع بكر أبو زيد)، و(مجازفات الحداد)، و(المحجة البيضاء في حماية السنة الغراء)، و(جماعة واحدة لا جماعات وصراط واحد لا عشرات: حوار مع عبد الرحمن عبد الخالق)، و(النصر العزيز على الرد الوجيز)، و(التعصب الذميم وآثاره. عني به سالم العجمي)، و(بيان فساد المعيار، حوار مع حزبي متستر)، و(التنكيل بما في توضيح المليباري من الأباطيل)، و(دحض أباطيل موسى الدويش)، و(إزهاق أباطيل عبداللطيف باشميل)، و(انقضاض الشهب السلفية على أوكار عدنان الخلفية) وغيرها من الكتب.

ومن بين هذه الكتب التي تناول فيها من يسميهم العقلانيين بسبب موقفهم من أحاديث الآحاد كتابه [حجية خبر الآحاد في العقائد والأحكام]، والذي قدح فيه بشدة على كل من يستعمل القرآن الكريم أو يستعمل عقله في تضعيف الأحاديث التي تسيء إلى الإسلام، أو يحاول أن يفهم القرآن الكريم بما هداه إليه تدبره فيه.. أو يستعمل عقله لأي غرض من الأغراض.

وحتى نعرف جيدا منهج النقد والنقض التي يقوم به السلفية للتفكير العقلاني، سأسوق هنا ردود الشيخ ربيع على بعض ما قاله الشيخ جمال الدين الأفغاني، لنقارن بين عقل الراد والمردود عليه، ونرى تهافت السلفي حين يضرب عملاقا كالأفغاني بقزم كربيع.

فمن النصوص التي ساقها الشيخ ربيع عن الأفغاني، واعتبرها من ضلالاته قوله: قرأت في القرآن أمراً تغلغل في فهمه روحي وتنبهت إليه بكليتي وهو ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً ﴾ [البقرة: 30]،ـ فاندهشت الملائكة لهذا النبأ ولهذه المشيئة الربانية إذ علمت أن ذلك الخليفة سيكون الإنسان، وأن ذلك الإنسان - الخليفة- سيصدر منه موبقات وسيئات، أعظمها وأهمها أنه ﴿ يَسْفِكُ الدِّمَاءَ﴾ [البقرة: 30]،ـ فقالت بملء الحرية المتناسبة مع الملأ الأعلى وعالم الأنوار والأرواح الذي لا يصح أن يكون هناك شيء من رياء ونفاق: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ﴾ [البقرة: 30]،ـ ووقفت الملائكة عند هذا الحد من الطعن في الإنسان ولم تذكر باقي السيئات من أعماله إذ رأتها لغواً بالنسبة لهذين الوصمين الفساد وسفك الدماء)(1)

ومع أن هذا الكلام لا شيء فيه، وهو يبين حرمة الدماء،

(1) حجية خبر الآحاد في العقائد والأحكام (ص34)

وخطر سفكها، وقيمة الإنسان، ومع ذلك لم يرق هذا للشيخ ربيع، واعتبره من ضلالته.

وهكذا علق على قوله: (وبأبسط المعاني إن الله تعالى أفهم الملائكة أنكم علمتم ما في خليفتي في الأرض وهو الإنسان من الاستعداد لعمل الفساد وسفك الدماء، وجهلتم ما أعددته لصونه وصرفه عن الإتيان بالنقيصتين المذكورتين ألا وهو العلم فقال: ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [البقرة: 31]) بقوله: (وهذا تفسير ديمقراطي، كأن الملائكة حزب معارض) (1)

وهكذا اعتبر من مآخذه الكبيرة قوله في تدبر ما ورد في القرآن الكريم عن سليمان عليه السلام في سورة النمل: (غضب سليمان -عليه السلام- على الهدهد إذ تفقده ولم يجده فلما حضر قال: ﴿وَجِئْتُكَ مِنْ سَبَأٍ بِنَبَأٍ يَقِينٍ﴾ (النمل: 22)، غير ملفق ولا مشوب بالكذب كما تفعل أكثر الجواسيس مع الملوك والحكام ﴿إِنِّي وَجَدْتُ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ﴾ (النمل: 23).. فلما جاء الكتاب إلى ملكة سبأ جمعت فوراً مجلس الأمة ﴿ قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلأُ أَفْتُونِي فِي أَمْرِي مَا كُنْتُ قَاطِعَةً أَمْراً حَتَّى تَشْهَدُونِ﴾ (النمل: 32)، وبعد أن تداول مجلس الأمة - الوزراء اليوم مثلاً- واستخرجوا إحصاءً من سجلاتهم بما عندهم من المعدات الحربية أعلنوا للملكة وأنبؤوها أنه في إمكانهم محاربة سليمان بما توفر لديهم من القوة إذا هي وافقت على إعلان الحرب ﴿قَالُوا نَحْنُ أُولُو قُوَّةٍ وَأُولُو بَأْسٍ شَدِيدٍ وَالأَمْرُ إِلَيْكِ فَانْظُرِي مَاذَا تَأْمُرِينَ﴾ (النمل: 33).. فرد سليمان الهدية وتحفز لإخراج الملكة وقومها أذلة بالحرب وأراد أن يريها ما لديه من القوى وما تسخر له من الريح يمتطيها وتجري بأمره -طيارات مثلاً- وسرعة نقل الأخبار والأشياء -التلغراف اللاسلكي مثلاً)(2)

فهذه القراءة التي حاول فيها الشيخ جمال الدين الأفغاني أن ينزل المعاني القرآنية إلى الواقع، اعتبرها الشيخ ربيع من الشطحات والضلالات، لأنه رغب عن تفسير السلف المملوء بالأساطير إلى هذا التفسير العقلاني.

ومن مآخذه على الشيخ جمال الدين الأفغاني قوله في تفسير قوله تعالى: ﴿فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً﴾ [النساء: 3] بأنه (قيد من خاف أن لا يعدل بالمرأة الواحدة وترك لمن يخشى أن لا يعدل -حتى مع المرأة الواحدة- عدم الزواج وهذا

1() حجية خبر الآحاد في العقائد والأحكام (ص34)
2() حجية خبر الآحاد في العقائد والأحكام (ص36)

ما يستنتجه العقل مادام يحمله العاقل ويقول به الحق والعدل)(1)

وهذا طبعا لا يعجب الشيخ ربيع، ولا جميع مشايخ السلفية، لأنهم يتصورون حريتهم المطلقة في عالم النساء، اقتداء بما يصورونه عن الأنبياء عليهم السلام، وبناء على أن سلفهم استطاع أن يحتال لهم على العدالة التي شرطها القرآن الكريم بفنون من الحيل جعلتها لا قيمة لها، بل جعلتها لا تختلف عن الجور نفسه.

ومن مآخذه على الشيخ جمال الدين الأفغاني قوله في تفسير قوله تعالى: ﴿وَتَرَى الْأَرْضَ بَارِزَةً وَحَشَرْنَاهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا﴾ [الكهف: 47]: (أي خارجة عن محورها غير راضخة للنظام الشمسي، وإذا ما حصل ذلك فلا شك يختلف ما عرف من الجهات اليوم فيصير الغرب شرقاً والجنوب شمالاً، وبذلك الخروج عن النظام الشمسي وما يحدث من الزلزال العظيم، لا شك تتبعثر الأرض لبعدها عن المركز، وتنسف الجبال نسفاً، وتتحول براكين هائلة، وبالنتيجة تخرب الكرة الأرضية ويعمها الفناء بما فيها من الحيوان وتقوم القيامة والله أعلم)(2)

ومع كون هذا مجرد اجتهاد من الشيخ، وهو أفضل بكثير من تلك الخرافات التي يسوقها سلف السلفية وخلفهم، إلا أن الشيخ ربيع رد على هذا بشدة، وقال: (.. ولماذا يتحدث على الطريقة الغربية لا على الطريقة الإسلامية المستمدة من القرآن -الذي يرى أنه وحده كتاب الهداية- فلماذا لا يهتدي به؟!. وهل يرى أزلية أو أبدية الكون فلا يلحقه التغير الذي تحدث عنه القرآن وآمن به المؤمنون؟!)(3)

ومن مآخذه عليه ــ وهي نفس مآخذ السلفية على كل دعاة التحرر ــ قوله، وهو يخاطب المصريين داعيا لهم إلى التحرر من نير الاستعباد: (إنكم معاشر المصريين قد نشأتم في الاستعباد وربيتم بحجر الاستبداد وتوالت عليكم قرون منذ زمن الملوك الرعاة حتى اليوم وأنتم تحملون عبء نير الفاتحين وتعنون لوطأة الغزاة الظالمين تسومكم حكوماتكم الحيف والجور، وتنزل بكم الخسف والذل، وأنتم صابرون بل راضون، وتنتزف قوام حياتكم ومواد غذائكم المجموعة بما يتحلب من عروق جباهكم بالمقرعة والسوط.. تناوبتكم أيدي الرعاة ثم اليونان والرومان والفرس ثم العرب والأكراد، والمماليك، ثم الفرنسيين والمماليك والعلويين كلهم يشق جلودكم بمبضع نهمه ويهيض عظامكم بأداة عسفه وأنتم كالصخرة الملقاة في

1() حجية خبر الآحاد في العقائد والأحكام (ص36)
2() حجية خبر الآحاد في العقائد والأحكام (ص36)
3() حجية خبر الآحاد في العقائد والأحكام (ص38)

الفلاة لا حس لكم ولا صوت، انظروا أهرام مصر وهياكل منفيس وآثار ثيبة ومشاهد سيون وحصون دمياط شاهدة بمنعة أجدادكم. وتشبهوا إن لم تكونوا مثلهم إنّ التشبه بالرشيد فلاح) (1)

ومع كون هذا حقيقة لا يمكن تفنيدها، لكن بسبب تقديس السلفية للتاريخ الإسلامي وللمستبدين خصوصا، اعتبروا أي نقد له، ولأولئك المستبدين الذين جلدوا ظهور الناس وملأوا حياتهم بأنواع الغصص نقدا للإسلام نفسه.

فلذلك يعلق عليه بقوله: (انظر كيف اعتبر الفتح الإسلامي دخول مستعمرين مستبدين لا يفرق بينه وبين الاستعباد والاستبداد اليوناني والروماني إلخ. وانظر كيف يشيد بحضارة الفراعنة ويحض المصريين على الاعتزاز بها، ورؤية الفلاح والرشد في التشبه بهم. إنّه لا يستغرب مثل هذا المكر والموقف من الإسلام من رجل فيلسوف رافضي ماسوني، وإنما المستغرب أن يكون له أتباع في بلاد الإسلام من مفكرين ومفسرين يعظمونه ويسيرون على منواله إن لم يكن في كل شيء ففي أصول ومناهج أثخنت في الإسلام والمسلمين) (2)

ومن مآخذه التي أخذها عليه ـ كما يعبر ـ اعتباره (سبب الهداية هو القرآن وحده وهو وحده العمدة)، وذلك عند قوله: (القرآن وحده سبب الهداية، أما ما تراكم عليه وتجمع حوله من آراء الرجال واستنباطهم ونظرياتهم، فينبغي ألا نعول عليه كوحي وإنما نستأنس به كرأي، ولا نحمله على أكفنا مع القرآن في الدعوة إليه وإرشاد الأمم إلى تعاليمه، لصعوبة ذلك وتعسره وإضاعة الوقت في عرضه، ألسنا مكلفين بالدعوة إلى الإسلام وحمل الأمم على قبوله؟ وهل تمكن الدعوة من دون ترجمة تعاليم الإسلام إلى لغة الأقوام الذين ندعوهم؟ هل في طاقة سكان البرازيل -مثلاً- إذا أردنا دعوتهم إلى الإسلام أن يفهموا كنه الإسلام من ترجمة علماء الإسلام وآرائهم المتشعبة في تفسير القرآن والحديث؟ ألق نظرك على فهرست أحد الكتب الدينية الكبرى، وتأمل فيها ما الذي يمكن عرضه والدعوة إليه من أحكامه وتعاليمه وما لا يمكن تجد أن ما لا يمكن العمل به ولا الدعوة إليه ولا تطبيق مفاصلة أصبح عبئاً يجب الاستغناء عنه بما يمكن والممكن هو ما في القرآن وحده) (3)

وهذا الكلام المنطقي الجميل العظيم لا يعجب السلفية، لأنهم لا يريدون من القرآن الكريم سوى تلك الحسنات التي

(1) حجية خبر الآحاد في العقائد والأحكام (ص39)
(2) حجية خبر الآحاد في العقائد والأحكام (ص39)
(3) حجية خبر الآحاد في العقائد والأحكام (ص39)

ينالونها منه عند تلاوته، أو تلك الأموال التي ينالونها عند استخدامه في الرقية والصراع مع الجن.. أما التحاكم إليه شؤون الحياة وفي كل شيء، فهو مشروط عندهم بفهم السلف.. أو بعباره أخرى أدق، كلام السلف يغني عن القرآن الكريم.. والقرآن الكريم لا يغني عن السلف.

ولهذا علق على تلك الجواهر التي نطق بها الأفغاني في وقت كان فيه العالم الإسلامي مملوءا بكل أنواع التخلف والخرافة، بقوله: (وهذا فيه صرف الناس عن السنة النبوية التي لا يفهم كثير من نصوص القرآن ولا يمكن تطبيقها إلا بالسنة المبينة لمجملاته والمخصصة لعموماته والمقيدة لمطلقاته والمتحدثة عن كثير مما سكت عنه القرآن، كما هو إلغاءٌ لتفسير أئمة الإسلام، ومن سار على نهجهم من أعلام الأمة في فهم القرآن ومعرفة معانيه ومقاصده ومراميه... إن الرجل يريد أن يفك ارتباط المسلمين بسنة نبيهم ﷺ وتراث سلفهم الصالح ثم ربطهم بضلالاته وخرافاته بما فيها من إلحاد وهدم للإسلام تلك الطوام التي أسلفنا الإشارة إليها قريباً. هذا هو مغزى هذا الرجل ومن وراءه من الاستعماريين والماسونيين، وبهذا القول أخذ منكرو السنة النبوية) (1)

هذه نماذج عن المسائل الكبرى التي اعتبرها الشيخ ربيع شطحات لجمال الدين الأفغاني، وبسببها اعتبره مهرطقا وزنديقا..

وهو يكيل نفس التهم للشيخ محمد عبده الذي لم يسلم هو الآخر من تجريحه مع كونه مصريا، وليس إيرانيا، وسنيا وليس شيعيا.. لأن السلفية يغيرون سيوفهم التي يطعنون بها العقلاء والعلماء بحسب الأحوال، فهذا هو حظهم الوحيد من العقل.

يقول الشيخ ربيع في التقديم للشطحات التي تصور أن محمد عبده وقع فيها: (وحامل لواء هذه المدرسة ومرسخ جذورها هو محمد عبده المصري الذي ضخمه النافخون في كير هذه الفتنة الكبيرة فسموه بالأستاذ الإمام فإنّ له مقالات تدل على فساد عقيدته وقبح منهجه)(2)

ثم أخذ يسرد هذه المقولات، وأولها قوله: (كنت فيمن دعا الأمة المصرية إلى معرفة حقها على حاكمها وهي هذه الأمة لم يخطر لها هذا الخاطر على بال من مدة تزيد على عشرين قرناً، دعوناهم إلى الاعتقاد بأن الحاكم وإن وجبت طاعته هو من البشر الذين يخطئون وتغلبهم شهواتهم، وأنه لا يرده عن

1() حجية خبر الآحاد في العقائد والأحكام (ص39)
2() حجية خبر الآحاد في العقائد والأحكام (ص40)

خطئه ولا يوقف طغيان شهوته إلا نصح الأمّة له بالقول والفعل، جهرنا بهذا القـول والاسـتبداد في عنفوانه، والظلم قـابض على صولجانه، ويد الظالم من حديد، والنّاس كلّهم له عبيد أي عبيد) (1)

ثم عقب عليـه بقوله: (أقـول: سـبحان الله!! دخلت مصـر في الإسلام في مطالع القرن الأول الهجـري ونعمت بـه طـوال أربعة عشر قرناً، فلم تعرف طوال هذه الفترة ولم يخطر ببـال علمائها ومفكريها وطلاب العلم حتى العوام حقهـا على الحـاكم حتى جاء محمد عبده وعرفها هذا الحق!!، لعل هذا الحق الـذي عرفه محمـد عبـده من غـير الإسـلام أليس الإسـلام قـد عـرف الأمة حقها على الحاكم وحق الحاكم عليهـا وحقـوق المسـلمين بعضـهم على بعض وحقـوق سـائر البشـر بـل حقـوق البهـائم والطيور؟)(2)

وهكذا اعتبر من (كوارثـه المزلزلـة للإسـلام وأهله: دعوتـه إلى التقريب بين الأديان السماوية، فبعد عودته من فرنسـا إلى بيروت أنشأ جمعيـة سياسـية دينيـة سـرية هـدفها التقـريب بين الأديان الثلاثة السماوية (الإسلام واليهوديـة والنصـرانية) وإزالـة الشـقاق من بين أهلها، والتعـاون على إزالـة ضـغط أوربـا عن الشرقيين، ولا سيما المسلمين منهم وتعريـف الإفـرنج بحقيقـة الإسلام وحقيته من أقرب الطـرق.. وكـان الشـيخ محمـد عبـده صاحب الرأي الأول في موضوعها ونظامها.. ودعا أعضاؤها إلى فكرتهم في صحفهم ورسائلهم) (3)

وعلـق على هـذا الموقـف النبيل، والـذي يتماشـى مـع مـا يدعو إليه القـرآن الكـريم من تلاحم بين الإنسـانية وتوحـد بينهـا على القيم الرفيعة، بقوله: (ولا نـــدري إلى أي إســـلام يـــدعى الإفرنج؟ أهو الإسلام الذي جاء بـه محمـد ﷺ الـذي أدان اليهـود والنصارى وعقائدهم بالكفر والشـرك؟ أم المـزيج المـركب من الـرفض والماسـونية وغيرهـا من الضـلالات الـتي تحملهـا هـذه الجمعية) (4)

هذه مجرد نماذج عن الردود الـتي يدنـدن حولهـا السـلفية عند نقدهم لكل مفكر حر يريد أن يحرر الأمـة من نـير التخلـف الذي أوقعه فيه سلفها، ويريد أن يظهر الإسلام بصورته الجميلة الناصـعة المتسـامحة، والـتي يقـف السـلفية حجـر عـثرة دون تحققها، لأن تحققها يعني انهيار المشـروع الشـيطاني في هـذه الأمة، ولا يمكن للسـلفية أن يعيشـوا مـع انهيـاره، لأنهم أبـرز

1() تاريخ الأستاذ الإمام لمحمد رشيد رضا (1/12)
2() حجية خبر الآحاد في العقائد والأحكام (ص40)
3() حجية خبر الآحاد في العقائد والأحكام (ص40)
4() حجية خبر الآحاد في العقائد والأحكام (ص42)

أعمدته.

التراث السلفي.. والعلوم الكونية

نريد بالعلوم الكونية في هذا الفصل كل العلوم التي تتعلق بالتعرف على الكون والحياة والإنسان والظواهر المرتبطـة بها، وهي علـوم ورد في القـرآن الكـريم الكثـير من الحـديث عنها، والدعوة إلى الاهتمام بها، بل إن الآيات المرتبطة بها ـ كما يذكر بعض الباحثين ـ تشكل ما يقارب خمس القرآن الكـريم، فهنـاك أكـثر من (1200) آيـة قرآنيـة على الأقـل تشـير إلى المعـارف العمليـة المختلفة، وكـل آيـة منهـا تشـير إلى حقـائق الوجـود الكبرى التي استغرقت من البشر قرونا طويلـة للوصـول إليها.. ولكن القرآن الكريم يعطيها لنا بسهولة ويسر، ويربطها بحقائق الوجود جميعا.

وقـد أشـار القـرآن الكـريم إلى ذلـك في قولـه تعـالى: ﴿ سَـنُرِيهِمْ آيَاتِنَـا فِي الآفَـاقِ وَفِي أَنفُسِـهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَـقُّ أَوَلَمْ يَكْـفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُـلِّ شَـيْءٍ شَـهِيد ﴾ [سـورة فصلت: 53]،ـ فهذه الآية الكريمة واضحة الدلالة على وعد اللـه لعباده بأن يكشف لهم في مستقبل أيـامهم عن حقـائق الآفـاق والأنفس.. وهي واضـحة الدلالـة أيضـا على أن تلـك الحقـائق تنسجم مع القـرآن الكـريم انسـجاما تاما، بـل إنهـا ستشـهد لـه بالحق، وتدل على مصدره الإلهي، وسبب ذلك أن الله على كـل شيء شهيد.. ولذلك يسـتحيل أن تتنـاقض المعـارف المكتشـفة مع المعارف التي أنزلها الله على عباده في كتابه.

وقد أشار القرآن الكريم إلى هذه الحقيقة العظيمـة قولـه تعـالى: ﴿ وَقُـلِ الْحَمْـدُ لِلَّهِ سَـيُرِيكُمْ آيَاتِـهِ فَتَعْرِفُونَهَـا وَمَـا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُون ﴾ [سورة النمل: 93]

بل أخبر في مواضع مختلفة أن الزمن كفيل بأن يوضح من الحقائق القرآنية ما لم يكن مدركا في الـزمن الـذي أنـزل فيـه القرآن، قال تعالى: ﴿ لِّكُلِّ نَبَإٍ مُّسْتَقَرٌّ وَسَوْفَ تَعْلَمُون ﴾ [سورة الأنعـام: 67]،ـ وقـال: ﴿ وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَـأَهُ بَعْـدَ حِين ﴾ [سـورة ص: 88]

بل أشار الله تعالى إلى تأثير الحقـائق القرآنيـة في هدايـة أهل العلم، فقال: ﴿ وَيَرَى الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ الَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ هُوَ الْحَقَّ وَيَهْدِي إِلَى صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ﴾[سـبأ: 6]

وهكـذا نجـد القـرآن الكـريم يـدفعنا دفعـا للبحث العلمي لاكتشـاف حقـائق الكـون، للاسـتفادة منهـا أولا، وللتعـرف من خلالها على إبداع الخالق سبحانه وتعـالى، لأن اللـه لا يعـرف إلا بـالعلم، كمـا قـال تعـالى: ﴿ فَـاعْلَمْ أَنَّهُ لا إِلَـهَ إِلا اللَّهُ ﴾[محمد:

19]، وكما أخبر عن أصناف عباده العارفين به، فذكر منهم أولو العلم، فقال: شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلا هُوَ وَالْمَلائِكَةُ وَأُوْلُوا الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لا إِلَهَ إِلا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ [آل عمران: 18]

وبناء على هذا يأمرنا الله تعالى بالنظر في كل الكائنات التي أبدعها لنزداد قربا منه، ومعرفة به، وخشية له، قال تعالى: أَلَمْ تَرَى أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنْ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا وَمِنْ الْجِبَالِ جُدَدٌ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ وَمِنْ النَّاسِ وَالدَّوَابِّ وَالأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ كَذَلِكَ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ [فاطر: 27ـ 28]، فهذه الآيات الكريمة لم تذكر خشية العلماء لله أثناء ذكرها لأحكام الشريعة، وإنما ذكرتها في معرض بيان آيات الله في السموات والأرض، لتبين أن كمال الخشية يكون في تلك الرؤية المفصلة لآيات الله في الكون.

ولهذا فإن الله سبحانه وتعالى عندما ذكر أولي الألباب، وتوجههم إلى الله بالعبودية قدم الفكر في السموات والأرض على الذكر والعبادة نفسها، فقال: إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلاَفِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ لِّأُوْلِي الألْبَاب [سورة آل عمران: 190].

بل إننا لو طبقنا مقاييس الفقهاء والأصوليين على الآيات الكريمة التي تتعلق بهذه الجوانب، فإننا نجد الحكم بالوجوب على تعلم هذه الحقائق، فالله تعالى يأمر فيها عباده بالنظر والتفكر في كونه، قال تعالى آمرا بالنظر: قُلْ انْظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ [يونس: 101]، وقال آمرا بالسير: قُلْ سِيرُوا فِي الأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ [العنكبوت: 20]

وبناء على هذه التوجيهات الإلهية المقدسة نشأ اهتمام المسلمين بالعلوم المختلفة، والذي تشكل منه بنيان الحضارة الإسلامية الحقيقي، وهو البناء المعتمد على البحث والنظر والفكر والتأمل واستعمال كل الأدوات لاكتشاف الحقائق الكونية في مجالاتها المختلفة.

وقد أشار الغزالي إلى سر ذلك، وارتباطه بالقرآن الكريم، فذكر في كتابه (جواهر القرآن) قبل أن تفتح خزائن العلوم التي فتحت في عصرنا أن العلوم كلها متشعبة من القرآن، فقال: (ثم هذه العلوم ما عددناها وما لم نعدها ليست أوائلها خارجة عن القرآن، فإن جميعها مغترفة من بحر واحد من بحار معرفة الله تعالى، وهو بحر الأفعال، وقد ذكرنا أنه بحر لا ساحل له، وأن البحر لو كان مدادا لكلماته لنفد البحر قبل أن

تنفد) (1)

ثم ضرب أمثلة على ذلك، ومنها (الشفاء والمرض، كما قال الله تعالى حكاية عن إبراهيم عليه السلام: ﴿ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴾ [سورة الشعراء: 80]، وهذا الفعل الواحد لا يعرفه إلا من عرف الطب بكماله، إذ لا معنى للطب إلا معرفة المرض بكماله وعلاماته، ومعرفة الشفاء وأسبابه) (2)

ومنها (أفعاله تبارك وتعالى في تقدير معرفة الشمس والقمر ومنازلهما بحسبان، وقد قال الله تعالى: ﴿ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ ﴾ [سورة الرحمن: 5] وغيرها من الآيات.. ولا يعرف حقيقة سير الشمس والقمر بحسبان، وخسوفهما وولوج الليل في النهار، وكيفية تكور أحدهما على الآخر، إلا من عرف هيئات تركيب السماوات والأرض، وهو علم برأسه) (3)

وهكذا ذكر أنه لا يعرف كمال معنى قوله تعالى: ﴿ يَاأَيُّهَا الْإِنْسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ (6) الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ (7) فِي أَيِّ صُورَةٍ مَا شَاءَ رَكَّبَكَ (8) ﴾ [الانفطار: 6 ـ 8] إلا من عرف تشريح الأعضاء من الإنسان ظاهرا وباطنا، وعددها وأنواعها وحكمتها ومنافعها، وقد أشار في القرآن في مواضع إليها، وهي من علوم الأولين والآخرين، وفي القرآن مجامع علم الأولين والآخرين) (4)

وهكذا نجد الأئمة من أهل بيت النبوة وورثة الكتاب يهتمون بالعلوم الكونية، ويدعون تلاميذهم إلى تعلمها، فقد كان جابر بن حيان الذي يعتبر أول من اشتغل بالكيمياء القديمة ونبغ فيها، وكانت له اكتشافاته المهمة التي أقر له بها الغرب والشرق، تلميذا بسيطا من تلاميذ الإمام جعفر الصادق، قال اليافعي في [مرآة الجنان] فيمن توفي عام 148هـ: (وفيها توفي الامام السيد الجليل سلالة النبوّة ومعدن الفتوّة، أبو عبد اللّه جعفر الصادق، ودفن بالبقيع في قبر فيه أبوه محمّد الباقر، وجدّه زين العابدين وعمّ جده الحسن بن علي رضوان اللّه عليهم أجمعين، وأكرم بذلك القبر وما جمع من الأشراف الكرام أُولي المناقب، وإنما لقّب بالصادق لصدقه في مقالته، وله كلام نفيس في علوم التوحيد وغيرها، وقد ألّف تلميذه جابر بن حيّان الصوفي كتاباً يشتمل على ألف ورقة يتضمّن رسائله وهي خمسمائة رسالة)(5)

وهكذا نجد الإمام الرضا يترك رسالة مميزة في الطب،

1() جواهر القرآن (ص: 45)
2() جواهر القرآن (ص: 45)
3() جواهر القرآن (ص: 45)
4() جواهر القرآن (ص: 46)
5() مرآة الجنان (1: 304)

يقدم لها الطبيب الكبير المعروف الدكتور محمد علي البار بقوله: (تتميز هذه الرسالة بأنها أول رسالة في الطب يكتبها عربي مسلم.. ولم تكتب قبلها سوى رسائل مترجمة من اليونانية والسريانية.. وإذا علمنا أن الرضا توفي سنة 203 ﻫ وأنه كتب هذه الرسالة عندما استقدمه المأمون من المدينة إلى خراسان (أي أنها كتبت في حدود سنة 200 ﻫ).. ولا تعتبر هذه أول رسالة في الطب يكتبها مسلم فحسب، بل تعتبر أول رسالة في الطب تؤلف في التاريخ الاسلامي.. حيث أن ما كتب قبلها لا يعدو ترجمات من كتب اليونان والسريان الطبية. وهذه الرسالة تختلف عن كل ما كتب أنها ضمت معلومات الإمام الرضا الطبية التي استفادت بدون شك من طب اليونان ولكنها أضافت إليها ما أخذه الامام عن أبيه عن جده، وما استفاده من كلام جده المصطفى صلوات الله وسلامه عليه وعلى آله كما أنها تضم أيضا ما استفاده الإمام الرضا من علوم آبائه موسى الكاظم، وجعفر الصادق ومحمد الباقر وعلي زين العابدين والامام السبط الحسين والإمام علي بن أبي طالب. ولم يكتف الإمام الرضا بذلك كله ولكنه أضاف إليها تجاربه الشخصية ومعارفه الذاتية.. واستطاع بعد ذلك كله أن يوجز هذه المعلومات إيجازا بليغا في 14 صفحة فقط.. ومع هذا فقد شرحها العلماء والحكماء في مئات الصفحات)(1)

وما ذكره الدكتور البار عن استفادتها من الطب اليوناني تفيد ذلك الانفتاح على الأمم الذي يدعو إليه القرآن الكريم، والذي تمسك به ورثته من هذه الأمة.

لكن السلفية يختلفون مع هذه الرؤية التي دل عليها القرآن الكريم، ودل عليها مع ذلك ورثته من العلماء والأولياء اختلافا تاما، ولهذا لم يترك السلفية مع اهتمامهم بالتأليف أي تراث في هذا الجانب.. اللهم إلا تلك الردود الشديدة التي ردوا بها على العلوم الكونية المختلفة باعتبارها علوم كفار، أو باعتبارها تتناقض مع ما ورد في القرآن الكريم والسنة النبوية والآثار الواردة عن سلفهم.

بالإضافة إلى ذلك اكتفاؤهم بما وردهم عن سلفهم من تفسيرات للظواهر الكونية المختلفة، ولذلك رأوا أن الأولى الاكتفاء بها، والحرص عليها، حتى لو اصطدمت بجميع علوم الدنيا ومعارفها.. فما كان للكفار أن ينافسوا مجاهدا ولا قتادة ولا عكرمة ولا ابن تيمية في علوم الدين أو علوم الدنيا.

بناء على هذا، سنتناول هذا الفصل كلا الجانبين: الأول: الموقف السلبي للسلفية من العلوم الكونية.. والثاني:

---

(1) الإمام علي الرضا ورسالته في الطب النبوي، ص121.

المعارف السلفية التي ورثوها عن سلفهم في هذا النوع من العلوم.

أولا ـ الموقف السلبي من العلوم الكونية:

بناء على بعض المغالطات التي تصور بها السلفية انحصار ما ورد من فضل متعلق بالعلم وبطلبته في العلوم الدينية.

وبناء على تفريقهم بين العلوم بحسب مصدرها، لا بحسب الحقائق التي تعالجها أو تبحث فيها، ولذلك قسموا العلوم إلى علوم مسلمين، وهي العلوم المرتبطة بالكتاب والسنة وما تفرع منهما، وعلوم كفار، وهي غيرها من العلوم.

وبناء على توهمهم بأن العلوم الدنيوية أو علوم الكفار أو العلوم العصرية تحجب عن علوم السلف، وتتناقض معها، ولذلك فإن من دخل فيها يوشك أن يخرج من ربقة السلف وتبعيتهم.

بناء على هذا كله وقف السلفية متقدموهم ومتأخروهم موقفا سلبيا من العلوم الكونية، وسنذكر الأدلة على ذلك في العنوانين التاليين:

1 ـ موقف المتقدمين من العلوم الكونية:

يتجلى موقف المتقدمين من السلفية من العلوم الكونية من خلال موقفهم من الفلسفة، أو ما يسمونه علوم الأوائل، أو العلوم المترجمة من الأمم الأخرى، وخاصة من اليونانية، لأنهم تصوروا أن ترجمة تلك الكتب بما فيها من خير وشر، وحق وباطل كان وبالا على المسلمين، لأن على المسلمين ــ كما يتصور السلفية ــ حتى يظلوا على هدي سلفهم الصالح أن ينغلقوا انغلاقا تاما عن كل الأمم والحضارات، لا يستفيدون منها، ولا يكتسبون من خبراتها، فإن احتاجوا إلى الطب لجأوا إلى أطباء اليهود والنصارى يداوونهم.. أما علم الفلك فلا يحتاجونه لأن سلفهم قد أعطاهم خارطة كاملة للكون من عرشه إلى فرشه، وهم لا يحتاجون معها إلى أي تفاصيل.. وهكذا في سائر العلوم.

وبناء على هذا اعتبروا من أسباب التجريح والطرد والحرمان من الانتساب للسنة وسلف الأمة الاشتغال بتعلم علوم الأوائل، كما قال ياقوت الحموي في ترجمة بعضهم ذاما له بسبب اشتغاله بالفلسفة وما ارتبط بها من علوم كونية: (وليس ذلك إلا لإعراضه عن نور الشريعة واشتغاله بظلمات الفلسفة، وقد كان بيننا محاورات ومفاوضات فكان يبالغ في نصرة مذاهب الفلاسفة والذبّ عنهم، وقد حضرت عدة مجالس من وعظه فلم يكن فيها لفظ قال الله، ولا قال رسول الله ﷺ

ولا جواب عن المسائل الشرعية، والله أعلم بحاله)[1]

وقال الذهبي منتقدا الغزالي بسبب موقفه المسالم للمباحث العلمية التي وردت في كتب الفلاسفة: (ألف الرجل في ذم الفلاسفة كتاب (التهافت)، وكشف عوارهم، ووافقهم في مواضع ظنا منه أن ذلك حق، أو موافق للملة، ولم يكن له علم بالآثار ولا خبرة بالسنن النبوية القاضية على العقل، وحبب إليه إدمان النظر في كتاب (رسائل إخوان الصفا) وهو داء عضال، وجرب مرد، وسم قتال، ولولا أن أبا حامد من كبار الأذكياء، وخيار المخلصين، لتلف. فالحذار الحذار من هذه الكتب، واهربوا بدينكم من شبه الأوائل، وإلا وقعتم في الحيرة، فمن رام النجاة والفوز، فيلزم العبودية، وليدمن الاستغاثة بالله، وليبتهل إلى مولاه في الثبات على الإسلام وأن يتوفى على إيمان الصحابة، وسادة التابعين)[2]

والذهبي وابن تيمية وغيرهما من السلفية ينتقدون الغزالي بسبب موقفه الطيب من الجوانب العلمية والرياضية التي تشكل جزءا من الفلسفة القديمة، فقد كانوا يريدون من الغزالي أن يذكر تهافت الفلسفة جميعا، لا تهافت بعض طروحات الفلاسفة المتعلقة بالعقائد الإلهية.

وقد ذكر الغزالي هذا الصنف من السلفية وتشددهم مع العلوم الكونية التي لا يصح اعتبارها حكرا على أي من الأمم، فقال ـ عند بيانه للآفات الناشئة من الفلسفة ـ: (الآفة الثانية: نشأت من صديق للإسلام جاهل، ظن أن الدين ينبغي أن ينصر بإنكار كل علم منسوب إليهم. فأنكر جميع علومهم وادعى جهلهم فيها حتى أنكر قولهم في الكسوف والخسوف، وزعم أن ما قالوه على خلاف الشرع فلما قرع ذلك سمع من عرف ذلك بالبرهان القاطع، لم يشك في برهانه ولكن اعتقد أن الإسلام مبني على الجهل وإنكار البرهان القاطع، فازداد للفلسفة حباً وللإسلام بغضاً، ولقد عظم على الدين جناية من ظن أن الإسلام ينصر بإنكار هذه العلوم، وليس في الشرع تعرض لهذه العلوم بالنفي والإثبات، ولا في هذه العلوم تعرض للأمور الدينية. وقوله ﷺ: إن الشمس والقمر آيتان من آياتِ الله تعالى لا ينخسفانِ لموتِ أحدٍ ولا لحياته، فإذا رأيتم فافزعوا إلى ذكر الله تعالى وإلى الصلاة)، وليس في هذا ما يوجب إنكار علم الحساب المعروف بمسير الشمس والقمر، واجتماعهما أو مقابلهما على وجه مخصوص.. فهذا حكم

1() معجم البلدان (3/ 377)

2() سير أعلام النبلاء (14/ 270)

الرياضيات وآفتها)(1)

وهكذا بالنسبة لعلم الطبيعيات، والذي كان ركنا من أركان الفلسفة القديمة، فقد قال فيه الغزالي: (وأما علم الطبيعيـات: فهو بحث عن عالم السماوات وكواكبها وما تحتهـا من الأجسـام المفردة: كالماء والهواء والتراب والنار، وعن الأجسام المركبة، كـالحيوان والنبـات والمعـادن، وعن أسـباب تغيرهـا وامتزاجها، وكـذلك يضـاهي بحث الطب عن جسـم الإنسـان، وأعضـائهم الرئيسـية والخادمة، وأسـباب اسـتحالة مزاجـه وكمـا ليس من شـرط الـدين إنكـار علم الطب، فليس من شـرطه أيضاً إنكـار ذلـك العلم، إلا في مسـائل معينة، وذكرناهـا في كتـاب تهـافت الفلاسفة وما عداها مما يجب المخالفة فيها، فعند التأمل يتـبين أنها مندرجة تحتها، وأصل جملتها: أن تعلم أن الطبيعة مسـخرة لله تعالى، لا تعمل بنفسها، بل هي مستعملة من جهـة فاطرها. والشمس والقمـر والنجـوم والطبـائع مسـخرات بـأمره لا فعـل لشيء منها بذاته عن ذاته)(2)

وبناء على هذا لم نجد من الغزالي وأمثاله من العلمـاء أي موقف سـلبي من أي عـالم من علمـاء الطبيعـة أو الرياضـيات، والموقـف السـلبي الوحيـد الـذي وقفـه هـو موقفـه من بعض المسـائل الفلسـفية المتعلقـة بالإلهيـات، وقـد انتقـدهم فيهـا كفيلسوف، وليس كعالم دين، ولذلك فإن نقـده لهم بقي محـل نظر، فمن العلمـاء من قبله، ومنهم من رفضـه أو انتقـده كمـا فعل ابن رشد، ولا حرج على الجميع.

فـالحرج ليس في الانتقـاد، ولكن الحـرج في التشـدد في تحريم تلك العلوم، واعتبارها كفرا وضلالا، كمـا فعـل ابن تيميـة مع علم الكيمياء، ومع العبقري الذي سبق زمانـه فيهـا جـابر بن حيان.

يقول الشيخ حسـن بن فرحـان المـالكي حـول [ابن تيميـة وتحريم الكيمياء!]: (ابن تيمية لم يقتصر تطرفه على التحريض على الدماء، بل وصل للكيمياء فحرمهـا وشـن عليهـا حملة، لأن مؤسسها جابر بن حيان! وسبب بغضـه لجـابر بن حيـان أنـه من تلاميـذ الإمـام جعفـر الصـادق؛ لكن ابن تيميـة ذكي؛ فلا يصـرح بأهدافه البعيدة! فقد أفتى ابن تيمية في تحريم الكيميـاء فتـوى في مجمـوع الفتـاوي (٢٩/ ٣٦٨) لا نسـتطيع كتابتهـا لطولها، ولكثرة ثرثرتـه ولكن نسـتعرض (فلاشـات) من أقواله: ١- اهـل الكيميـاء من أعظم النـاس غشا! ٢- هم أهـل ذلـة وصـغار! ٣- الكيمياء محرمـة باطلة! واسـتدل على بطلانهـا بقوله: (لم يكن

1() المنقذ من الضلال (ص: 140)

2() المنقذ من الضلال (ص: 141)

في أهل الكيمياء أحد من الأنبياء ولا من علماء الدين ولا الصحابة ولا التابعين)! وأن جابر بن حيان: (مجهول لا يعرف! وليس له ذكر بين أهل العلم والدين)! و(الكيمياء أشدّ تحريما من الربا)، ثم يقول: (الكيمياء لم يعملها رجل له في الأمة له لسان صدق ولا عالم متبع ولا شيخ ولا ملك عادل ولا وزير ناصح، إنما يفعلها شيخ ضال مبطل).. بهذا الأسلوب يهوش ابن تيمية على العامة وفكره في التاريخ والعقائد كفكره في الكيمياء تماما! إلا ان الناس تجاوزوا هذا دون ذاك. ابن تيمية أول ما تقرأ له تقول: هذا رجل ذو عقلية جبارة متحررة! لكن ما أن تدقق حتى تعرف أنه يهول ويهوش فقط مع زيف كبير في التصور!)(1)

ونحب أن ننقل هنا من مصدر سلفي حديث ـ حتى لا نتهم بالتحيز ـ إشادة بعض الأكاديميين السلفيين المعاصرين بما فعله سلفه من مواقف سلبية من الفلسفة والعلوم المختلفة المرتبطة بها، وذلك في كتاب بعنوان [مقاومة أهل السنة للفلسفة اليونانية](2)

فمن تلك المواقف حرق كتب الفلسفة ومنع بيعها، وقد ذكر الأكاديمي السلفي لذلك ثلاثة حوادث بالمشرق الإسلامي أُحرقت فيها كتب الفلسفة(3):

أولها أن السلطان محمود بن سبكتكين الغزنوي (ت 421ه) لما ملك مدينة الري، أحرق كتب الفلاسفة والنجوم والاعتزال (4).. مع العلم أن المراد بالنجوم، علم الفلك.. وكتب الفلاسفة تعني كل أصناف كتبهم الرياضية والطبيعية والمنطقية والأخلاقية وغيرها.

والثانية أنه لما تولى الطبيب المتفلسف أبو الوفاء بن المرخم (ت555هـ) قضاء بغداد، وأساء السيرة في الرعية، أمر الخليفة العباسي المستنجد بالله بالقبض عليه سنة 555هـ، فاستُصفيت أمواله، وأخذت منه كتبه، وأُحرق منها ما كان في علوم الفلسفة، كرسائل إخوان الصفا، وكتاب الشفاء لابن سينا وما يشاكلهما، وأُدخل ابن المرخم السجن فمات فيه(5).

والثالثة أنه عندما أُتهم المتفلسف الركن عبد السلام بن عبد الوهاب بن عبد القادر الجيلاني البغدادي (ت 611 ه)

1() موقع الشيخ حسن بن فرحان المالكي، تحت عنوان: ابن تيمية وتحريم الكيمياء.

2() العنوان الكامل للكتاب: مقاومة أهل السنة للفلسفة اليونانية -خلال العصر الإسلامي، ق:2-13ه- للدكتور خالد كبير علال، حاصل على دكتوراه دولة في التاريخ الإسلامي من جامعة الجزائر.

.

3() مقاومة أهل السنة للفلسفة اليونانية، ص80.

4() ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج 8 ص: 170 .

5() ابن خلكان: وفيات الأعيان، ج 3 ص: 24 .

بالتعطيل ــ أي بتنزيه الله ــ واعتقاد عقيدة الفلاسفة، جمع الوزير ابن يونس البغدادي الحنبلي (ت 593 هـ) كتبه وعقد له محاكمة حضرها أعيان الناس، وفيها كان الطبيب أبو بكر بن المارستانية (ت 599 هــ) يقرأ بعض كتب عبد السلام على الحاضرين، ويقول: العنوا من كتبها ومن يعتقدها، فيصيح العوام باللعن حتى تعدى إلى جده الشيخ عبد القادر الجيلاني. ثم وجد محاكموه في بعض كتبه مخاطبة كوكب زُحل، بقوله: (أيها الكوكب المنير أنت مدبر الأفلاك، وتحي وتُميت وأنت إلهنا)، فقالوا له: أهذا خطك؟ قال: بلى، كتبته لأرد على قائله ومن يعتقده. فأمر الوزير بإحراق كتبه، من بينها: كتب الفلسفة والسحر وعبادة النجوم، ورسائل إخوان الصفا. وأدخل هو السجن مدة ثم أُفرج عنه بعد استتابته (1).

هذا ما حصل من حرق لكتب الفلاسفة بما اشتملت عليه من علوم كونية في المشرق، أما في المغرب، فقد ذكر الأكاديمي السلفي من الحوادث المرتبطة بذلك(2): أن الحاجب أبا عامر بن أبي عامر الأندلسي (ت 393 هــ) لما آلت إليه مقاليد الحكم الأموي بالأندلس عمد إلى خزانة كتب الخليفة المُتوفى: الحكم المستنصر، وأخرجها وفرز منها كتب الفلسفة، وكانت كثيرة جدا، فأحرق منها مجموعة وطمر أخرى بمشهد من العلماء، فعل ذلك تقبيحا للخليفة الحكم المُغرَم بجمع كتب الفلسفة(3). وقيل أن سبب إحراقه لها رغبته في التقرّب إلى العوام، مع اشتغاله هو بها شخصيا في الخفاء(4).

ومنها أن السلطان المرابطي أبا الحسن علي بن يوسف ين تاشفين (ت 537هــ) كان شديد الكره للفلسفة وعلم الكلام، فأمر بحرق كتبهما ومعها كتب الشيخ أبي حامد الغزالي، لما فيها من كلام وفلسفة، وتوعّد بالقتل لمن يُخفي تلك الكتب(5).

وقد علق على هذه الجرائم في حق العلم والمعرفة بقوله: (ويُستنتج مما ذكرناه أن عمليات حرق كتب الفلسفة ومنع بيعها وتداولها بين الناس وأهل العلم، تمت على أيدي السلاطين ورجالهم، وتحت رعايتهم، لأنهم هم الذين يملكون قوة التغيير والتنفيذ، وتلك العمليات هي حوادث قليلة جدا بالنظر إلى اتساع رقعة العالم الإسلامي، وطول الفترة الزمنية التي تزيد عن عشرة قرون لكنها تدل على وجود مقاومة سنية

1() ابن العماد الحنبلي: شذرات، ج 7 ص: 85.

2() مقاومة أهل السنة للفلسفة اليونانية، ص80.

3() الذهبي: السيّر، ج17 ص: 15.

4() المقري: نفح الطبيب، ج 1 ص: 221 .

5() الذهبي: السير، ج 19، 334 ،و ج20 ص: 124 .

للفلسفة اليونانية ساهم فيها بعض الخلفاء والسلاطين وأعوانهم، لكنها تشير من جهة أخرى إلى انتشار تلك الفلسفة بين طائفة من أهل العلم، حتى استدعى الأمر تدخل السلطان لحرق مصنفاتها ومنع بيع كتبها والاشتغال بها. لكنها ساهمت أيضا في إضعاف نفوذ الفلسفة ورجالها، دون أن تقضي عليها وعلى تراثها وأتباعها) (1)

ومن تلك المواقف التي ذكرها السلفي الأكاديمي مشيدا بها (إهدار دم بعض رجال الفلسفة وقتل آخرين)، ومن الشواهد التي ذكرها لذلك(2): قتل الخليفة العباسي المهدي (ت196 هـ) للفيلسوف أبي الفضل صالح بن عبد القدوس الأزدي (ت ق: 2هـ)، بسبب التهمة التي كان يلفقها السلفية لكل من خالفهم تهمة الزندقة(3).

ومنها قتل الخليفة العباسي المعتضد (ت 289هـ) للفيلسوف أحمد بن الطيب السرخسي (ت 286هـ) لفلسفته وخبث معتقده، كما يذكر(4).. وقيل بل قتله لمدحه الفلاسفة وميله إليهم، وتصويب أفكارهم وحكاية مذهبهم في حضرة الخليفة، الذي كان يقول له: أنت على دينهم، وكيف لا تكون كذلك وأستاذك يعقوب الكندي؟، فاعتقد أن السرخسي هذا فاسد الدين(5).. وقيل: بل قتله لاتهامه بالزندقة والنفاق، فروي أنه قال للخليفة: (قد بعثُ كتب الفلسفة والنجوم والكلام، وما عندي سوى كتب الفقه والحديث)، فلما انصرف قال الخليفة: (والله إني أعلم أنه زنديق، فعل ما زعم رياء)(6)

وقد قال الأكاديمي السلفي تعليقا على هذه الجريم والتفسيرات المرتبطة بها: (تلك هي أشهر التفسيرات التي قيلت في سبب قتل الخليفة المعتضد للسرخسي، وهي مرتبطة بانحراف سلوكه واعتقاده، ولعلها ساهمت كلها في قتله) (7)

ومنها قتل الفيلسوف الصوفي عبد الله عين القضاة الهمداني (ت 520 هـ) الذي قتله وزير يُعرف بأبي القاسم، وذلك أنه التقط من تصانيف عين القضاة ألفاظا شنيعة ينبو عنها السمع، ويُحتاج إلى مراجعة قائلها فيما أراد بها؛ ثم عمل الوزير محضرا وأخذ فيه خطوط جماعة من العلماء، بإباحة دمه

1() مقاومة أهل السنة للفلسفة اليونانية، ص81.
2() مقاومة أهل السنة للفلسفة اليونانية، ص85.
3() الذهبي: ميزان الاعتدال، ج3 ص: 407.
4() ميزان الاعتدال ، ج13 ص: 449 .
5() ميزان الاعتدال ، ج 13 ص: 449.
6() ميزان الاعتدال ، ج13 ص: 449 ..
7() مقاومة أهل السنة للفلسفة اليونانية، ص85.

بسبب تلك الألفـاظ، فقبض عليـه وحملـه مقيـدا إلى بغـداد، ثم أرسله إلى همدان وصلبه بها سـنة 520هــ. ويـرى الحافـظ ابن حجر العسقلاني أن هذا الرجل قُتل مظلوما، قتله الوزير لمجرد أنــه صــادق أحــد أعدائه، وإلا لــو قتــل بسـبب شـرعي لنـوظر واستتيب(1).

ومنهـا قتـل الفيلسـوف الإشـراقي الكبـير الشـهيد شـهاب الدين السهروردي (ت 587هـ)، الـذي أفـتى علمـاء حلب بقتله، فوافقهم على فتواهم الملك الظاهر بن صلاح الدين الأيوبي، ثم جاءه أمر من والده صـلاح الـدين يـأمره بقتلـه لمـا بلغـه فسـاد عقيدته وسلوكه، فقتله سنة 587ه (2).

وقـد قـال الـذهبي مستحسـنا مـا حصـل من قتله: (كـان أحمق طياشا منحلا، أحسن العلماء في فتوى قتله وأصابوا)(3)

هذه مجرد أمثلة عن الـذي تم قتلهم بالفعل.. أمـا الـذين هددوا، أو قضـوا حيـاتهم فـارين من بلـد إلى بلد، فلا يعـدون ولا يحصون في نفس الوقت الذي كان يتربع فيـه محـدثو السـلفية وأمامهم عشرات آلاف المحابر، يلقـون إليهم مـا رووه عن أبي هريرة وكعب الأحبـار ووهب بن المنبـه وغـيرهم من الخرافـات المرتبطة بتفسير حقائق الكون.

وقد ذكر شهاب الدين أحمد بن محمد المقـري التلمسـاني (المتوفى: 1041هـ) تلك المعاناة التي كان يعانيهـا من يهتمـون بالفلسفة أو العلوم الكونية في الأنـدلس، فقـال: (وكـل العلـوم لها عندهم حظ واعتناء، إلا الفلسـفة والتنجيم، فـإن لهمـا حظّـاً عظيماً عند خواصهم، ولا يتظاهر بهما خـوف العامة، فإنّـه كلّمـا قيل فلان يقرأ الفلسفة أو يشتغل بالتنجيم أطلقت عليه العامــة اسم زنديق، وقيـدت عليـه أنفاسه، فـإن زلّ في شـبهة رجمـوه بالحجـارة أو حرقـوه قبـل أن يصـل أمـره للسـلطان، أو يقتلـه السلطان تقرباً لقلوب العامة، وكثيراً ما يـأمر ملـوكهم بـإحراق كتب هذا الشأن إذا وجدة، وبذلك تقرب المنصـور بن أبي عـامر لقلوبهم أول نهوضه وإن كان غير خالٍ من الاشـتغال بـذلك في الباطن على ما ذكره الحجاري)(4)

وقد أشـاد الأكـاديمي السـلفي بهـذا التحـريض الـذي كـان يمارسه سلفه على العلماء، معترفا في نفس الوقت بالسلبيات التي انجرت عن ذلك التحريض، فقال: (ولاشك أن اعتمـاد أهـل السـنة على الـرأي العـام في مقـاومتهم للفلسـفة اليونانيـة ورجالها، هو وسيلة فعالة مكنتهم من إيجاد رقابة شعبية داخلية،

(1) ابن حجر: لسان الميزان، ج4 ص: 411 .

(2) الذهبي: السيّر، ج 21 ص: 10، 211 .

(3) الذهبي: السيّر، ج 21، ص: 180، 207، 210، 211.

(4) نفح الطيب من غصن الاندلس الرطيب (1/ 221)

كان العلماء من ورائها. لكن استخدامهم –أي العلماء – للعوام في التصدي للفلاسفة هو أمر محفوف بالمخاطر، سلبياته أكثر من إيجابياته، فما دخل العوام فيما يجري بين أهل العلم؟، وأية معرفة لهم بقضايا العلم ومداخله؟، وأية معرفة لهم بحدود الحق والباطل؟، وهل كل من درس الفلسفة وأظهر بعض أفكارها هو ضال زنديق يجب قتله وإحراقه؟، وهل يستطيع العوام التمييز بين الفيلسوف المسلم الملتزم والفيلسوف الضال؟، لاشك أن العوام ليس في مقدورهم القيام بكل ذلك، لذا كان من الواجب تحجيم دورهم، ووضع حدود لتصرفاتهم، على أن تكون تحت توجيه وإشراف من العلماء والسلاطين إذا ما احتاجوا إليهم، على أن يتولى العلماء مناظرة المتهمين بالانحراف عن الدين، واستتابتهم وإقامة الحجة عليهم، ثم تُنفذ الأحكام الشرعية بعدالة بعد ذلك بيد السلطان لا العوام)[1]

2 ـ موقف المتأخرين من العلوم الكونية:

لا يختلف موقف المتأخرين من السلفية عن موقف المتقدمين، بل ربما يكون زاد عليهم، باعتبار الفتوح العلمية الكثيرة التي حصلت في هذا العصر، والتي جعلتهم يسرعون لإحياء سنة الرد عليها اقتداء بسلفهم الصالح، خاصة وأن هذه العلوم تصيب تصوراتهم عن الكون التي ورثوها عن سلفهم في المقاتل.

بل إنها لا تصيب ما ورثوه عن سلفهم من علوم ومعارف فقط، بل تصيب عقائدهم الكبرى، وخاصة عقيدة الجهة التي يعتبرونها أصل العقائد وأسها، ولا يعطلها إلا جهمي.. وقد صار البشر جميعا الآن جهمية بسبب تعطل هذه الصفة بحسب ما يقتضيه علم الفلك الحديث.

وبناء على هذا كثرت كتبهم في الردود.. وقد أشرنا إلى ذلك في محال مختلفة من هذه السلسلة، وسنحاول هنا أن نذكر نموذجين من المتأخرين، وموقفهما من بعض الحقائق العلمية الحديثة، وهي تشمل مجالات مختلفة، ويمكن لمن شاء المزيد أن يطلع على نفس المواقف من شخصيات أخرى.

النموذج الأول: الوادعي ومدرسته:

يعتبر مقبل بن هادي الوادعي[2](توفي 1422 هـ) من كبار أعلام السلفية المعاصرين الذين اهتموا بإحياء سنة التجريح والرد على كل جديد سواء ارتبط بالدين أو بالعلم.. وقد كتب

1() مقاومة أهل السنة للفلسفة اليونانية، ص92.

2() يعتبر من كبار علماء السلفية باليمن وأحد رواد الحديث، قام بالدعوة السلفية في اليمن، وأنشأ مدرسة علمية سلفية بدماج سماها بدار الحديث يفد إليها الطلاب من أنحاء اليمن، ومن بلدان أخرى، وتخرج على يديه شيوخ أنشئوا مدارس في عدد من مناطق اليمن.

في كتبه المختلفة الرد الشـديد على المهتمين بـالعلوم الكونية، والتي يطلق عليها تسميات مختلفة كعلوم الملاحدة، وغيرها.

وقد أشاد بعض السلفية في تقديمه لكتابه (البركان لنسف جامعة الإيمان) بتلك الآثار الـتي تركهـا في هـذا المجـال اقتـداء بسـلفه الصـالح، فقـال: (.. وقـد أُلِّفَتْ كتبٌ في التصـدي لأهـل البدع ككتـاب (الـرد على الجهميـة والزنادقـة) للإمـام أحمـد بن حنبل، وكتـاب (الـرد على بشـر المريسـي) للإمـام الـدارمي، وكتــاب (الــرد على البكــري) لابن تيمية، وكتــاب (الصــواعق المرسـلة على الجهميـة والمعطلـة) لابن قيم الجوزية، وغيرهـا كثير وكثـير جـدّاً. وممن ترسـم خطى أولئـك الأفـذاذ عـالم من علماء السنة، ولا أبالغ إن قلت أن اليمن لم تنجب مثله من بعـد الإمام الشوكاني، ألا وهو الإمام العلامة المحدث مقبل بن هادي الوادعي الذي - بمجيئـه إلى اليمن ودعوتـه فيهـا - فتح اللـه بـه آذانا صما وأعينا عميا وقلوبا غلفا، وكان من جهود الشـيخ رعـاه الله جهاده الدؤوب لأهل الأهواء والبـدع والتصـدي لهم والصـدع بـذلك من غـير أن يخـاف في اللــه لومــة لائم.. فأخــذ يجاهــد المبتدعة على اختلاف نحلهم ومذاهبهم، ابتداء بالشيعة الرافضة ثم بالصــوفية الخرافيــة ثم بــالحزبيين الملبســيين على عامــة النــاس، وهكــذا غــيرهم من الملاحــدة الكفــرة كالاشــتراكيين والبعثيين والناصريين، فانتفع بدعوته القاصي والـداني من أهـل اليمن وغيرهم من شتى بلدان العـالم، فشـاع ذكـره وانتشـرت محاسنه، فتوافد إليه طلبة العلم من هنا وهنـاك لتلقى مـا حبـاه الله به من علم وهدى وعلى النقيض من ذلـك ظهـر صـنف من أهل البدع قد غرتْهم زخرفة الحياة الدنيا وانقادوا لها دون خوف من الله ولا استحياء من علماء الأمة، ومنهم المدعو عبد المجيد بن عزيـز الزنـداني، فأخـذ يبث مـا ألقـاه الشـيطان عليـه في صفوف اليمنيين خاصة، وغـيرهم عامة، حـتى انطلى البلاء على كثير من شباب الأمة، بل من كبارهم فَعُدَّ عندهم من رواد العلم العاملين به وأن الوقيعة فيه تعد من قبيـل السـب والغيبـة ومـا شابه ذلك)[1]

وهو يقصد هنا موقفه من العلوم الحديثة، وتدريسه لها في جامعـة الإيمـان، وذلـك مـا اعتـبره الـوادعي انحرافـا عن سـنة السلف الصالح الذين كانوا يقتصرون على العلوم الشرعية.

ومن كتبـه في هـذا المجـال مـا كتبـه ردا على التفسـيرات العلميـة لأسـباب الـزلازل، حيث ألـف رسـالة في ذلـك بعنـوان (إيضــاح المقــال في أســباب الزلــزال والــرد على الملاحــدة الضلال)، وقد رد فيها بشدة على ما تقوم به مدارس المسلمين

1() البركان لنسف جامعة الإيمان (ص 5)

من تعليم تلاميذها علوم الكفار، فقال: (نحن نأسف لبعض الملاحدة المخذولين الذين منّ الله عليهم وجعلهم من ذوي اللسان العربي ثم لا يشكرون الله على هذه النعمة، ويتّبعون أناسًا كالأنعام بل هم أضل، ذاك كوبي، وذاك روسي، أعاجم لا يفهمون الإسلام على حقيقته ولا يفهمون قول الله ولا قول رسول الله ﷺ، ولعل بعضهم لم يبلغه الإسلام على حقيقته.. جدير بأبناء اليمن أن لا يودّعوا عقولهم لماركس ولينين ومن جرى مجراهم من أئمة الضلال، فأنتم أيها اليمنيون لكم مواقف طيّبة في الدفاع عن الإسلام في عهد رسول الله ﷺ وفي الفتوحات الإسلامية، ثم بعد هذا تلحقون بأنفسكم الخزي وتحرمون نعيم الجنة التي فيها ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر. أي خير تحرمونه أيها الملاحدة؟ وأي خطر تعرّضون له أنفسكم؟ إنّها النار التي وقودها الناس والحجارة، وهناك لا تنفع المكابرة ولا ينفعك ماركس ولينين، بل يكونان أمامك في النار)(1)

ومن تلاميذ مدرسته النجباء، المدعو أبو عبد الرحمن يحيى بن علي الحجوري، والذي ألف كتابا في الرد على الاستدلال بما ورد في العلوم الكونية في القضايا العقدية، سماه (الصبح الشارق على ضلالات عبد المجيد الزندني في كتابه توحيد الخالق)

والذي قرضه شيخه الوادعي بالإضافة لشيخ سلفي آخر هو أحمد بن يحيى النَّجمي، والذي قال في مقدمته للكتاب مبينا بعض الضلالات الواردة في كتاب [توحيد الخالق]: (.. ومنها استدلاله بأقوال الفلاسفة من اليهود والنصارى من فلكيين وطبائعيين وغيرهم على صدق القرآن وهل القرآن بحاجةٍ إلى شهادة هؤلاء الضلال؟!. ومنها تقريره أنَّ الأرض كوكبٌ من المجموعة الشمسية ثم انفصلت عنها وتبردت كما قرر ذلك سيد قطب في تفسيره، والله تعالى يقول: ﴿قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَنْدَادًا ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ [فصلت: 9] وصدَّق بعد ذلك من شئت.. ومنها زعمه أنَّ السماوات السبع كانت طبقةً واحدة وأنَّها فتقت فيما بعد، يفسر بذلك قوله تعالى في سورة الأنبياء: ﴿أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا ﴾ [الفاتحة: 30]،ـ وقد ردَّ عليه الشيخ يحيى الحجوري جزاه الله خيرًا في هذه الفقرات، وغيرها ردًا مفحمًا بالأدلة القاطعة الساطعة من الكتاب وصحيح السنة، فجزاه الله خيرًا وبارك فيه وكثَّر الله من أمثاله الذابين عن الحق الناصرين للتوحيد الذائدين عن

1() إيضاح المقال في أسباب الزلزال والرد على الملاحدة الضلال (ص: 17)

حياضه)[1]

وقد ذكر الشيخ الحجوري في مقدمة الكتاب بعض الضلالات التي احتواها كتاب توحيد الخالق، فقال: (فهل من توحيد الله عز وجل التشكيك في صدق القرآن الكريم حتى يشهد له المستشرقون أنه الحق؟ وهل من توحيد الله عز وجل تقرير عقيدة الجهمية والمعتزلة في الإيمان؟ وهل من توحيد الله إثبات صفات الله سبحانه بالعقل؟ وهل من توحيد الله عز وجل الدعوة إلى محبة اليهود والنصارى وتنقية الأرواح عليهم؟ وهل من التوحيد اتِّهام الإسلام والمسلمين بعدم الإنصاف لأنَّهم لم يتقاربوا مع أهل الكتاب؟ وهل منه التلاعب بآيات القرآن الكريم وإبعاد شباب المسلمين عن العلم الشرعي إلى الفلسفة والمسائل الكلامية وإقامة العقل مقام نصوص الوحيين، وهضم السلف الصالح وعلومهم، وتعظيم اليهود والنصارى وأفكارهم؟ وكل ما ذكرت لك هنا هو قليل من كثير مما ستراه في هذا الكتاب من الضلالات.. وليعلم أن تقرير هذا الكتاب وأمثاله على أبناء المسلمين في المدارس اليمنية مما لا يجوز شرعًا، لما فيه من البواطل والمنكرات، وكثرة البدع والمخالفات، وأحمد الله ربي أن لازمت في بيان ضلالاته الحق الصريح، واستدللت على منكراته بالنص الصحيح، لذا فأنا أعتقد أن الزنداني لا يقوى على دفع ما أبنته من ضلالاته في كتابيه هذين إلا إذا كان تحت شعار (عنْز ولو طارت) [2]

ومن النماذج التي يمكن من خلالها التعرف على التراث السلفي، وموقفه من أبسط المعارف العلمية الحديثة ما ذكره الشيخ الحجوري من انتقادات لما ورد في كتاب توحيد الخالق حول سرعة الرياح، وأنها لو بلغت 200 ميل في الساعة لما أبقت شيئًا على وجه الأرض إلا دمرته[3]، فقد قال الشيخ ردا على هذه المعلومة البسيطة: (هذا القول ينطوي على لحن شديد في التوحيد فقوله: عن الريح لما أبقت شيئًا على وجه الأرض إلا دمرته. هذا غير صحيح لأن الريح مأمورة من الله لا يمكن أن تدمر شيئًا إلا بأمر ربِّها سبحانه، وقد وصف الله عز وجل ريح عاد بالعتو والشدة.. وعن ابن مسعود، وحذيفة بن اليمان، وعبادة بن الصامت، وأبي بن كعب، وسعد بن أبي وقاص وغيرهم، أن النبي ﷺ قال: (لا يَجِدُ عَبدٌ حَلاوَةَ الإِيمَانِ حَتَّى يَعلَمَ أَنَّ مَا أَصَابَهُ لَم يَكُن لِيُخطِئَهُ، وَأَنَّ مَا أَخطَأَهُ لَم يَكُن لِيُصِيبَه)، فلو أن الله عز وجل أرسل الريح بِهذا القدر الذي ذكر

1() الصبح الشارق، ص6.
2() الصبح الشارق، ص13.
3() توحيد الخالق، ص (41)

أو أكثر ولم يرد تدمير الأرض ومن فيها لحفظهم منها كما جعـل النار على إبراهيم عليه السـلام بـردًا وسـلامًا، وكمـا نجى نوحًـا عليـه السـلام ومن معـه من الغـرق وأمـر المـاء أن يغشـى من سواهم على وجه الأرض)(1)

ومنها رده على هذه العبـارة الـتي وردت في كتـاب توحيـد الخـالق: (من الـذي قضـى بِهـذه السـنن والقـوانين المنظمـة الدقيقـة)(2) فمـع بسـاطتها ووضـوحها إلا أن الشـيخ جعـل منهـا قصة كبيرة، فقال ردا عليها: (قلت: اللفظ المشـروع أن يُقـال: من الذي قضى بالسنن والأحكـام، أمـا لفظـة القـانون فليسـت موجودة في كتاب اللـه وسـنة رسـوله ﷺ الصـحيحة فيمـا نعلم واستعمالها غير فصيح.. وذكر هـذه اللفظـة الشـيخ بكـر أبوزيـد في)معجم المنـاهي اللفظيـة) فراجعهـا إن شـئت، فعلم أنـه لا يجوز أن نسمي أحكام الله عز وجل وأقـداره قـوانين، ونعـرض عن اللفـظ الشـرعي: قضـاء، قـدر، حكم، إرادة، مشـيئة. فـإن تسمية هذه المسميات الشرعية قانونًا يعتـبر تحريفًـا للكلم عن مواضعه)(3)

وقال منكرا على مؤلف الكتاب إشـادته ببعض العلمـاء في العلوم الحديثة الذين تتلمذ على أيديهم: (هؤلاء أساتذة الزنداني الذين لم يزالوا على نحلِهم بين يهودي ونصراني ونحو ذلك فلم يذكر في ترجمـة أسـاتذته هـؤلاء أنَّهم أسـلموا. ثم جعـل فصـلاً لأساتذته الذين يقول عنهم إنَّ عندهم إيمانًا ومـا زالـوا فلاسـفة وطبائعيين وهلم جرًا من هذه العلوم البـائرة بـل هـذه السـموم القاتلة.. الـــدكتور علي ســـليمان بنـــوا، طـــبيب فرنسي.. البروفيسـور هـارون مصـطفى ليـون، مؤلـف وعـالم لغـوي وجيولوجي حصـل على دكتـوراه وعلى درجـات علميـة كبـيرة.. الـدكتور عمـر ولـف بـارون اهـر نظـير، أسـتاذ علم الأجنـاس البشرية.. ثم قال: في الخلاصة إيمان هؤلاء الـرواد قـريب جـدًا من إيمان المسلم الموحد وبعيد عن إيمـان قـومهم المشـركين ولقد أسلم منهم من وصلته دعوة الإسلام.. قلت: لا أدري كيـف هـذا الإيمـان الـذي هـو منْزلـة بين المنْزلـتين فيكـون قريبًـا من إيمان المسلم الموحد، وبعيدًا عن إيمان المشركين إذا كان هذا وصف مشايخه المؤمنين أنَّهم على هذه الذبذبة فكيف بمشايخه اليهود والنصارى، وبعد هـذا فلا غـرو ولا دهشـة أن يـدعو قومـه إلى تصفية الأرواح مـع مشـايخه ومـودتِهم.. ثم هـل تتوقـع أخي المسـلم أن الزنـداني يصـف هـؤلاء اليهـود والنصـارى الكفـرة

1() الصبح الشارق، ص48.
2() توحيد الخالق، ص (44)
3() الصبح الشارق، ص51.

والفلاسفة والطبائعيين الزنادقة الفجرة يصفهم بعلماء الكون، والكون هو جميع المخلوقات المكونة)(1)

ثم يبين أن اعتبار العلماء بالعلوم الحديثة علماء كون نوع من الاحتقار للسلف، فقال: (ألم تر أن هذا إزراء بجانب السلف وعلومهم غاية الإزراء وهو إطراء لليهود والنصارى والزنادقة إيما إطراء، لأنه إذا كان هؤلاء هم علماء الكون فلا حاجة لما عداهم من علماء الشريعة الإسلامية، وأنت لو قرأت تراجم جهابذة علوم الكتاب والسنة كلهم لا تكاد تجد أنه قيل في واحد منهم هو عالم الكون بل لو قرأت في مناقب الأنبياء ودلائل نبواتِهم لا تكاد تجد أن واحدًا منهم وصف بعالم الكون بل إن الملائكة الذين يقول الله عنهم: ﴿ فَالْمُدَبِّرَاتِ أَمْرًا﴾ [النازعات: 5] لا تجد أنَّهم وصفوا بعلماء الكون، لكن الطبائعيين من أساتذة الزنداني يصفهم بذلك ولا يدري الجاهل أنه أشرك الملاحدة في شيء من خصوصيات رب العالمين)(2)

ثم رد اعتبار صاحب الكتاب الإسلام مبنيا على العقل، وأنه لا يطالب معتنقيه أبدًا بتجميد طاقاتِهم الفكرية، فقال: (وقول الزنداني: أن الإسلام مبني على العقل. هذا غير صحيح فالإسلام مبني على الكتاب والسنة لا على العقل.. ووظيفة العقل في هذه الأدلة فهمها وتعقلها، فإذا كان مفقودًا ولم يفهمها ولم يعقلها وصار صاحبه في حيز المجانين فهنا يصير غير مكلف، أما أن يقال إن من مفاخر الإسلام أنه مبني على العقل فباطل لما علمت من الأدلة، قال شيخ الإسلام ابن تيمية: العقل مع النقل كالعامي المقلد مع العالم المجتهد، بل هو دون ذلك بكثير فإن العامي يمكنه أن يصير عالمًا ولا يمكن للعاقل أن يصير نبيًا رسولاً)(3)، ومعنى ذلك أن العقل الصحيح يقبل النقل الصريح فهو متبع له يفهمه ويعمل به فعلاً أو تركًا)(4)

هذه نماذج عن مدرسة الوادعي السلفية، وموقفها من العلوم الكونية، ومن شاء المزيد، فيمكنه مطالعة مؤلفاتها الكثيرة، والمنتشرة في المواقع المختلفة، والتي يعتبرها السلفية ممثلا حقيقيا للإسلام نتيجة صراحتها وعدم استعمالها أي تقية أو دبلوماسية.

النموذج الثاني: حمود بن عبد الله التويجري

يعتبر الشيخ حمود بن عبد الله التويجري (1334 ـ 1413 هـ) من كبار السلفية المتأخرين بسبب إنتاجه الكثير، والذي

1() الصبح الشارق، ص124.
2() الصبح الشارق، ص124.
3() درء تعارض العقل والنقل (ج1 ص78)
4() الصبح الشارق، ص124.

أشاد به كبار السلفية كابن باز وغيره، وله كسلفه الكثير من كتب الردود على الجهات المختلفة، ومنها ردوده على أصحاب العلوم الكونية الحديثة.

ومن كتبه في هذا المجال كتابه (الصواعق الشديدة على أتباع الهيئة الجديدة)، والذي استعمل فيه كل السيوف السلفية للإجهاز على العلوم الحديثة.

ومن تلك الأدلة القاطعة التي حاول من خلالها أن يضرب هذه العلوم في مقاتلها نسبتها إلى الكفار والمشركين، يقول في ذلك: (وأول من قال إن الشمس هي المركز الثابت الذي تدور عليه السيارات من الكواكب وإن الأرض من جملة الكواكب السيارة التي تدور على الشمس هو فيثاغورس الفيلسوف اليوناني وكان زمانه قبل زمان المسيح بنحو من خمسمائة سنة. وقيل ستمائة. وذهب كبير الفلاسفة ومقدمهم بطليموس - وكان زمانه قبل المسيح بنحو مائة وخمسين سنة - إلى أن الأرض هي المركز الثابت وإن الشمس والقمر وسائر الكواكب تدور على الأرض. وأهل الهيئة القديمة يقولون بهذا القول وهو الحق الذي تدل عليه الآيات والأحاديث الصحيحة وأقوال المفسرين من الصحابة والتابعين وأئمة العلم والهدى من بعدهم كما سيأتي بيانه إن شاء الله تعالى. وأما قول فيثاغورس فكان مهجوراً نحو من ألف وثمانمائة سنة حتى ظهر الفلكي البولوني (كوبرنيك) في القرن العاشر من الهجرة فقرر رأي فيثاغورس وأيده بالأدلة الرياضية. ولما كان في أثناء القرن الثاني عشر من الهجرة ظهر هرشل الإنكليزي وأتباعه من فلاسفة الإفرنج أصحاب الرصد والزيج الجديد فنصروا قول فيثاغورس وردوا ما خالفه وشاع قولهم منذ زمانهم إلى زماننا هذا وتلقاه كثير من المسلمين بالقبول تقليداً لأعداء الله تعالى. وذلك بسبب سيطرة الإنجليز وبعض الدول الأوربية على كثير من بلاد الإسلام في آخر القرن الثالث عشر من الهجرة وأكثر القرن الرابع عشر. فامتزج أهل تلك البلاد بأعداء الله تعالى امتزاجاً تاماً، وظهر النشء منهم متثقفين بالثقافة الإفرنجية يحذون حذو أعداء الله تعالى في هيئاتهم وأنظمتهم وقوانينهم ويسارعون إلى قبول آرائهم وظنونهم وتخرصاتهم. ويتمسكون بها أعظم مما يتمسكون بنصوص الكتاب والسنة. وكثير منهم كانوا يسافرون إلى الجامعات الأوربية ويتروون من تعاليمها الآجنة المسمومة عللاً بعد نهل حتى فشت فيهم الزندقة والإلحاد والاستخفاف بشأن القرآن العظيم فكان كثير منهم يحملونه على ما يوافق آراء الإفرنج وأقوالهم الباطلة كما هو موجود في كثير من مصنفاتهم فأدخلوا بذلك على المسلمين

شراً كثيراً فلا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم)(1)

وقد أورد للدلالة على بطلان هذه العلوم الكثير من الآيات القرآنية والأحاديث النبوية، وعقبها بفهم السلف الصالح لها، وتفسيرهم العلمي لما ورد فيها، ثم قال: (فهذا ما يسره الله تعالى من الآيات والأحاديث الدالة على أن الشمس تسير وتدور على الأرض وأن الأرض قارة ثابتة بخلاف ما يزعمه أهل الهيئة الجديدة من أن الشمس قارة ثابتة وأن الأرض تدور عليها. وحقيقة قولهم تكذيب الآيات والأحاديث التي ذكرنا واطراحها بالكلية وذلك هو الضلال البعيد. وقد قال الله تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِلْكَافِرِينَ ﴾ [العنكبوت: 68] وقول أهل الهيئة الجديدة في الشمس والأرض دائر بين افتراء الكذب والتكذيب بالحق)(2)

وهو يعتب بشدة على تدريس هذه العلوم الحديثة، فيقول: (ومن أعجب العجب أنه قد جعل في زماننا من الفنون المهمة التي تدرس في كثير من المدارس ويعتنى بها في كثير من الأقطار الإسلامية أكثر مما يعتنى بالعلوم الشرعية. وهذا مصداق ما جاء في الحديث الصحيح عن أنس بن مالك قال قال رسول الله ﷺ: (إن من أشراط الساعة أن يرفع العلم ويثبت الجهل).. وقال الشعبي: (لا تقوم الساعة حتى يصير العلم جهلا والجهل علماً)، رواه ابن أبي شيبة، وله حكم المرفوع لأنه إخبار عن أمر غيبي ومثله لا يقال من قبل الرأي وإنما يقال عن توقيف، ومن أقبح الجهل وأظلم الظلم تكذيب الله تعالي وتكذيب رسوله ﷺ ومعارضة الآيات والأحاديث الصحيحة بأقوال أعداء الله تعالى وتخرصاتهم الكاذبة وآرائهم الفاسدة وتوهماتهم الخاطئة وتعلم ذلك وتعليمه)(3)

ثم ذكر مثالا عن ذلك الشغب الذي يمارسه طلبة السلفية مع أساتذتهم تحت اسم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فقال: (وقد أخبرني غير واحد من الطلبة في بعض المعاهد أن بعض معلميهم من ذوي الجهل المركب صرح عنده بما يعتقده من استقرار الشمس ودوران الأرض حولها. فقال له الطلبة: ما تقول في قول الله تعالى: ﴿ وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾ [يس: 38]..ـ فقال: القرآن حق. فقالوا له: يلزمك على هذا أن تعتقد جريان الشمس فأبى فطالبوه بالدليل على قوله فقال هكذا تلقينا من علمائنا)(4)

1() الصواعق الشديدة على اتباع الهيئة الجديدة (ص: 7)
2() الصواعق الشديدة على اتباع الهيئة الجديدة (ص: 44)
3() الصواعق الشديدة على اتباع الهيئة الجديدة (ص: 44)
4() الصواعق الشديدة على اتباع الهيئة الجديدة (ص: 44)

ثم علق على هذا بقوله: (فانظر يا من نور الله قلبـه بنـور العلم والإيمان إلى جواب هذا المخدوع المغرور بزخارف أعـداء الله وشبهاتهم. واحمد الله الذي عافاك مما ابتلى به المنحرفين المكـذبين لنصـوص القـرآن والأحـاديث الصـحيحة تقليـداً منهم لأعداء الله تعالى من الكفار والمنافقين الـذين أسسـوا بنيـانهم على شفا جرف هـار ينهـار بمن تمسـك بـه في نـار جهنم. ومـا أشبه هذا الذي ذكرناً جوابه ومن جرى مجراه بالـذين قـال اللـه تعالى فيهم: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُـونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَؤُلَاءِ أَهْـدَى مِنَ الَّذِينَ آمَنُـوا سَـبِيلًا ﴾ [النسـاء: 51].ـ فاحـذروا أيهـا المسـلمون من الإصـغاء إلى دسـائس أعـداء اللـه تعـالى والاغـترار بزخـارفهم وشبهاتهم فإنهم لا يألونكم خبالا وودوا لو تكفـرون بمـا جـاء بـه نبيكم ﷺ من الكتاب والحكمة قال الله تعالى: ﴿وَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا فَتَكُونُونَ سَـوَاءً﴾ [النسـاء: 89].ـ ففي هـذه الآيـات أبلـغ تحـذير للمسـلمين من طاعـة الكفـار والمنـافقين وقبـول آرائهم وظنـونهم وتخرصـاتهم فـإنهم لا يـألون المسـلمين خبـالا وودوا ما عنتهم وأضلهم عن الصراط السوي والهدي. وقد جعل الله سبحانه وتعالى للمسلمين في كتابه وسنة رسوله ﷺ كفاية وغنية عما سواهما من أقوال النـاس وآرائهم وتخرصـاتهم قـال الله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْـكَ الْكِتَـابَ يُتْلَى عَلَيْهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَى لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [العنكبـوت: 51].ـ قـال ابن عباس: (من تعلم كتاب الله ثم اتبع مـا فيـه هـداه اللـه من الضلالة في الدنيا ووقاه يوم القيامة سوء الحساب)(5)

وقد لاحظ التويجري أنه مع الهجمـة الشرسـة الـتي شـنتها صواعقه الشديدة على علم الهيئة الجديدة إلا أنهـا مـع ذلـك لم تـؤثر تأثيرهـا المطلـوب، فأعقبهـا بكتـاب آخـر سـماه: (ذيـل الصواعق لمحـو الأباطيل والمخارق)، والذي رد به على الأسـتاذ محمد محمود الصواف في كتابه (المسلمون وعلم الفلك)

وقد بدأ رده عليه من العنوان نفسه، فقال: (قال الصواف: (المسلمون وعلم الفلك)، **والجواب** أن يقـال إن هـذا العنـوان خطـأ ظـاهر لأن غـالب مـا في الرسـالة من الكلام في الأرض والسـموات والشـمس والقمـر والكـواكب ليس من أقـوال المسلمين وعلومهم، وإنما هو من تخرصات أهل الهيئة الجديدة وتوهماتهم، وأهل الهيئـة الجديـدة ليسـوا من المسـلمين، وإنمـا هم من فلاسـفة الإفـرنج، وهم كوبرنيـك البولـوني وأتباعـه في القـرن العاشـر والقـرن الحـادي عشـر من الهجـرة، وهرشـل الإنجليزي وأتباعه في القرن الثاني عشر والقرن الثـالث عشـر

5() الصواعق الشديدة على اتباع الهيئة الجديدة (ص: 45)

من الهجرة، وغالب ما نقله الصواف عن الألوسي، فهو مما نقله الألوسي عن أهل الهيئة الجديدة كما صرح بذلك في مواضع كثيرة من كتابه الذي سماه (ما دل عليه أهل الهيئة الجديدة) وتخرصات أتباعهم فنسبة ذلك إلى المسلمين فرية عليهم، وتسمية الرسالة بهذا العنوان لا تطابق المسمى، وإنما المطابق له أن يقال (الإفرنج والتخرص في علم الفلك)(1)

ثم ذكر قول الصواف في مقدمة رسالته: (وحرصا مني على نشر العلم وبيان فضل علماء المسلمين الذين كان لهم الفضل الأكبر في تشجيع علم الفلك وبناء المراصد في مختلف البلدان رأيت أن أطبع هذا الرد في كتيب؛ ليطلع شبابنا على مفاخر أجدادهم وسبقهم للعالم في مختلف الميادين العلمية)(2)

ورد عليه بقوله على طريقة سلفه، فقال: (والجواب عن هذا من وجوه: أحدها أن يقال: ليس ما نشره الصواف في رسالته بعلم، وإنما هي تخرصات وظنون كاذبة أوحاها الشيطان إلى أوليائه من فلاسفة اليونان وأتباعهم من فلاسفة الإفرنج المتأخرين، فاغتر بها أتباعهم ومقلدوهم من جهلة المسلمين، وظنوها علما صحيحا، وهي في الحقيقة جهل صرف لا يروج إلا على جاهل لا يميز بين العلم والجهل.. **الوجه الثاني:** أن علماء المسلمين منزهون عن تشجيع علم الفلك وبناء المراصد كما سيأتي بيان ذلك في الفصل الذي بعد هذا الفصل، وما زعمه الصواف ههنا فهو من الافتراء على علماء المسلمين.. **الوجه الثالث:** أن الذي نشره الصواف في رسالته كله من تخرصات فيثاغورس اليوناني وأتباعه من فلاسفة الإفرنج المتأخرين.. وهؤلاء كلهم من أعداء المسلمين، وليسوا من المسلمين فضلا عن أن يكونوا من أجداد المسلمين، كما توهمه الصواف، ومن زعم أن هؤلاء الفلاسفة من أجداد المسلمين فهو من أكذب الكاذبين.. **الوجه الرابع:** أن المفاخر كل المفاخر للذين حملوا علم الكتاب والسنة ونشروه في هذه الأمة وهم الصحابة والتابعون وتابعوهم بإحسان، وأئمة العلم والهدى من بعدهم، فأما تخرصات أعداء الله وظنونهم الكاذبة فليست بمفاخر كما قد توهمه الصواف، وإنما هي معائب وجهالات وضلالات تزري بمن تعلق بها غاية الأزراء.. **الوجه الخامس:** أن بناء المراصد من أفعال المنجمين من اليونان والصائبين، ومن يقلدهم ويحذو حذوهم من المنحرفين عن الدين من هذه الأمة، وما كان هكذا فليس

1() ذيل الصواعق، ص7.

2() المسلمون وعلم الفلك، ص11.

فيه فضل البتة، وليس هو من المفاخر كما قد توهمه الصـواف، وإنما هو من المثالب والمعائب واتباع غير سبيل المؤمنين) (1)

ثم ذكر قول الصواف: (إن ما جمعه في رسـالته فهـو ممـا تركه العلماء الأعلام والخلفاء العظام)(2)

وأجاب على ذلك بقوله: (ليس هـذا بصـحيح، فـإن الخلفـاء العظـام على الحقيقـة هم أبو بكـر وعمـر وعثمـان وعلي، ولم يؤثر عن أحـد منهم أنـه تكلم في علم الفلـك بشـيء فضـلا عن القول بسكون الشمس ودوران الأرض عليها، وكـذلك مـا ذكـره الصــواف من الهــذيان الكثــير في الأرض والشــمس والقمــر والكواكب فإن هذا مما ينـزه عنه آحاد العقلاء فضلا عن الخلفاء الراشــدين.. ولا عــبرة بمن حــاد عن منهــاج هــؤلاء الخلفــاء الراشدين من الملوك كالمأمون، فإنـه قـد اعتـنى بتعـريب كتب الأوائل وعمل الأرصاد، ففتح بذلك على الأمة باب شـر عـريض، وقد ذكر السفاريني عن الصلاح الصفدي أنه قـال: (حـدثني من أثق به أن شيخ الإسلام ابن تيمية كـان يقـول: مـا أظن أن اللـه يغفل عن المأمون ولا بـد أن يقابلـه على مـا اعتمـده مـع هـذه الأمة من إدخال العلوم الفلسفية بين أهلها)(3)

ثم أخذ يذكر بهستيرية ما فعله المـأمون، وينقـل لـذلك مـا ذكـره سـلفه من فتح أبـواب الضـلال، بسـبب ترجمـة العلـوم اليونانية، فقال ـ ناقلا عن الذهبي في (تذكرة الحفاظ) ــ مؤيـدا له: (إن من البلاء أن تعرف ما كنت تنكر، وتنكر ما كنت تعرف، وتقدم عقول الفلاسفة، ويعزل منقول اتباع الرسل ويمـاري في القرآن ويتبرم بالسـنن والآثـار وتقـع في الحـيرة. فـالفرار قبـل حلول الدمار وإيـاك ومضـلات الأهـواء ومحـارات العقـول، ومن يعتصم بالله فقد هدي إلى صراط مستقيم)(4)

ونقل عن المقريـزي قولـه في كتـاب الخطط: (وقـد كـان المـأمون لمـا شـغف بـالعلوم القديمـة بعث إلى بلاد الـروم من عَـرَّبَ لـه كتب الفلاسـفة، وأتـاه بهـا في أعـوام بضـع عشـرة ومائتين من الهجـرة، فانتشـرت مـذاهب الفلاسـفة في النـاس، واشتهرت كتبهم بعامـة الأمصـار، وأقبلت المعتزلـة والقرامطـة والجهمية وغيرهم عليها، وأكثروا من النظـر فيهـا والتصـفح لها، فانجرَّ على الإسلام وأهله من علوم الفلاسـفة مـالا يوصـف من البلاء والمحنة في الدين، وعظم بالفلاسـفة ضـلال أهـل البـدع، وزادتهم كفرا إلى كفرهم)(5)

1() ذيـل الصواعق، ص10.
2() المسلمون وعلم الفلك، ص12.
3() ذيـل الصواعق، ص14.
4() ذيـل الصواعق، ص14.
5() ذيـل الصواعق، ص14.

وعلق على ذلك بقوله: (وقد سار على منهاج المأمون في عمل الأرصاد كثير من الملوك المنحرفين مثل الحاكم العبيـدي، وبعض بـني بويـه والسـلاجقة، وهولاكـو وتيمورلنـك وأولـغ بك. فهؤلاء خلفاء الصواف الذين تركوا له ولأشـباهه من علم الفلـك وعمل الأرصاد ما تركوا، ومع ما كانوا عليه من الاعتناء بالأرصاد وعلم الفلـك فقـد كـانوا على مـذهب أهـل الهيئـة القديمـة في القـول بسـكون الأرض وجريـان الشـمس، ولم يـذكر عن أحـد منهم أنه قال بتعدد الشموس والأقمار، ولا بغير ذلك ممـا يهـذو به أهل الهيئة الجديدة وأتبـاعهم في أبعـاد الكـواكب ومقاديرها، وغير ذلك مما أودعه الصواف في رسالته، وزعم أنه ممـا تركـه الخلفاء العظام، وهو بذلك قد افترى عليهم ونسب إليهم مـا لم يؤثر عنهم، وإنما هو مأثور عن أهل الهيئة الجديدة وأتباعهم)(1)

ثم رد على اعتبار الصواف أن ما جمعـه في رسـالته (ممـا تركه العلمـاء الأعلام)، فقـد أجابـة على ذلـك بقوله: **(فجوابه:** أن يقــال إن أعلم هــذه الأمــة على الإطلاق علمــاء الصــحابة رضـــوان اللـــه عليهم أجمعين، ولم يتكلم أحـــد منهم في علم الفلك بشيء فضلا عن القـول بحركـة الأرض وثبـات الشـمس، والرجم بالغيب عن أبعاد الكواكب ومقادير أجرامهـا وغـير ذلـك مما أودعه الصواف في رسالته. ثم التابعون وتابعوهم بإحسـان وأئمة العلم والهدى من بعدهم، ولاسيما الأئمة الأربعة وأقرانهم من أكابر العلماء، فهؤلاء هم العلمـاء الأعلام على الحقيقة، ولم يقـل أحـد منهم بحركـة الأرض وثبـات الشـمس، ولم يرجمـوا بـالغيب عن أبعـاد الكـواكب ومقـادير أجرامها، وغـير ذلـك ممـا أودعـه الصـواف في رسـالته ونسـبه إلى العلمـاء الأعلام، وهـو بذلك قد افترى عليهم، ونسب إليهم ما لم يـؤثر عن أحـد منهم، وإنمـا هـو مـأثور عن أهـل الهيئـة الجديـدة وأتبـاعهم، فهم في الحقيقة خلفاء الصواف الذين زعم أنهم عظام، وعلماؤه الـذين زعم أنهم العلماء الأعلام)(2)

هـذه ردوده على مواقـف الصـواف العامة، أمـا التفاصـيل المرتبطة بالحقائق الكونية البديهية، فهي كثيرة جدا، ومنهـا رده على ما يورده علمـاء الفلـك الحـديث من ضـخامة الكـون، وأن الأرض لا تشكل إلا حيزا بسيطا فيه، أو كما عبر الصواف بقوله: (ولعل أدق وصف للأرض بالنسبة للكون هو أنها هباءة دقيقــة لا ترى إلا بـالمجهر في هـذا الفضـاء الفلكي الواسـع بالنسـبة إلى الأجرام السماوية المتناثرة في أنحاء الكون) (3)

1() ذيـل الصواعق، ص14.
2() ذيـل الصواعق، ص15.
3() المسلمون وعلم الفلك، ص109.

واستشهد لهذا ببيت لجميل صدقي الزهاوي يقول فيه:

وما الأرض بين الكائنات التي ترى

بعينيك إلا ذرة صغرت حجما

وقد رد التويجري على هذا بقوله ـ على الطريقة السلفية ـ: (والجواب عن هذا من وجوه **أحدها** أن يقال: ما يدري جميلا الزهاوي أن الأرض كالذرة بين الكائنات التي يراها الإنسان بعينيه ﴿ أَعِنْدَهُ عِلْمُ الْغَيْبِ فَهُوَ يَرَى﴾ [النجم: 35]،ـ وما يُدري الصواف أن الأرض ما هي إلا فقاعة في محيط وأنها هباءة دقيقة لا ترى إلا بالمجهر في هذا الفضاء الفلكي الواسع، هل وجد ذلك في كتاب الله تعالى أو فيما صح عن رسول الله ﷺ، أو أنزل عليه الوحي بذلك، وإذا كان كل هذا معدوما، فلا شك أنه وصاحبه قد قفوا ما ليس لهما به علم، وليس لهما مستند فيما زعماه سوى التخرص واتباع الكذب**.. الوجه الثاني:** أن الله تعالى عظّم شأن الأرض في كتابه، ونوه بذكرها أكثر مما عظم من شأن الشمس والقمر والكواكب، وقرن خلقها مع خلق السموات في عدة آيات من القرآن، وأخبر أنه خلقها وما فيها في أربعة أيام وأنه خلق السموات وما فيهن في يومين وذلك يدل على عظم الأرض.. وقد جاء في تعظيم خلق الأرض أحاديث كثيرة عن النبي ﷺ منها ما رواه الإمام أحمد والشيخان.. عن عبد الله بن مسعود قال: جاء حبر من الأحبار إلى رسول الله ﷺ فقال: يا محمد إنا نجد أن الله يجعل السموات على أصبع، والأرضين على أصبع، والشجر على أصبع، والماء والثرى على أصبع، وسائر الخلائق على أصبع، فيقول: أنا الملك، فضحك النبي ﷺ حتى بدت نواجذه تصديقا لقول الحبر، ثم قرأ رسول الله ﷺ ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ ﴾ [الزمر: 67])(1)

ثم راح يسرد أمثال هذه الأحاديث التجسيمية التي يعشقها السلفية، ويفسرون الكون كله على أساسها، ثم علق عليها بقوله: (والأحاديث الدالة على عظم الأرض كثيرة جدا وفيما ذكرته ههنا كفاية إن شاء الله تعالى. وفيما ذكرته من الآيات والأحاديث أوضح دليل على عظم الأرض، وفيها أبلغ رد على من صغَّر الأرض وحقرها، وزعم أنها كالذرة أو كالفقاعة في المحيط أو كالهباءة التي لا ترى إلا بالمجهر بالنسبة إلى أجرام الكواكب) (2)

ثم أخذ يذكر بعض الأحاديث يقوي ما ضعف منها على

---

(1) ذيل الصواعق، ص16.

(2) ذيل الصواعق، ص16.

طريقة المحدثين، ويلفق بينها جميعا، ليستخرج منها حجم الأرض مقارنة بالكون، ثم يعلق عليها جميعا بقوله: (وفيما ذكرنا دليل على عظم الأرض لأن الشمس والقمر والنجوم تنتثر يوم القيامة في البحر فيسعها كلها. ولو كانت الأرض كالذرة أو كالفقاعة في المحيط أو كالهباءة التي لا ترى إلا بالمجهر بالنسبة إلى أجرام الكواكب لما وسعت الأرض كوكبا واحدا ولا بعض كوكب، وهذا ظاهر البطلان لمخالفته لما دلت عليه الآيات والأحاديث التي ذكرنا)(1)

ثم بين سر ضلالة الصواف وغيره من المتعلقين بالعلوم الحديثة، فقال: (ومن أعرض عن أدلة الكتاب والسنة وتمسك بما سواهما من أقوال الناس وآرائهم فقد ابتغى حكما غير الله ورسوله ولم يؤمن بأن كلمة الله تعالى قد تمت صدقا وعدلا) (2)

ثم ذكر أمثلة على ذلك، منها: (الإعراض عما أخبر الله به من جريان الشمس وسبحها في الفلك ودؤبها في الجريان وأنه يأتي بها من المشرق. وما أخبر به من طلوعها ودلوكها وغروبها. وما أخبر به رسول الله ﷺ من جريانها وطلوعها وزوالها وغروبها وغير ذلك مما جاء في الأحاديث الصحيحة. والعدول عن ذلك إلى ما تخرصه فلاسفة الإفرنج من ثبات الشمس وما تخيله الصواف بعقله من كونها تدور على نفسها كما تدور المروحة السقفية الكهربائية على محورها. فهذا التخرص والتخيل ناشئ عن ابتغاء حكم غير الله تعالى وعن عدم الإيمان بأن كلمة الله قد تمت صدقا وعدلا. ولو كان يرى وجوب التحاكم إلى الله تعالى ويؤمن بأن كلمة الله تعالى قد تمت صدقا وعدلا لما زعم أن أقل ما يقال في النصوص الدالة على جريان الشمس وسبحها في الفلك أنها ظنية وليست قطعية الدلالة وأن التوقف فيها أو تفويض الأمر فيها أسلم وأحكم وأن في تأوليها عن ظاهرها مندوحة. وما علم المسكين ما يلزم على هذا القول الباطل من تكذيب الله تعالى وتكذيب كتابه ورسوله ﷺ) (3)

وبناء على هذا رد على اعتبار الصواف علم الفلك (من أول العلوم التي لفتت أنظار العلماء المسلمين وجلبت اهتمامهم وعنايتهم بها)(4)

وقد أجاب التويجري على هذا بقوله: (والجواب عن هذا من وجوه أحدها أن يقال لم يكن علم الفلك من أول العلوم

1() ذيل الصواعق، ص18.
2() ذيل الصواعق، ص28.
3() ذيل الصواعق، ص28.
4() المسلمون وعلم الفلك، ص30.

التي لفتت أنظار علماء المسلمين وجلبت اهتمامهم وعنايتهم كما زعمه الصواف. بل ولم يكن من آخرها. وإنما العلوم التي لفتت أنظار علماء المسلمين وجلبت اهتمامهم وعنايتهم هي العلوم الشرعية التي قد اشتمل عليها الكتاب والسنة. وأعظمها وأهمها علم التوحيد فهو الذي كان المسلمون يهتمون به ويعتنون بتعلمه وتعليمه قبل العلوم كلها، وقد مكث النبي ﷺ في أول البعثة عشر سنين يدعو إلى التوحيد ويعتني بتعليمه وتبليغه. ثم بعد ذلك كان يعلم أمته أنواع العلوم الشرعية شيئا فشيئا حتى أكمل الله له الدين. وبلغ البلاغ المبين. وترك أمته على المحجة البيضاء ليلها كنهارها لا يزيغ عنها إلا هالك ومع شدة حرصه ﷺ على تعليم أمته كل شيء فلم يُذكر عنه أنه كان يعلمهم البروج الإثني عشر ومنازل الشمس والقمر ودرجات الفلك وعرض البلدان وطولها والسمت والنظير وفصول السنة وأوقات الكسوف والخسوف وغير ذلك مما يعتني به الفلكيون فضلا عما يهذو به فلاسفة الإفرنج ومقلدوهم من ضعفاء البصيرة من المسلمين فيما يتعلق بالأرض والشمس والقمر والنجوم، بل قد ثبت عنه ﷺ أنه ذم الكلام في النجوم. فروى الإمام أحمد وأبو داود وابن ماجة بأسانيد صحيحة عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: (من اقتبس علما من النجوم اقتبس شعبة من السحر زاد ما زاد)، قال شيخ الإسلام أبو العباس ابن تيمية: (فقد صرح رسول الله ﷺ بأن علم النجوم من السحر وقال تعالى: ﴿وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَى﴾ [طه: 69]) (1)

هذه مجرد أمثلة عن موقف التويجري من علم الفلك وغيره من العلوم الحديثة، ومن خلالها نلاحظ الطريقة التي يفكر بها العقل السلفي وكيف يتعامل مع النصوص المقدسة، وهي نفسها الطريقة التي يستعملها ليثبت التجسيم أو ليفرق صف الأمة أو ليملأ حياة المسلمين بالخرافة والشعوذة.

ثانيا ـ المعارف السلفية في العلوم الكونية:

بما أنه سبق لنا في الكتب السابقة الحديثة عن الكثير من المعارف السلفية المرتبطة بالفلك والجغرافيا وغيرها من العلوم عند حديثنا عن الخرافة وتسربها للتراث العقدي والتفسيري وغيرهما، وذكرنا تأييد ابن تيمية وغيره من السلف للكثير من تلك الأساطير والخرافات..

بناء على هذا، فإننا سنقتصر هنا على علم خطير برع فيه السلفية المحدثون، ولقوا بسببه الكثير من الرعاية والاهتمام من لدن عوام الناس وخواصهم، وهو علم الطب بجميع فروعه

(1) ذيل الصواعق، ص40.

النفسية والجسدية والعصبية.. وكل ما خطـر على بـال، ومـا لم يخطر.

فالسلفي الملتزم بسنة السـلف الصـالح يمكنـه عـبر دورة قصيرة، أن يتعلم كيف يعالج جميع الأمراض، مهما اشتدت على الأطبـاء، وصـعب عليهم علاجهـا بسـبب عـدم انتهـاجهم منهج السلف الصالح الذين لم يذكروا شيئا إلا وورثوا فيه علما.

وقد كتبـوا في هـذا المجـال ثـروة عظيمـة جـدا من الكتب تسمى جميعا باسم [الرقية الشـرعية]، وهي أكـثر الكتب مبيعـا في المكتبات، ويتميز كل واحد منها بتجارب الراقي الشخصـية، والتي استطاع من خلالهـا أن يتفـوق على كـل الأطبـاء، فيعـالج الأمراض المستعصية بطريقـة سـهلة بسـيطة لا تكلـف فيهـا ولا كلفة.. اللهم إلا ذلك المبلغ الذي يقدمه المريض للـراقي نتيجـة تعبه في قراءة القرآن والمعوذات.

وهذه الكتب مملوءة بذكر التجارب الناجحة للشـفاء.. ومن كل الأمراض.. ما يخطر منهـا على البـال، ومـا لا يخطـر.. وفيهـا فوق ذلك الكثير من أوصاف الأعراض، وما يدل عليه كل عرض من أمراض، وكيـف تعـالج.. وفيهـا شـروط المعـالج، وخطـوات العلاج ونحو ذلك.

وحتى لا يشوش القارئ الكريم بالتناقضـات الكثـيرة الـتي تمتلئ بها هذه الكتب في حال عرضها جميعا، لأن كل واحد منها يشكل مدرسة طبية قائمة بذاتها، فإنا سنكتفي هنا بذكر نمـوذج واحـد منها، وهـو لكتـاب معتمـد لـدى السـلفية بعنـوان [مـدارج الوصول للعلاج بقول الله والرسول] الذي ألفه أبــو القاســم بن عمر، ونشرته شبكة الألوكة السلفية، واخترناه لكونه من أكثرها اعتدالا.. ولو شاء القارئ أن يطلع على المتطرفة منها، فسيرى العجب العجاب.

وقد ذكر الكاتب في مقدمة كتابه دوافعه من تأليفه، فقال: (إنّ ما يشهده العالم من تطـور في ميـدان الطبّ جعـل الكثـير من النّاس يظنّـون أنّهم يمكنهم الاسـتغناء عن المعـالج بالرقيـة الشرعية وأنّ دوره أصـبح غـير ضـروري، وهـذا خلـط منهم بين وظيفة الطبيب ووظيفـة المعـالج، والواقـع أن لكـل واحـد منهم اختصاصه. وتــبرز أهميّــة دور المعــالج بالرقيــة الشــرعية في التخفيف على المصابين بالأمراض الشّيطانيّة التي ليس لها في الطبّ الحـــديث دواء، فكم من أرحـــام قطعت وكم من أســـر فــرقت وبعــثرت، فهــذه الأمــراض لا يعلم كربهــا وضــنكها على المريض وأهلـه إلا اللـه سـبحانه، ومـع كـثرة أصـحاب النّفـوس المعرضة عن ذكر الله وانتشـار المنكـر وقلـة الأمـر بـالمعروف أصــبحت النّــاس في أشــدّ الحاجــة إلى المعــالجين بالرقيــة

الشرعية)[1]

وهذا الكلام وحده كاف للدلالة على أن للسلفية منظومة طبية كاملة مثل منظوماتها في الفلك وغيره تنافس بها سائر المنظومات العلمية إن لم تكن في تصور السلفية تتفوق عليها.

ذلك أن مجال الرقية ــ حسبما يذكرون في الأعراض المرتبطة بكل مرض ـ تشمل جميع أنواع الأمراض ما دق منها وما جل، وما يسر علاجه وما صعب، وسنرى الأمثلة الدالة على ذلك.

ويذكر السلفية فرقا مهما بين طبهم وطب سائر الأطباء، وهو أنهم لا ينالون فقط تلك الأموال السخية من المرضى الذين يزرونهم، وإنما ينالون بالإضافة إلى ذلك حسنات كثيرة تمكنهم من نيل الكثير من قصور في الجنة، وفي كل قصر ما لا يعلمه إلا الله من الحور العين..

يقول الكاتب مشجعا إخوانه من السلفية على العمل في هذا المجال الطبي الخطير: (إنّ عمل المعالج بالرقية الشرعية هو سبيل لكسب الحسنات وفعل الخيرات والاستكثار من الأعمال الصالحات، وذلك بدفع الضرّ عن المضرورين ونصرة المظلومين وتفريج كرب المكروبين وإدخال البهجة والفرحة لعائلات المبتلين بالأمراض الروحية، وإن المعالج بعمله هذا مجاهد في سبيل الله، يقول شيخ الإسلام ابن تيمية: (فهذا من أفضل الأعمال، وهو من أعمال الأنبياء والصالحين، فإنّه ما زال الأنبياء والصالحون يدفعون الشّياطين عن بني آدم بما أمر الله به ورسوله، كما كان المسيح يفعل ذلك، وكما كان نبينا يفعل ذلك)[2][3]

وهكذا أصبح السلفية ـ كما ينص ابن تيمية ــ مثل الرسل والأنبياء، ومثل تلاميذ المسيح عليه السلام الذين أرسلهم لإخراج الشياطين.

وبناء على هذا، فإن الرقية حق لكل سلفي حتى لو كان عاميا بسيطا لا حفظ له من العلم والثقافة ما دام صحيح الاعتقاد، ومتمسكا بحبل السلف الصالح المتين، يقول الكاتب: (إنّ تعلم الرقية الشرعية من الأمور التي على كل عبد متوكل على الله أن يتعلمها وأن يعمل بها وينفع بها نفسه وأهله، فهي غير مقتصرة على أناس دون غيرهم ولكنه علم يكتسب، يقول الشيخ عبد الله بن جبرين: (الصواب أنه يجوز استعمال الرقية من كل قارئ يحسن القرآن ويفهم معناه ويكون حسن المعتقد

1() مدارج الوصول للعلاج بقول الله والرسول، ص3.
2() مجموع الفتاوى (19/ 57)
3() مدارج الوصول للعلاج بقول الله والرسول، ص3.

صحيح العمل مستقيما في سلوكه، ولا يشترط إحاطته بـالفروع ولا دراسته للفنون العلمية)(1)

وهـو يوضـح غرضـه من الكتـاب، فيقـول: (وإنّي في هـذا الكتـاب أمهـد الطريـق للّـذين سيختصـون في العلاج بالرقيـة الشـرعية ويفتحـون أبـوابهم للنّـاس لمـدّ المسـاعدة لهم، حتّى يكـون صـاحب هـذا العمـل آمنـا من الفتن والمحظـورات الـتي يمكن أن يتفاداها لو أحاط بها علما مسبقا وأن يتدارك النقائص بحسـن الاسـتعداد والتـدبير، فيقبـل على عملـه على بصـيرة ويتجنب الانـدفاع في عمـل دون أن يـدرس مخـاطره، كالـذي يقذف نفسه في البحـر لينقـذ غـيره وهـو لم يقـف على حقيقـة إمكانياته في السباحة، أو لم يخطر بباله سبل النجاة بنفسـه إن لم يسـتطع إنقـاذ غـيره، والمقبـل على عمـل المعـالج يجب أن يعلم أنـه مقبـل على وظيفـة لابـد أن تتـوفر فيـه أغلب شـروط المترشـح المناسـب لهـذه المهمّـة من كفـاءة علميـة وعمليـة وأخلاقية لتكون أمامه أوفر الفرص للنجاح في هذه الوظيفة)(2)

وهكذا أصبحت الرقية عند السـلفية وظيفـة لا تختلـف عن سائر الوظائف، لأن الذي يعمل فيها سيتفرغ لها، وسـيفتح بابـه لـيزوره المرضى، وسـيجعل محلا خاصـا بـذلك، ويـوفر كـل الإمكانيات التي تتطلب ذلك..

ومثلما يحتاج الأطباء إلى مـؤتمرات توضـح لهم كـل جديـد في عالم الطب، حـتى يسـتفيدوا من كـل جديد، ويصـححوا كـل خطأ، فكذلك للرقاة مؤتمراتهم الخاصـة بهم، كمـا عـبر الكـاتب عنها بقوله: (إن الـدورات العلميـة في مجـال الرقيـة الشـرعية ذات نفع جليل في تنوير الأذهان وتبديد الجهل الواقع بين الناس في هـذا المجـال، إذا كـانت من أهـل الاختصـاص الثّقـات، ممّـا يساعد المرضى على فهم حالاتهم وكيفية العلاج الشرعي الذي يحبـه اللـه ويرضـاه لعبـاده والطريقـة الأمثـل للوقايـة من هـذه الأمـراض الشّـيطانيّة وللتغلب عليها، كمـا أنهـا تسـاعد أهـل المريض على مدّ المساعد لذويهم، وهي أيضـا تمهيـدا للمقبلين على عمل المعالج وإثـراء علميـا للمعـالجين، تزيـد الـذين أوتـوا العلم من أهل الخبرة علما)(3)

بعد تلك المقدمة التي وضح فيها الكاتب دوافعـه وأغراضـه وبين أهمية العمل في هذا المجال، افتتح أول عنـوان في كتابـه وهو [لمـاذا تريـد أن تكـون معالجا؟]، وقـد دعـا فيـه إلى النيـة الطيبـة والإخلاص، والعمـل لوجـه الله.. ولا بـأس أن يكـون مـع

1() مدارج الوصول للعلاج بقول الله والرسول، ص3.
2() مدارج الوصول للعلاج بقول الله والرسول، ص3.
3() مدارج الوصول للعلاج بقول الله والرسول، ص4.

ذلك الإخلاص والنية الطيبة بعض المال الذي هو حظ عاجل، لا ينقص أبدا من حظ الراقي الآجل..

يقول الكاتب: (وحظه من عمله بحسب نيته، فإن كان ينوي بعمله السمعة وحب الظهور والشهرة كان له ذلك فحسب، وإن كان يريد كسب المال والتآكل على جيوب المرضى كان له ذلك فحسب، ولكن هل هذه المكاسب تعادل ما يقدمه المعالج للمرضى وما سيلقاه من مشقة من هذا العمل، وإن أجاز العلماء أخذ الأجرة على الرقية، فلا ينبغي للمعالج أن يتخذه موردا للرزق والتكسب، ولو أن المعالج أخذ ما يقدمه إليه المريض عن طيب خاطر فلا بأس بذلك أو يكتفي بأخذ ما يغطي المصاريف اللازمة، كثمن الماء أو الزيت أو اقتناء معدات الحجامة.. ويكون محتسبا أجر جهده على الله)(1)

وما ذكره الكاتب هنا عن قلة المال في هذه الصناعة هو نوع من التواضع، وإلا فإن للرقاة ـ خاصة في سوق الخرافة والدجل الذي بناه السلفية بعقائدهم ـ من المكاسب ما يربوا على ما يكسبه الأطباء المتخصصون الذي أفنوا أعمارهم في البحث والدراسة.

لكن بما أنهم سلفية، فإن المال ـ كما ينص مشايخهم ـ حلال عليهم حتى لو كان كثيرا، بشرط أن لا يكون فيه استغلال للضعفاء والفقراء..

ولكن مع ذلك أيضا، والحق يقال، فإن مشايخ السلفية وإدراكا منهم لما يجري في الواقع من استغلال لهذه الوظيفة الخطيرة، فقد نصحوا أتباعهم بأن يقنعوا بالقليل، خاصة إن كان صاحب القليل فقيرا.. ولهذا فإن الشيخ السلفي الكبير عبدالكريم بن صالح الحميد عاتب واحدا من هؤلاء بشدة، فقال: (بلغني أن بعضهم يأخذ (خمسمائة) ريال مقابل ورقة يكتبها لا تساوي ربع ريال!.. وبعضهم قد جعل لمحله بوابا أجنبيا يأخذ ممن يريد الدخول على هذا الراقي خمسة ريالات (رسم الدخول!)، وهذا ليس أجرة الرقية، فتلك شيء آخر. وبعضهم ينفث في ماء مخلوط بزعفران، ثم يأتي برزمة أوراق فيدخل عودا في الزعفران، فيخط في كل ورقة خطوطا ليس فيها حرفا واحدا ويضع الورقة في الظرف ويبيعها وتباع له!، بل وبعضهم يأتي بورقة طويلة بطول القامة، ثم يكتب فيها بعض الآيات ويسميها [البدن]، ثم يجعل قيمتها ثمانمائة وخمسين ريالا!؛ وهذا كله من أكل أموال الناس بالباطل تحيلا بالدين بلا شرط على الشفاء)(2)

1() مدارج الوصول للعلاج بقول الله والرسول، ص5.

2() بيان الأدلة العقلية والنقلية في الفرق بين الرقية الشرعية والرقية التجارية (9،

وهكذا قال الشيخ عبد العزيز بن عبد الله آل الشيخ: (فلا مانع أن يأخذ الراقي أجرا على رقيته هذه، لا مانع منه، لكنني أنصح أولئك الذين امتهنوا الرقية أن يتقوا الله في أنفسهم، وألا يستغلوا ضعف المريض وعجزه؛ فإن المريض يتطلع إلى العلاج بكل وسيلة، وربما استعملوا أكاذيب وأشياء لا حقائق لها ليظهروا أنهم مهرة في رقيتهم، وأنهم حذاق في هذا الأمر، فليتق الله أولئك الراقون، وليراقبوا الله، وليبتعدوا عن الكذب والدجل، وليكن همهم منفعة المريض، ولا شك أن الأخذ (أخذ الأجرة) جائز لهم، ولكن لتكن هذه الأجرة بالمعقول، ولا تكن استغلالية ولا انتهازية، فليتقوا الله في أمورهم)(1)

وقال ابن جبرين: (والأولى بالقراء عدم الاشتراط، وأن تكون الرقية لنفع المسلمين وإزالة الضرر والمرض؛ فإن دفعوا له شيئا بدون اشتراط، أخذه دون أن يكون هو قصده، وإن دفعوا له شيئا أكثر مما يستحق، رد الزائد إليهم، وإن اشترط فلا يشدد في الاشتراط، بل بقدر الحاجة الضرورية)(2)

ولكن مع ذلك فإن هذه مجرد نصائح، ولا تحمل أي حكم شرعي، ويمكن للسلفي الراقي أن يتجاوزها خاصة إن جاءته الأموال والهدايا عن طيب خاطر.. وله في مشايخه السلفية الكبار أصحاب القصور الكثيرة قدوة وأسوة، فهم قد نالوا هداياهم من الأمراء.. وهو قد نالها من عامة الناس البسطاء.. فلا فرق بينهما إلا في ذلك.

بعد أن ملأ الكاتب قارئ كتابه بتلك النية الطيبة والإخلاص العظيم الذي يجمع فيه الراقي بين حظوظ الدنيا والآخرة، راح يصف له التكوين الخاص به.. وهو إن كان أقل بكثير من التكوين الذي يحتاجه الطبيب العادي، إلا أن فيه بلسما مهما هو بلسم السلف الصالح، ولذلك لن يصيب المتكون في هذا المجال أي عنت أو عياء أو جهد..

فهو تماما مثل علماء الفلك السلفيين الذين استطاعوا أن يكتشفوا جميع الكون من عرشه إلى فرشه من غير استعمال تلسكوبات ولا دراسة رياضيات ولا فيزياء ولا أي علم من العلوم التي ينقضي العمر دون آحادها.

يقول الكاتب في فصل عنونه بـ [الصفات الأنسب لشخصيّة المعالج]: (إن عمل المعالج بالرقية الشرعية يستلزم منه أن يكون سليما من أي مرض قد يعيق عمله، عضويا كان أو والروحيا أو نفسيا، إلى جانب ذلك فإنّه من الأنسب أن تتوفر

---

10).

1() صحيفة الجزيرة، العدد (10097)، فاسألوا أهل الذكر.

2() الفتاوى الذهبية في الرقى الشرعية..

فيه عدة صفات حسب الأدوار التي تقع على عاتقه، فهو أولا الداعيّة إلى الله الذي يقرب المريض من ربه ويثبت عزيمته ليواصل العلاج في طاعة الله، هو الطبيب المشفق على المرضى تارة، وتارة أخرى هو المقاتل العنيد الذي لا يستسلم لأعدائه) (1)

فهذه هي الصفات الأساسية التي يحتاجها الراقي السلفي، وأهمها أن يمارس الدعوة إلى سبيل السلف، لأن الشياطين ستعود من جديد لتتلبس بمن لم يصدق في سلفيته.. وهو يحتاج كذلك لأن يكون شجاعا، لأنه لن يحارب فيروسات ولا ميكروبات دقيقة، بل سيحارب جنا وشياطين.. ولذلك يحتاج إلى قوة نفسية عظيمة.

أما الشروط العلمية كدراسة بعض الطب، أو التعرف على وظائف الأعضاء، فكل ذلك لا حاجة له.. يقول الكاتب: (وليس من شروط الدعوة أن يكون المعالج من العلماء أو من طلبة العلم ولكنّه يكفيه أن يعلق المريض بربه، فيدعه إلى التقرب إلى الله بتقواه والاستقامة والمحافظة على الصلوات والعبادات وتلاوة القرآن وفعل الخيرات وترك المنكرات، ويدعوه إلى المواظبة على علاجه تعبدا لله، بإتباع ما أحله الله من الأمور المشروعة لرفع الداء واجتناب ما نهاه عنه من العلاجات المحرمة، وموالاة لأولياء الله من المعالجين واجتناب لأعداء الله من السحرة والمشعوذين ومعصيته لشيطانه فيما يدفعه إليه، وبمجاهدته والصبر على الأذى والرضا بالقضاء حتى يأذن الله بالنّصر والشفاء. وهذا الدور يجيده من امتلأ قلبه بحبّ الخيّر للنّاس وبتوحيد ربّ النّاس، مستعين في ذلك بحسن الخلق والتودد إلى المرضى والتلطف معهم والسؤال عن أحوالهم وإظهار الاهتمام بأمرهم وواختيار الأسلوب الصحيح للنّصح لهم والصبر على أخطائهم حتى يرتاح المريض إلى المعالج فيتقبلون منه النّصح والإرشاد) (2)

بعد هذه الأوصاف السهلة التي يمكن للراقي أن يحصل عليها بسهولة، والتي لا يحتاج فيها لأي شهادة، ولا لأي امتحانات أو تزكية، فيكفي فقط أن يوصي بعض أقاربه وأصدقائه لينشروا عنه أخبار ما حصل له من معجزات الشفاء ليبز كل أقرانه، ويستولي وحده على هذا السوق.

بعد هذا نبه الكاتب إلى بعض المحاذير الخطيرة عند التعامل مع المرضى.. فأكثر المرضى من النساء، وفيهن شابات صغيرات.. والراقي يضطر إلى أن يبقى معهن وقتا

1() مدارج الوصول للعلاج بقول الله والرسول، ص9.
2() مدارج الوصول للعلاج بقول الله والرسول، ص9.

طويلا، ويتردد على زيارتهن كل حين.. وفي ذلك كله فتنة..

لذلك ينصح الكاتب الراقي أو الطبيب السلفي بقوله: (لما كان نجاح المعالج في عمله مشروط بسلامته وسلامة المرضى من مخاطر الوقوع في الفتن والمشاكل كان لا بد من تحذيره عند التعامل معهم من بعض المسائل لعل أبرزها وأدقها تعامل المعالج مع النّساء ومع من يشكون من مشاكل صحية وأمراض مزمنة أو خطيرة)(1)

ولهذا فإن (من أهمّ التحصينات للمعالج في هذا الجانب أن يكون متزوجا.. فالزواج من أهمّ التحصينات للمعالج الذي يتعامل مع النّساء وبدونه سيكون في مرمى عدوه، فلا يدري لعله يصيب منه مقتلا فتزل قدم بعد ثبوتها، والزواج أحفظ للعبد من الصوم، ولمّا كان من طبيعة عمل المعالج أن يتعرض للفتن كان عليه أن يتحصّن بأشدّ الحصون، ويكون الصوم كافيا بإذن الله إذا تجنب المعالج التعامل مع النّساء واقتصر عمله على معالجة الرّجال فحسب)(2)

وعلى الطبيب السلفي أيضا أن يجتنب (لمس النّساء أثناء الرقية وذلك بأي حجة كانت.. كما عليه أن يحفظ بصره وسمعه عنهنّ.. فيغض المعالج بصره عنهنّ ما استطاع ذلك ويلزمهنّ بما يساعده على ذلك، وينبغي على المرأة أن تلبس السروال تحت جلبابها حتى لا تتكشف إذا صرعت وأن تغطي وجهها وأن تأتي للعلاج تافلة غير متبرجة بزينة ولا متعطرة بعطر تجنبا لأي زيغ للقلوب، وليحذر المعالج من اللواتي يخضعنّ بالقول فيأمرهنّ بالاعتدال في القول والاقتصاد فيه على ما فيه الحاجة والكفاية، ولا يدخل معهنّ في مواضيع جانبية حتى لا يفتح الباب للكلام، ولا يلين لبعضهنّ في القول حتى لا يفهم من كلامه أنّه يميّزها عن غيرها بأيّ معاملة يستغلها الشيطان لإثارة الفتنة، ولا يتفاعل مع حالات النّساء أكثر من تفاعله مع الرّجال فإنّما عمل المعالج إلا سببا في الشفاء ولكن الأمر كله لله وحده)(3)

بالإضافة إلى هذه المحاذير ينبه الكاتب هذا الطبيب الراقي الذين لا يشترط أن يكون عالما ولا طالب علم، ولا متكونا في أي علم من العلوم إلى أن يطلع على (الحالة الصحية للمريض ليتعامل معها بحذر شديد ويوفر لها العناية الخاصة، ويكون البرنامج العلاجي مناسبا لحالة المريض الصحية والأدوية التي يتعاطاها. ومن هذه الحالات المرضى بالأمراض المزمنة عامّة وأمراض القلب والسكري خاصة، والمرأة

---

(1) مدارج الوصول للعلاج بقول الله والرسول، ص10.
(2) مدارج الوصول للعلاج بقول الله والرسول، ص10.
(3) مدارج الوصول للعلاج بقول الله والرسول، ص10.

الحامل، كما يجب الانتباه إلى المرضى اللّذين يستعملون أدوية أعصاب ويباشرون العلاج مع طبيب نفسي)(1)

بالإضافة إلى ذلك ينبهه ــ وهو العامي البسيط ــ إلى أن (بعض الأعشاب التي تأذي الجانّ قد لا تتلاءم مع الحالة الصحية للمريض وكذلك الأمر بالنسبة للحجامة والرقية الجماعية، فالمريض بالقلب والمرأة الحامل مثلا يمنعون إحتياطا من تناول الأعشاب ومن الحجامة ومن الرّقية الجماعيّة، فقد يتعرضون للاعتداء من طرف بعض المرضى الذين لا يتحكمون في حركاتهم، كما أنّ الرّقية المطولة قد تثيرهم فلا يسيطرون على أنفسهم فيتضررون بكثرة التخبط أو قد يصاب جنين المرأة بالأذى والمعالج في غفلة عنهم)(2)

وهو يحذر الرقاة الذين ينصحون مرضاهم بالتوقف عن العلاج الذي يعطيه لهم غيرهم من الأطباء، فيقول: (وإذا وصف لهم الرّقية الشّرعيّة لم ينههم عن أخذ الأدوية الحسية، فمن الخطأ أن يظنّ المعالج أن الأدوية الحسيّة المباحة تبطل العلاج بالقرآن ولهذا السبب يدفع بعض المعالجين المريض بأمراض روحية إلى ترك المتابعة مع طبيبه أو التوقف عن استعمال أدويته، وهذا خطأ تقنيّ من جهة وخطأ منهجيّ من جهة ثانية. أولا لأن الأدوية المباحة لا تنقص من تأثير الرّقية على الأمراض الشيطانية، ثانيا حتى لا يتحمل المعالج تبعات ذلك على صحّة المريض، ففي بعض الأحيان يتوجه المصاب إلى طبيب نفسي قبل المعالج بالرقية الشّرعية فيصف له الدواء لأنّه شخص الحالة على أنها مرض نفسي، فبالرغم أن المعالج بالرقية الشرعية متأكد من أنّ المريض يشك من مرض شيطاني وأن الدواء الذي يأخذه قد تكون له آثر جانبيّة على صحته إلا أنّه لا يطلب منه أن يتوقف عن استعمال الأدوية ولكن يباشر علاجه بصفة عاديّة ثم بعد أن تتحسن حالته يطلب منه أن يراجع طبيبه ليوقف الدواء بالطريقة الصحيحة التي تضمن سلامته)(3)

وما ذكره هذا الكاتب ليس معتمدا بالضرورة لأن السلفية فتحوا جميع أبواب الاجتهاد لأطبائهم من الرقاة، والتي اغلقوها في سائر المجالات.. فللراقي أن يجرب كيف يشاء، يقول الكاتب: (إنّ بعض الأمراض المستعصية على الطبّ الحديث قد يكون سببها الأمراض الشيطانية وقد تمت معالجتها بفضل الله بالحجامة أو بعض الخلطات من الأعشاب أو الرقية الشّرعية، وإن اتخاذ المعالج بأسباب الشفاء لا يعني أن يستعين بها كلها

1() مدارج الوصول للعلاج بقول الله والرسول، ص11.
2() مدارج الوصول للعلاج بقول الله والرسول، ص12.
3() مدارج الوصول للعلاج بقول الله والرسول، ص12.

جملة واحـدة بـل يتخـذ منهـا مـا ينفـع المـريض وتناسـب حالتـه الصحية، فبعض الأمراض العضويّة قد تحول دون اسـتعمال دواء لعلاج أمراض أخرى، وان الشـفاء شـيء متجـزئ من الكـلّ إلى البعض، وأفضـل العلاجـات هـو الـذي يحقـق التـوازن بين أعلى نسب الشفاء من الداء وبين تحقيق أقـل نسـبة من الأضـرار أو الآثار الجانبيّة، وإنّ الاستغناء عن بعض أسباب الشفاء في بعض الحالات الخاصة لا يغير من قضاء اللـه وإنّـه أسـلم للمعـالج من المتربصين به)(1)

بعد هذه التحـذيرات عقـد المؤلـف فصـلا بعنـوان [الإعـداد النفسي والبدني للمعالج]، وقدم له بقوله تعالى: ﴿ وَأَعِـدّوا لَهُم مَا استَطَعتُم مِن قُوَّةٍ وَمِن رِباطِ الخَيـلِ تُرهِبـونَ بِـهِ عَـدُوَّ اللَّـهِ وَعَدُوَّكُم ﴾(الأنفـال 60)، وذلـك بنـاء على أن المسـألة ليسـت سهلة لأن الطبيب السلفي لن يصارع هنا الجهميـة ولا الصـوفية ولا الرافضة، وإنما سيدخل في صراع مع الشياطين نفسها.

لهذا على المعالج ـ كمـا يـذكر الكـاتب ــ (أن يتـدرب على تحصين نفسـه وأهلـه وبيتـه من أعـداءه كمـا يعـود نفسـه على تحمل الضغوط النفسية والبدنيّـة الـتي تفرضـها طبيعـة العمل.. ومن العـدّة الـتي يعـدها المعـالج ليـأمن مكـر العـدوّ والـتي من المهم أن يدرّب نفسه عليها، حتى يسهل عليه المواظبــة عليها، هي بناء الحصون المتينة التي تمنع العدو من الوصول إليه، فإن لم ينل المعالج من عدوه سلم ونجا من أذيته)(2)

ومن تلـك الحصـون المداومـة على قـراءة (سـورة البقر، فإنّها مقياس لاختيار القائد المناسب لخوض المعارك.. ولفضــل سـورة البقـرة في حفـظ المعـالج وأهلـه من العـدوّ فإنـه من الأفضل تكون في صدر المعالج قبل ممارسته للعلاج، وعليـه أن يحافظ على قراءتهـا ويـداوم على ذلـك في كـل أحواله. وبقـدر الـتزام المعـالج عليهـا يوميـا في فـترة تربصـه يسـهل عليـه المواظبة عليها بعـد ذلـك وتكـون علامـة على حسـن اسـتعداده لعمله، فهي من أقوى الحصون من كيد عدوه بإذن الله)(3)

وبذلك تحولت سـورة البقـرة من سـورة تمثـل منهج حيـاة كاملة تبنى على ضـوئها شخصـية المـؤمن الفكريـة والسـلوكية إلى حــرز وحصــن يتحصــن بــه الــراقي أو الســلفي من إذيــة الشياطين.

وهكذا تحولت الأذكار عندهم من وسائل يعرج بها المؤمن إلى الله، ويتصل بواسطتها به، إلى مجـرد وسـيلة للتحصـن من

1() مدارج الوصول للعلاج بقول الله والرسول، ص13.
2() مدارج الوصول للعلاج بقول الله والرسول، ص14.
3() مدارج الوصول للعلاج بقول الله والرسول، ص14.

إذيـة الشـياطين، يقـول الكـاتب: (ومن الحصـون المنيعـة الـتي يستتر بها المعالج من عدوّه ذكر الله عزّ في حركاتـه وسـكناته، فيحافـظ على أذكـار الصـباح والمسـاء وأذكـار النـوم واليقظـة والأذكـار عنـد المطعم والملبس والـدخول إلى الخلاء والخـروج منه)(1)

ومن الحصـون كـذلك الـتي (يمكن للمعـالج أن ينتفـع بهـا كشرب الماء المقروء عليه والاغتسـال بـه ورشـه في الـبيت أو دهنّ الجسد بالزيت المرقى)(2)

بالإضافة إلى هذه الحصون (يحتاج المعالج إلى تأهيل بدني حتى يتمكن من القراءة بصوت مسـموع وبصـورة مطولـة على المرضى، ولذلك عليه أن يدرب حنجرته على ذلك، فيقرأ بشكل يومي القرآن الكريم بصـوت مسـموع ولمـدّة طويلـة على قـدر الاستطاعة، ثمّ يطيل هذه المدّة أكثر فأكثر، حتى تتقـوى حبالـه الصوتيّة ويتحسن تنفسه)(3)

وينبه الكاتب الطبيب الراقي إلى أنه (قد يتعرض في بعض الأحيان إلى الاعتداءات من الشياطين في النّوم، فيستيقظ عدّة مرّات في اللّيلة الواحدة ولا يجد الراحة في نومه، ولقلـة النّـوم عدة تأثيرات على صحة المعالج ونفسيته، وهذا الأسـلوب تتبعـه الشـياطين مـع المصـابين أيضا، وبغض النظـر عن التحصـينات التي تمنع مثل هذه الاعتداءات بإذن الله، على المعالج أن يتهيـأ إلى مثـل هـذه الهجمـات وذلـك بـأن يتـدرب على قلـة النّـوم والاستيقاظ عدّة مـرات في الليل، حـتى إذا مـا حصـل لـه مثـل هذه الاعتداءات وجد نفسه مستعدا لها فلا تجدي معه نفعا بإذن الله، فيبدأ المعالج بالتدرب على الاسـتيقاظ من النّـوم لمـرة أو مرتين في الليلة حتى إذا تعود على ذلك زاد في عـدد المـرات، وإذا أصبح هذا التدريب سهلا زاد في فترة الاستيقاظ، فيتوضـوء ويصلي ركعتين كلما استيقظ من النّوم)(4)

بعــد هــذا يوجــه الكــاتب الرقــاة إلى [الإعــداد العلمي والمعرفي] الخاص بهم.. وهو طبعا ليس كتب الطب التي كتبهـا الكفار أو تلاميذ الكفار، فسلف السلفية قد أغنـوا مريـديهم عن غيرهم.. لذلك يكتفي الـراقي بمطالعـة مـا كتب في الرقيـا من كتب (فيـدرس الكتب الـتي تتحـدث عن الأمـراض الشـيطانيّة والرقيّـة الشـرعيّة وطـرق العلاج المشـروعة، ويتـابع الـدورات العلمية في هـذا المجـال ويأخـذ الخـبرة من المعـالجين الثّقـات

1() مدارج الوصول للعلاج بقول الله والرسول، ص14.
2() مدارج الوصول للعلاج بقول الله والرسول، ص15.
3() مدارج الوصول للعلاج بقول الله والرسول، ص16.
4() مدارج الوصول للعلاج بقول الله والرسول، ص17.

حتى يقوى عوده ويكتسب الخبرة منهم فيتهيّأ لعمله)(1)

بـل إن عليـه ألا يكتفي بـذلك، وإنمـا يضـيف إليـه إن أراد (الاختصـاص في العلاج بالرقيّـة الشـرعيّة أن يلتحـق بمراكـز التكوين في هـذا المجـال إن أمكنـه ذلك، فـإن لم يسـتطع يبـدأ بدراسـة كتب أهـل الاختصـاص في هـذا المجـال حـتى يفهم الأمراض الشيطانية أو الروحية، فيدرس المسّ والسحر والعين والحسـد ويـدرس المصـطلحات المسـتعملة في هـذا المجـال، والأعـراض الـتي تصـاحب هـذه الأمـراض وعلاماتهـا ومصـدرها وأسبابها وكيفية الوقاية منها وعلاجهـا بـالطرق الشـرعيّة، حـتى يتمكن من التميّـيز بين الأمـراض الشّـيطانيّة عن غيرهـا من الأمراض النّفسـية والعضـوية، ويمكنـه من تحديـد نـوع الإصـابة بالأمراض الروحي)(2)

وينصح الكاتب بالتحري في المطالعة حتى لا يخرج القارئ عن كتب السلف، فيقول: (وأمـام الـزّخم من المعلومـات لا بـدّ للمعـالج من مـيزان يعـدّل بـه مـا قـد يجـده في كتب أهـل الاختصاص من اجتهـادات واختلافـات، مراعيـا في ذلـك لأمـرين أساسيين، أولا من النّاحية الشرعية، على ما ورد في كتاب اللـه والسـنة النبويـة الشـريفة بتفسـير العلمـاء من الصـحابة الـذين عاشوا مع رسولنا نزول الآيات، ففهموا مقاصـد الآيـات قبـل أن يحفظوهـا ويعملـوا بها. ثانيـا من النّاحيـة الصـحيّة للمـريض وسلامته من كل المخاطر مستندا في ذلك على العلـوم الطبيّـة ونصائح الأطباء)(3)

بعـد هـذا يبـدأ الكـاتب في توضـيح كيفيـة العلاج ومراحله، والتي تبدأ بتشخيص الأمراض باعتباره (أول مراحل العلاج حيث يكون العلاج مبنيا عليه، والتشخيص الصـحيح هـو أقـرب طريـق للشفاء بإذن الله تعالى، والتشخيص هو الاسـتنتاج الـذي يخلص إليه المعالج بعد الاستقصاء عن الأعراض التي تصاحب المريض في اليقظة والنّوم ونوع المشاكل الـتي يتعـرض لها، ومن خلال هذه المعطيات يحدد المعالج نسبيّا نوع المـرض ونـوع الإصـابة)(4)

بعد ذلك التشخيص الذي لا يحتاج من المعالج السلفي إلى أي تحليل أو أشعة أو غيرها، (يميز المعالج نوعيّة المرض، فإمّـا أن يكون المرض من الأمراض الشيطانيّة أو غيرها من الأمراض الـتي تسـتوجب أخصـائي في علـوم الطبّ والصـيدلة أو الطبّ النفسي، ودور المعالج أن يرشدّ المـريض إلى التوجـه السـليم،

1() مدارج الوصول للعلاج بقول الله والرسول، ص17.
2() مدارج الوصول للعلاج بقول الله والرسول، ص17.
3() مدارج الوصول للعلاج بقول الله والرسول، ص17.
4() مدارج الوصول للعلاج بقول الله والرسول، ص17.

وتتمثل صعوبة تحديد نوعيّة المرض في أنّ الأمراض الروحية قد تسبب أمراض نفسيّة وأخرى عضويّة، فمن لا يستطيع أن يفرق بين أنواع الأمراض عليه أن لا يقوم بالتشخيص للمرضى إلا مع شيخه الذي يتابع تربصه معه)[1]

وبعد أن يميز المعالج المرض، ويتبين له (أنّ المرض من الأنواع الشيطانية، يدقق في أعراض المسّ حتى يتبين له إن كان مسّ داخليّا أو خارجيّا، فإذا تأكد من وجوده بحث في أسباب تسلطه على المريض من خلال الأعراض المصاحبة للمرض)[2]

والمشكلة أن التشخيص ليس واحدا، فقد (يكون سهلا في بعض الأحيان لوضوح الأعراض، وقد يكون صعبا لتداخل أعراض لأنواع مختلفة من الإصابات، فبعض الأعراض تظهر بنسبة متساوية لأنّهما متلازمتان، فمثلا المصاب بسحر للإضرار بالمسحور تظهر عليه أعراض الحسد ويتأثر برقية الحسد لأنّ المسحور لا يكيده إلاّ حاسد، وفي بعض الحالات قد تختفي أعراض الإصابة الأصلية وراء أعراض جانبيّة قويّة، وذلك لأنّ طول فترة الإصابة تأثر على تغير الأعراض التي تظهر على المريض، ولأنّ أعراض الإصابات الجديد تبدو أوضح من القديمة، ولذلك على المعالج أن لا يستعجل بإعلام المريض بنوع الإصابة حتى يتأكدّ من سلامة التشخيص وأصل الإصابة التي تسلط بها العارض)[3]

بعد التشخيص (يبدأ المعالج في ضبط العلاج المناسب حسب تشخيصه للأعراض، إن كان متأكدا من نوع الإصابة، وأمّا إذا تنوعت الأعراض وتعددت الاحتمالات فإنّه يبدأ في ضبط علاج لنوع الإصابة التي أعراضها قويّة وظاهرة، وإن كانت إعراض الإصابة الأصلية ضعيفة في البداية فإنّها ستقوى بعد استعمال العلاج. كما يدرج المعالج في برنامجه العلاجي الحلول لمشاكل المريض التي يعانيها في حالة اليقظة والنّوم، فمثلا إذا كان المريض مصاب بعين ويتعرض إلى الاعتداء بالفاحشة فيدرج المعالج رقيّة الفاحشة مع رقية العين في برنامجه العلاجي)[4]

والسلفية الذين حرموا قول صدق الله العظيم باعتباره بدعة، وحرموا قول: تقبل الله بعد الصلاة، لعدم فعل السلف لذلك.. وكفروا الصوفية بسبب أورادهم التي يسيرون بها إلى الله.. لا يجدون مضاضة في أن يضعوا لطرد الشياطين ما

1() مدارج الوصول للعلاج بقول الله والرسول، ص17.
2() مدارج الوصول للعلاج بقول الله والرسول، ص17.
3() مدارج الوصول للعلاج بقول الله والرسول، ص17.
4() مدارج الوصول للعلاج بقول الله والرسول، ص17.

شاءت لهم أهواؤهم من الآيات القرآنية أو الأدعية وبالأعداد التي يرغبون.. فلا بدعة في شيء من ذلك.. لأن سلفهم أباحوا لهم ذلك.

والكاتب يستدل لذلك بقوله: (وكان شيخ الإسلام ابن تيميّة يعالج الرعاف بآية في معناها إشارة إلى حبس السائل وتغيظه، فكان يكتب على جبهة المريض ﴿وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ وَيَا سَمَاءُ أَقْلِعِي وَغِيضَ الْمَاءُ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾[هود 44]) (1)

ويستنتج الكاتب من هذا الاقتباس عن ابن تيمية أنه يمكن (أن يختار المعالج الآيات الأقرب لما ينويه بقراءتها، فمثلا يستعمل الآيات الّتي فيها معنى إبطال الله للسحر، كآيات موسى وسحرة فرعون، لإبطال سحر المريض ويستعمل الآيات التي في معناها طمس العيون وإخراجها لإبطال الإصابة بالعين. وليحسن المعالج اختيار الآيات الأنسب للعلاج، عليه أن يعلم أن العارض يتأثر بالرقيّة الّتي تتضمن في كلّماتها مواضيع تهمّ العارض من عدّة أوجه، كنوع الإصابة، فمثلا إذا كانت الإصابة بالسّحر تأثر العارض بآيات الّتي يذكر فيها السّحر وآيات إبطال عمل الكفار، ويتأثّر العارض بالرّقية الّتي تتضمن الهدف من السّحر، فمثلا يتأثّر عارض سحر التفريق بالرّقية الّتي تتضمن آيات التفريق بين الأزواج وآيات الطلاق، ويتأثّر العارض بالرّقية الّتي تتضمن طريقة عمل السّحر أو مكانه، فيتأثّر عارض السّحر المدفون في المقابر بالآيات الّتي فيها ذكر المقابر والموتى. وكذلك في حالة الإصابة بالعين، يتأثّر العارض بآيات العين والتّعوذ منها، ويتأثّر بالرّقية الّتي يذكر فيها بمكان الإصابة كحفلة أو العمل، ويتأثّر بالرّقية الّتي تتضمن النّعمة الّتي أصيبت بالعين، كالمال أو الجمال أو النّجاح أو العضو الّذي تأذّى بتلك العين. كما يتأثّر العارض بالآيات الّتي يذكر فيها مكره بالمريض، فيتأثّر العارض الذي يتعرض للمريض بالفاحشة بآيات ذمّ الفاحشة، ويتأثّر العارض بآيات الظلم بصف عامّة لأنّ وجود في بدن المريض ظلم وعدوان. كما يتأثّر العارض بالرّقية الّتي تتضمن صنفه من الجنّ، فمثلا يتأثّر العارض من نوع الحيات بالآيات الّتي تذكر فيها الحيات، وتتأثر الأنواع الطائرة بالآيات الّتي تذكر فيها الطيور، ويتأثّر أيضا بالرّقية الّتي تتضمن مادة خلقته. كما يتأثّر العارض بآيات الّتي فيها ديانته، فأنّ كان يهوديا تأثر بالرّقية الّتي فيه ذكر اليهود وكذلك باقي الأديان. ومن هذا نفهم طريقة اختيار الآيات المناسبة لكلّ حالة) (2)

1() مدارج الوصول للعلاج بقول الله والرسول، ص17.

2() مدارج الوصول للعلاج بقول الله والرسول، ص17.

وهكذا استطاع السلفية أن يجدوا المحل الوحيد الذي يفعلوا فيه القرآن الكريم في الواقع.. وبهذا الدجل الخطير الذي يتلاعبون به بصحة الناس.

وهم ـ الذين حكموا ببدعية كل شيء ــ لا يتحرجون من وضع الصيغ البدعية لطرد الشياطين أو الحماية من العين، وهم يستندون في ذلك لما ذكره ابن القيم تلميذ شيخهم ابن تيمية بقوله في [فصل ذكر رقية ترد العين]: (ومن الرقى التي ترد العين ما ذكر عن أبي عبد الله الساجي أنه كان في بعض أسفاره للحج أو الغزو على ناقة فارهة، وكان في الرفقة رجل عائن، قلما نظر إلى شيء إلا أتلفه، فقيل لأبي عبد الله: احفظ ناقتك من العائن، فقال: ليس له إلى ناقتي سبيل، فأخبر العائن بقوله؛ فتحين غيبة أبي عبد الله، فجاء إلى رحله، فنظر إلى الناقة فاضطربت، وسقطت؛ فجاء أبو عبد الله فأخبر أن العائن قد عانها وهي كما ترى، فقال: دلوني عليه فدل فوقف عليه وقال: بسم الله حبس حابس، وحجر يابس، وشهاب قابس، رددت عين العائن عليه وعلى أحب الناس إليه: ﴿ فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَى مِنْ فُطُورٍ (3) ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنْقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ ﴾ [الملك: 3، 4]، فخرجت حدقتا العائن، وقامت الناقة لا بأس بها)(1)

ويتعجب السلفية كثيرا من هذه الكلمات العظيمة التي قتلت إنسانا من أجل ناقة.. لا لأنه قتلها أو سرقها وإنما لأنه أعجب بها.

بناء على هذا، سأذكر للقارئ الكريم الأمراض الكبرى التي يعالجها السلفية، والأعراض المرتبطة بها، فإن آنس في نفسه أي عرض من هذه الأعراض، فإنه يمكنهم أن يزروهم، ويصحب معه بعض المال، ويجتهد ألا يستخدم عقله معهم، حتى لا يتهموه بالزندقة، ويجتهد ألا يضحك أيضا عند علاجهم له حتى لا يتهم بالسخرية من سنة رسول الله ﷺ.

أما أول مرض، وأخطر مرض يعالجه رقاة السلفية فهو السحر، وأعراضه كما يذكرونها في كتبهم هي(2):

1. الشرود والذهول والنسيان الشديد والتخبط في الكلام.
2. عدم الاستقرار في مكان واحد وعدم الاستمرار في عمل معين.
3. الحالات الشديدة ينطلق المريض بالسِّحر على وجهه لا يدري وربما ينام في الأماكن المهجورة.

---

(1) زاد المعاد في هدي خير العباد (4/ 160)
(2) إضاءات حول الرقية الشرعية، ص15.

4. حب الصمت والوحدة وكراهية الاجتماعات.
5. الصداع الدائم وكثرة الوسواس والشكوك.
6. الأحلام المفزعة في المنام كأن يسقط من مكان مرتفع أو حيوانات متوحشة وسوداء تطارده.
7. سماع أصوات في المنام واليقظة ولا يرى الأشخاص.
8. الصرع أحياناً.
9. تظهر أعراض في النساء بعدم انتظام الدورة الشهرية وآلام في الرحم.
10. غثيان وشعور بالتقيؤ وآلام شديدة في البطن.

أما المرض الخطير الثاني الذي يعالجه السلفية في عياداتهم ومستشفياتهم المتخصصة، فهو المس الشيطاني، ومن أعراضه التي يشترك فيها الرجال والنساء(1):

1. تغير مفاجئ من حب إلى كراهية ومن الصحة إلى المرض ومن الفرح إلى الحزن.
2. سرعة الغضب والانفعال.
3. تزداد الحالة عند قراءة القرآن أو الرقيَّة عليه.
4. تصرفات غير إرادية.
5. آلام في أسفل الظهر.
6. بكاء عند سماع القرآن الكريم.
7. كثرة النوم.
8. الصداع الدائم بشرط أن لا يكون هناك مرضٌ عضوي.
9. الصدود عن طاعة الله - عز وجل -.
10. الشرود الذهني.
11. الصرع فمنه عضوي بانسداد عرق في الرأس ومنه مس شيطاني.
12. حب الوحدة والظلام.
13. محبة الهدوء وعدم الإزعاج الدائم.
14. أمراض نفسية مزمنة.
15. أمراض عضوية يعجز عنها الطب البشري.

أما أعراضه الخاصة بالنساء، فهي(2):

---
(1) إضاءات حول الرقية الشرعية، ص20.
(2) إضاءات حول الرقية الشرعية، ص20.

1. تشكو المرأة آلام شديدة في أسفل الظهر.
2. آلام والتهابات في منطقة الرحم.
3. عدم انتظام الدورة الشهرية.
4. وجود نزيف أحياناً.

أما المرض الخطير الثالث الذي يعالجه السلفية فهو العين، ومن أعراضه(1):

1. أمراض عضوية لا تستجيب للعلاج الطبي.
2. آلام في المفاصل والأرق والحبوب والتقرحات التي تظهر على الجلد.
3. النفور من البيت والمجتمع والدراسة.
4. شحوب البشرة وخاصة الوجه.
5. ضيق التنفس أحياناً.
6. التنهد والنسيان والثقل في مؤخرة الرأس.
7. الثقل في الأطراف وحرارة في البطن وبرودة في الأطراف.
8. كثرة التبول.
9. التوتر والعصبية الزائدة مع الغضب.
10. عدم الرغبة في الأكل.
11. العزلة أحياناً.
12. التجشؤ والتثاؤب المستمر.
13. نحافة البدن.
14. الشعور أحياناً بالصداع والدوار ويستمر حتى مع أخذ المسكن.
15. عدم الاستمرار في أي عمل من الأعمال.

ومن الأعراض التي تظهر على المريض بالعين أثناء الرقية، والتي من خلالها يشخص له الطبيب السلفي حالته المرضية(2):

1. كثرة التثاؤب المصحوب بالدموع.
2. التثاؤب والنعاس والرغبة في النوم.
3. الشعور بالتمدد كالذي يفعله الإنسان عندما يستيقظ من النوم.
4. حصول إغمائه قليلة.

---

(1) إضاءات حول الرقية الشرعية، ص20.
(2) إضاءات حول الرقية الشرعية، ص20.

5. الشعور بخدر عامة البدن أو في بعض أجزائه.
6. تصبب العرق من الجبين ومنطقة الظهر.
7. يجد المعيون خاصةً رغبة في البكاء أحياناً.
8. برودة في الأطراف وحرارة في البطن.
9. زيادة في نبضات القلب.
10. رمش العين بشكل سريع.

فكل من حصلت منه هذه الأفعـال أثنـاء علاج الـراقي لـه، فهو مصاب بالعين لا محالة، كما يقـرر السـلفية، فلـذلك يحتـاج من يـزورهم أن يكـون شـبع قبـل ذلـك نومـا حـتى لا يتثـاءب أمامهم، لأنه بمجرد تثاؤبه يحكمون عليه بكونـه مصـابا بـالعين.. وتبقى جلساتهم الطويلة معه على أساس هذا التشخيص.

هذه مجرد نماذج عن العبث السلفي بالدين وبصحة الناس وبـأموالهم وبالأمـة جميعـا.. وهي وحـدها كافيـة للدلالـة على ظلامية هذا المنهج، وأنه ليس سوى وسـاوس شـيطانية لعقـول فارغة.

هذا الكتاب

يتناول هذا الكتاب عرضا مـوجزا للـتراث السـلفي في أهم مجالاته من علوم القرآن والحـديث والعقيـدة والفقـه والسـيرة والتاريخ والعلوم العقلية والعلوم الكونية.

وهو يسلط مجهر النقد على ما تضمنه هـذا الـتراث من انحرافـات عن المنهج القـرآني في عـرض الحقـائق والتعامـل معها.

وهـو يوظـف للدلالـة على ذلـك الكثـير من الشـواهد والأدلة والأمثلة التي تكفي لبيان ما جره هذا التراث على الأمـة من ويلات ونكبات وتخلف وانحراف عن الدين الإلهي الأصيل.

وهـو فـوق ذلـك كلـه نصـيحة لأصـحاب هـذه المدرسـة لمراجعة تراثها وتنقيته وتطهيره من تلك المعارضات التي تضـع الحوائل الكثيرة بينها وبين الدين الأصيل الذي دل عليـه القـرآن الكريم أولا، ودلت عليه السنة المطهرة ثانيا، ودل عليـه معهمـا العقل السليم الذي لا يمكن أن يفهم الدين إلا به.